



**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإنتسامة

القبائل

حكي عن

تأليف
هولزفون

ترجمة
حسين عبد القباني
مراجعة
محمد مسعود

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

أفصح تحت طبع لبر

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الالف كتاب

(١٨٢)

تحت طبع لبر

تأليف
هولزفون

ترجمة

حسين محمد القبانى

مراجعة

محمد مسعود

نشرته

مجلس النشر والتوزيع

القاهرة سنة ١٩٥٨

هذه ترجمة لكتاب :

20,000 Leagues Below the Sea

تأليف

Jules Verne

الفهرس

صفحة	
١	الفصل الأول : الصخور العائمة
٧	الفصل الثاني : ماله ... و... وما عليه .
١٣	الفصل الثالث : كما يشاء سيدى
١٩	الفصل الرابع : قاذف الحربة
٢٦	الفصل الخامس : فى تيه المصادفات
٣٢	الفصل السادس : بأقصى سرعة
٤١	الفصل السابع : حوت من نوع مجهول
٤٨	الفصل الثامن : حركة فى قلب حركة
٥٧	الفصل التاسع : غضبة ندلاند
٦٦	الفصل العاشر : نيمو
٧٥	الفصل الحادى عشر : الغواصة نوتيلوس
٨٢	الفصل الثانى عشر : كل شىء بالكهرباء
٨٩	الفصل الثالث عشر : أرقام
٩٦	الفصل الرابع عشر : النهر الأسود
١٠٩	الفصل الخامس عشر : دعوة مكتوبة
١١٧	الفصل السادس عشر : فى قاع البحر
١٢٣	الفصل السابع عشر : غابة فى قاع المحيط
١٣٠	الفصل الثامن عشر : أربعة آلاف فرسخ فى المحيط الخادى
١٣٧	الفصل التاسع عشر : فاينكورد
١٤٤	الفصل العشرون : مضايق توريز
١٥٢	الفصل الحادى والعشرون : بضعة أيام على اليابسة

(٩)

صفحة	
١٦٦	الفصل الثاني والعشرون : صواعق انربان نيمو
١٨١	الفصل الثالث والعشرون : سجن .. وتخدير.. ونوم... ..
١٩٠	الفصل الرابع والعشرون : مملكة المرجان
٢٠٠	الفصل الخامس والعشرون : المحيط الهندي... ..
٢٠٩	الفصل السادس والعشرون : اقتراح جديد للربان نيمو
٢٢٢	الفصل السابع والعشرون : لؤلؤة تساوى عشرة ملايين
٢٣٣	الفصل الثامن والعشرون : البحر الأحمر
٢٤٧	الفصل التاسع والعشرون : النفق العربي
٢٥٨	الفصل الثلاثون : أرخبيل اليونان
٢٧٢	الفصل الحادى والثلاثون : اجتياز البحر الأبيض فى ٤٨ ساعة
٢٨٢	الفصل الثانى والثلاثون : خليج فيجوجو... ..
٢٩٤	الفصل الثالث والثلاثون : القارة المفقودة
٣٠٦	الفصل الرابع والثلاثون : منجم فى أعماق البحر
٣١٩	الفصل الخامس والثلاثون : بحر سارجاسو
٣٣٠	الفصل السادس والثلاثون : نواطيس وحيتان
٣٤٥	الفصل السابع والثلاثون : شاطئ الحليد
٣٦٠	الفصل الثامن والثلاثون : القطب الجنوبي
٣٧٦	الفصل التاسع والثلاثون : أحادثة أم حدث
٣٨٦	الفصل الأربعون : الحاجة إلى الهواء
٣٩٨	الفصل الحادى والأربعون : من رأس هورن إلى الأمازون
٤١١	الفصل الثانى والأربعون : الأخطبوطات
٤٢٥	الفصل الثالث والأربعون : تيار الخليج
	الفصل الرابع والأربعون : فيما بين خط انعرض ٢٤-٤٧ وخط
٤٣٨	الطول ١٧-١٨
٤٤٧	الفصل الخامس والأربعون : المحزرة
٤٥٩	الفصل السادس والأربعون : كلمات الربان نيمو الأخيرة
٤٦٨	الفصل السابع والأربعون : الخاتمة

مقدمة

تعد هذه الرواية من روائع القصص العلمي . وقد بلغ من إعجاب العالم بها أن إحدى كبريات الشركات السينمائية أخرجتها منذ عامين في فلم ملون عرض في مختلف الأنحاء . ولا غرابة في هذا بعد أن جمعت الرواية كل مقومات الأدب القصصي القيم . فإلى جانب عناصر التشويق التي حفلت بها ، نراها مليئة بالمعلومات العلمية المفيدة لجميع طبقات القراء .

وقد عرف جول فيرن مؤلف الرواية بأنه يتخذ من الأدب القصصي ثوباً قشياً يغلف به الآراء العلمية المعترف بها تخفيفاً لحفافها ، ويشيع فيها من عناصر التشويق ما يجعل قراءتها ثقافة ومنتعة .

وعرف هذا الكاتب الروائي كذلك بأنه كان يسبق زمانه بعشرات السنين ، شأنه في ذلك شأن الكاتب المعروف ه . ج . ويلز . وكان الاثنان يتباريان في الكتابة عن عالم (الغد) بالنسبة لعالمهما . وقد تخيل جول فيرن الكثير من الحقائق القائمة على أسس علمية ، وأثبتت الزمن صحة تخيلاته . بل يمكن القول بأنه ساهم بهذا الخيال في تحقيق كثير من المخترعات العلمية التي كانت مجرد حلم في صلور معاصريه .

إن الرواية أنموذج رائع لهذا الخيال الخصب الناضج . فقد تخيل الكاتب فيها إمكان اختراع غواصة تسير تحت سطح الماء قبل اختراع الغواصة بنحو أربعين عاماً . وأعجب من هذا أن الغواصة التي رسمها بخياله لا تكاد تفرق كثيراً ، شكلاً وتصميماً ، عن الغواصات التي تم اختراعها بعد ذلك .

وبعد أن اخترع بخياله غواصته الفريدة (نوتيلوس) ، استطاع ببراعته الأدبية أن يصور لنا شخصية قائدها وصانعها (الربان نيمو) تصويراً دقيقاً نابضاً بالحياة . إن الربان نيمو يرمز للإنسان المثقف العالم الذي لم يجد من أبناء

(ح)

عالمه فوق اليابسة غير الاضطهاد والحدود والقسوة ، فأثر أن يستغل علمه وماله في استحداث غواصة مزودة بكل أسباب الحياة تحت سطح الماء . ولا يملك القارىء إلا أن يمضى في مطالعة القصة مشوقاً مهوراً ، فهو يعيش مع الربان نيمو ، ويعطف عليه ، ويعجب به ، ويقدر ظروفه ، ويتمنى لو أتيح له أن يقضى بضعة أشهر في هذه الغواصة الرائعة ، ليرى من خلف نوافذها البلورية هذا العالم العجيب عالم البحار الذى يشمل أربعة أخماس الكرة الأرضية .

والحق أن جول فيرن يعرض لنا عالم البحار عرضاً باهراً نابضاً بالحياة ، مستنداً إلى أسس علمية صادقة ، وإلى أبحاث معترف بها سبقه إليها الكثيرون من أساتذة علوم الطبيعة والبحار .

ولا مرأى في أن القارىء ستملكه عوامل الدهشة والابتهاج وهو يرى بأعين أبطال القصة ألواناً من عجائب البحار في كل محيطات العالم ... سيشهد في كل بحر ومحيط أنواعاً وصنوفاً من الأسماك والوحوش البحرية والمحار والأصداف والقواقع وأعراق اللؤلؤ والاسفنج والثدييات البحرية واللافقريات وسيشهد أنواعاً لا حصر لها من النباتات ذات الألوان الزاهية ، ومن الشعب المرجانية والمتحجرات النباتية والعناصر المعدنية التى تزود الغواصة بكل حاجتها من الوقود .

وقد يختار الإنسان فيما يختص بالتنويه من أحداث هذه القصة الممتعة . هل يصور جولات الغواصة في مختلف بحار العالم ، أو جنوحها في مضائق توريث واستهداف رجالها لهجوم آكلى لحوم البشر ؟ هل يصف المقابر المرجانية تحت الماء ، أو النفق المائى تحت برزخ السويس ، أو غابة كريسيو في قاع المحيط ، أو خليج فيمو الزاخر بكنوز الذهب ؟ هل يسهب في تصوير الأخطبوطات اذائلة ، أو صيد اللؤلؤ في مياه جزيرة سيلان ، أو مشاهد

(ط)

قارة الاطلنيس الغارقة ، أو شاطئها الجليد الرهيب في القطب الجنوبي ، أو
المعركة الدموية الأخيرة بين الغواصة والمدرعة المجهولة الجنسية ؟
كلها في الحق فصول رائعة تنبض بالحياة ، وتقوم على أسس علمية
صحيحة ، وتبدو كأنها من صميم الواقع الذي لا أترفيه لخيال .

محمد سمور

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الأول

الصخور العائمة

في عام ١٨٦٦ أثارت ظاهرة طبيعية غريبة غامضة الاهتمام بين سكان الدول البحرية في أوروبا وأمريكا . ولم تكن هذه الآثار مقصورة على التجار والملاحين وربابنة وأصحاب السفن والضباط البحريين في جميع تلك الدول فحسب ، بل اشتد الاهتمام بالأمر في عدد كبير من الحكومات في القارتين .

وكان مثار هذا الاهتمام الشديد « شيء » هائل تكرر التقاء السفن به . كان شيئاً طويلاً مغزلي-الشكل ، مشعاً في بعض الأحيان ، وكان أكثر ضخامة وأسرع ، من الحوت .

وقد اتفقت التقارير المنوعة التي كتبت عن ذلك « الشيء » في مختلف سجلات السفن بصفة عامة على وصف كيانه ، وسرعته العجيبة ، وحيويته الغريبة التي بدا أنه متميز بها . فإذا كان وحشاً بحرياً هائلاً فقد تجاوز في ضخامته كل نوع سجلته الأسانيد حتى ذلك الحين . وقد رفض علماء مثل كاثبير ولاسييد ودي موريل ودي كاترفاج الاعتراف بوجود مثل هذا الوحش ما لم يروه بعين العلم .

وإذا نحن أخذنا بمتوسط المشاهدات التي تمت في أوقات مختلفة ، نعد استبعاد التقديرات المتواضعة التي قدرت طول ذلك الشيء بما يقرب من قدم ، والمزاعم المبالغ فيها القائلة بأن عرضه ميل وطوله ثلاثة أميال . كان لنا أن نوكد في غير مبالغة أنه يتجاوز في ضخامة جرمه كل ما يعرفه علماء الأحياء البحرية المعاصرون ، بفرض وجوده فعلاً ، لكن وجوده لم يكن محل إنكار . فلا عجب ، والإنسان بطبعه ميال إلى العجائب والغرائب ؛ إذا كانت موجة الاهتمام التي بعثها ذلك الشيء قد عمت جميع أنحاء العالم .

وفي العشرين من شهر يوليه عام ١٨٦٦ ، التقت السفينة البخارية « جافر نر هيجنسون » التابعة لشركة كلكتا وبرناك للملاحة البخارية ، بهذه الكتلة الضخمة المتحركة على بعد خمسة أميال من شاطئ استراليا الشرقى . وقد ظن ربانها الكابتن بيكر في بادئ الأمر أنه أمام سلسلة من الصخور المائية غير المعروفة ، وبينما هو يستعد لتحديد مكانها ، إذا بعمودين من الماء ينبثقان من ذلك الشيء الغامض ، ويرتفعان في الهواء بصوت كالفحيح مسافة مائة وخمسين قدماً . وإذا لم يكن في تلك الصخور فوارة ماء متقطعة الانطلاق ، فقد تحتم على السفينة جافر نر هيجنسون أن تواجه وحشاً بحرياً هائلاً - لم يعرف حتى ذلك الحين - يرسل من منخاريه عمودين من الماء المتمزج بالبخار والهواء .

ووقع حادث مماثل في الثالث والعشرين من شهر يوليو في العام نفسه للسفينة كولمبوس التابعة لشركة « وست أنديا أند باسيفيك » للملاحة البخارية ، في المحيط الهادى ، وإذن فقد وضح أن هذا الوحش البحرى العجيب يستطيع الانتقال من مكان إلى آخر بسرعة مذهلة ، إذ لم يمض إلا ثلاثة أيام بين المناسبتين ، والمسافة الفاصلة بين مكانيهما تربى على سبعائة فرسخ (١) بحرى .

وحدث بعد خمسة عشر يوماً ، وعلى مسافة ألقى فرسخ من الموضع الذى شوهد فيه ذلك الشيء لآخر مرة أن كانت السفينتان « هيلين » التابعة لشركة ناسيونال ، و « شامون » التابعة لشركة الخطوط البريدية البحرية الملكية مبحرتين في اتجاه الريح في ذلك الجانب من المحيط الاطلنطى بين أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية . وعندئذ تبادلتا إشارتهما إشارة بأنها رأت الوحش في مكان يقع بين خط العرض ١٥ : ٤٢ درجة شمالاً ، وخط ٣٥ : ٦٠ درجة غرباً ولما كانت بكل من السفينتين أصغر حجماً من ذلك

(١) الفرسخ ثلاثة أميال .

الشيء ، رغم أن طول كل منهما لا يقل عن ثلاثمائة قدم ، فقد قدر أدنى طول للوحش البحري بما يزيد على ثلاثمائة وخمسين قدماً . والمعروف أن أضخم الحيتان لا يزيد طوله عن مائة وثمانين قدماً إن وجد حوت بمثل هذا الطول .

هذه المشاهدات توالى الواحدة بعد الأخرى ، ثم أضيفت إليها مشاهدات أخرى من سطح عابرة المحيط « لابيرير » . كما شاهد ذلك الوحش البحري الغامض بحارة السفينة « أطنا » التابعة لشركة « انمان » وكذلك قدم ضباط السفينة « لانورماندى » تقريراً خطيراً . وأحضر منه ما قدمه ضباط وربان السفينة « لورد كلايد » وقد تركت هذه التقارير أثرها العميق في محيط الرأى العام . وشاعت الفكاهات والنوادر عن الوحش البحري « في الدول المعروفة بالخفة والمرح » أما في الدول الرصينة العملية كإنجلترا وأمريكا وألمانيا ، فقد استأثر هذا الموضوع بأشد الاهتمام .

وأصبح « الوحش هو « المودة » الشائعة في الأوساط الكبيرة . فهو في المقاهى والمشارب موضع الغناء وفي الصحف مثار السخرية ، وفي المسارح محور التمثيليات ، لقد أتاحت الفرصة لكل أنواع التندر والمضحكات وأخذت الصحف تعيد ما سبق نشره عن المخلوقات الخيالية ابتداء من الحوت الأبيض ، والوحش الرهيب « موي ديك » الذى يعيش في المناطق الشمالية ، إلى الأخطبوط الهائل الذى يمكن أن تلتف أذرعته حول سفينة حولتها خمسمائة طن وتهوى بها إلى قاع المحيط . كما أعيد نشر الآراء التى كانت معروفة في الأزمان القديمة ، كآراء أرسطو وأفلاطون اللذين اعترفا بوجود مثل هذه المخلوقات العجيبة ، وأقاصيص الرويجيين عن الأسقف « بنتويدان » وأقاصيص بول هيچيد ثم تقرير المستر هارنجتون الذى لم يستطع أحد أن يشك في صدق روايته عند ما أكد أنه رأى في عام ١٨٥٧ - وهو على ظهر السفينة « كاستيليون » ثعباناً بحرياً هائلاً .

ولم تلبث ألوان الجدل والمناقشات الأفلاطونية أن حوى وطيسها في

الأوساط والصحف العلمية بين المصدقين والمكذبين . وأهلب « موضوع الوحش » الأفكار في كل مكان ، فراح الصحفيون الذين ينعتون أنفسهم بأنهم من ذوى النزعة العلمية يبارون زملاءهم من أصحاب الفكاهة في كتابة المقالات الغديدة في صدد تلك المساجلات . ولم يخل هذا الجدل العنيف من اشتباكات تزلت بسببها دماء يسيرة بعد أن شردوا عن موضوع « الوحش البحرى » إلى دائرة الخلافات الشخصية العنيفة .

وبدا في الشهور الأولى من عام ١٨٦٧ أن هذا الموضوع قد توارى عن الأنظار والعقول ، ثم إذا ببعض الحقائق الغديدة تعيده إلى بساط البحث مرة أخرى . وقد تحول عندئذ من مشكلة علمية ينبغى حلها إلى خطر حقيقى جدى ينبغى اجتنابه . وفي هذه المدة أصبح للموضوع طابع آخر . فقد استحال إلى جزيرة أو صخرة هائلة ذلك عندما اصطدمت السفينة « مارفيان » التابعة لشركة مونتريال البحرية في الخامس من شهر مارس عام ١٨٦٧ في جانبها الأيمن بصخرة ليست مسجلة على الخرائط البحرية في ذلك الموضع ، وكانت تمخر العباب بسرعة ثلاث عشرة عقدة مستعينة بالرياح وبمحركات قوتها ٤٠٠ حصان . ولولا متانة هيكل السفينة لتحطمت بتأثير الصدمة ، ولغرقت بركاب تعدادهم ٢٣٧ .

وقع ذلك الحادث عند شروق الشمس . . وقد أسرع ضباط المراقبة إلى مؤخرة السفينة ، وأطلقوا إلى البحر في اهتمام بالغ . ولكنهم لم يزوا أكثر من دوامة عنيفة على بعد مائة متر تقريباً . وكأنما عصف بالأمواج موثر شديد . وبعد أن حُدِّد الموقع بدقة ، سارت السفينة في طريقها دون أن يناها عطب ظاهرى ، ولكن بقى سؤال لم يهتد أحد إلى جوابه : هل اصطدمت بصخرة تحت سطح المرء أم بحظام سفينة ضخمة ؟ ولما فحص قاع السفينة أثناء إصلاحها أسفر عن وجود كسر في قاعدتها .

وكان من الممكن أن ننسى هذه الحقيقة رغم خطورتها الشديدة . مثل كثير غيرها لولا أن الحادث تكرر مرة أخرى بعد ثلاثة أسابيع ، وفي

ظروف مماثلة مع فارق واحد هو أن جنسية السفينة التي وقعت ضحية الصدمة هذه المرة وشهرة الشركة التي تمتلكها ، أثارا أشد التعليقات في أعقاب الحادث .

في اليوم الثالث عشر من شهر إبريل عام ١٨٦٧ كانت السفينة سكوتيا التابعة لشركة كونراد تمضي في طريقها بسرعة ثلاث عشرة عقدة في الساعة مدفوعة بمحركات قوتها ألف حصان ، في بحر هادئ ورياح رخاء . وبينما كان الركاب مجتمعين بقاعة الطعام الكبرى في الساعة الرابعة وسبع عشرة دقيقة بعد الظهر ، أحسوا جميعاً بصدمة خفيفة في جانب السفينة الأيمن ، في القسم المجاور للرفاص .

إن السفينة لم تصدم شيئاً ، ولكن صدمتها شيء حاد نافذ أو هو بالأحرى ليس بسطح مستعرض . وكانت الصدمة خفيفة بحيث لم يقلق بنسبها أحد لولا أن البحار المراقب اندفع إلى ظهر السفينة هاتفاً « السفينة تغرق السفينة تغرق »

وأسرع الربان أندرسون فهبط إلى عنبر السفينة حيث رأى ثغرة في قسمها الخامس ومياه البحر تتدفق ومن حسن الحظ أن ذلك القسم لم تكن به غلايات وإلا لانطفأت النار فوراً . وسرعان ما أصدر الربان أمره بوقف المحركات ، وغاص أحد الملاحين لتقدير مدى العطب . وبعد بضع دقائق كان القوم قد تحققوا أنه حدثت في قاع السفينة فجوة كبيرة يبلغ محيطها نحو مترين . ولم يكن من الميسور سد هذه الفجوة ، فاضطرت السفينة إلى متابعة رحلتها ورفاصها نصف غارق في الماء .

وكانت عندئذ على مسافة ثلاثمائة ميل من رأس كليز ، وبعد تأخير ثلاثة أيام وصلت إلى أرصفة الشركة في ليفربول بعد أن أثار هذا التأخير قلقاً شديداً عليها .

وشرع المهندسون عندئذ في فحصها بعد وضعها في الحوض الجاف فكادوا ألا يصدقوا أعينهم حين رأوا فجوة ذات شكل مثلث متساوي الضلعين

تحت علامة الماء بقدر ياردتين ونصف ياردة . وكانت القطعة التي انتزعت من الألواح الحديدية محددة الجوانب بحيث لا يمكن أن يكون السبب في انتزاعها مجرد صدمة عشواء . وكذلك تبين أن الأدلة التي سببت الفجوة ذات طابع غير عادى . ذلك أنها بعد أن نفذت بقوة هائلة في ألواح من الحديد سمكها ثلاثة أثمان البوصة ، عادت وارتدت بطريقة عجيبة .

تلك هي الحقيقة الأخيرة التي بعثت الموضوع مرة أخرى أمام الرأي العام . ومنذ ذلك الحين «الوحش البحرى» هو المشول عن جميع الكوارث البحرية التي لا يعرف لها تفسير معقول .

وعلى عاتق هذا «الوحش الخيالى» ألفت شركة لويد البحرية التبعة في كافة حوادث غرق السفن . وقد نتج عن هذا أن ازدادت المواصلات البحرية صعوبة بين القارتين . وأخذ الرأي العام يشتد في المطالبة بتطهير البحار من هذا «الوحش البحرى الهائل» بأى ثمن .

الفصل الثاني

« ماله... و... ما عليه... »

في الفترة التي وقعت فيها هذه الأحداث ، كنت عائداً من بعثة علمية في إقليم نبراسكا . وكانت الحكومة الفرنسية قد ألحقتني بهذه البعثة بصفتي أستاذاً مساعداً بمتحف التاريخ الطبيعي بباريس . ووصلت إلى نيويورك في نهاية شهر مارس محملاً بمجموعات ثمينة ظفرت بها خلال الشهور الستة التي أمضيتها في نبراسكا . وكان موعد رحيلي إلى فرنسا قد حُدد في أوائل مايو . وبينما كنت أشغل نفسي أثناء فترة الانتظار بتصنيف وترتيب كنوزي المعدنية والنباتية والحيوانية ، وقع حادث السفينة سكوتيا .

وكنت على علم تام بالموضوع الذي يشغل أذهان الرأي العام وقتذاك . وهو أمر طبيعي . وقد قرأت الكثير من الصحف الأمريكية والأوروبية مراراً دون أن أفوز بطائل . لقد حيرني هذا اللغز ، ومن ثم ترددت في الوصول إلى نتيجة ما .

كان الموضوع يشغل الأذهان عند وصولي إلى نيويورك . وكانت نظرية الجزيرة أو الصخور العائمة التي أيدها بعض الناس دون تفكير منطقي قد لقيت إعراضاً تاماً . لأنه إذا لم يكن في باطن هذه الصخور آلة محرّكة ، فكيف تغير مكانها بمثل هذه السرعة المذهلة ؟ ولهذا الاعتبار أيضاً لم يؤخذ بنظرية هيكل سفينة عائم أو حطام ضخمة غارق .

وإذن فلم يبق إلا تفسيران محتملان لهذا اللغز . كان لكل منهما أنصاره . التفسير الأول أن هذا « الشيء » وحش بحري هائل ، والثاني أنه غواصة ذات قوة محرّكة ضخمة . وهذه النظرية الثانية لم تستطع الصمود - رغم احتمالها - أمام التحريات الدقيقة التي أجريت في القارتين . فإن امتلاك فرد

من الناس لمثل هذه الآلة لم يكن من الأمور الممكنة . وإلا فأين ومتى تم صنعها ؟ وكيف استطاع أن يحتفظ بسر تركيبها ؟ أما الحكومة فتستطيع حقاً أن تمتلك مثل هذه الآلة المدمرة . كما كان يمكن في ذلك الوقت العصيب الذي تضاعفت فيه قوة الأسلحة الحربية أن تمتلك إحدى الدول هذا السلاح الرهيب دون علم الدول الأخرى . فبعد قنابل المدافع جاءت الطوربيدات ، وبعد هذه جاءت قذائف الغواصات ، وبعدها الأسلحة المضادة لها أو هذا على الأقل ما أرجو .

ولكن نظرية « السلاح الحربي » لم تلبث أن تهاوت أمام تصريحات مختلف الدول التي نفت امتلاكها لمثل هذا السلاح ، ولما كانت مصالح الناس قد تأثرت إلى حد كبير بسبب صعوبة المواصلات بين القارات ، فإن أحداً لم يشك في صدق هذه التصريحات الرسمية . وفضلاً عن ذلك فإن الاحتفاظ بالسرية أشد تعذراً على الحكومات منه بسر سلاح على الأفراد . ومن ثم فإن نظرية « الغواصة » قد استبعدت نهائياً بعد التحريات التي أجريت في إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا وأسبانيا وإيطاليا وأمريكا ، وحتى تركيا . وقد شرفني الكثيرون باستطلاع رأيي في هذا الموضوع عقب وصولي إلى نيويورك . ونشرت صحيفة النيويورك هيرالد أنها « سألت العالم المحترم « بيير أروناكس » . الأستاذ بمتحف التاريخ الطبيعي بباريس عن رأيه في هذا الموضوع . . » وفيما يلي بعض فقرات من المقالة التي نشرتها في اليوم الثلاثين من شهر إبريل :

« في استطاعتي أن أقرر بعد استعراض مختلف الآراء والنظريات واحدة واحدة ، وبعد الإلمام بجميع الاحتمالات التي استبعدت ، أن احتمال وجود وحش بحري هائل القوة ، أمر لا بد من التسليم به .

إن أبعاد أعماق المحيطات لا تزال خافية علينا . . فإذا يحدث في تلك الأعماق ؟ أية مخلوقات يمكن أن تعيش في أعماق تبعد اثني عشر أو خمسة عشر ميلاً تحت سطح الماء ؟ إننا لا نكاد نستطيع أن ندرك التكوين الذي

تألف منه تلك المخلوقات وأيا كان الأمر فإن تفسير هذه المشكلة المعروضة علىّ قد يتصل بكيان هذه الظاهرة الرهيبة . فنحن إما أن نكون على علم بجميع المخلوقات المختلفة التي تعمر كوكبنا ، أو أننا نجهد أمرها . فإذا لم نكن نعرفها جميعاً ، وإذا كان الكثير من الأحياء المائية لا يزال سرّاً غامضاً بالنسبة لنا ، فالمعقول أن نسلم بوجود أسماك أو وحوش بحرية تهيئها طبيعتها للحياة في الأعماق التي نعجز عن الوصول إليها ، وإنما تصعد لسبب ما إلى سطح البحر بين حين وآخر .

أما إذا كان الأمر بالعكس ، أي أننا نعرف كل أنواع المخلوقات الحية ، فينبغي بطبيعة الحال أن نبحث عن الوحش الذي يشغلنا هكذا بين الحيوانات البحرية المصنفة ، وفي هذه الحالة ، أميل إلى الاعتقاد بوجود كركدن بحري هائل « حوت بقرن كبير » إن « الكركدن » البحري العادي يبلغ طوله غالباً ستين قدماً . فإذا نحن ضاعفنا هذا الطول خمس أو عشر مرات ، وجعلنا له من القوة ما يتناسب مع هذه الضخامة ، وتصورت أن زعانفه الضاربة تتضاعف بنفس النسبة لوجدنا الوحش المنشود . إن حيواناً كهذا سيطابق الحجم الذي حدثنا به ضباط السفينة « شانون » وسنجده مزوداً بالأداة التي اخترقت السفينة سكوتيا ، وبالقوة اللازمة لشق هيكل باخرة والواقع أن (الكركدن) البحري مسلح بما يشبه السيف العاجي أو الحربة كما يسميها بعض أساتذة العلوم الطبيعية وهي الناب الرئيسي في فمه ، ولها صلابة الفولاذ . وقد وجدت بعض هذه الأنياب مطمورة داخل أجسام الحيتان التي ينجح (الكركدن) دائماً في القضاء عليها ، ومنها ما كان ينتزع بصعوبة من قيعان السفن التي تعرضت لهجوم هذه الوحوش . وفي متحف كلية الطب بباريس ناب من هذا النوع طوله نحو مترين ، ومحيطه عند القاعدة خمس عشرة بوصة .

ولنفرض الآن أن هذا السلاح أقوى عشر مرات ، وقد زود به مخلوق أقوى من الكركدن العادي بهذا القدر أيضاً ، وأنه اندفع بسرعة عشرين

ميلا في الساعة . وهنا تقع إذن صدمة قد تؤدي إلى الكارثة المتوقعة . ولهذا فإني سأفترض - حتى أظفر بمعلومات أوفى - أن ذلك الوحش المجهول هو كركدن هائل الجسم - مسلح لا بأنياب أو حربة . ولكن بحراشيف تكسوه كالدرع الحديدية لها في نفس الوقت قوة محرّكة ذاتية . وعلى هذه الصورة يمكن تفسير هذه الظاهرة المحيرة اللهم إلا إذا وجد شيء يفوق كل ما سمع الناس به أو شاهدوه أو تصوره خيال متخيل أو صادفه إنسان ؟ وهو في نطاق الاحتملات .

لقد تركت مقالتي أثراً طيباً في النفوس وأثارت شتى الجدالات بين الناس ، وظفرت بفريق من المؤيدين ، فقد أتاح التفسير الذي قدمته حرية التحليق في أجواء الخيال ، ذلك أن العقل البشري يحب هذه الأخيصة الرائعة عن وجود مخلوقات خارقة للطبيعة . والواقع أن مياه البحار هي خير مجال لهذه التصورات ، وهي البيئة التي يمكن أن تعيش وتنمو فيها أحياء تعتبر الوحوش البرية كالفيلة والحراشيف أقزاماً بالقياس لها . إن هذه المساحات المائية الشاسعة تضم بين جوانبها أضخم الحيوانات الثديية المعروفة ، ولعلها تشمل أيضاً على حيوانات غير فقرية ذات أحجام هائلة وعلى كائنات بحرية يروع تصورها ، مثل (الكابوريا) التي قد تزن مائتي طن أو الجنبري الذي يجاوز طوله مائة ياردة . وكيف لا يحتمل شيء كهذا؟ ألم توجد من قبل حيوانات برية معاصرة للأجيال البيولوجية كالزواحف والطيور وحيوانات رباعية الأيدي والأرجل ، خلقت جميعاً في أحجام هائلة ؟ لقد خلقها الله في تلك الأحجام الهائلة ثم لم تلبث أن أخذت تصغر على مر العصور . فلماذا لا يكون في أعماق البحار المجهولة أنواع من الأحياء الجبارة بقيت على أحجامها الأصلية ؟ إن البحار لا تتعرض للتغيرات كما تتعرض اليابسة ، فلماذا لا تخفي في أعماقها الأنواع الأخيرة من هذه المخلوقات الهائلة التي تعتبر السنوات من أعمارها قروناً ، والقرون آلافاً من السنين ؟ ولكنني تركت نفسي تستسلم لأحلام لم تعد كذلك في نظري . فلا أدع

الأحلام والأوهام بعد أن أحالها الزمن إلى حقائق مروعة . وأعود فأقول إن الرأي قد استقر على طبيعة هذه الظاهرة ، وأن الناس قد سلموا دون جدال بوجود حيوان بحرى هائل لا يمت بصلة إلى الأفاعى البحرية الأسطورية .

ولكن إذا كان بعض الناس قد رأوا في هذا الأمر مجرد مشكلة علمية تتطلب الحل فإن آخرين ممن كانوا أكثر واقعية - لاسيما في أمريكا وإنجلترا- قد فكروا في تطهير المحيط من هذا الوحش الهائل تأميناً للمواصلات البحرية

وبعد أن أصدر الرأي العام قراره على هذه الصورة ، كانت الولايات المتحدة أول من نزل إلى ميدان العمل ، فاتخذت الترتيبات في نيويورك لإعداد بعثة عاجلة تتولى مطاردة هذا « الكركدن » البحرى ووضع تحت إمرة البعثة فرقاطة ذات سرعة كبيرة تسمى إبراهيم لنكولن عهد بقيادتها إلى الربان فارجوت الذى بادر إلى تزويدها بالمهمات والأسلحة .

ولكن حدث ما يحدث عادة في مثل هذا المقام ، فنذ أن تقررت مطاردة الوحش ، مضى شهران لم يسمع فى خلالها شىء عنه . وكأنى به قد فطن إلى المؤامرة التى تحاك للإيقاع به . فقد كثر الحديث عنه حتى عبر أسلاك المحيط التى تربط بين القارتين وزعم بعض الظرفاء أن صاحبنا الماكر قد صادر إحدى البرقيات أثناء إرسالها ، وإذنه الآن يستغل هذه المعلومات لصالحه .

وهكذا لم يعرف المسئولون من أين تبدأ المطاردة بعد إعداد الفرقاطة لمعركة طويلة الأمد وبعد تزويدها بأقوى معدات الصيد ، وأدى التأخير إلى زيادة الضيق ولفساد الصبر حتى حل اليوم الثانى من شهر يولية ، إذ ورد تقرير يقول إن إحدى السفن التجارية التابعة لشركة سان فرانسيسكو ، والعاملة على الخط الملاحى بين كاليفورنيا وشنغهاى ، قد التقت بالوحش منذ ثلاثة أسابيع فى شمال المحيط الهادى .

وكان لهذا النبأ تأثير بالغ ، فلم يمنح الربان فارجوت أكثر من مهلة

أربعة وعشرين ساعة للرحيل . وكانت الفرقاطة معدة تماماً بالمؤن والوقود ، وكان ملاحوها على أتم أهبة ، ولم يبق لها إلا إيقاد النار في الأفران :
وقبل إبحار إبراهيم لنكولن من ميناء بروكلين بثلاث ساعات تلقيت
الرسالة التالية :

« سيدى - إذا كنت تود الانضمام إلى بعثة الفرقاطة إبراهيم لنكولن ،
فإن حكومة الولايات المتحدة يسرها كل السرور أن ترى فرنسا ممثلة
بشخصك في هذه البعثة ، وسيفرد لك الربان فارجوت مقصورة خاصة »
المخلص

ج . ب . هوبسون . وزير البحرية

الفصل الثالث

« كما يشاء ميدي »

لم يكن يدور بخليتي قط قبل وصول رسالة المستر ج . ب هوبسون بثلاث ثوان أني سأقوم بمطاردة ذلك الكركدن البحري ، وبعد ثلاث ثوان من قراءة الرسالة ، استقر رأبي على أن يكون شغلي الشاغل وهدفي الرئيسي في الحياة هو السعي إلى تخليص العالم من هذا الوحش .

ولكنني كنت حديث العهد بالعودة من رحلة مضية ، وكنت متلهفاً للراحة في « جنة نباتاتي » بين مجموعاتي العزيزة النادرة . بيد أني لم ألبث أن نسيت التعب ، والرغبة في الراحة ، والمجموعات العزيزة . وقبلت العرض الذي قدمته إلى الحكومة الأمريكية دون مزيد من التفكير .

وقد قلت لنفسي : « وفوق هذا فإن جميع الطرق البحرية تؤدي إلى أوربا » وقد يكون الكركدن ظريفاً معي فيستدرجنني إلى الشواطئ الفرنسية ومن المحتمل أن يسمح لنا بصيده قريباً من البحار الأوربية إكراماً لي . وعندئذ لن أقبل أقل من نصف ياردة من نابه العاجي لمتحف التاريخ الطبيعي بباريس »

ولكن الكركدن كان في الوقت الراهن موجوداً في شمال المحيط الهادي ، وهي منطقة أبعد ما تكون عن طريق العودة إلى فرنسا .

ولم ألبث أن ناديت خادمي في شيء من نفاذ الصبر :

— كونساييل . . . كونساييل !

وكان كونساييل الهولندي شاباً وفاقاً ، شجاعاً صحنياً في كافة رحلاتي حتى غدوت شديد الثقة به . وكان بطبيعته قوى الأعصاب ، محباً للنظام كبداً . متفانياً في أداء واجبه بحكم العادة ، لا ينم وجهه إلا عن أقل الدهشة

أمام مختلف مفاجآت الحياة ، بارعاً في القيام بأعماله سباقاً إلى إنجاز ما يناط به ، ولكنه رغم اسمه الذي يفيد معنى النصح ، كان ضئيلاً بنصحه على كل إنسان .

وقد نجح كونساييل في الإلمام ببعض المعارف بحكم اتصاله بمحيط العلماء في « جنة النباتات » فهو إخصائي قدير في تصنيف مواد التاريخ الطبيعي ، ولكن علمه كان يقف عند هذا الحد . فلست أظن أنه كان يعرف الفرق بين الحوت والقرش ورغم هذا فإنه كان شاباً باسلاً .

لقد تبغى كونساييل خلال الأعوام العشرة الأخيرة إلى حيثما كان يدعو داعي العلم ، ولم يحدث أن شكاً من طول الرحلة أو مشقتها ، أو من إعداده لحقائب السفر سواء إلى الريف أو إلى أقصى مكان كالصين أو الكونغو . كان يمضى معي إلى كل مكان دون سؤال . وكانت صحته بمنعة من كافة الأمراض ، وكان قوى العضلات ، ولكن قواه المفكرة كانت في حكم العدم . وكان في الثلاثين من عمره بينما كنت في الأربعين

ولم يكن يعيب كونساييل إلا تقيصة واجدة هي تمسكه الشديد بالرسميات ولا أذكر أنه حدثني مرة إلا بضمير الغائب مما كان يثير أعصابي أحياناً . وعدت أناديه وأنا أبدأ استعداداتي للرحيل بانفعال متزايد :

— كونساييل ! . . .

وكنت في الواقع شديد الاطمئنان إلى هذا التابع الوفي فقد درجت على ألا أسأل إذا كانت ظروفه تسمح بمصاحبتة لي في أسفاري . ولكن الرحلة هذه المرة قد تكون طويلة محفوفة بالمخاطر وهي تقوم على مطاردة وحش قادر على إغراق سفينة وكأنها قشرة بندقة . ومثل هذه الرحلة تحتاج إلى تفكير حتى من أشد الناس استخفافاً . ترى ماذا يكون رأى كونساييل إذن ؟

وللمرة الثالثة ناديت به :

— كونساييل !

فأقبل كونساييل يقول :

- هل يناديني سيدي ؟
- نعم يابني . . أعد الحقايب لسفرنا معاً في خلال ساعتين .
- فرد كونساييل بهدوء :
- كما يشاء سيدي .
- لن نضيع دقيقة واحدة . جهز كل أدوات الرحلة ، ولا تنسى أن تجمع من المعاطف والقمصان والحوارب أكبر عدد . أسرع .
- ومجموعات سيدي ؟
- سنتدبر أمرها فيما بعد .
- ماذا ؟ ألا نأخذ معنا هذه المجموعات النادرة من الحفريات والمتحجرات والنباتات وغيرها ؟
- سنبقيا في الفندق . .
- والبايروزا الحية ؟
- ستتولى إدارة الفندق إطعامها في غيبتنا ؛ وفضلا عن ذلك سأصدر التعليقات بنقل مجموعات الأحياء إلى فرنسا .
- فقال كونساييل :
- إننا لن نعود إلى باريس إذن ؟
- فأجبت بلهجة لولبية :
- بل سنعود حتماً . ولكن بطريق دائري .
- الطريق الذي يختاره سيدي .
- أوه . إنه ليس طريقاً مستقيماً حقاً . سنبحر في السفينة ابراهام لنكولن ؟
- كما يروق لسيدي . .
- أنت تعرف مسألة الوحش يا كونساييل : الكركدن المشهور . إننا سنخلص البحار منه . إنها مهمة جلييلة ولكنها – محفوفة بالخطر أيضاً . فنحن لا نعرف إلى أين نذهب . إن هذه الحيوانات شديدة المراوغة . ولكننا ذاهبون على كل حال . ومعنا ربان يقظ مفتوح العينين .
- فقال كونساييل :

– كما يفعل سيدي سأفعل .

– ولكن عليك أن تفكر . فإني لن أخفي عنك شيئاً . رحلة من نوع
لا يعود الناس منه دائماً .
– كما يشاء سيدي .

وبعد ربع ساعة كانت حقائبنا معدة . لقد حزمها كونساييل بيد بارعة
مدربة ، وكنت واثقاً أنه لم ينس شيئاً ، لأنه كان يصنف القمصان والملابس
كما يصنف الطيور والثدييات .

وهبط بنا مصعد الفندق إلى البهو الكبير في الطابق الأول ، ثم نزلت بضع
للمدرجات المؤدية إلى الطابق الأرضي حيث سويت حسابي في مكتب الصراف
المزدحم دائماً ، وطلبت أن تنقل إلى باريس خزائني المشتملة على الحيوانات
المحنطة ، والنباتات المحففة ، وبعد أن فتحت حساباً جارياً لنفقات إطعام
البابيروزا قصدت إلى المركبة يتبعني كونساييل .

ونقل متاعنا فوراً إلى السفينة ونحن في أثره وسألنا عن الربان فارجوت ،
فقادني أحد البحارة إلى مؤخرة السفينة حيث وجدتني أمام ضابط لطيف
يسط يده إلى مصافحاً وهو يقول :

– السيد بيير أروناكس ؟

– نعم . وهل أنت الربان فارجوت ؟

– نعم مرحباً بك يا أستاذ . إن مقصورتك معدة لاستقبالك .

فأحنيت رأسي له ثم تركته لمباشرة واجباته ، وهبطت إلى المقصورة
التي أعدت لي .

لقد أحسن اختيار الفرقاطة إبراهيم لنكولن وأعدت لمهمتها الجديدة
إعداداً طيباً : كانت سفينة حربية كبيرة السرعة مزودة بأجهزة حرارية
عالية تسمح للبخار المضغوط بالعمل مدى سبع درجات وبهذه القوة يمكنها
الانطلاق بسرعة ثمانية عشر ميلاً وثلاثة أعشار الميل في الساعة . ولكنها ، مع
هذا كله ، لم تكن كفتناً لمطاردة الريحش الخائل .

وكانت الاستعدادات الداخلية في السفينة تضاهي أهميتها البحرية .
وقد سرتني المقصورة المعدة لي ، إذ كانت في القسم الخلفي حيث تقع غرفة
الحراسة .

وقلت لكونسایل :

— سوف تشعر بالراحة هنا .

— نعم سنشعر فيها بنفس الراحة التي يشعر بها القوم الناسك داخل
صدفته !

وتركت كونسایل يفرغ حقائب السفر ، وصعدت إلى سطح السفينة
لأرى الاستعدادات الدائرة للرحيل ، وكان الربان فارجوت يصدر أوامره
في تلك اللحظة برفع مراسيها . إذن فلو أنني تأخرت ربع ساعة لأبحرت
السفينة بدوني ، ولأفلتت مني هذه الرحلة العجيبة الحارقة التي ليس لها
مثيل والتي قد يستقبل الرأي العام أنباءها متشككاً .

ولكن الربان فارجوت لم يكن راغباً في أن يضيع يوم أو ساعة قبل أن
يجوب البحار التي شوهد فيها الوحش آخر مرة . فقد استدعى المهندس
وقال له

— هل بلغ البخار أقصى درجة ؟

— نعم ياسيدى .

فهتف قائلاً :

— لتتحرك السفينة إذن .

وسرعان ما بدأت السفينة تهادي بين مئآت الزوارق والمراكب المكتظة
بالمترجين ، ثم مرت في مسيرها برصيف بروكلين حيث احتشدت عليه
وعلى امتداد ذلك الجانب من نيويورك المطل على نهر إيست ، جموع غفيرة
من المترجين الذين راحوا يلوحون بآلاف المناديل تحية للسفينة حتى بلغت
خليج هدسون عند طرف امتداد شبه الجزيرة الذي تتكون منه مدينة
نيويورك .

ومضت السفينة بعد ذلك محاذية لشاطئ نيوجرسي وعلى الضفة اليمنى للنهر الحميل حيث تكثر البيوت الخلوية . ومرت في طريقها بقلعتين حينها كل منهما باطلاق مدافعهما الضخمة ، فردت إبراهيم لنكولن التحية برفع العلم الأمريكى ثلاث مرات . وكانت نجومه التسع والثلاثون تتألق في بهاء من قمة السارية المرتفعة . وعادت السفينة فخفت من سرعتها أثناء اجتيازها للقناة الضيقة التي تحف بها العوامات ، وأخيراً مضت أمام الشاطئ الرملي الطويل حيث وقف عدة آلاف من المتفرجين يحيونها مرة أخرى . وظلت الزوارق المتقاطرة خلفها تتبعها حتى بلغت المنارة العائمة التي كان الفرعان الضوئيان المنبعثان منها يحددان مدخل قناة نيويورك . ودقت الساعة إذ ذاك الثالثة بعد الظهر ، وهبط المرشد البحري من السفينة إلى الزورق الذي كان ينتظره عن كثب . وازدادت نيران السفينة قوة وطفق رفاصها يضرب الأمواج بسرعة متزايدة وأخذت تسير محاذية لشاطئ جزيرة (لونج إيلاند) الرملي الخفيض . ولما كانت الساعة الثامنة وقد اختفت عن الأنظار أضواء جزيرة « فاير إيلاند » في الشمال الغربي ، اندفعت السفينة بأقصى سرعتها تستقبل مياه المحيط الأطلنطي المظلمة .

الفصل الرابع

قاذف الحربة

كان الربان فارجوت ملاحاً بارعاً جديراً بالسفينة التي يتولى قيادتها . وكان التجاوب بينه وبينها رائعاً حتى لكأنهما شخص واحد . كان روحها وقلبا النابض . ولم يكن يخامرهُ شك في وجود الوحش البحري ، ومن ثم لم يكن يسمح لأحد في السفينة بالمجادلة في ذلك . كان يؤمن به إيمان البسطاء بأساطير التنين . إيماناً يرتكز على العقيدة لا النظر . إن الوحش موجود . وهو قد أقسم أن يخلص البحار منه فيما أن يقتل الربان فارجوت هذا الكركدن البحري أو يقتل الوحش الربان فارجوت ... ولا وسط بين الاثنين .

وكان ضباط السفينة يشاطرون رئيسهم رأيه . وكان من الطريف أن نسمع أحاديثهم ومناقشاتهم واختلافهم وتقديرهم لمختلف الفرص التي قد تتاح لهم للملاقاة هذا الوحش ، كل هذا وهم يرقبون بعين ساهرة مياه المحيط المنبسطة الشاسعة . وإذا كان أكثر الضباط في الرحلات العادية يضيّقون عادة بمهمة المراقبة ، فقد اختلف الحال في هذه الرحلة ، إلى حد أن البحارة كانوا يتزاحمون عند غروب الشمس حول الحبال المرفوعة وهم لا يطيقون البقاء على سطح السفينة . ولم تكن السفينة قد أخذت تشق طريقها بعد في المياه المشتبه فيها في المحيط الهادى .

والواقع أن البحارة ، ما كانوا يشتهون شيئاً كملاقاة الكركدن البحري وصيدِه بحراب الحيتان وجره إلى السفينة ، وتقطيعه إرباً . وكان الربان فارجوت قد رصد جائزة قدرها ألفادولار لأول بحار أو ضابط يشاهد الوحش البحري . وقد ذكرت فيما سبق أن الربان فارجوت زود السفينة بكل ما تحتاجه من معدات لصيد الوحش البحري الهائل . ولا أظن أنه كان

يمكن أن تجهز سفينة لصيد الحيتان بأحسن مما جهزت به إبراهيم لنكولن فقد كان لدينا كل ما هو معروف من أدوات صيد هذه الوحوش ابتداء من الحربة اليدوية إلى السهام الشائكة التي تنطلق من بندق صغيرة إلى القذائف المتفجرة من مدفع السفينة .

وكان في مقدمة السفينة مدفع ساحلي متين سهميك القاعدة ضيق الفوهة ، وقد شاهدت نموذجاً منه في معرض باريس عام ١٨٦٧ . وكان في مقدور هذا السلاح القيم - الأمريكي الصنع - أن يطلق بسهولة قذيفة مخروطية الشكل زنتها تسعة أرطال إلى مسافة لا تقل عن عشرة أميال . وهكذا لم تكن السفينة إبراهيم لنكولن مزودة بكل وسائل التدمير فحسب وإنما الأهم من هذا أنه كان بين رجالها نيد لاند الملقب باسم ملك صيادي الحيتان بالحرايب اليدوية .

كان نيد لاند - كندياً موفور البراعة ، لا يضارعه أحد في إتقان مهنته الخطرة . وكان يتمتع بالمقدرة ، والثبات والحراة ، مع قسط كبير من الدهاء . وهكذا لم يكن ينجو من حربته إلا حوت ماكر مراوغ . وكان في نحو الأربعين من عمره ، يجاوز في طوله ستة أقدام ، قوى البنية ذا رصانة وصمت ، به ميل إلى العنف أحياناً ، وإذا استفزه شيء بلغ عنفه أقصاه . وكانت هيئته تسرعى الأنظار ، ولا سيما قوة نظره التي كانت تسبغ على وجهه مسحة فريدة .

وفي يقيني أن الربان فارجوت قد أحسن باستخدام هذا الرجل . فهو يساوى كل رجال السفينة إذا قيس بمحذة النظر وبراعة اليد . ولست أستطيع مقارنته بشيء أفضل من منظار مكبر قوى يمكن أن يكون في الوقت نفسه مدفعاً معداً للانطلاق على الدوام .

إننى أرسم الآن صورة هذا الزميل الباسل كما عرفته فيما بعد . فنحن الآن صديقان قديمان تربط بيننا وشائج قوية من الصداقة التي ولدتها

ووطدتها الأخطار المشتركة ... آه يا صديقي الشجاع . إننى لأرجو أن أعيش
مائة عام أخرى لكى تطول ذكرياتى عنك .

والآن ماذا كان رأى نيدلاند بصدد الوحش البحرى ؟ لا مفر من
الاعتراف بأنه لم يكن يؤمن بوجود ذلك الكركدن البحرى . أى أنه كان
وحده دوننا لا يشاظرنا هذا الاعتقاد الشائع .

وذاذ ليلة بعد إبحارنا بثلاثة أسابيع ، كانت السفينة تسير محاذية
لرأس «كاب بلان» ، على مسافة ثلاثين ميلا من شاطئ باتاجونيا ، ولم يبق
إلا أسبوع تمخر بعده السفينة عباب المحيط الهادى .

وكنت فى تلك الليلة جالسا فى مؤخرة السفينة مع نيدلاند نتبادل الحديث
فى شتى المسائل ونمد البصر إلى ذلك البحر الغامض الذى بقيت أعماقه حتى
الآن بعيدة عن عين الإنسان . وكان طبيعياً أن أعرج بالحديث إلى موضوع
الكركدن الجبار ، وأن أناقش مختلف فرص النجاح أمام البعثة . ولما رأيت
نيدلاند قد تركنى أمضى فى الحديث دون أن يقول هو نفسه شيئاً ، شددت
الضغط عليه قائلاً :

— حسناً يا نيد . ألم تقتنع بعد بوجود الكركدن البحرى الذى نطارده ؟
ألديك أسباب معينة تفسر عدم تسليمك بوجوده ؟

فنظر نيدلاند إلى برهة قبل أن يجيب ، ثم ضرب جبينه بيده كعادته ،
ثم أغمض عينه كأنما يستجمع نفسه وقال أخيراً :

— ربما كانت لدى هذه الأسباب يامسيو أروناكس .

— ومع ذلك فأنت صياد حيتان محترف . أنت خبير بالحيوانات الثديية
البحرية الكبرى ، وعلى ذلك يسوغ لك قبول نظرية الكركدونات المائية
الهائلة . ويجب أن تكون آخر من يشك فى مثل هذه الظروف .
فرد نيد قائلاً :

— هذا هو ما يخذعك من أمرى ياسيدى . ليس عجيباً أن يؤمن عامة
الناس بالمذنبات الغريبة أو بوجود الوحوش الأسطورية فى باطن الأرض ،

ولكنك لن تجد فلجياً أو عالماً في طبقات الأرض يؤمن بهذه الخرافات .
وكذلك شأن صياد الحيتان. إنى طاردت كثيراً من الوحوش البحرية ، وأصبت
بحررتى عدداً كبيراً منها ، وقتلت طائفة أخرى . ولكن مهما تكن قوتها
أو تسليحها الطبيعي ، فلا يمكن لذيولها أو معدات دفاعها أن تحترق ألواح
السفينة الحديدية .

— ومع ذلك قيل يانيد إن بعض السفن قد شقها ناب كركدن بحرى ضخم .
فأجاب الكندى بقوله :

— لعلها سفن من الخشب . وإن كنت لم أرها حتى الآن . وحتى أجد
الدليل على عكس ما أظن ، فإنى لا أعترف بقدرة الحيتان أو الوحوش
البحرية على إحداث مثل هذا التأثير .
— أنصت إلى يانيد .

— لا . لا ياسيدى إنى أصدق كل شيء إلا هذا . لعله يكون نوعاً
من المحاريات الضخمة .

— كلا . هذا غير ممكن . فإن المحاريات كائنات بحرية رخوة الجسم .
فقال نيد

— إذن فأنت تعتقد حقاً ياسيدى بوجود هذا الوحش البحرى ؟
— نعم يانيد إنى أكبر كلامى باقتناع يقوم على أساس من منطق الحقائق
فأنا أؤمن بوجود حيوان من نوع الثدييات البحرية القوية التكوين والمنتبئة
إلى الفصيلة الفقارية كالحوت والدرفيل وغيرهما ، وهو مزود بناب قرنى
ذى قوة اختراق فائقة .

فغمغم نيد بكلمة غامضة وهو يهز رأسه كمن يرغب عن كل إقناع .
فاستطردت أقول :

— قدر يا صديقى الفاضل أنه إذا وجد مثل هذا الحيوان وكان يعيش
في أعماق البحار فلا بد أن يكون تكوينه ذا قوة تفوق كل شبه ومقارنة .

فقال نيد :

– ولماذا يكون له مثل هذا التكوين ؟

– لأنه سيحتاج إلى قوة لاحد لها للبقاء في الأغوار العميقة ولمقاومة الضغط المائى . فالمعروف أن الضغط الجوى يوازى عموداً من الماء ارتفاعه اثنان وثلاثون قدماً . والحقيقة أن عمود الماء لن يكون بمثل هذا الارتفاع لأن مياه البحر أشد كثافة من الماء العذب . فأنت حين تغوص في الماء يانيد ، يكون فوقك بضعة أعمدة من الماء بعضها فوق بعض ، طول كل منها اثنان وثلاثون قدماً وهكذا يتحمل جسمك في الماء ما يوازى الضغط الجوى بضع مرات ، وبعبارة أخرى ١٥ رطلا لكل بوصة مربعة من جسمك . ومن هنا يمكن القول أيضاً أن الهبوط إلى عمق ٣٢٠ قدماً تحت سطح الماء معناه تحمل ضغط يوازى عشرة ضغوط جوية . وعلى عمق ٣٢٠٠ قدماً يكون الضغط موازياً لمائة ضغط جوى ، أى يبلغ ستة أميال ونصف ميل تقريباً ، وهذا بدوره يساوى القول بأنه إذا أمكنك بلوغ مثل هذا العمق في المحيط ، فإن كل بوصة مربعة من جسمك تتحمل ضغطاً مقداره $\frac{1}{4}$ ١٤٩٩٣ رطلا . فهل تعرف كم عدد البوصات المربعة في مسطح جسمك :

– ليس لدى فكرة عن هذا .

– نحو ٦٥٠٠ فإذا عرفنا أن الضغط الجوى على البوصة المربعة من الجسم هو ١٥ رطلا ، فإن الجسم الإنسانى في هذه الحالة يتعرض لضغط جوى مقداره نحو ٩٧ ألف رطل .

– لم أكن أفطن إلى هذه الحقيقة ؟

– نعم كنت تنسحق تحت مثل هذا الضغط . أما في الجو فالهواء ينفذ إلى داخل جسمك بضغط يعادل الضغط الخارجى ومن ثم فهناك توازن تام بين الضغط الخارجى ، والضغط الداخلى ، وهذا التوازن هو الذى يجعلك تتحمل الضغط دون مضايقة . ولكن الأمر في الماء يختلف .

فقال نيد وقد تزايد اهتمامه :

– نعم فهمت . لأننى سأكون في داخل الماء وليس الماء في داخلى .

– تماماً يا نيد فإذا كنت في عمق ٣٢ قدماً تحت سطح البحر يكون الضغط الواقع عليك بقدر ٩٧,٥٠٠ رطل ، وعلى عمق ٣٢ ألف قدم يصير الضغط ٩٧,٥٠٠,٠٠٠ رطل أى أنك في هذه الحالة تسحق تماماً وتصبح كالفطيرة .

فهتف نيد :

– يا الله !

– فإذا كانت الحيوانات البحرية الفقارية تستطيع البقاء في تلك الأعماق ، لا سيما تلك التي يبلغ مسطح أجسامها ملايين البوصات المربعة ، فيجب أن نقدر مدى الضغط الواقع عليها . بمئات من الأرتال ولك أن تقدر إذن مدى مقاومة تكوينها الجسدى وقوة بنائها حتى تستطيع احتمال مثل هذا الضغط .

فقال نيد :

– يجب إذن أن تكون مكسوة بدروع حديدية سمكها ثمانى بوصات !

– نعم . يمكنك إذن أن تتصور مبلغ الدمار الذى تحدثه مثل هذه الكتلة

إذا هي اندفعت بسرعة قطار سريع إلى هيكل إحدى السفن .

ولكن نيد أبى أن يسلم . فعدت أقول :

– ألم أستطع إقناعك ؟

– لقد أقتعتنى برشى واحد ياسيدى ، وهو أنه إذا كان في قاع المحيط

حيوانات كهذه فلا بد أن تكون بالقوة التى وصفت .

– ولكن إذا لم تكن موجودة أيها العنيد ، فكيف تفسر حادث السفينة

سكوتيا ؟

فقال نيد متردداً :

– لأنه . . . لأنه

– استمر .

– لأن هذا الحادث . . . غير صحيح !

ولم تكشف هذه الإجابة إلا عن عناد صياد الحيتان . ولم أحاول في يومى أن أثقل عليه أكثر من هذا القدر ، ولم يكن ثمة شك فيما وقع للسفينة سكوتيا.. فقد كانت الثغرة حقيقة ملموسة بحيث اضطر رجال السفينة للعمل على سدها . ولا أظن أن ثغرة ما فى سفينة عرف أمرها بجلاء كما عرفت هذه الثغرة . فهى لم توجد من تلقاء نفسها . وما دامت لم تنجم عن صخور أو آلات غاطسة فن المحقق أنها نتجت من أداة نافذة لحيوان ما .

وأعتقد الآن ، وبعد كل الأسباب التى سلف استنتاجها ، أن ذلك الوحش ينتمى إلى نوع من الحيوانات البحرية الفقارية وعلى التخصيص من نوع الثدييات المائية الضخمة . أما عن عائلته بين فصائل الحيوانات المذكورة ، وهل هو حوت أو درفيل أو كركدن ، فتلك مسألة يكون حلها بعد سلسلة من العمليات . فلكى يتسنى هذا الحل لا بد من تشريح الوحش المجهول . ولكى يتم التشريح لا بد من اقتناصه . ولكى يتم اقتناصه لا بد من صيده بالحربة ، وهى مهمة نيد لاند . ولإتمام هذه المهمة لا بد من رؤيته ، وهى مهمة بحارة السفينة ، ولكى نراه لا بد من ملاقاته ، وهى مهمة الصدفة وحدها .

الفصل الخامس

في تيه المصادفات

ظلت رحلة السفينة إبراهيم لنكولن فترة من الوقت خالية من الأحداث ، وأخيراً وقع حادث كشف عن براعة نيد لاند المدهشة ومدى ما يمكن أن نضع فيه من ثقة .

في اليوم الثلاثين من شهر يونيه ، كانت السفينة تمخر قريباً من شاطئ جزائر فوكلاندي حيث صادفنا بعض صيادي الحيتان الأمريكيين وسألناهم عن الكركدن البحري فقالوا إنهم لم يشاهدوه ، ولكن واحداً منهم وهو ربان السفينة مونرو طلب من نيد لاند حين علم بوجوده في السفينة إبراهيم لنكولن أن يعاونه في صيد حوت شوهد عن كذب . ولما كان الكابتن فارجوت راغباً في رؤية نيد لاند وهو يعمل ، فقد سمح له بالانتقال إلى سفينة مونرو . وقد حالف الحظ الصياد الكندي بدلا من أن يصيد بالحربة خوتاً واحداً ، صاد حوتين بضربة مزدوجة أصابت واحدة منهما أحد الحوتين في قلبه ، وصادوا الثاني بعد مطاردة دامت بضع دقائق .

ومن المؤكد أن الوحش البحري لو قدر له أن يصاول نيد لاند ، فلست بالذي يراهن في صفه .

وفي اليوم السادس عشر من شهر يولييه ، حوالي الساعة الثالثة ، ضاعفنا السرعة وقطعنا الخمسة عشر ميلاً الباقيين نحو الغرب حتى وصلنا إلى تلك الجزيرة المنعزلة التي أطلق عليها بعض الملاحين الهولنديين اسم رأس هورن ، وهي إحدى مدن بلادهم . وفي اليوم التالي كانت سفينتنا تمخر عباب المحيط الهادى .

وهنا هتف البحارة جميعاً :

– راقبوا الماء بكل دقة .

ولم تنقطع العيون ، والمناظر المكبرة عن المراقبة لحظة واحدة كلما فكر أصحابها في جائزة الألفي دولار ، وما برحت الأنظار تطوف بسطح المحيط ليلاً ونهاراً . وحتى البحارة المعروفين باسم الخفافيش الآدمية لأن قوة أبصارهم تزداد ليلاً بمعدل ٥٠ ٪ لم يكفوا عن المراقبة طمعاً في الجائزة .

ومهما يكن فإني لم أقل عنهم اهتماماً بالمراقبة رغم عدم تفكيرى في الجائزة . كنت لا أبرح ظهر السفينة فيما عدا بضع دقائق أقضيها في تناول الطعام ، ودون أن أحفل بالمطر أو حرارة الشمس ، وكنت وأنا أشرف على البحر من مقدمة السفينة أو من أحد جوانبها . أكاد ألهم بنظرأتى المايهوفه ذلك الزبد الذى يعلو سطح الماء الممتد إلى غاية البصر . وكم من مرة شاركت الضباط البحارة انفعالهم كلما تمضى أحد الحيتان ورفع ظهره الأسود فوق متن الأمواج . إذ ذاك كان سطح السفينة يزدحم في لحظات ، وكانت السلام الداخلية تقذف إلى السطح سيلا من الضباط والبحارة شاخصين بأعين قلقة وأنفاس لاهثة لعلهم يرون الوحش البحرى . وكنت أنظر وأمعن النظر حتى أكاد أفقد البصر ، بينما كان تابعى كونساييل يظل هادئاً ويقول لى :
– لو أن سيلدى لا يكثر من النظر هكذا ، لاستطاع أن يرى أكثر .

ولكن يا لضيعة الآمال ، كانت السفينة لإبراهام لنكولن تخفف من سرعتها ثم تتعقب الوحش ، فإذا هو لا يعدو أن يكون حوتاً أو قرشاً عادياً ثم لا يلبث أن يختفى بين هتاف الاستياء .

وكان نيد لاند دائماً فى إنكاره لما يحدث . بل كان يتظاهر بالانصراف عن النظر إلى سطح المحيط فى غير نوبة المراقبة المحددة له إلا إذا شاهد حوتاً بالقرب من السفينة . ورغم أن قوة إبصاره العجيبة كانت تغلب ذات فائدة كبرى لنا ، فإن ذلك الكندى العنيد كان يلزم مقصورته ثمانى ساعات نهاراً أو ليلاً حيث يقرأ أو يستسلم للنوم .

وكان يرد على بقوله :

– ها . لست أعتقد بوجود ذلك الوحش المزعوم . وحتى لو وجد ، فكيف يمكن أن نلتقي به ؟ ألسنا نضرب في المحيط اعتباراً ؟ سأسلم بأن الوحش شوهد في شمالي المحيط الهادى مرة أخرى ، ولكن قد مضى شهران على ذلك ، وطبقاً لما عرف عن مزاج صاحبنا هذا فإنه لا يجب أن يطيل البقاء في مكان واحد حتى لا يترهل . فهو يتمتع بقدره هائلة على الحركة هنا وهناك . وأنت تعرف يا أستاذ كما أعرف أن الطبيعة لا تتصرف اعتباراً وأنها لا تمنح الحيوان البطيء موهبة السرعة إن لم يكن في حاجة إليها ، وإذن ، لو وجد هذا الوحش ، فهو الآن في مكان بعيد .

لم أدر بماذا أجيب على هذا . كان جلياً أننا ماضون على غير هدى ، ولكن ماذا كان في وسعنا أن نفعل غير هذا ؟ ثم إن الفرص أمامنا كانت نجد محدودة ومع هذا فلم يكن أحد في الوقت نفسه يشك في نجاح مهمتنا . بل لم يكن على ظهر السفينة بحار واحد يرفض المراهنة على وجود الوحش البحرى وعلى قرب ظهوره .

وبلغنا أخيراً المنطقة التي شوهد فيها الوحش آخر مرة . والواقع أنه لم يكن أحد على ظهر السفينة يعيش عيشة طبيعية . فقد كان البحارة جميعاً تحت وطأة انفعال عصبي يند عن الوصف . لم يكن أحداً يأكل أو ينام طبيعياً ، وكانت المخاوف الشديدة تملأ نفوسنا نحو عشرين مرة في اليوم نتيجة خطأ في التقدير أو خداع بصري يستهدف له بحار جالس فوق الأشعة . وكانت هذه الانفعالات المتكررة على تلك الصورة تجعلنا في حالة من شدة الاضطراب لا بد أن يعقبا رد فعل قريب .

والواقع أن رد الفعل المتوقع لم يطل انتظاره . لقد ظلت إبراهيم لنكولن مدى ثلاثة أشهر كان كل يوم فيها كمائة عام . ومضت تدرع مياه المحيط الهادى الشمالى ، فلم تدع حوتاً لاح لها إلا تعقبته وتحولت عن طريقها ، واستدارت فجأة أكثر من مرة ، وتقلبت في شتى المسالك دون سابق إنذار ولم تترك بقعة على الشواطئ الصينية أو اليابانية دون أن تجوس خلالها .

ورغم ذلك لم تشهد سوى المياه الشاسعة ، ولم نبصر شيئاً يشبه الكركدن البحرى أو جزيرة غاطسة أو حطام سفينة ، أو أجزاء بحرياً عائمًا ، أو شيئاً من خوارق الطبيعة .

وهكذا ابتدأ رد الفعل . وقد تجلى فى أول الأمر فى انخطاط المهمة الذى استحوذ على عقولنا وفتح باب الشكوك فى نفوسنا . وساد السفينة إحساس جديد أسره خجل وأكثره غضب ، وكان البحارة ينعتون أنفسهم بالغفلة لاستدراجهم إلى هذه المهمة الوهمية ، مما أثار شديد سخطهم : ولم تلبث المناقشات المستفيضة التى ظلوا يتداولونها طوال العام أن تبددت فجأة ، وإذا كل منهم لا يفكر إلا فى تعويض ساعات الطعام والنوم التى ضحوا بها فى حماقة .

وانقلب الجميع — بما عرف فى العقل البشرى من مرونة طبيعية، من إفراط إلى تفريط . فإذا أشد المتحمسين للمهمة ، أكثرهم تحاذلاً . وسرى رد الفعل من أعماق السفينة حيث عمال الوقود إلى مقاصير الضباط ، والحق أنه لولا شدة حزم الربان فارجوت ، لأديرت مقدمة السفينة نهائياً صوب الجنوب . ومهما يكن فما كان لهذا البحث غير المجدى أن يستمر أكثر من هذا وأعتقد أنه لم يقدر لفريق من البحارة الأمريكين أن أبدوا من الحماس ما أبدى بحارة السفينة إبراهيم لنكولن . ومن ثم لن يعزى إخفاق البعثة إلى قصور منهم فى هذا المقام . وهكذا لم يبق أمامنا إلا طريق العودة .

وقدم إلى الربان التماس بهذا المعنى . ولكنه أصر على موقفه ، وعندئذ لم يحاول البحارة إخفاء استياءهم . مما كان له تأثير على العمل فى السفينة . ولست أعنى أنه حدثت ثورة فى السفينة . ولكن الريان لم يلبث بعد أن طال عناده فترة من الزمن أن طلب — كما فعل كولبوس من قبل . أن يصبر البحارة ثلاثة أيام فإذا لم يظهر الوحش خلال هذه المهلة ، فإن على المكلف بالدفة أن يدير العجلة لى تتجه السفينة إلى المياه الأوربية .

وانقضى يومان . وظلت السفينة ماضية بنصف سرعتها ، وأدليت مقادير كبيرة من اللحوم المقددة في أثرها لاستدراج الوحش ولكنها ذهبت طعاماً للأسماك المفترسة ثم توقفت السفينة وأرسلت جميع قواربها في مختلف الاتجاهات ، ولكن ليلة الرابع من شهر نوفمبر مضت دون كشف سر اللغز المقترن بأعماق البحر .

كانت اليابان تقع في اتجاه الرياح على مسافة تقل عن مائتي ميل . ودقت الأجراس مؤذنة بالساعة الثامنة وأنا مستند إلى حاجز السفينة وتابعي كونساييل بجانبى يحدق في الظلام الوشيك وانضباط يكتسحون الأفق بمنظيرهم الليلية ، وفيما أنا أنظر إلى كونساييل لاحظت أن هذا التابع الشجاع قد تأثر بعض الشيء بالجو السائد ، أو هذا على الأقل ما بدا لي . ولعل أعصابه كانت – لأول مرة – تستجيب لفضول طراً عليه :

قلت له :

– حسناً يا كونساييل هذه فرصتك الأخيرة للحصول على ألفي دولار .
– هل يسمح سيدي أن أخبره بأنى لم أهتم أبداً بالحصول على الجائزة ، وأنه حتى لو رصدت مائة ألف دولار لما أثار ذلك اهتمامى ؟ .
– أنت على حق يا كونساييل إنها كانت مهمة سخيفة على أى حال .
إننا أضعنا الوقت والصبر وكان أولى بنا أن نكون في فرنسا منذ ستة أشهر .
– نعم . . . في مسكن سيدي الصغير نصنف مجموعات سيدي من المتحجرات ونضع البايروزا في قفصها بحديقة النباتات لكي تستأثر باهتمام أهل باريس جميعاً .

– أجل يا كونساييل . وفضلاً عن هذا سنكون أضحوكة للناس .

فقال كونساييل بهلواء :

– هذا أكيد ، أظنهم سيضحكون من سيدي . ولا بد أن أقول . . .

– ماذا يا كونساييل ؟

– إن سيدي يستحق هذا تماماً . فعندما يتشرف الإنسان بأن يكون
من العلماء كسيدي : فإنه لا يتعرض . . .

لم يتم كونسایل إطرأه فن خلال السكون المخيم على الجميع ، سمع
نيد لاند يصيح قائلاً :

– أنظروا إلى هناك إن ما نبحت عنه يبدو عند الأفق

الفصل السادس

بأقصى سرعة

اندفع رجال السفينة جميعاً نحو صياد الحيتان أثر ضيخته : الربان والضباط والبحارة والخدم حتى المهندسون تركوا الآلات ، وعمال الأفران تركوا أفرانهم وكان الأمر قد صدر بوقف السفينة ، فكانت تتحرك بقوة الاندفاع الذاتي . وكان الظلام كثيفاً ، فلم أتمالك من التساؤل : ترى ما الذى رآه نيد لاند وكيف استطاع أن يتحقق مما رأى ؟
شعرت بقلبي يخفق بشدة .

وعلى مسافة نحو ستين متراً من الجانب الأيمن للسفينة ، بدا سطح البحر كأنه مضاء من سطح الماء ، وأدركنا أن الوحش كامن فى مكان ما بالأعماق ، مرسل ذلك الضوء القوي المحير الذى ورد ذكره فى تقارير كثير من الربانة ، وكان الضوء منيراً جسماً هائلاً بيضاوى الشكل ، مستطيلاً جداً تركز فى وسطه بؤرة الضوء الباهر لا يلبث أن يتلاشى بالتدرج :
وهتف أحد الضباط قائلاً :

— هذا مجرد انعكاس وهج ساطع لخزئيات فسفورية .

فقلت له بلهجة اليقين :

— لا ياسيدى . ليس بين الأحياء المائية المضيئة ما يشع مثل هذا الضوء .
إنه ضوء كهربائى . فضلاً عن هذا . . . انظروا . . . إنه يتحرك نحونا . . .

وتعالت صيحة مشتركة من السفينة ، ولكن الربان هتف قائلاً :

— السكوت . ارفعوا المراسى وغيروا الاتجاه .

وهكذا حاولت السفينة أن تهرب ولكن الوحش الخارق أخذ يقترّب منها بسرعة مضاعفة .

وتسمرنا في أماكتنا ، وانعقدت ألسنتنا من فرط الدهول الذي فاق إحساسنا بالخوف . ولحق الوحش بنا ، ودار حول السفينة التي كانت تنطلق عندئذ بسرعة أربعة عشر عقدة في الساعة ، وغمرها بحلقة من الضوء كأنها ذرات غبار مشع ، ثم ابتعد مسافة ميلين أو ثلاثة تاركاً وراءه سحابة فسفورية كالبخار المنساب من قاطرة بخارية . وفجأة اندفع الوحش عائداً إلى السفينة بسرعة مخيفة من وراء الأفق المظلم حيث ذهب ليستجمع قواه . ثم توقف فجأة على مسافة عشرين قدماً ، ثم ذهب . إنه لم يغطس لأن ضوءه الساطع لم يتلاش تدريجياً بل مرة واحدة كأنه انطفأ . ثم عاد للظهور مرة أخرى في الجانب الآخر من السفينة . إما بالالتفاف حولها أو الانسياب من تحتها . وكان من المتوقع بين لحظة وأخرى أن يقع الاصطدام الذي قد يكون قاضياً علينا .

وغمرتني الدهشة لموقف السفينة من هذا الأمر فقد كان الوحش يهاجمها بدلا من أن تهاجمه وسألت الربان عن السبب ، فقال وقد ارتسمت على وجهه الهادئ دائماً ، أبلغ أمارات الدهشة :

– إنني لا أدري يامسيو أروناكس مدى قوة هذا المخلوق الذي أنازله ، ولذلك لن أخطر بالسفينة في الظلام بحماقة وتهور . ينبغي إذن أن ننتظر ضوء النهار وعندئذ سيتغير الموقف إلى النقيض ؛

– ألم يبق لديك شك يا كبتن في طبيعة هذا الوحش ؟
– لا يا سيدي ؛ الواضح أنه كركدن بحري هائل ، وهو أيضاً كهربى .
فأضفت قائلاً :

– وربما لا نستطيع الاقتراب منه إلا كما نستطيع الاقتراب من ديناميت أو طوربيد .

– لعل فيه من المتفجرات ما هو أشد وأفتك ، فإذا صح هذا ، فهو أفظع وحش وجد في الخليقة . وهذا ما يجعلني ألزم جانب الحذر ؛

وظل كافة رجال السفينة ساهرين تلك الليلة . لم يفكر أحد في النوم . ولم يكن في مقدور السفينة أن تجارى الوحش في سرعته ، فقد بقيت سائرة بنصف سرعتها . واقتدى بها الكركدن فجعل يسير إلى جانبها ويدفع بالأمواج إليها ، وكأنما قرر ألا ينسحب من ميدان النزال .

ومهما يكن فقد اختفى حوالى منتصف الليل : تلاشى ضوءه كوردة مشعة هائلة . وفي الساعة الواحدة إلا سبع دقائق صباحاً . سمعنا صغيراً يصم الآذان كالذى يحدث من عامود ماء يندفع بقوة عظيمة .

وكنت إذ ذاك واقفاً مع الربان ونيد لاند في مؤخرة السفينة ، نرسل البصر في لهفة من خلال الظلام المطبق فقال الربان :

– يانيد لاند . هل سمعت من قبل حوتاً يهدر ؟

– نعم ياسيدى الربان . سمعت كثيراً . ولكنى لم أسمع مثل هدير هذا الوحش الذى رحمت جائزة الألفى دولار لأنى أول من رآه .

– أجل لقد أصبح لك الحق في هذه الجائزة . ولكن . أخبرنى هل هو هذا نفس الصوت الذى يصدر عن الحيتان ؟

– نعم ياسيدى . ولكن هدير هذا الوحش أشد بصورة لا نظير لها . لا مجال للخطأ هنا . ومن المؤكد أنه وحش بحرى هائل موجود في هذه المياه . وأرجو أن تأذن ياسيدى بأن نتبادل معه بضع كلمات عند شروق الشمس .

فقلت أنا في لهجة تم عن الشك :

هذا إذا سمح له مزاجه بالاستماع .

فقال الصياد الكندى :

– دعنى أقرب منه مدى انطلاق أربع حربات وأنا أعرف كيف

أرغمه على الاستماع لى .

فاستطرد الربان قائلاً :

– ولكن اكى نقرب منه يجب أن أضع تحت تصرفك أحد زوارق

صيد الحيتان .

– بالتأكيد ياسيدى .

– ولكن فى ذلك مخاطرة بحياة رجالى .

فرد الصياد ببساطة قائلاً :

– وحياتى أيضاً .

وفى نحو الثانية صباحاً ، ظهرت بؤرة الضوء مرة أخرى ، بنفس إشعاعها السالف على مسافة نحو خمسة أميال فى اتجاه الريح . ورغم بعد المسافة وهدير الأمواج والرياح كنا نسمع ضربات ذلك الوحش بل وأنفاسه اللاهثة . ويبدو أن الهواء كان يندفع فى رثى الوحش الهائل حين يطفو على السطح للتنفس وكأنه البخار المندفع فى اسطوانات محرك بقوة ألنى حصان .

وقلت لنفسى

– ها . إن حوتاً له قوة آلاف فرسان هو حوت بديع حقاً .

وبقينا جميعاً على أتم الأهبة حتى مطلع النهار ، ثم أخذنا فى إعداد أجهزة الصيد فقام الضابط الأول بحشو البنادق التى تطلق الحراب إلى مسافة ميل ، والمدافع البعيدة المرمى بالقذائف المتفجرة التى تصيب أقوى الوحوش بالجراح القاتلة . واكتفى نيد لاند بشحذ حربته التى كانت بين يديه سلاحاً رهيباً .

وبدأت طلائع الفجر تنساب ، ومع أول أضوائها ، اختفى النور الكهربائى المشع من الكركدن البحرى ، وفى الساعة السابعة صباحاً انتشر حول السفينة ضباب كثيف حجب كل شئ حتى لم تستطع أقوى المناظير إختراقه .

وتسلقت السارية الكبرى حيث وجدت بعض الضباط قد سبقونى إلى أطرافها . وبدا الضباب ينقشع حوالى الثامنة صباحاً وفجأة سمعنا صوت نيد لاند وهو يصيح كما حدث فى الليلة السابقة :

– إن الوحش فى الجانب الأيمن من السفينة .

فتحولت جميع الأنظار إلى الاتجاه الذى أشار إليه . وهناك على مسافة

ميل ونصف ميل من السفينة ، رأينا جرماً أسود ضخماً يبرز بما يجاوز
الباردة فوق الأمواج . وكان ذيله المضطرب بعنف يثير دوامات هائلة .
ولا أذكر أن هناك حيواناً بحرياً معروفاً يمكن أن يضرب الأمواج بمثل
هذه القوة . وكان ثمة أثر طويل ساطع البياض ينم عن مسير الوحش ويرسم
على سطح الماء قوساً كبيراً .

واقربت السفينة من الوحش البحرى ، واستطعت أن أراه بوضوح .
وبدا لى أن التقارير التى قدمتها ربابنة السفينتين شانون وهلفيا قد بالغت فى
وصف حجمه . وقد قدرت طوله بما لا يزيد عن مائة وخمسين قدماً...
أما بقية أبعاده فلم أستطع أن أرى إلا أنها متناسبة مع طوله .

وبينما كنت أراقبه ، إذا بعمودين من الماء والبخار ينبثقان من منخاريه
ويرتفعان إلى مسافة خمسين ياردة مما طابق رأى فى كيفية تنفّسه . واستخلصت
نهائياً أنه ينتمى إلى فصيلة الثدييات البحرية الفقارية التى تنحدر من أسرة
الحيتان الضخمة . . ولكنى لم أكن واثقاً إلى أية فصيلة من فصائل هذه
الأسرة كان ينتمى هذا الوحش . . فإن هذه الأسرة تنقسم إلى ثلاث فصائل :
الحيتان ، والكاتشالوت « القياطس » والدرافيل وينتمى الكركدن البحرى
إلى الفصيلة الأخيرة .

ووقف البحارة ينتظرون بصبر نافذ أوامر الربان الذى ما لبث بعد أن
راقب الوحش باهتمام أن استدعى كبير المهندسين وقال له :

— هل البخار على تمامه ؟

. — نعم يا كابتن .

— إذن أوقد النيران وأطلق البخار بكل قوته .

فانبعث الهتاف ثلاثاً تحية لهذا الأمر . وقد حلت ساعة النزال . وبعد
لحظات كانت مداخل السفينة تطلق سيلاً كثيفاً من الدخان الأسود ، وسطحها
يهتز بهدير المراجل .

واندفعت السفينة إبراهيم لنكولن بأقصى قوتها إلى الوحش الذي تركها تقرب منه حتى أصبحت على بعد عشرين متراً تقريباً ، وإذا به يبتعد قليلاً وكأنما ترفع عن الغطس ، ولكنه ظل محتفظاً بالمسافة التي بينه وبين السفينة . واستمرت هذه المطاردة ثلاثة أرباع الساعة دون أن تقصر المسافة بينهما ولو أربيع ياردات ، وكان الواضح أن السفينة لن تدركه قط وهي بهذه السرعة .

وعبث الربان بلحيته في ضيق ثم قال يخاطب نيدلاند :

— يا نيدلاند . هل ترى أنه يحسن إنزال قوارب الصيد ؟

فأجاب نيدلاند قائلاً :

— لا ياسيدي . لأن هذا الحيوان لن يسمح لأحد بصيده إلا حينما يشاء .

— إذن ماذا يجب أن نفعل ؟

— نطلق السفينة بكل سرعتها ، وأقف أنا في المقدمة إذا سمحت ،

حتى إذا أصبحنا منه على مرمى حربة قذفته بها .

— حسناً جداً

قال الربان هذا . وأمر المهندس بمضاعفة السرعة .

وانتقل نيدلاند إلى الموقع المعين ، وازدادت نيران السفينة ضراماً ، وانطلق الرصاص يدور بسرعة ثلاث وأربعين مرة في الدقيقة ، واندفع البخار من الصمامات ، ونظر الربان إلى مقياس السرعة ، فسجل ثمانية عشر ميلاً ونصف ميل في الساعة . ولكن الوحش كان ماضياً بنفس هذه السرعة أيضاً

وظلت السفينة منطلقة كذلك ساعة أخرى دون أن تقرب من الوحش قيد ياردة ، وكان هذا الوضع ينطوي على مهانة إذ كانت من أسرع السفن في البحرية الأمريكية وأخذ البحارة يشعرون بالتعب المتزايد ، فراحوا يسبون الوحش الذي ترفع عن الرد ، ولم يكتب الربان بقتل لحيته ، وإنما بدأ بعض عليها بأسنانه . وأخيراً استدعى المهندس مرة أخرى وقال له :

– هل بلغت أقصى ضغط عندك ؟

– نعم ياسيدى .

فأمره الربان أن يفعل كل ما فى وسعه دون أن تنفجر السفينة وسرعان ما أهملت أكوام الفحم داخل الأفران ، وتزايدت سرعة السفينة ، واهتزت ساريتها من جديد . ولما قيست هذه السرعة كانت تسعة عشر ميلا وثلاثة أعشار الميل .

وصاح الربان :

– اطلقوا البخار كله . .

. فأطاع المهندس ، وسجل قياس الضغط عشر درجات . ولكن الوحش ظل منطلقاً بسرعة تسعة عشر ميلا وثلاثة أعشار الميل بنفس السهولة التي كان ينطلق بها بسرعة ثمانية عشر ميلا ونصف ميل .

يالها من مطاردة . لا أستطيع أن أصف شعور الانفعال الذي كان يعصف بكل كيانى . وظل نيدلاند منتصباً فى موقعه ، والحربة فى يده . وقد سمح لنا الوحش مراراً بالاقتراب منه وأحياناً بلغ اقترابنا منه حداً جعل نيدلاند يرفع يده لقذف الحربة ، ولكن الوحش كان يندفع بعيداً بسرعة ثلاثين ميلا فى الساعة . بل كان يسخر من السفينة أحياناً عند ما راح يدور ويدور حولها .

وانطلقت صيحة غضب من جميع الأفواه . فقد دقت الساعة الثانية عشر دون أن نتقدم عما كنا عليه فى الثامنة صباحاً وأخيراً قرر الربان فارجوت أن يتخذ وسائل أكثر حزمًا فقال :

– آه ، إذن فهذا الوحش ينطلق بأسرع من سفينتى ! حسناً سترى هل يستطيع أن يسبق قذيفة مدفع ! ارسل يارئيس البحارة رجالك الى المقدمة .

وسرعان ما تم حشو مدفع المقدمة وتصويب فوهته ثم إطلاقه . ولكن

القذيفة مرت من فوق الوحش بيضعة أقدام . وما برح يسبق السفن بنصف ميل .

وصاح الربان قائلاً :

– ليحاول مدفعي آخر إصابة هذا الهدف ... سأدفع خمسمائة دولار لمن يصيب الوحش ، وتقدم مدفعي عجوز رمادى اللحية . ونخيل إلى أنى أرى الآن وجهه الهادئ وهو يقترب من المدفع ، ثم وهو يعده ويسدده بإحكام . وأعقب ذلك صوت انفجار مرتفع اختلط بهتاف البحارة ، وبلغت القذيفة هدفها . وأصابت الوحش . ولكنها انزلت من سطحه الدائري وسقطت في البحر وهي على مسافة ميلين من مكاننا .

وصاح الربان :

– سحقت لهذا لا بد أن يكون هذا الوحش مغلفاً بالواح حديدية سمكها ست بوصات . ولكنني سأناله ولو فجرت السفينة في هذا السبيل . وكان الأمل معقوداً في أن يبلغ التعب من الوحش حد الإعياء ، وألا يكون بمنعة من الكلال كالآلة البخارية . ولكن تعاقبت الساعات دون أن يبدو منه دلائل الإعياء .

وينبغي القول ، تقديرأ للسفينة أنها احتملت هذا الصراع دون كلال ، ولست أقدر المسافة التي قطعناها في ذلك اليوم الأنكد بأقل من ثلاثمائة ميل ، ولكن الليل أقبل ونحن في انطلاق على المحيط المضطرب . وخطر لي في تلك اللحظة أن مهمتنا قد انتهت عند هذا الحد ، وأنا لن نرى ذلك الوحش الفريد مرة أخرى .

ولكنني كنت مخطئاً ، لأن الضوء الكهربائي لم يلبث أن لاح مرة أخرى في العاشرة والدقيقة الخمسين مساء على مسافة ثلاثة أميال منا في اتجاه الرياح ، وكان واضحاً باهراً كالليلة السابقة .

وبدا كأن الكركدن البحري هامد الجسم . ولعله بعد إرهاقه في اليوم السابق

كان مستغرقاً في النوم في مهده المائج وكانت تلك فرصة قدر الربان أن يستغلها ٥

وأصدر أوامره

وزحفت السفينة لإبراهيم لنكولن بنصف سرعتها في حذر كأنما تخشى أن توقظ غريمها . ولم يكن من النادر أن يلتقي الصيادون في عرض البحار بالحيتان وهي مستغرقة في النوم . وحدث أن أصاب نيدلاند بحرايه بعضها في هذه الحالة .

وهكذا عاد الصياد الكندي إلى موقفه السالف في مقدمة السفينة .

واقتربت السفينة بسكون . وأوقفت محركاتها على بعد نحو ستين متراً من الوحش ، ولكنها ظلت تتقدم . وكان السكون العميق مخيماً على سطحها ، ولم نلبث أن أبصرنا على مسافة مائت قدم بؤرة الضوء الذي كان يزداد توهجاً حتى بهر أبصارنا .

وفي تلك اللحظة رأيت نيدلاند - وأنا مستند إلى الحاجز الأمامي - ممسكاً في مكانه أسفل مني بجبل وقد راح يهز الحربة المخيفة بيده الأخرى وهو على مسافة عشرين قدماً من الوحش الساكن .

وفي لمح البصر ، إقذف بالحربة ، وسمعت رنينها وكأنما قد اصطدمت بجسم صلب ٥

وفجأة انطلق الضوء الكهربائي ، وتدفق عمود ماء ضخيم على سطح السفينة يكتسحها كالسيل من الأمام إلى الخلف ، فهوى الرجال أرضاً ، وتقطعت الحبال ، وأعقب ذلك صدمة مروعة ، وألقى بي من فوق حاجز السفينة قبل أن أتمكن من الصمود ، وسقطت في البحر .

الفصل السابع

حوت من نوع مجهول

استطعت رغم دهشتي من هذا السقوط المفاجئ أن أحتفظ بجواسي .
وكنت في أول الأمر قد غصت إلى عمق نحو عشرين قدماً . ولما كنت سباحاً
ماهراً ، ولم تفقدني السقطة حضور الذهن فقد استطعت بعد رفتين قويتين
أن أعود إلى السطح .

وكان الظلام كثيفاً ، ولكنني استطعت أن أرى كتلة سوداء تختفي نحو
الشرق وتختفي معها أضواؤها على البعد . إنها السفينة لإبراهيم لنكولن .
ومعنى هذا أنني فقدت كل أمل في النجاة .

وأطلقت صيحة استغاثة وأنا أسبح نحو السفينة بضربات يائسة ولكن ملابسي
أخذت تعوقني بعد أن ألصقها الماء بجسدي . وهكذا شلت حركاتي وبدأت
أهوى إلى القاع .

– النجدة !

– كانت تلك صيحتي الأخيرة ، فقد امتلأ فمي بالماء ، وحاولت مستميتاً
أن أقاوم السقوط في الأعماق .

ولكنني شعرت فجأة بيد قوية تمسك ملابسي وتردني بقوة إلى سطح
الماء ثم سمعت هذه الكلمات تتردد في سمعي :

– إذا تكرم سيدي بالاعتماد على كفتي ، استطاع أن يحسن السباحة .

فأمسكت بذراع تابعي الوفي كونسایل وأنا أهتف :

– أنت ! . . . أنت ! . . .

فأجاب كونسایل .

– نعم يا سيدي .

- هل قذفت بك الصدمة إلى الماء أيضاً ؟
- لا . ولكن لما كنت في خدمة سيدي فقد تبعته .
- لقد رأى ذلك التابع الكريم أن ما فعله أمر طبيعي جداً .
- وسألته قائلاً :
- وماذا عن السفينة ؟
- فقال وهو يسبح على ظهره :
- السفينة ؟ أعتقد إنه يحسن بسيدى ألا يعتمد عليها .
- لماذا ؟
- لأنى وأنا أقفز من الماء سمعت الموكل بعجلة الدفة يقول إن الرصاص والدفة تحطما .
- نعم بناب الوحش ، وهذا هو التلف الوحيد الذى أصابها كما أظن ، ولكنها بدون دفة لن نفيدينا بشيء .
- إذن فقد ضعنا .
- فقال كونسایل بهدوء :
- ربما ولكن لا يزال أمامنا الآن بضع ساعات ، وفي بضع ساعات يمكن أن تحدث أمور كثيرة .
- وكان لهدوء كونسایل أثر طيب في نفسى ، فأخذت أسبح بقوة ، ولكن ملابسى كانت تعوقنى وتجذبني إلى أسفل كأنها ثقل من الرصاص وهكذا تعذر على أن أظل طافياً . ولاحظ كونسایل موقفى فقال :
- هل يسمح لى سيدي بشق ملابسه ؟
- ثم دس في ملابسى مديّة مفتوحة وشقها بسرعة من أعلى إلى أسفل ، ثم ساعدنى في التخلص منها بينما كنت أسبح . وبعد أن عاونته بنفس الكيفية أخذنا نسبح جنباً إلى جنب .
- ولكن موقفنا في الوقت نفسه لم يكن أقل شناعة فن المحتمل أنهم لم يفتنوا إلى اختفائنا . وحتى لو أنهم فطنوا ، فما كان في مقدور السفينة إنقاذنا وهى بغير دفة ، وهكذا كان الأمل الوحيد في نجاتنا هو إرسال قواربها للبحث عنا .

وقع الاصطدام في نحو الحادية عشر مساء . وحوالى الواحدة صباحاً
غمرنى إعياء شديد ، وتصلبت أطرافى خدرأ ، فاضطر كونساييل ، أن يشدد
من عزيمتى ، وهكذا أصبحت نجاتنا متوقفة عليه وحده ولكنى كنت أسمع
المسكين وهو يلهث ، فأدركت أنه لن يستطيع الاستمرار فى الكفاح .

وهتفت به قائلاً :

– دعنى أغرق دعنى .

فرد قائلاً :

– أذع سيلبى ؟ مستحيل . سأغرق معه .

وفى تلك اللحظة بزغ القمر من وراء سحابة كبيرة كانت الرياح تدفعها
نحو الشرق . وتألقت سطح البحر بأشعته الفضية ، ورفعت رأسى فرأيت السفينة
وكانت على مسافة خمسة أميال من مكانينا وبدت كتلة سوداء لا تكاد تبين .
ولكنى لم أر قارباً ما .

وحاولت أن أصبح مستنجداً . ولكن لم يكن ثمة فائدة من الصباح
لبعد المسافة . ثم إن شفتى المنتفختين لم تدع صوتاً يخرج منهما ، ولكن كان
بوسع كونساييل الكلام . وسمعته يهتف مراراً مستنجداً

وتوقفنا عن الحركة برهة لهدف السمع . وخيل إلينا أن ما سمعناه
فى تلك اللحظة لا يعدو أن يكون طنيناً فى آذاننا ، ولكن بدا لى أن صيحة
انبعثت استجابة لإغاثة كونساييل . فغمغمت قائلاً :

– هل سمعت ؟

– نعم . . نعم .

وأرسل كونساييل فى الفضاء صيحة يائسة أخرى وفى هذه المرة لم يكن
ثمة التباس فقد جاوبنا صوت آدمى . فهل كان صوت ضحية أخرى لحادث
الاصطدام ، أو أنه زورق إنقاذ ينادينا فى الظلام ؟

وبذل كونساييل جهداً خارقاً فاعتمد على كتنى بينما بذلت جهداً أخيراً

للسباحة دونه ثم رفع نصف جسمه فوق سطح الماء ، وأرسل صيحة عالية .
وعندئذ خارت قواى وانزلت أصابعى ، وامتلاً فمى بالماء الأجاج ،
وسرت البرودة فى جسمى ، فرفعت رأسى لآخر مرة قبل أن أهوى
فى الماء .

وفى تلك اللحظة اصطدمت بشيء صلب ، فتشبثت به مستميتاً ، ثم
شعرت بنفسى أرتفع فوق سطح الماء ، ثم فقدت وعيى ، ولكنى لم ألبث
أن أفقت أثر تدليك شديد شعرت به ، وفتحت عيني قليلاً وغمغمت :

— كونساييل ؟

— هل سيدى ينادينى ؟

ورأيت فى تلك اللحظة على ضوء القمر المنحدر عند الأفق ، وجهاً
آخر غير وجه كونساييل . . ولكنى عرفته فوراً، فهتفت قائلاً :

— نيدلاند ! .

فأجاب الكندى :

— نعم ياسيدى . يبحث عن جائزته .

— هل سقطت فى البحر عند ما اصطدمت السفينة ؟

— نعم ولكنى كنت أسعد حظاً إذ وجدت جزيرة عائمة .

— جزيرة عائمة ؟

— نعم أو بتعبير أفضل صاحبنا الكركدن الهائل .

— ماذا تعنى يانيدلاند ؟

— أعنى إننى عرفت الآن لماذا لم تنفذ حربتي فى الوحش وإنما تتلمت .

— لماذا يانيد . لماذا ؟

— لأن الوحش مغلف بألواح من الحديد .

وتسلقت بسرعة إلى قمة ذلك الشيء الغاطس الذى وجدنا فيه ملاذنا .
وضربته بقدمى فقد بدا لى بوضوح أنه جسم صلب لا ينفذ فيه شيء وليس
تلك المادة الرخوة التى تتكون من أجرام الثدييات البحرية الهائلة . ولكن هذا

الجسم الصلب لم يكن بأية حال درقة عظمية لحيوان من حيوانات ما قبل التاريخ . بل لم أستطع أن أضعه بين الزواحف البرمائية كالسلاحف والتماسيح لأن سطحه المسود الذي ركبنا عليه لم يكن ذا حراشيف ، بل كان أملس مصقولاً .

وأحدثت ضربة قديمى رنيناً معدنيا ، وبدا لي رغم ما يبدو في هذا من موجبات الدهشة ، أن الضربة وقعت على ألواح حديد (مبرشم) لم يبق ثمة مجال للشك . فإن هذا الحيوان أو الوحش أو الظاهرة الطبيعية التي حيرت دنيا العلماء ، وخذعت البحارة في قصص المعمورة ، كان في الواقع ، ظاهرة أبعث على الدهشة . ظاهرة من صنع الإنسان . إن اكتشاف وجود أغرب الكائنات الأسطورية والخرافية ما كان ليثير دهشتي إلى هذا الحد . إن ما يدخل في باب البساطة أن نجد أشياء معجزة تكون من صنع الخالق ، ولكن رؤية المستحيل يتحقق على يد الإنسان فذلك ما يبلبل كل خيال .

لقد تمددنا على قمة شيء يشبه غواصة بدا لي قطرها كسمكة هائلة من الصلب . كان هذا رأي نيدلاند ، ولم يسعني أنا وكونسايل ، إلا أن نشاطره رأيه . وقلت له :

— ولكن لا بد وأن يكون داخل هذا الجهاز آلة محرّكة ، وبجارية يديرونها .

فأجاب صياد الحيتان :

— هذا ما يظهر ومع ذلك فإنني لم أر في خلال الساعات الثلاث التي أمضيتها في هذه الجزيرة العائمة أية علامة للحياة .

— ألم تتحرك من مكانها .

— لا . يامسيو أروناكس . إنها مستقرة بين الأمواج . ولكنها لا تتحرك .

— مهما يكن فإننا نعرف دون أدنى شك أنها ذات سرعة هائلة . ولما

كانت السرعة لا تتولد إلا عن آلة ، ولا بد للآلة من شخص يوجهها فإنني أستخلص من هذا أننا نجونا .

فغمغم نيد لاند بتحفظ . وعندئذ ، وكأنما جاء ذلك تعزيزاً لحجتي ،
سمعنا صوتاً كغليان الماء في مؤخرة ذلك الجهاز العجيب ، ويبدو أنه رفاص
من النوع اللولبي ، ثم بدأ يتحرك . فأسرعنا نتعلق بسطحه الأعلى الذي يبرز
من الماء نحو ياردة ومن حسن الحظ لم تكن سرعته كبيرة .

وغمغم نيدلاند قائلاً :

— طالما كان يتحرك أفقياً . فليس عندي ما أقوله ، أما إذا تراءى له
أن يغوص ، فإني لا أضمن حياتي بدولارين .

كانت تلك هي الحقيقة الواضحة ، وإذن فقد صار لزاماً أن نبادر
بالاتصال بما قد يكون داخل الجهاز من كائنات . فنظرت إلى سطحه باحثاً
عن فتحة ، ولكني رأيت الألواح مشدودة بعضها إلى بعض بإحكام شديد
يضاف إلى هذا أن القمر اختفى إذ ذاك وتركنا في ظلام مطبق . وكان
علينا أن ننتظر حتى شروق الشمس لنقرر الوسيلة التي نستطيع بها أن ننفذ
إلى داخل الغواصة .

وهكذا كانت نجاتنا متوقفة على مزاج الرجال المسئولين الذين يديرون
عجلة هذا الجهاز فإذا خطر لهم أن يغوصوا كنا من الهالكين ، ومتى يتم هذا ؟
لم يكن لدى شك في إمكان الاتصال بهم وكان من المؤكد أنهم إذا لم يكونوا
مجهزين بالهواء الداخلي بطريقة ما ، فهم مضطرون للصعود بين آن وآخر
إلى سطح المحيط لتجديد ذخيرتهم من الهواء النقي . وإذن فلا بد من وجود
فتحة تصل بين داخلها هذا الحرم العائم وبين الجو .

أما الأمل في نجاتنا على يد الربان فارجوت ، فكان علينا أن نستبعده
تماماً . ذلك أننا كنا نندفع غرباً بسرعة معتدلة نسبياً قدرتها باثني عشر ميلاً
في الساعة . وكان الرفاص يضرب الأمواج بانتظام دقيق ، وكان أحياناً
يبرز ويدفع الماء المضىء إلى علو كبير .

وفي نحو الساعة الرابعة صباحاً ، ازدادت سرعة الجهاز فكنا نقاوم
بصعوبة الأمواج وهي تضربنا بكل عنفها وما كان يصحبها من دوار لا بد منه .

ومن حسن الحظ أن لمست يد نيدلاند سياجاً مشلوداً إلى قمة السطح الحديدي فاستطعنا أن نتشبث به بكل قوانا .

وانقضت أخيراً تلك الليلة المديدة ، ولا تستطيع ذاكرتي المتبورة أن تستعيد كافة الانطباعات التي اقترنت بها . ولكنني أذكر بوضوح شيئاً ما برح يعاود ذاكرتي . فبين فترات سكون البحر والرياح بدا لي مراراً أني أسمع أصواتاً مبهمة . . لوناً من نغمات غامضة تنساب من أوتار بعيدة . فأى سر إذن ينطوى عليه هذا الجهاز الملاحي الغائص ، الذي كان العالم كله يلتمس عبثاً معرفة كنهه ؟ وأية كائنات تعيش في هذا المركب الغريب ؟ وأية أداة آلية تتيح له أن ينطلق بمثل هذه السرعة الجبارة ؟

وعند ما لاح ضوء النهار كان ضباب الصباح يكتنفنا من كل جانب ، ولكن ما لبث أن تبدد ، عندئذ بدأت أفحص بعناية تامة ذلك السطح الأفقي الذي كنا فوقه شعرت بأني أغوص تدريجياً .

فصاح نيدلاند وهو يرفص الألواح الرنانة :

— بالشيطان ، افتحوا أيتها المخلوقات التي لا تعرف معنى الضيافة !

ولكن كان من العسير أن يسمع صوته بسبب هدير الرفاص الذي يصم الآذان ومن حسن الحظ أن عملية الغوص توقفت .

وأخيراً سمعنا من داخل المركب صليلاً وكأنه مزاليج حديدية تسحب بعنف . ثم رفع ولاح رجل أرسل صيحة عجيبة ثم اختفى فوراً .

وبعد لحظات خرج إلينا في سكون ثمانية رجال أشداء ملثمين ، ما لبثوا أن سحبونا إلى داخل هذه الآلة الرهيبة .

الفصل الثامن

حركة في قلب حركة

تمت عملية خطفنا الوحشية بسرعة البرق . ولست أدري ماذا كان شعور زميليّ وهما يدفعان إلى جوف هذا السجن العائم . أما من ناحيتي فقد سرّت في جسمي رعدة خاطفة جمدت الدماء في عروقي ترى بمن سنلتقي ؟
لاشك أنهم طائفة جديدة من القراصنة الذين استباحوا حرية البحار بوسائلهم الخاصة .

وماكاد غطاء الفتحة الضيقة يغلق فوق حتى شملني ظلام كثيف . ولم تستطع عيناى المبهورتان بالضوء الخارجى أن تتبيننا شيئاً فى الداخل . وأحسست بقدمى العاريتين تلمسان درجات سلم حديدى ، وتبعنى نيدلاند وكونسايل وهما بين أذرع قوية . وفى نهاية السلم فتح الباب ، ثم أغلق على الأثر محدثاً صوتاً رناناً .

وأصبحنا بمفردنا ولكن أين . هذا ما لم أعرفه أو أستطيع تصوره . كان الظلام يغمرنا . ظلام كان شاملاً بحيث لم أستطع بعد دقائق أن أتبين حتى تلك الومضات الخافتة التى تبدو فى أشد الليالى ظلاماً .
وفى أثناء ذلك كان نيدلاند الذى تملكه الاهتياج لهذه التطورات ، قد استسلم لثورة غضبه فهتف قائلاً :

— إن هؤلاء الناس ما كانوا ليصبحوا أسوأ من هذا لو أنهم من أكلة لحوم البشر . ولن يدهشنى أن يكونوا كذلك . ولكنى لن أدعهم يأكلونى دون اعتراض .

فقال له كونسايل فى هدوء :

— هدى من روعك يا صديقي نيدلاند لا نغضب سلفاً ، فنحن لم نوضع بعد على النار .

— لا . ولكننا داخل الفرن . إن هذا الحجر الذى وضعونا فيه كالفرن تماماً ، ومن حسن الحظ أن سكينتى الحادة لا تزال معى ، وسأعرف كيف أستعملها . إن أول من يضع يده على من هؤلاء الأوغاد .
وعندئذ قلت له :

— لا تسخط يا نيد . ولا تورط نفسك بالعنف الذى لا يجدى . من يدري أنه ليس هناك من يسترق السمع ؟ الأفضح أن نحاول معرفة طبيعة المكان الذى نحن فيه .

وأخذت أتحسس طريقى وبعده أن تقدمت خمس خطوات لمست جداراً مصنوعاً من ألواح الحديد (المبرشمة) ولما استدرت اصطدمت بمائدة خشبية بالقرب منها بضعة مقاعد . كانت أرضية السجن مفروشة بحصير سميك أخفى وقع أقدامنا . ولم يكن بالجدران أى باب أو نافذة ، ولم يلبث كونساييل الذى تقدم فى الجهة المقابلة أن التقى بى ، فعدنا معاً إلى وسط الغرفة التى ناهزت مساحتها عشرين قدماً فى عشرة . أما ارتفاعها فإن نيدلاند لم يستطع قياسه رغم طول قامته .

وانقضى نصف ساعة دون أن يحدث أى تغيير فى الموقف ، ثم إذا بأبصارنا تنتقل فجأة من الظلام الدامس إلى ضوء أشد ما يكون سطوعاً . لقد أضىء سجننا كله مرة واحدة ، أو بمعنى آخر ، امتلأ بنور ساطع بلغ من قوته أننى لم أستطع أول الأمر احتمال سطوعه . وقد رأيت من شدة سطوعه وقوته أنه نفس الضوء الكهربائى الذى كان يتألق حول الحرم الغائص كأنه ظاهرة فسفورية رائعة . وبعده أن أغلقت عيني مكرهاً فتحتهما ثانية فرأيت أن مصدر الضوء شبه كرة مصقولة تضىء فى الجزء الأعلى من الغرفة .
وصاح نيدلاند قائلاً وهو يشرع المديية فى يده متخذاً موقف الدفاع .

– حسناً سنرى أخيراً .

فقلت وأنا أخشى التناقض في حديثي :

– نعم . ولكن الموقف لا يزال غامضاً .

فقال كونساييل الهادئ :

– ليتذرع سيدي بالصبر .

وأناحت لى إضاءة الغرفة فجأة الفرصة لفحصها بإمعان ، فإذا هي لا تشتمل إلا على مائدة وخمسة مقاعد ، أما الباب الخفي فكان مغلقاً بطريقة مجهولة – ولم يكن ثمة صوت يصل إلى أسمعنا ، وقد بدا كل شيء ساكناً داخل الجهاز . فهل تراه كان يتحرك أم كان ثابتاً على سطح المحيط ، أم غائصاً في الأعماق ؟ ذلك ما لم أستطع أن أتكهن به .

وأيا كان الأمر ، فإن الكرة المضيفة لم ترسل ضوءها بدون سبب ، وكنت أرجو ألا يطول الوقت حتى يكشف البحارة عن وجودهم ، وكان لهذا الشعور ما يبرره فلم نلبث أن سمعنا صليل مزليج وقضبان تسحب ، ثم فتح الباب وأقبل رجلان ، أحدهما قصير القامة ، مفتول العضلات ، عريض الكتفين ، كبير الأطراف ضخم الرأس غزير الشعر أسوده كثيف الشارب ، ينم كل شيء في مظهره عن حيوية أهل الجنوب التي تميز أبناء الأقاليم في فرنسا .

أما الثاني فهو جدير بمزيد من الإسهاب في الوصف . لقد طالعت على الفور سمات السيطرة مرتسمة على وجهه الساخر : « ثقة بالنفس يدل عليها ثبات ارتكاز رأسه على كتفيه . وانطلاق النظرات من عينيه السوداوين فيما حوله ببرود الواثق من قوته ، وسكون مرجعه إلا أن لون بشرته يدل » على هدوء الدماء في عروقه ، ونشاط يتمثل في سرعة اختلاج حاجبيه ، وشجاعة لأن تنفسه العميق ينبي عن انطلاق وحيوية . لقد أحسست رغماً عنى بظمأنينة في وجودي معه ، وتوقعت أن أجد الخير على يديه . وكان

يبدو فيما بين الخامسة والثلاثين والحمسين وكان طول قامته واتساع جبينه واستقامة أنفه ودقة فمه ، وجمال أسنانه ، ورقة يديه تم كلها عن حدة المزاج والواقع أنه كان أبدع طراز بين الرجال صادفته في حياتي : وكانت ثمة خاصة غريبة بصدد عينيه اللتين كانتا تتباعدان بعض الشيء ، فقد كانت لهما القدرة على أن تشملنا بنظرة واحدة ربع الأفق . وقد اقترنت هذه الميزة التي بينتها فيما بعد بقوة إبصار تفوق حتى قوة نيد لاند . فإذا أراد هذا الرجل أن يتبين شيئاً ، قطب حاجبيه وضم جفنيه ليختصر مدى الرؤية والنتيجة هي نظرة تنفذ إلى أعماق الإنسان . إنه بهذه النظرة يخترق الأمواج السائلة التي تبدو غامضة لنا وكأنما يقرأ ما في أغوار البحر .

وكان كلاهما يغطي رأسه بقلنسوة من فراء كلب البحر ويلبس حذاء من جلد سبع البحر . وملابس من نسيج خاص يسمح لهما بالمزيد من حرية الحركة .

وأخذ أطولهما وكان يبدو بوضوح أنه الرئيس ، يفحصنا في عناية بالغة دون أن ينطق بكلمة . ثم استدار نحو صاحبه وتحدث إليه بلغة لم أستطع أن أفهمها . كانت لغة ذات رنين وتناسق ومرونة بدت فيها حروف الحركة متنوعة في أساليب نطقها .

فأجاب الآخر بهزة من رأسه وهو يفوه بكلمتين أو ثلاث بلغة غير مفهومة وبدا من نظراته أنه يوجه السؤال إلى مباشرة . فرددت بلغة فرنسية سليمة قائلاً إنني لا أفهم لغته ، ولكن بدا لي أنه لا يفهم الفرنسية ، وهكذا ازداد الموقف حرجاً .

وقال تابعي كونسائل :

— إذا سرد سيدى قصتنا ، فربما استطاع هذان السيدان أن يفهما بضع كلمات منها .

وبدأت في سرد مغامرتنا . بنبرات واضحة دون أن أترك أدق التفاصيل .

وذكرت أسماءنا وصفاتنا وأخذ الرجل ذو العينين الرقيقتين الهادئتين ينصت إلى بهدوء بل وفي تأدب واهتمام ملحوظ واكن لم يبد على وجهه ما يدل على الفهم . ولما فرغت لم يفه بكلمة واحدة .

وكان ثمة وسيلة أخرى وهي اللغة الانجليزية – فلعل أحدهما يفهم هذه اللغة الواسعة الانتشار وكنت أحسن القراءة بالألمانية أيضاً ، وإن لم أكن أحسن التحدث بهما . لذلك قلت لنيدلاند :

– جاء دورك يا نيدلاند . استفذ من إتقانك للغة الإنجليزية . عسى أن تكون أكثر منى توفيقاً .

ولم يكن نيدلاند بحاجة إلى إغراء فالبث أن راح يقص أمرنا بالإنجليزية . ثم انتهى بقوله صدقاً ، إننا نكاد نموت جوعاً . ولشد ما كان اشمزازه حين أدرك أنه لم يكن أكثر توفيقاً منى . فإن زائرنا لم يبد عليهما أدنى تأثر . وكان واضحاً أنهما لا يعرفان الفرنسية أو الإنجليزية . وبينما كنت أفكر فيما ينبغي أن تفعل بعد هذا ، إذا بكونسايل يقول لى :

– هل يسمح لى سيدى أن أتحدث إليهم بالألمانية ؟

فهتفت قائلاً :

– ماذا ؟ أتعرف الألمانية ؟

– كما يعرفها أبناؤها .

– حسناً ! ابذل جهدك يا صاحبي .

وأخذ كونسايل للمرة الثالثة يسرد قصتنا ولكن دون جدوى . وعندئذ استجمعت كل ما تعلمته من اللغة اللاتينية فى المدرسة ، وتحدثت عن مغامرتى بهذه اللغة القديمة . ولو أن شيشرون سمعنى لأصم أذنيه وأرسلنى إلى المطبخ . واكننى رغم كل ما بذلت من جهد كانت النتيجة سلبية . وبعد هذه المحاولة الأخيرة ، تبادل الرجلان كلمات قليلة بلغتهما المجهولة ، ثم انصرفا دون أن يبادوا منهما ما يطمئنتنا . وأغلق الباب خلفهما .

وانفجر نيدلاند غاضباً للمرة العشرين وصاح قائلاً :
 — هذا أمر شائن . كيف نتحدث إلى هؤلاء الأوغاد بالفرنسية والإنجليزية
 والألمانية واللاتينية دون أن يتأدب أحدهما ويرد علينا .
 فقلت لصاحبي الغاضب :

— هدى نفسك ، فإن الغضب لن يجدى نفعاً .
 فاستمر نيدلاند في غضبه قائلاً :
 — ولكن هل تعلم يا سيدى البروفسور أنه من الممكن أن نموت جوعاً
 في هذا القفص الحديدى ؟

فقال كونساييل

— آه . إن فى مقدورنا بشىء من الفلسفة أن نقاوم فترة أخرى .
 فقلت :

— ينبغي يا صاحباى ألا نركن لليأس . فقد كنا قبل الآن فى ظروف
 أسوأ من هذه أرجو أن تفضلاً بالانتظار قبل أن تصدروا الحكم على ربان
 هذه العائمة وملاحها .
 فقال نيدلاند :

— لقد انتهيت إلى رأى فى هؤلاء الناس . إنهم أوغاد .
 — حسناً . وإلى أى بلد ينتمون . بهذا الوصف ؟
 — بلد الأوغاد .

— يا صاحبي نيد الفاضل . إن هذا البلد لم يسجل بعد على خريطة العالم
 بما فيه الكفاية . وأنا أعترف أن من العسير معرفة جنسية هذين الرجلين .
 فلاهما إنجليزيان أو فرنسيان أو ألمانيان هذه حقيقة مؤكدة . وعلى كل حال
 فلنى أمل إلى الاعتقاد بأن هذا الربان ومساعدته هما من البلاد الجنوبية .
 فإن لهما سمات أبناء البحر الأبيض المتوسط . ولكن هل هما من الأسنان أو

الأتراك أو العرب أو الهنود ؟ إن هيتهما العامة لا تيسر لنا التأكد من هذا
أما لغتهما ، فهي غير مفهومة إطلاقاً .

فقال كونساييل :

– هذه مساوئ عدم الإلمام بكل اللغات ، أو مساوئ عدم الاقتصار
على لغة عالمية واحدة .

فقال نيدلاند :

– ما كان هذا ليجدينا نفعاً . ألا ترى أن لهؤلاء الناس لغة خاصة .
لغة اخترعوها بقصد إدخال اليأس على نفوس أمثالنا من الشرفاء الذين
يطلبون الطعام ؟ ولكن في أى بلد في العالم إذا أنت فتحت فمك وحركت
فكيك ثم أطبقت أسنانك وشفيتك فهم الناس ما تريد . ألا تعنى هذه الحركات
في كندا وفي جزائر سوسيتي مثلما تعنى في باريس وغيرها من البلاد أنك
جائع وتطلب ما تأكله ؟

فقال كونساييل :

– أوه . هناك أناس يبلغ بهم عدم الفهم أن ...

وبينما هو يفوه بهذه الكلمات فتح الباب ، ودخل خادم يحمل إلينا
ملابس كتلك التي كان يرتديها الغريبان فأسرعنا بارتدائها .

وفي خلال ذلك كان الخادم الذي بدا لنا أصم أخرس هو أيضاً يضع
على المائدة أدوات الطعام لثلاثة أشخاص .

فقال كونساييل :

– هذه بوادر مشجعة .

وقال نيدلاند :

– أراهن بكل تأكيد أنه لا يوجد هنا شيء يصلح للأكل . ربما لا يزيد
عن كبد السلحفاة البحرية أو زعانف سمك القرش ، أو شرائح كلب البحر .

فقال كونساييل :

– سنرى قريباً .

ووضعت الأطباق ذات الأغذية الفضية على المائدة في نسق جميل يُم عن مدينة هؤلاء الذين سنتعامل معهم . ولولا ذلك الضوء الكهربائي الذي كان يغمرنا لتصورت نفسى جالساً في فندق أدلني بمدينة ليفربول أو في الجرانند أوتيل بباريس . ولم يكن على المائدة خبز أو خمر . لا شيء غير الماء القراح الذي لم يكن مستساغاً لنيدلاند بأية حال . ومن بين ألوان الطعام التي وضعت أمامنا تعرفت على أنواع كثيرة من الأسماك المطهوه بإتقان . ولكن كان بينها أنواع أخرى لم أستطع معرفتها رغم طيب مذاقها . ولم يكن في مقدوري أن أعرف موطنها من دول العالم . وكانت أدوات الطعام أنيقة ، تدل على الذوق الجميل ، وكل قطعة منها كانت تحمل الحرف « ن » مع هذا الشعار :

« الحركة في قلب الحركة »

أى حركة مستمرة في قلب شيء متحرك . أما الحرف « ن » فلا شك أنه الحرف الأول من اسم الرجل الغامض الذي يسيطر على أغوار المحيط ، وكان نيدلاند وكونسايل في شغل عن هذه الملاحظات بالتهام كل ما وضع أمامهما . وقد انتهى أمرى بأن حدثت حدوهما . وأخيراً أحسنا بالشبع ، ثم بالرغبة في النوم ، وهو رد فعل طبيعي بعد الإرهاق الذي أحسنا به خلال تلك الليلة التي لا نهاية لها ونحن نكافح الموت .

وما أن رقد صاحباى على السجادة حتى استغرقا في نوم عميق ، ولكنى لم أنم بهذه السرعة فقد كانت الأفكار العديدة تملأ ذهني ، كما أخذت المشكلات الكثيرة التي تواجهنا تطالبنى بالحل . وظلت الخيالات والصور تطرد النوم عن عيني . : فأين نحن ؟ أية قوة عجيبة تحملنا في أحشائها ؟ لقد شعرت ،

أوخيل إلى ، هذه الآلة العجيبة تغوص بنا إلى أعماق البحر واستبدت
بذهني الأحلام مفزعة . فرأيت في طيات هذه الأحلام عالماً خفياً من
الحيوانات من بينها هذه الغواصة التي بدت حية ، متحركة ، هائلة مثلها .
وأخيراً هدأت أفكارى واندججت خيالاتى في عالم الأحلام ثم سرعان ما استغرقت
في نوم عميق .

**** معرفتى ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل التاسع

غضبة نيدلاند

لم أدر كم لبثنا نياماً ، ولكن لا بد أننا نمنا فترة طويلة ، لأننا أحسنا بالراحة بعد الإرهاق الشديد . وكنت أول من استيقظ ، أما صاحباي فلم يتحرك أحدهما

ولم تمض فترة على قيامي من فراشي الصلب حتى شعرت بصفاء في ذهني وجعلت أتلفت حولي .

لم يتغير شيء في الغرفة . فقد ظل السجن سجنًا ، والسجناء على حالهم . وانتهز الخادم فرصة نومنا فرفع أدوات الطعام عن المائدة . ولم يكن ثمة ما يدل على قرب حدوث أي تغيير في حالتنا وقد سألت نفسي جاداً هل قدر علينا أن نعيش أبداً في هذا القفص ؟

لقد بدا هذا الاحتمال أبعث على الأمل ، لأنني كنت أشعر رغم صفاء ذهني بانقباض في صدري كان إهواء الكثيف يثقل على رثتي . والظاهر أننا استنفذنا الجزء الأكبر من الأوكسجين في الغرفة رغم اتساعها . فإن الفرد يستنفذ في الساعة الواحدة الأوكسجين الموجود في نحو ٨٥ لترًا من الهواء وهذا الهواء بعد أن يثقل بمثل هذه الكمية من ثاني أوكسيد الكربون يغلو غير محتمل .

وكان من المختم إذن تجديد جو سجننا بأقرب وقت ، بل جو الغواصة غالباً ، وتبعاً لذلك عرض لذهني هذا السؤال : « ماذا يفعل ربان هذا المسكن العائم ؟ هل يحصل على الهواء بوسائل كيميائية وذلك بالعمل على امتداد حرارة الأوكسجين الموجود في كلورات البوتاسيوم ، بامتصاص ثاني أوكسيد

الكربون بالبوتاسيوم الكاوي ؟ وفي هذه الحالة لا بد له من الاتصال باليابسة ليحصل على المواد اللازمة لهذه العملية . هل يقتصر على تزويد الغواصة باحتياطي من الهواء المضغوط في اسطوانات ضخمة ثم يطلقه وفقاً لاحتياجات رجاله ؟

ربما ، أم لعله يتبع الوسيلة الطبيعية الاقتصادية البسيطة فيرتفع بالغواصة إلى سطح البحر للتنفس ، كالثدييات الهائلة – ثم يجدد مؤونته من الهواء التي كل أربع وعشرين ساعة ؟ أيا كانت وسيلته في هذا الشأن، فقد بدا لي أن الوقت قد حان للعمل دون أي تأخير .

واضطرت إلى مضاعفة التنفس لاستخلاص الكمية القليلة الباقية من الأوكسجين في الغرفة وفجأة أنعشني تيار هواء نقي محمل برائحة المياه المالحة . إنه هواء البحر باعث الحياة الداخر باليود .

وفتحت في على سعته ، فتشبت رثنای بالذرات الرطبية وشعرت في الوقت نفسه بالمركب تأرجح والظاهر بأن الوحش المكسو بألواح الحديد ارتفع كالحيتان . ولما شبت تنفساً ، تلفت حولي أبحث عن جهاز التهوية الذي جاءنا بالنسيم المنفس الرحيم ، ولم يطل بي الوقت حتى عثرت عليه . وبينما أنا منشغل بهذه الملاحظات استيقظ صاحبای في نفس الوقت تقريباً . ولاشك أنهما استيقظا بتأثير الهواء المنعش . وقد فرك كلاهما عينيه وتمطى . ونهض على الأثر وقال لي كونسایل بأدبه المعهود :

– هل نام سيدي مستريحاً ؟

– جداً . . وأنت يانيدلاند ؟

– نمت نوماً عميقاً ياسيدي البروفسور ، ولكنني – إذا صح ظني –

أتنفس الآن هواء البحر .

كانت هذه حقيقة لا يخفى فهمها أحد من رجال البحر . وقد أخبرت

الكندي بما حدث أثناء نومه فقال :

– إن هذا يفسر الهدير الذى سمعناه حين كان الكركدن البحرى
المزعوم على مرمى النظر من السفينة إبراهيم لنكولن ؟
– نعم يانيدلاند كان ذلك صوت تنفسيه .
– ترى ما هو الوقت الآن إلا إذا كنا فى وقت العشاء .
– وقت العشاء يا نيد ! قل ساعة الإفطار على الأقل ، فإننا فى الواقع
قد نمنا نحو أربع وعشرين ساعة .
فقال نيدلاند :

– لن أجادلك . ولكن سواء كنا فى وقت العشاء أو الإفطار فإنى على
استعداد للترحيب بالخدام إذا جاءنا بأحدهما .
فقال كونساييل :

– بل بالاثنتين معاً .
فقال الكندى :

– نعم بالتأكيد . فإن لنا الحق فى وجبتين ، وأنا مستعد من ناحيتى لأن
أقوم بالواجب نحوهما .
فقلت :

– حسناً يانيد . لا بد لنا من الانتظار . . فالواضح أنه ليس فى نية
هذين الرجلين تركنا نموت جوعاً ، وإلا لما كان هناك داع لتقديم طعام
العشاء لنا أمس .
فقال نيد :

– إلا إذا فعلوا ذلك بقصد تسميننا .
فقلت :

– إننى أحتج . فنحن لم نقع فى أيدي أكلة لحوم البشر .
فقال الكندى بلهجة الخد :

– من يدري ؟ فلعل هؤلاء الناس حرموا طويلاً من اللجوم الطازجة ؟

وفي هذه الحالة سيرحبون طبعاً بلحم أشخاص أصحاء أقوياء كالأستاذ وتابعه وأنا .

فقلت :

— اطرد هذه الأفكار يا نيد لاند . وأهم من هذا كله ينبغي ألا تدع الغضب يفسد علاقتنا بمضيفنا وإلا زاد موقفنا سوءاً .

فقال صياد الحيتان :

— أياً كان الأمر ، فأنا أشعر بأشد الجوع ، وسواء كنا في وقت العشاء أو الإفطار ، فان الطعام لم يصل بعد .

فقلت له :

— لأنه يجب أن تخضع للنظام المتبع في المركب . ويبدو أن ساعة بطوننا متقدمة عن مواعيد الطعام هنا .

فقال كونساييل بهدوء :

— علينا إذن أن نضبط ساعات بطوننا .

فرد عليه الكندي المتضجر قائلاً :

— هكذا أنت دائماً يا كونساييل . لا تستخدم قط أعصابك أو عصارتك الهضمية . دائماً هادئ بوسعك أن تصلى على روحك في ساعة الاحتضار وأن تموت جوعاً دون شكوى .

فقال له كونساييل :

— وما فائدة الشكوى ؟

— إن الشكوى مفيدة : إنها تخفف عن الإنسان إحساسه بالضيق . وإذا كان هؤلاء القراصنة ، وأنا أقول القراصنة حتى لا أغضب البروفسور الذى لا يجب أن أسميهم أكلة لحوم البشر . إذا كان هؤلاء القراصنة يحسبون أنهم سيقوننى في هذا القفص لأموت محتقناً دون أن يسمعوا رأى فيهم ، فإنهم مخطئون . هلم يا مسيو أروناكس لتحدث بصراحة ، هل تظن أنهم سيقوننا طويلاً في هذا القفص الحديدى ؟

– أصرحك يا صديقي لاند أنى لا أعرف عن هذا الأمر أكثر مما تعرف .

– ولكن ما هو رأيك الخاص ؟

– فى رأى أن المصادفة جعلتنا نطلع على سر خطير ، فإذا كان من صالح أصحاب هذه الغواصة المحافظة على هذا السر ، وإذا كان صالحهم هذا أئمن من حياة ثلاثة أشخاص ، فاعتقادي أن حياتنا معرضة لأشد الخطر . أما إذا كان الأمر بالعكس ، فإن هذا الوحش الذى ابتلعنا سينتهز أول فرصة ليلفظنا إلى العالم المأهول بأمثالنا .

فقال كونسايل :

– إلا إذا أدمجنا فى عداد بحارته . وعندئذ يحتفظ بنا هكذا .

فرد نيدلاند قائلاً :

– حتى تلتقى بنا سفينة أسرع أو أبرع من من إبراهيم لنكون ، فسيطر على وكر هؤلاء القراصنة ، وترسلهم ونحن معهم إلى حيث نلفظ أنفاسنا الأخيرة على أطراف سارياتها .

فقلت له

– أحسنت الاستنتاج يا نيدلاند . ولكنى أعتقد أن اقتراحاً كهذا لم يعرض علينا بعد ، وإذن فن العبث أن نناقش ما سيكون عليه موقفنا فى تلك الحالة . أعود فأقول إنه لا بد أن ننتظر . وأن نقدر الظروف ، وأن نفعل شيئاً . إذ ليس ثمة ما يمكن فعله .

فأجاب صياد الحيتان الذى لم يشأ النزول عن رأيه :

– بالعكس ياسيدى البروفسور . فالواجب ألا نقف مكتوفى الأيدي .

– وماذا نفعل ؟

– نهرب .

– إن الهرب من سجن على اليابسة من الأمور الصعبة غالباً . أما الهرب

أما الهرب من سجن في غواصة فهو في رأيي مستحيل .

فقال كونساييل :

– تكلم يا صديقي نيد ؟ ما رأيك في اعتراض البروفسور ؟ لا أعتقد أن الأمريكي ضعيف الحيلة .

لم يسع نيدلاند إلا أن يلزم الصمت محرّجاً . فإن الهرب في ظروف كالتى فرضتها علينا المصادفات أمر جد مستحيل . ولكن الكندي نصفه فرنسي ، وقد بدا هذا في جوابه ، إذ قال بعد تفكير دام دقائق .

– إذن يامسيو أرونالكس أنت لا تدري لماذا ينبغي أن يفعل من لا يستطيعون الإفلات من سجن ؟

– لا أدري يا صديقي .

– إن الأمر جد يسير . . عليهم أن يعدوا أنفسهم للبقاء فيه .

– فقال كونساييل :

– أعتقد هذا . فإن البقاء فيه أفضل من الإقامة فوق سطحه أو تحت

قاعه ...

وأضاف نيد لاند بقوله :

– ولكن بعد أن تلتقي بالحراس والسجانين في خارجه ؟

– ماذا يا نيد ؟ أتفكر جدياً في الاستيلاء على هذه السفينة ؟

– نعم كل الجهد .

– إن هذا مستحيل .

– كيف يستحيل هذا ياسيدى ؟ قد تسنح لنا الفرصة المناسبة ولا أرى

ما يمنعنا من انتهازها . فإذا كان في هذه الآلة عشرون رجلاً ، فلن نحققوا فرنسيين وكندياً ، فيما أظن .

كان من الأفضل أن أسلم برأى صياد الحيتان على أن أجادله ، وهكذا:

اكتفيت بأن رحمت أقول :

– دع مثل هذه الفرصة تسنح يا مستر لاند ، وسرى بعد ذلك .
ولكنى أرى في خلال هذا أن تحذ من ضجرك . فنحن لا نستطيع أن نتصرف
إلا بالحيلة . ولن نستطيع اقتناص الفرص السانحة بالاستسلام للغضب . عدنى
إذن أنك ستقبل الموقف دون مزيد من الغضب .

فقال نيدلاند في لهجة تبعث على تمام الطمأنينة :

أعدك يا بروفيسور ألا تبدر من فى كلمة عنيفة واحدة ، وألا تصدر عنى
حركة تم عن الغضب ، حتى لو أنهم قاموا على خدمتنا على المائدة بغير اللياقة
المنشودة .

فقلت له :

– إنى أسجل عليك هذا الوعد يا نيد .

وتوقفت المحادثة عند هذا الحد ، وأخذ كل منا إلى أفكاره الخاصة .
وأقرر من ناحيتى ، ورغم توكيدات صياد الحيتان أنى لم أستسلم للأوهام .
فإنى لم أسلم باحتمال سنوح الفرص المواتية التى تحدث نيدلاند عنها . فلكنى تدار
الغواصة على هذه الصورة الناجحة لا بد أن يكون لها قوة كبيرة من الملاحين ،
وتبعاً لذلك يتعين علينا فى حالة الاشتباك ، أن نواجه رجالاً موفورى العدد
وفوق هذا وأهم من هذا كله ، يجب أن نكون أحراراً وليس الأمر كذلك
بل لم أر وسيلة ما للخروج من هذه الزنزانة الحديدية المحكمة من حولنا .
وإذا كان لربان هذه الغواصة سر يخفيه – وهو أمر يبدو محتمل على
الأقل – فإنه لن يسمح لنا بحرية التنقل على سطحها . والآن هل يعمد إلى
التخلص منا بالعنف أم يلتقى بنا فى ركن قصى من أركان الأرض ؟ هذا كله
من الأمور المجهولة . لقد بدت لى هذه النظريات جد محتملة . ولا بد أن
يكون الإنسان صياد حيتان لكى يخامرهم الأمل فى اقتناص حربته مرة أخرى .
وبدا لى أن نيد لاند يزداد غضباً بآثير الأفكار التى استحوذت على
عقله فقد سمعته يغمغم بالسباب فى صوت خفيض خشن ، ورأيت فى نظراته

مرة أخرى أمارات التهديد والوعيد . ومالبث أن نهض وراح يذرع الغرفة كالوحش السجين في قفص ، وضرب الحدران بقدمه وقبضة يده . وفضلاً عن هذا فإن الوقت كان ينصرم ، والجوع تشتد وطأته ، وفي هذه المرة لم يظهر الخادم . فإذا كان هؤلاء الناس يريدون بنا خيراً حقاً ، فقد أسرفوا في نسيان حالتنا المحزنة .

وتزايد غضب نيد لاند وهو يتعذب بوخزات معدته القوية ، حتى خشيت رغم وعده لي أن ينفجر في وجه رجال الغواصة عند حضورهم مرة أخرى .

وانصرفت ساعتان أخريان ، واشتد غضب نيد لاند . فراح يصرخ وينادى بأعلى صوته ، ولكن دون جدوى . فقد كانت الحدران الحديدية صماء ، وبدت الغواصة ساكنة تماماً ، وغدا السكون مرهقاً شديداً الوطأة .

ولم أعد أجروء على التفكير مرة أخرى في المدة التي قد نبقى فيها مهملين منغلين داخل هذه الزنزانة الحديدية . وأخذت الآمال التي كنت أتصورها بعد أن تيسر لي مقابلة ربان السفينة تتلاشى واحداً بعد الآخر . واختفت من ذاكرتي الصورة التي كونتها عن الرجل ، من نظرة رقيقة ، وأمارات للكرم على وجهه ، ونبل في مظهره ، وعدت أتصور صاحب هذه الشخصية الغامضة كما ينبغي أن يكون رجلاً قاسياً لا يرحم . أحسست أنه بعيد عن محيط الإنسانية . لا تنفذ إليه مشاعر الرحمة . عدواً لدود لإخوانه في البشرية ، نذرهم كراهية لا تحبو أوارها .

ولكن هل ينوى هذا الرجل إذن أن يدعنا نهلك جوعاً وإعياء في هذا السجن الضيق . فيدفعنا إلى ارتكاب الأعمال الفظيعة التي يفضي إليها الجوع الوحشي ؟ إن هذه الفكرة المرعبة التي استبدت بذهني ، وجسمها الخيال ، مهدت للخوف الأهوج أن يحتاجني .

أما كونسایل فقد ظل هادئاً . واستدير نيد لاند في هياجه . وفي تلك

اللحظة سمعنا جلبة في الخارج ووقع أقدام ترن فوق الألواح الحديدية ، ثم تحركت المزاليج ، وفتح الباب ، وأقبل الخادم .
واندفع نيدلاند قبل أن أستطع منعه نحو القادم المنكود والتي به أرضاً وأطبق على عنقه ، فكاد الخادم يخنق من قبضته القوية .
وبينما كان كونساييل يحاول إنقاذ الضحية من يدي نيدلاند وقد هممت أن أنضم إليه لمساعدته إذا بي فجأة أقف مسماً في مكاني لدى سماعي هذه العبارة فقال بالفرنسية :
هدئ من نفسك يا مستر لاند . وأنت يابرفسور أرجو أن تنصت لي ...

الفصل العاشر

نيمو

كان المتكلم ربان السفينة . وما أن سمع نيدلاند هذه الكلمات حتى نهض فجأة وانسحب الخادم ، الذي كاد أن يَخْتَنق ، من الغرفة متعراً بإشارة من سيده . وقد بلغ من سيطرة الربان على السفينة ، أن الخادم لم تبد منه إيماءة تم عن الامتعاظ الذي لا بد أنه أحسه حيال الكندي . ووقف كونسايل الذي بدا عليه الاهتمام برغمه ، ووقفت أنا مذهولاً ، ننتظر في سكون نتيجة هذا الحوار .

ووقف الربان مستنداً إلى جانب المائدة ، مشبكاً ذراعيه ، ينظر إلينا باهتمام بالغ . وبعد بضع دقائق من الصمت الذي لم يخطر لأحدنا أن يقطعه راح يقول بصوت هادئ نفاذ :

– أيها السادة . إنني أتكلم الفرنسية والإنجليزية والألمانية ، واللاتينية بطلاقة . وكان يمكن أن أرد عليكم أثناء مقابلتنا الأخيرة . ولكنني أردت أولاً أن أعرفكم ، ثم أفكر بعد ذلك فيما قلم . إن قصة كل منكم تطابقت في جوهرها ، وقد أكدت لي حقيقة شخصياتكم . وأنا الآن أعرف أن المصادفة هي التي جمعتني بالبروفسور بيير أروناكس أستاذ التاريخ الطبيعي بمتحف باريس ، والمرافق لإحدى البعثات العلمية الأجنبية ، وتابعه كونسايل ونيدلاند الكندي صياد الحيتان ، وثلاثتكم من ركاب السفينة إبراهيم لتكولن لإحدى سفن البحرية الأمريكية .

وأجبت على حديثه بإيماءة من رأسى ، إذ لم يكن ثمة موجب للجواب . ذلك أن هذا الرجل كان يعبر عما يريد بسهولة تامة ، دون أن تشوب حديثه لهجة أجنبية ، ومع ذلك شعرت أنه ليس واحداً من مواطني .

وقد استطرد في حديثه قائلاً :

– وربما بدا لكم أنى جعلتكم تنتظرون زيارتى الثانية لكم طويلاً . وإنما كان ذلك لأنى بعد أن عرفت شخصياتكم ، أردت أن أتدبر فيما ينبغى أن أفعل بكم . وقد ترددت فى هذا طويلاً . فلن أسوأ أنواع المصادفات قد ألفت بكم فى طريق رجل قطع كل علاقة تربطه بالمحيط الإنسانى . . لقد جنتم لتفسدوا على وجودى . .
فقلت له :

– فعلنا هذا بغير عمد .

فكرر العبارة الأخيرة وهو يرفع نبرات صوته قليلاً :

– بغير عمد ، هل بغير عمد كانت السفينة إبراهيم لنكولن تطاردنى فى كافة البحار ؟ هل كان انضمامكم إلى السفينة بغير عمد ؟ وهل بغير عمد أصابت قذائفكم سفينتى ؟ وهل قذف المستر لاند حربته علينا بغير عمد ؟
فرددت عليه قائلاً ؟

– لاشك أنك لا تعلم مدى الضجة التى سببتها فى أوروبا وأمريكا ، عند ما كانت السفينة إبراهيم لنكولن تطاردك فى أعالي البحار ، كان جميع من أقتهم يعتقدون أنهم يطاردون وحشاً بحرياً .

فلاحت على شفتى الربان ابتسامة خفيفة ثم استطرد قائلاً بصوت أهدأ .
– هل تجسر أن تؤكد يامسيو أروناكس أنكم ما كنتم لتطاردوا غواصة كما بطاردتم الوحش البحرى ؟
وأخرجنى هذا السؤال فإن الربان فارجوت ما كان يتردد فى هذا حمياً .
كان يعد تدمير مثل هذه الآلة واجباً محتوماً عليه كواجبه إزاء الوحش البحرى الهائل الذى ظنه أولاً .

واستطرد الربان يقول :

– أترى يا سيدى من حق معاملتكم كأعداء ؟

لم أجب بشيء ، ولسبب جد معقول . فقد كان الربان يملك القوة ، وهي تهدم أقوى الحجج .

واسترسل في حديثه قائلاً :

– لقد ترددت كثيراً . لاشيء يرغمني على استضافتكم . في مقدوري أن أضعكم على سطح هذه الغواصة التي لجأتم إليها ثم أغوص إلى الأعماق وأنسى كل اعتبار بأنه كان لكم وجود . لو فعلت هذا لما كنت إلا مستعملاً حتى فأجبت قائلاً :

– لعلك تقصد حق رجل الغاب لا حق الإنسان المتمدين .

فأسرع الربان يجيب قائلاً :

– لستُ يا برفسور من الذين يطلق عليهم وصف الرجل المتمدين . لقد فصمت علاقتي بالمجتمع الإنساني نهائياً ولأسباب تبدو في نظري طيبة . وإذن فأنا لا أطيع قوانينه . وأحب ألا تشيروا إليها قط مرة أخرى أمامي .

كان يعبر عن رأيه هذا بوضوح وقد امتزجت نظراته بوميض الغضب والإحتقار . وطالعتني لمحة من ماضي رهيب في حياته . إنه ينزع نفسه من محيط القوانين الإنسانية . بل جعل نفسه مستقلاً عنها . متحرراً من قيودها إلى أبعد حدود التحرر . فن إذن يجرؤ على مطاردته إلى أعماق البحار . وهو فوق سطحها يفسد كل الجهود المبذولة منك ؟ وأية دروع مهما بلغت قوتها تستطيع احتمال ضربات مهمازه ؟ بل ليس هناك رجل يستطيع محاسبته على كلماته إنما حسابه عند الله . وإلى ضميره إن كان له ضمير .

طافت هذه الحواطر بسرعة في ذهني بينما كان الرجل العجيب صامتاً ، مستغرقاً في أفكاره منطوياً على نفسه ، وتطلعت إليه في روع ممزوج بالاهتمام . تماماً كما فعل أوديب وهو يتطلع إلى أبي الهول .

وبعد فترة من الصمت غير وجيزة عاد الربان إلى الحديث . فقال :

– لهذا كله ترددت . ولكني رأيت أن من صالحى ما قد يتفق مع

مشاعر الرحمة التي لا تخلو منها النفس الإنسانية . ومن ثم يمكنكم البقاء في سفينتي مادام القدر جاء بكم إليها .. سأمنحكم الحرية . وفي مقابل هذه الحرية التي ستكون طبعاً نسبية أطالبكم بشرط واحد . ويكفيني وعد شرف منكم أنكم ستخضعون لهذا الشرط

فقلت له :

– تكلم ياسيدى أظنه شرط يمكن أن يقبله الرجل الشريف .
– نعم وهذا هو الشرط : قد تضطرنى أحداث معينة غير منتظرة إلى إبقائكم داخل غرفتكم بضع ساعات أو أيام . ولما كنت راغباً عن استعمال العنف . فإني أنتظر منكم في هذه الحالة ، أكثر مما أنتظر من غيركم الطاعة التامة . ووفقاً لهذا التصرف فإني أحتمل جميع المسؤوليات . بل إنى أرفع عنكم كل تبعة عند ما أحول بينكم وبين رؤية ما لا ينبغي أن تروه . فهل تقبلون هذا الشرط ؟

إذن فقد كانت في السفينة أمور فريدة . على الأقل . وينبغي ألا يراها من لا يزالون يعيشون في نطاق القوانين الاجتماعية التي أنكرها الربان وتبرأ منها .

ولم ألبث أن أجبت قائلاً :

– قبلنا ولكننى فقط أرجو أن تسمح لى بتوجيه سؤال .. سؤال واحد :
– ما هو ؟

– ما هو مدى الحرية التي ستمنحها لنا؟

– حرية التجول داخل الغواصة دون قيد ومشاهدة كل ما يجري أمامكم إلا في أحوال نادرة وبعبارة موجزة هي الحرية التي أتمتع بها أنا وزملائي هنا . وكان جلياً أننا لم نفهم أحدنا الآخر فقلت :

– معذرة ياسيدى . لكن هذه الحرية لا تزيد عن حرية السجين في التجول داخل سجنه وهي غير كافية لنا .

- يجب أن تعدوها كافية .
- هل تريد أن تقول إنه ينبغي علينا أن نتخلى عن كل فكرة في رؤية أوطاننا وأهلينا وأصدقائنا ؟
- نعم يا سيدي . ولكن التخلي عن ذلك النير الثقيل الذي يسميه الناس بالحرية قد لا يكون مؤلماً كما تظن .
- وعندئذ قال نيدلاند :
- أصارحك أتى لن أعدك قط وعد شرف ألا أحاول الهرب .
- فقال الربان برود :
- إنى لم أطلب وعد شرف منك يا مستر نيدلاند .
- فقلت : وقد أفلت زمام شعورى برغمى :
- سيدي إنك تستغل موقفك تجاهنا . وهذه قسوة .
- كلا ياسيدي بل هى الشفقة بعينها . أنتم أسرى حرب عندى . وإنى أبقى عليكم فى حين أن فى استطاعتى بكلسة واحدة أن أقذف بكم إلى أعماق المحيط . لقد هاجتمونى . لقد جئتم واكتشفتم سر وجودى كله . فهل تظنون أتى سأعيدكم إلى عالمكم مرة أخرى؟ أبداً .
- وأبانت هذه الكلمات عن تشبث الربان بما عقد العزم عليه . وإنه لاجدوى من المناقشة معه .
- ولهذا قلت :
- إذن فأنت ياسيدي تخيرنا ببساطة بين الحياة والموت ؟
- كما تقول .
- لا جواب عندنا على مثل هذا السؤال . ولكن ليس هناك كلمة شرف يمكن أن تربطنا بسيد. هذه الغواصة .
- فقال الربان :
- هو ذاك ياسيدي . . .

ثم استطرد يقول برقة :

– والآن اسمحوا لي أن أتم ما أريد أن أقوله لكم . إنني أعرفك يامسيو أروناكس . فأنت – دون صاحبك – لن تجد ما تشكو منه في هذه المصادفة التي ربطت بينك وبينى . لقد قمت بأبحاثك بقدر ما سمحت به العلوم المعروفة على اليابسة . ولكنك على ظهر سفينتي ستتاح لك الفرصة لكي ترى ما لم يره إنسان من قبل . إن كرتنا الأرضية – بفضلى – ستفضى لنا بأسرارها الأخيرة .

ولست أنكر أن هذه الكلمات تركت أثراً كبيراً في نفسى . لقد لمس نقطة الضعف عندي حتى نسيت برهة أن تدبر هذه المسائل القدسية لاستحق فقدان الحرية . وفضلاً عن هذا تركت للمستقبل تسوية هذه المشكلة . الخطيرة ، وهكذا اكتفيت بأن قلت :

– ما هو الاسم الذى نناديك به ياسيدى .

فأجاب الربان :

– الربان نيمو . هذا كل ما يجب أن تعرفوه عنى . وكذلك أنتم لن تكونوا بالنسبة لى أكثر من ركاب الغواصة نوتيليروس .

ثم استدعى الربان أحد الخدم ، وأصدر إليه أوامره بلغة أجنبية لم أستطع أن أفهمها ، ثم التفت إلى نيدلاند وكونسایل وقال لهما :

– إن طعامكما معد فى مقصورتكما الخاصة . فأرجو أن تتبعا هذا الرجل . فغادر رفيقاي فى البلوى الزنزانة التى اعتقلا فيها أكثر من ثلاثين ساعة ، والتفت إلى الربان قائلاً :

– والآن يامسيو أروناكس . إن إفطارنا معد . اسمح لى أن أتقدمك . وتبعت الربان نيمو إلى مايشبه دهليز تضيئه الكهرباء ، وهو بمائل ما يوجد بالقسم الأوسط فى السفينة . وبعد مسيرة نحو عشرة أمتار ، فتح أمامى باب ثان يفضى إلى غرفة الطعام مزخرفة وموثثة بأناقة بالغة . فعلى جانبها

رأيت خزانتيان من الخشب البلوط المطعم بالأبنوس ، تلمع فوق أرفقهما
أواني الخزف والزجاج النفيس وكان فوقهما صحاف انعكس عليها الضوء
المرسل من السقف ، ولكن خفف من بريقه رقة الطلاء وتناسقه . وفي
وسط الغرفة أعدت مائدة إعداداً أنيقاً . وما لبث الربان نيمو أن أشار إلى
مقعدى قائلاً :

– تفضل بالجلوس وتناول طعامك بشهية الرجل الذى يوشك على
الموت جوعاً .

وكان طعام الإفطار مجموعة من الأطباق كل محتوياتها من نتاج البحر .
وكان بعضها غريباً فى مادته وفى طريقة إعداده . ورغم طيب مذاقها فقد
كانت لها نكهة غريبة لم ألبث أن ألفتها وكان يبدو أنها أكلة غنية بمادة
الفسفور .

ونظر الربان نيمو إلى – رغم أنى لم أبادره يسؤال . فقد أدرك ما يجول
بذهنى وقال :

– إن معظم هذه الألوان من الطعام غريبة عنك . ولكن يمكنك أن تأكل
منها دون خوف . فهى صحية ومغذية ، وقد استغنيت منذ أمد بعيد عن طعام
البراء مع ذلك لم يصبنى سوء . وكذلك بجارتى وهم جميعاً أصحاء ، يتناولون
هذا الطعام .

– إذن فكل هذه الألوان من إنتاج البحر ؟

– نعم إن البحر يمدنا بكل حاجياتنا . إنى ألقى أحياناً شباك الصيد خلف
للغواصة ثم أسحبها وهى تنوء بحمولتها . وأحياناً أخرى أهبط للصيد فى هذه
المناطق التى تبدو بعيدة عن متناول الإنسان فأقتنص الصيد الذى يرتع فى
غابات الأعماق . إن قطعانى مثل قطعان الراعى القديم نبتون . ترعى دون
خوف فى مروج المحيط الشاسعة ، إن لى فيها مزرعة مترامية أقوم بنفسى
على فلاحتها ، ويمدها خالق الكون بأسره بكل شىء .

فقلت وأنا أنظر إلى الربان نيمو في شيء من الدهشة :

– أستطيع أن أفهم بسهولة أن شباك صيدك يمكن أن تزود مائدتك
بأسماك طيبة وأن في مقدورك اقتناص أنواع الصيد البحري في غابات
الأعماق . ولكنني لا أفهم كيف يمكن أن تحصل على ذرة من اللحم الحيواني
البرى .

– إن ما تظنه يا بروفيسور من لحم حيوان البر ، ليس في الواقع إلا لحم
السلحفاة البحرية وأمامك أيضاً طبق من كبد الدرفيل له مذاق لحم الخنزير
المطهو بالتوابل . إن طاهي الغواصة رجل بارع تفنن في إعداد مختلف منتجات
البحر . تذوق كل هذه الأطباق . هذه مربى من نبات (الهولوتورا) البحري
ولو ذاقها أحد أبناء الملايو لقال إنه لا مثيل لها في العالم . وهذه كريمة مصنوعة
من نبات (السيناشيا) . وهذا سكر أنتجناه من طحلب (الفوقس) الموجود
في بحر الشمال . وأخيراً اسمح لي أن أقدم لك حلوى شقائق النعمان المحفوظة
التي تضارع ألد أنواع الفاكهة .

وبينما جعلت أتذوق ألوان الطعام هذه . بدافع الفضول لا بدافع الذواقة
الخبير أخذ الربان نيمو يمتعني بأقاصيصه العجيبة قائلاً :

– . والبحر لا يمدنا بالطعام فحسب ، بل بالملابس أيضاً . فهذه الملابس
التي نرتديها الآن منسوجة من ألياف نوع معين من الأصداف . ومصبوغة
بالوان قرمزية مظلمة باللون البنفسجي ، وهي مستخرجة من نبات (الأبليزيس)
الموجود في البحر الأبيض المتوسط . وإن العطور التي ستجدها على متضدة الزينة
في مقصورتك . مستخرجة كلها من نباتات بحرية . وإن حشايا سريرك
مصنوعة من أرق أنواع العشب الموجود في المحيط . وقلمك مصنوع من
زعانف الحوت ، ومدادك من كحول مستخرج بوسائلنا الكيماوية كل
شيء يأتينا الآن من البحر . وكل شيء سيعود يوماً إليه .

– هل تحب البحر يا كابتن ؟

– نعم إننى أحبه . إن البحر لى كل شىء . إن أنفاسه نقيه صحية . إنها صحراء هائلة لا يشعر فيها الإنسان قط بالوحشة ، لأنه يحس بالحياة تنبض حوله فى كل مكان . إن البحر ليس ملكاً للطغاة المستبدين ولا يزال من الممكن فوق سطحه أن تهضم الحقوق ، وأن يتحارب الناس . وأن يلتهم بعضهم بعضاً وأن ترتكب كل الفظائع البشرية . ولكن سيطرة هذه القوى تتوقف تماماً على عمق ثلاثين قدماً من السطح . وفى هذا العمق البسيط يضمحل نفوذهم . وتختفى قوتهم . نعم ياسيدى . عش بين أحضان الماء فهناك التحرر والاستقلال . هناك لا سلطان لأحد على . هناك الحرية الكاملة .

وفجأة توقف الربان نيمو إبان حديثه الحماسى . فهل وجد نفسه قد اندفع فى الحديث وتجاوز تحفظه المعهود ؟ هل قال أكثر مما يريد ؟ لقد راح يذرع الغرفة . وقد اشتد به الانفعال وأخيراً هدأت أعصابه . واستعاد مجياه سكينته المألوفة . ثم التفت إلى وقال :

– والآن يابرفسور . إذا شئت أن تجوس خلال غواصتى نيتوليوس ، فأنا طوع أمرك .

الفصل الحادى عشر

الفواصة نوتيلوس

ونهض الربان نيمو ، وتبعته إلى باب مطوى فى الناحية الخلفية من الغرفة ، ودلفت منه إلى غرفة فى حجم التى تركناها .

كانت المكتبة . وكانت بها خزانات الكتب العالية المصنوعة من خشب الورد . تحمل أرففها مجموعات كثيرة من الكتب المجلدة تجليداً فاخراً ، وكانت ممتدة على مدار الغرفة وتنتهى فى أسفلها بأرائك وثيرة مكسوة بالجلد البنى ، ومصنوعة بطريقة تهبى كل أسباب الراحة ، وكان ثمة مكاتب خفيفة متحركة تُطوى وتبسط طبقاً لرغبة القارئ . لكى يضع فوقها الكتب أثناء المطالعة . وفى وسط الغرفة رأيت منضدة كبيرة عليها عدة صحف قديمة .

وكان الضوء الكهربائى يغمر هذه المكتبة المناسقة ، وينساب من أربعة مصابيح مصقولة متداخلة إلى نصفها فى فجوات خاصة بالسقف . ولذا أثارته هذه الغرفة البالغة الأناقة والانسجام شديد إعجابى حتى لم أكد أصدق عينى .

وقلت لمضيفى الذى أتى بنفسه على إحدى الأرائك :

— إن لديك هنا ياكابتن نيمو مكتبة يفخر بها أى قصر من القصور العالمية . وإن عجبى ليشدد حين أذكر أن هذه المكتبة الذاخرة تتبعك إلى أعماق المحيط .

فأجاب الربان بقوله :

-- حيث يمكن الاستمتاع بالمزيد من العزلة والهدوء يابرفسور ؟

هل كانت مكتبتك فى المتحف تتيح لك مثل هذا الهدوء الشامل ؟

— لا ولا بد أن أعترف أنها جد متواضعة إذا قورنت بمكتبتك .

ولاشك أن مجموعتك تراوح بين ستة آلاف وسبعة آلاف مجلد .

– بل عشرة آلاف مجلد يا ماسيو أروناكس . إن هذه المجلدات هي الصلوات الوحيدة بيني وبين اليابسة ولكن آخر عهدي بعالمكم يوم أن غطست نوتيلوس تحت سطح الماء لأول مرة وفي ذلك اليوم اشتريت آخر كتبي ومطبوعاتي وصحفي . ومنذ ذلك الحين وأنا أتمنى لو أن الناس عندكم كفوا عن التفكير أو الكتابة . إن هذه الكتب يابرفسور رهن إشارتك . ولك أن تقرأ منها ما تشاء .

فشكرت الربان نيمو ، ويمت شطر أرفف المكتبة ، فرأيها تشتمل على مجموعة كبيرة من كتب العلوم والآداب والسلوك بجميع اللغات . ولكني لم أجد بينها كتاباً واحداً في الاقتصاد السياسي . ويبدو أنها ممنوعة تماماً في نطاق الغواصة . وقد أثار عجبني ما لاحظته من أن الكتب صفت بغير ترتيب معين من ناحية اللغة التي كتبت بها . وقد دل هذا الاضطراب على أن ربان السفينة يستطيع أن يقرأ بسهولة تامة أى كتاب يقع بين يديه مصادفة .

وقل الربان نيمو

– ليست هذه مكتبة فحسب . وإنما هي أيضاً غرفة للتدخين .

فهتفت قائلاً :

– غرفة تدخين ! هل تدخنون هنا إذن ؟

– بالتأكيد .

– إذن فلإني يا سيدي مضطر للاعتقاد بأنك متصل بها فانا !

فأجاب الربان قائلاً :

– لا يا ماسيو أروناكس . تقبل مني هذا السيجار . ورغم أنه لم يأت

من هافانا فإنك ستنعم به إذا كنت عريقاً في التدخين .

وتناولت السيجار الذي قدمه إلى وكان يشبه في شكله نوع السيجار

المعروف باسم « لوندر » ولكن بدا أنه مصنوع من أوراق الذهب .

وأشعلته من موقد صغير مثبت فوق قاعدة أنيقة من البرونز ، ثم جعلت أمتص

أنفاس التبغ الأولى بمتعة المدخن الذي أمضى يومين بلا تدخين . وقلت :

‘ - هذا شيء عظيم . ولكنه ليس تبناً .

فأجاب الربان :

- كلا إن هذا لم يأت من هافانا ولا من الشرق . إنه نوع من أعشاب البحر ، غني بالنيكوتين ، والبحر يمدني به ، ولكن بقدر . فإذا لم تكن مشوقاً إلى سيجار اللوندنر ، يابرفسور . فلك أن تدخن من سيجارى هذا ما تشاء .

وفيما كان الربان نيمو يتحدث . فتح باباً آخر مواجهاً للباب الذى دخلنا منه إلى المكتبة ، فدخلت إلى صالون واسع الأرجاء ، ساطع الضوء . كان غرفة رحبية ذات أربعة جوانب ، كسيت جدرانها بالخشب . طوخا ثلاثون قدماً وعرضها ثمانية عشر ، وارتفاعها يناهز الخمسة عشر وكان السقف المضيء والمحلى بالنقوش العربية يسكب فيضاً من الضوء الرقيق الواضح على كل العجائب المجمعة فى هذا المتحف . فقد كانت الغرفة فى الواقع متحفاً جمعت فيه يد رجل نابه سخي قددير كل كنوز الطبيعة والفن . ونثرتها فى جوانبها بهذا « الاضطراب » الفنى المعروف فى مراسم الفنانين .

كان بها نحو ثلاثين لوحة مصورة بريشة أكابر الفنانين علقت بين ألوان المنسوجات الموشاة التى تناثرت بينها بألوانها الزاهية .

لقد رأيت لوحات فنية سبق أن أعجبت بكثير منها . فى المجموعات الفنية الخاصة فى أوروبا وفى معارض الرسم . والظاهر أن أمارات الدهول التى رآها ربان النوتيلوس مرتسمة على وجهى جعلته يقول :

- أرجو المعدرة يا برفسور عن الطريقة غير اللائقة التى استقبلتك بها وعن اضطراب هذه الغرفة .

فأجبت قائلاً

- سيدى . هل تسمح لى . دون أن أسعى إلى معرفة شخصك . أن أقول إنك فنان ؟

– فنان هاو فقط . وقد كنت في بادئ الأمر أهوى جمع هذه الآثار الفنية . كنت أجمعها بشراهة وبغير كلل حتى استطعت أن أظفر بأشياء ذات قيمة كبرى . وما تراه الآن هو آخر ما جمعته من عالمكم الذي أصبح فانيا في نظري . إن فنانيكم المعاصرين ، هم الآن في نظري قدامى ، مضى عليهم في خيالي ، ألفان أو ثلاثة آلاف سنة وكل أساطين الفن في رأيي ينسحب عليهم هذا العمر .

فقلت وأنا أشير إلى مجموعات من النوتات الموسيقية للوبر وروسيني وموزار وكثيرين غيرهم رأيها متناثرة فوق بياتو ضخم مثبت في أحد جدران الغرفة :

– وهؤلاء الموسيقيون ؟

فأجاب الربان نيمو قائلاً :

– إن هؤلاء الموسيقيين -- في رأيي -- معاصرون للموسيقار الإغريقي القديم أوريفيوس . إن جميع الفوارق التاريخية تنمحي في ذاكرة الموتى ، وأنا أعد نفسي ميتاً . . . ميتاً كأصدقائك الذين ماتوا ودفنوا تحت الثرى .

وتوقف الربان نيمو عن الحديث ، وبدا كأنما استغرق في تأملات عميقة فرحت أنظر إليه باهتمام بالغ وأنا أحلل في صمت ما كان يرسم على وجهه من تعبيرات غريبة . لقد احترمت إخلاده إلى التأمل ورحت أستعرض التحف التي ازدان بها الصالون . وكانت مؤلفة في مجموعها من نباتات بحرية ، وأصداف وغيرها من منتجات المحيط التي عثر عليها ولاشك الربان نيمو بنفسه . وقامت في وسط الصالون نافورة مياه مضاءة بالكهرباء . يتساقط رذاذها في حوض هو عبارة عن صدفة بحرية كبيرة يبلغ محيطها سبع ياردات ، وهي من هذه الناحية أكبر حجماً من الصدفة الكبيرة البديعة التي أهدتها جمهورية البندقية إلى فرانسوا الأول ملك فرنسا والتي يتكون منها الآن حوضان للماء المقدس في كنيسة سان سلبس بباريس .

وكان يحيط بهذا الخوض خزائن زجاجية أنيقة ذات مشابك نحاسية ،
ضمت أنواعاً من أئمن المنتجات البحرية التي يمكن أن تقع عليها عين عالم
طبيعي ، صفت مصنفة ومعروفة بأسمائها .

وللإنسان أن يتصور مبلغ سروري كأستاذ للطبيعات بما رأيت . فقد
شاهدت في الخزائن مجموعة تجل في قيمتها عن كل تقدير . وبين الأنواع
التي وعها ذاكراتي ، تلك السمكة الملكية الأنيقة المعروفة باسم سمكة
المطرقة الموجودة في مياه المحيط الهندي ؛ رأيتها بنقاطها البيضاء المتألقة على
أرضية حمراء وبنية . إنها سمكة رائعة ، باهرة الألوان ، ذات زعانف
وأشواك منتصبة . وهي نوع نادر في متاحف أوروبا وقد قدرت ثمنها بثمانمائة
جنيه . رأيت سمكة أخرى من هذا النوع صيدت في بحار استراليا ، وهي
لا تقتنى إلا بصعوبة ، كما شاهدت أصدافاً هشة بيضاء يمكن أن تطيرها
الأنفاس كفقاعات الصابون ، وأنواعاً مختلفة من (الأسبروجيلوم) الجاوي ؛
وهو نوع من الأنايب البحرية الملفوفة بلقائف ورقية ، لها قيمتها الكبرى
عند هواة التحف .

ورأيت كذلك مجموعات كاملة من أصداف التروكي . بعضها أصفر
مائل للخضرة يوجد في البحار الأمريكية وبعضها أحمر قاتم وموطنه المياه
الاسترالية ، وغيرها من خليج المكسيك وهي تمتاز بأصدافها المطرزة
الشكل . وكان أنذر من هذا كله أصداف نيوزلاندا الرائعة الممازية
الشكل .

وقامت بعيداً عن كل أولئك وفي أقسام خاصة ، عقود من اللؤلؤ باهرة
الجمال نفذت إليها الأضواء الكهربائية كألسنة من نار وكان من بينها حبات
من اللؤلؤ وردية اللون ، انتزعت من أصداف البحر الأحمر . وأخرى خضراء
وصفراء وزرقاء وسوداء ، استخرجت من كافة المحيطات ، ومنها أنواع
مستخرجة من الحجارة المائية في بحار الشمال . ورأيت أخيراً أنواعاً متعددة

من اللؤلؤ النادر الذي لا يقدر بثمن جمعت من أندر أنواع الحجار . وكان بعض هذه اللآلئ أكبر حجماً من بيض الحمام . وأغلى ثمناً من لؤلؤة تابريز التي بيعت لشاه إيران بمبلغ ثلاثة ملايين فرنك . وكانت تفوق اللؤلؤة التي يقطنها إمام مسقط . واعتقادي أنه ليس لها مثيل .

ولإنه لمن المستحيل تقدير قيمة هذه المجموعة . ولا بد أن الربان نيمو قد أنفق الملايين في اقتناء هذه الأنواع المختلفة وقيماً كنت أسائل نفسي من أين جاء بالأموال التي تكفي لإشباع هوايته إذا هو يقطع على أفكارى قائلاً :
 - إنك تفحص يابرفسور مجموعات أصدافى . ومن المؤكد أنها تثير اهتمام أى أستاذ في علم الطبيعة . ولكن لها في نفسى مكانة أعظم . لأننى توليت جمعها كلها بنفسى . وليس على سطح الكرة الأرضية بحر لم أبحث في أعماقه عما أريد .

فقلت له :

- إننى أفهم يا كابتن .. أفهم ستمع الحياة بين هذه الكنوز . فأنت أحد الذين يجمعون الكنوز لذاتها ولا يوجد في أوروبا متحف يضم مثل هذه المجموعات من منتجات البحار . ولكن إذا أنا قصرت كل إعجابى عليها فلن يبقى مزيد من الإعجاب أسبغه على السفينة التي تحمل الكنوز .

ولست أريد أن أنفذ إلى أسرارك . ولكن لا مفر لى من الاعتراف بأن الغواصة نوتيلوس بما فيها من قوى محرّكة . وبالكيفية البارعة التي تدار بها . وبالآلات الدافعة التي تسيّرها - كل أولئك يذكى في نفسى أشد الفصول . إنى أرى مثلاً - على جدران هذه الغرفة - آلات معلقة أجهل طريقة استعمالها .

- عند ما قلت لك أنك مطلق الحرية في غواصتى هذه . كنت أعنى أن كل جزء فيها مباح لك فحصه ودراسته . إن الآلات سوف تراها في غرفتى ، حيث يسعدنى إطلاعك عليها . ولكن تعال معى لتلقى نظرة على مقصورتك الخاصة .

وتبعت الربان نيمو الذى غاد الصالون من أحد أبوابه الكثيرة التى تبلى وهى مغلقة كأنهم ألواح فى الجدار ، حتى وصلنا إلى وسط الفواصة ، ومن /هناك قادنى إلى مؤخرتها حيث وجدت أنه لم يخصص لى مجرد مقصورة ، بل غرفة أنيقة ذات فراش ومنضدة للزينة ، وقطع مختلفة من الأثاث ، ولم أستطع إلا أن أشكر مضيئى الذى قال وهو يفتح بابا :

— إن غرفتك مجاورة لغرفتى ه وغرفتى تُفضى إلى الصالون الذى غادرناه الآن ه

ودخلت غرفة الربان فإذا هى صارمة فى بساطتها وكأنها صومعة ناسك ه فلم يكن بها من الأثاث غير سرير حديدى ومكتب وبعض أدوات الزينة ، وكان يغمرها جميعاً ضوء قوى . ولم يكن بها شىء من أدوات الترف وإنما ألزم الضروريات وحسب .

وأشار الربان نيمو إلى مقعد وقال :

— تفضل بالجلوس .

ولما أطعت بدأ بتحدث .

الفصل الثاني عشر

كل شيء بالكهرباء

قال الربان نيمو وهو يشير إلى الآلات المعلقة على جدران الغواصة :
— سيدى . هذه هي الآلات اللازمة لقيادة الغواصة نوتيلوس . وهنا
كما هو الشأن فى غرفة الصالون ، أراها دائماً أألم نظرى ، وهى تحدد مكانى
واتجاهى بدقة فى أعماق المحيط . أنت تعرف بعض هذه الآلات .
فأجبت قائلاً :

— نعم إننى أفهم بعض الآلات العادية اللازمة للملاحة البحرية . ولكنى
أرى آلات أخرى لاشك لازمة لتلك المطالب الفريدة فى غواصتك . هذا
القرص ذو المؤشر المتحرك هو مانيوميتر « مضغط » أليس كذلك ؟
— نعم واتصاله بالماء يبين لى مقدار الضغط الخارجى ويحدد مدى العمق
فى الوقت نفسه .

— وهذه المقاييس التى أراها من نوع جديد ؟
— إنها أجهزة لقياس الحرارة فى مختلف الأعماق تحت سطح الماء .
— وهذه الآلات الأخرى لا أستطيع أن أتصور حقيقتها ؟
— لا بد هنا أولاً من بعض الإيضاح . إن فى هذه الغواصة أداة قوية
سريعة سهلة طبيعة تقوم بأعمال مختلفة ، ولها السيطرة الأولى هنا ، كل شيء
عندنا يتم عن طريقها ، إنها من جهازى الآلى بمثابة الضوء ، والحرارة ،
بل بمثابة الروح . هذه الأداة هى الكهرباء .
— نعم يا كابتن . إن لديك مصدراً عظيماً لسرعة الحركة لا ينطبق تماماً
مع قوة الكهرباء المعروفة . فإن القوة الهائلة فى الكهرباء لا تزال حتى
يوماً هذا محدودة لا تنتج إلا أيسر القوى .

فأجاب الربان نيمو قائلاً :

— ياسيدى البروفسور . إن القوى الكهربائية التي لدى غير متاحة لغيرى
ومعذرة إذا أمسكت عن الإدلاء بمزيد من البيانات .

— وأنا لن ألح ياسيدى ، سأقنع بإبداء دهشتى من هذه النتائج العجيبة
ولكنى سألتى عليك سواء الواحداً فقط لا لزوم للجواب عنه إن كان سؤالا
غير سديد . إن العناصر التي تستخدمها لإنتاج هذه القوى الكهربائية الفذة
لا بد أن ينضب معينها . فمادة الزنك مثلا . . كيف تحصل على حاجتك منها
وأنت على غير اتصال باليابسة ؟

فأجاب الربان نيمو قائلاً :

— هاك الجواب على سؤالك . ينبغي أن أبين لك بادئ ذى بدء أن
في أعماق البحر مناجم زنك وحديد وفضة وذهب ، لا يتعذر استخراج
هذه المعادن منها . ولكنى لا أعتد على هذه المعادن الأرضية ، بل عقدت
العزم على التماس وسائط توليد الكهرباء اللازمة لى من البحر وحده .
— من البحر ؟

— نعم يا برروفسور . ولم أجد صعوبة في الاهتداء إلى هذه الوسائط .
كان من الممكن الحصول على الكهرباء بإنشاء دورة للتيار الكهربائي بين
أسلاك غاطسة في أعماق متفاوتة ، فتولد الكهرباء من فوارق درجة الحرارة
التي تتعرض لها الأسلاك . ولكنى آثرت استخدام طريقة أخرى أفضل .
— وما هي ؟

— أنت تعرف العناصر التي تتولد منها مياه البحر ؟ إن كلورور الصوديوم
يكون نسبة ملحوظة بينها وأن هذا الصوديوم هو الذي استخرجه من الماء
وإذا مزجته بالزئبق — استعصت بهذا عن الزنك في توليد الكهرباء .
والزئبق لا ينفذ قط ، وإنما ينفذ الصوديوم ومياه البحر تمدني به . وفضلا
عن هذا فإن القوى الكهربائية الناتجة من مركبات الصوديوم ضعف القوى
المتولدة من مركبات الزنك .

- إننى أفهم بوضوح يا كاتبين ملاءمة الصوديوم في الظروف التي تكتنفك . فالبحر يشتمل عليه . هذا بديع ولكن لا يزال عليك أن تستخلصه منه فكيف تفعل هذا ؟ إن في مقلورك طبعاً أن تستخلصه عن طريق جهازك الكهربائي ولكن استهلاك الصوديوم نفسه في عملية الاستخلاص الكهربائيّة سيجاوز ما تحصل عليه . وبهذا تستهلك أكثر مما تنتج .

- إننى لا أستخدم التيار الكهربائي في استخلاص الصوديوم من الماء وإنما أستخدم حرارة الفحم .

- الفحم ؟

فقال الربان نيمو :

- سنسميه فحم البحر . إذا شئت ؟

- وهل في مقلورك استخراج فحم البحر من مناجم في أعماق المحيط ؟

- سوف ترانى وأنا أقوم بهذه العملية يامسيو أروناكس . وكل ما أسألك

هو شيء من الصبر ؛ وإن وقتك هنا سيتسع للصبر . إننى أحصل على كل شيء من المحيط .. إنه يولد الكهرباء . والكهرباء تزود الغواصة بالضوء - أو بكلمة واحدة بالحياة .

- ولكن ليس بالهواء الذي نستنشقه ؟

- إن بوسعى إنتاج الهواء اللازم لحاجتى . ولكنى لا أفعل . لأننى

أصعد إلى سطح البحر كلما أردت . ولكن إذا كانت الكهرباء لا تزودنى بالهواء اللازم للتنفس . فإنها تدير المضخات الكبيرة التي تحتزنها في اسطوانات خاصة تتيح لى عند الضرورة أن أطيل بقائى تحت سطح الماء ما شئت .

فقلت له

- سيدى الربان . إننى لا أستطيع إلا إبداء إعجابى . لقد اكتشفت

ما سوف يتبها للإنسان اكتشافه في يوم ما ، ولاشك وأعنى بهذا القوة الجبارة الهائلة التي في الكهرباء .

فقال الربان نيمو برود :

– لست أدري إذا كان الجنس البشرى سوف يوفق إلى هذا الكشف .
وأيا كان الأمر فإنك تعرف الآن التطبيق الأول الذى حققته من هذه الأداة
الثينة . إنها الكهرباء التى تمدنا بضوء يفوق ضوء الشمس نفسه ثباتاً ودواماً .
انظر الآن إلى هذه الساعة . إنها ساعة كهربائية ، وهى بدقتها تتحدى أحسن
الساعات المعروفة باسم الكرونومتر . لقد قسمتها إلى أربع وعشرين ساعة ، كما هو
الشأن فى الساعات الإيطالية ، إذ لا يوجد بالنسبة إلى ليل أو نهار ، ولا شمس
ولا قمر . . . وإنما هو هذا الضوء الصناعى الذى أهبط به إلى الأعماق .
إن الساعة الآن العاشرة صباحاً .

– نعم . هذا هو الوقت بالتحديد .

– إن هذا القرص المدلى أمامنا يشير إلى سرعة الغواصة ... إنه متصل
عن طريق سلك كهربائى بالرفاص . انظر . إننا الآن نسير بسرعة متوسطة
مقدارها خمسة عشر ميلاً فى الساعة .

ثم استطرد الربان نيمو قائلاً وهو ينهض :

– لكننا لم نفرغ بعد . إذا تبعنى فسندهب إلى القسم الخلقى فى الغواصة .
وتبعت الربان نيمو فى القسم الأوسط إلى حيث رأيت ما يشبه البئر بين
حاجزين مانعين للماء . وكان ثمة سالم حديدى مشدود بمشبك من الصلب
إلى أحد الحاجزين يفضى إلى الطرف العلوى . ولما سألت الربان عن الغرض
من وجود هذا السلم .

قال

– أنه يؤدى إلى الزورق .

فقلت بدهشة :

– ماذا : ألدريك زورق ؟

– مؤكد . زورق رائع . خفيف متين . غير قابل للغرق يصلح

للصيد أو للنزحة .

— إذن فكلماً أردت ركوب الزورق تضطر للصعود بالغواصة إلى سطح الماء .

— كلا مطلقاً إن الزورق مثبت بسطح الغواصة في فجوة خاصة به . وله سطح عازل يمنع عنه تسرب الماء . وهو مشدود إلى الغواصة بأربطة من الصلب . وهذا السلم يؤدي إلى فجوة في سطح الغواصة تتصل بأبواب عازلة بفجوة مماثلة في مكان الزورق ، وعن هذا الطريق أستطيع الوصول إليه . ثم أغلق أنا الباب الثاني المؤدى إلى الزورق . وذلك بالضغط اللولبي . وأخيراً أدخل الزورق ، وأفك الأربطة ، فيندفع صاعداً إلى سطح الماء بسرعة كبيرة ، ثم أفتح الباب المؤدى إلى سطحه ، ثم أنصب الشراع وأمسك بالمجدافين وأنطلق حيث أريد .

— ولكن كيف تعود ؟

— إنى لا أعود إلى الغواصة . بل هي تأتي إلى .

— بأمر منك ؟

— نعم ويتم الاتصال بيني وبينها بسلك كهربائي . وهكذا أبرق إليها بتعليماتي .

فقلت وأنا في نشوة من هذه العجائب :

— ليس هناك ما هو أبسط من هذا حقاً .

وبعد أن تجاوزنا درجات سلم يؤدي إلى إفريز الغواصة ، رأيت مقصورة طولها نحو أربعة أمتار جلس فيها نيدلاند وكونسايل يلتهمان الطعام . وكان بعدها باب يفضي إلى المطبخ طوله تسعة أقدام ، يقع بين مخازن الغواصة الرحيبية ، وفيه تستخدم الكهرباء في الطهي بدلاً من الغاز . فقد مدت تحت الموادك كهربائية متصلة بشبكات من البلاتين . يتم عن طريقها توزيع الحرارة وضبطها بانتظام . كما أن هذه الأسلاك كانت تمد بحرارتها جهازاً للتقطير يهيئ بعملية التبخير ، مياه الشرب النقية . ومن المطبخ تفرع حمام

فاخر مزود بصنابير للماء البارد والساخن . ويجاور المطبخ عنبر للنوم طوله ثمانية عشر قدماً . ولكن الباب كان مغلقاً فلم أستطع أن أرى أثائه حتى أتيت منه عدد الرجال الذين يعملون في الغواصة . وفي الطرف الأقصى رأيت حاجزاً رابعاً يفصل بين عنبر النوم ، وغرفة الآلات . ثم فتحت باب آخر ودخلت مع الربان نيمو . غرفة صفت فيها الآلات المحركة بترتيب دقيق ؛ ولا غرابة فهو لا ريب مهندس من الطراز الأول . وكانت الغرفة جيدة الضوء لا تقل مساحتها عن خمسة وستين قدماً ، كانت مقسمة إلى قسمين : القسم الأول يحتوى على المواد المولدة للكهرباء والثاني على الأجهزة المحركة للرفاص . وقد دهشت في أول الأمر . حين شممت رائحة غريبة في الغرفة . ولما رأى الربان أني فطنت لها قال :

– إنها رائحة الغاز الذي يتسرب قليل منه بسبب استعمال الصوديوم ، وهو لا يسبب مضايقة لأننا نظهر جو الغواصة صباح كل يوم بتعريضها للهواء النقي .

وفي هذه الأثناء كنت أفحص الآلات باهتمام كبير فقال الربان :
– إنني استخدم آلات «منز» لا آلات «رومكروف» في إدارة الآلات . لأن الأولى أقوى وأكبر وأحسن إعداداً ، وقد دلت التجارب على أنها أفضل ، والكهرباء المولدة ، تمر إلى مؤخرة الغواصة حيث توجد مغناط كهربائية ضخمة مركبة على أجهزة خاصة من الروافع والترينات التي توصل الحركة الناتجة إلى محور الرفاص . وهذا المحور الذي يبلغ محيطه تسعة عشر قدماً يدور بسرعة مائة وعشرين دورة تقريباً في الثانية .

– وما هي السرعة التي تحصل عليها منه ؟

– نحو خمسين ميلاً في الساعة .

وهنا شعرت أن في الأمر سراً ، ولكني لم ألع في استقصائه . إذ كيف تستطيع الكهرباء أن تعمل بمثل هذه القوى الهائلة ومن أين تتولد تلك القوى التي لا يكاد يكون لها حد ؟

أهى وليدة ضغط جبار لنوع جديد من الأجهزة ؟ هل تتحول الكهرباء إلى هذه القوى الهائلة المحركة عن طريق أجهزة خاصة مجهولة ؟ ولعله من المصادفات الغريبة أن اكتشافاً من هذا النوع قد عرف أمره وفيه تقوم مجموعة الروافع بتوليد قوة عظيمة . فهل يمكن أن يكون المخترع قد التقى بالربان نيمو ؟

وأخيراً قلت :

– إننى يا كبتن نيمو أعتزف بالتناج ، وأسعى إلى تفسيرها . لقد رأيت غواصتك وهى تعمل أمام السفينة إبراهيم لنكون وإنى أعرف الآن مبلغ سرعتها . ولكن لا يكفى أن يستطاع السير دائماً وإنما ينبغى أن يعرف الإنسان وجهته . ينبغى أن تكون قادراً على توجيه نفسك إلى اليمين أو اليسار . . . إلى أعلى أو إلى أسفل . فكيف تصل إلى الأعماق الكبرى حيث الضغط المائى المتزايد الذى يبلغ المئات من قوة الضغط الجوى ؟ كيف تصعد إلى سطح المحيط أو تظل فى مستوى معين من العمق ؟ هل جانبى السداد بتوجيه هذه الأسئلة إليك ؟

فقال الربان بعد تردد يسير :

– لا أبداً يابروفوسور . بما أنك لن تغادر هذه الغواصة أبداً فهيا بنا إلى الصالون ، وهو مكان الدرس الحقيقى ، وهناك ستعرف كل ما تريد معرفته عن الغواصة نوتيلوس .

الفصل الثالث عشر

أرقام

بعد لحظة كنا جالسين على أريكة في الصالون ندخن السيجار . وبسط الریان أمامي خارطة بارزة تمثل أرجاء الغواصة ، ثم بدأ بيانه قائلا :

– إليك يا مسيو أروناكس مختلف أبعاد الغواصة التي أنت فيها . إنها تشبه اسطوانة مستطيلة مخروطية الطرفين ، كالسيجار . ويبلغ طولها بالتحليل ٢٣٢ قدماً وأقصى عرضها ٢٦ قدماً . وهي مستطيلة إلى حد كاف ، منحذرة الجوانب حتى ينزلق الماء عنها بسهولة ، ولا يعوق سرعتها . وتبلغ مساحة سطحها ١٠١١ متراً وخمسة وأربعين سنتيمتراً وحجمها ١٥٠٠ متر مكعب ، ووزنها ١٥٠٠ طن وتحتل من الماء مساحة قدرها ٥٠ ألف قدم .

« وعندما وضعت تصميمات هذه السفينة للعمل تحت سطح الماء ، قررت أن أجعلها في حالة توازن أي أن يكون تسعة أعشارها غاطساً . والعشر الباقي ظاهراً فوق الماء وهي بهذا التقدير تحتل من الماء مساحة تبلغ تسعة أعشار حجمها ، أي نحو ١٣٥٦ متراً مكعباً وثمانية وأربعين سنتيمتر . ولهذا لم أتجاوز في صنعها هذا الوزن ، طبقاً للأبعاد المذكورة . وهي مكونة من هيكلين ، أحدهما داخل الآخر ، تشدهما مشابك حديدية قوية ولهذا السبب فإنها تقاوم الضغط الشديد وكأنها كتلة سميكة غير مفرغة من الداخل ، وجوانبها لا تلين أبداً تحت أي ضغط ، لأن بناءها المحكم المتناسك يتيح لها أن تتحدى أعنى البحار .

وعند ما تطفوا الغواصة يكون عشرها فقط هو الظاهر فوق سطح الماء ، وقد زودتها بخزانات يتناسب حجمها مع حجم هذا العشر ، وتستطيع أن تستوعب من الماء ١٥٠,٧٢ طناً . فإذا أنا ملأت هذه الخزانات بالماء ،

غطست الغواصة تماماً تحت السطح . وهذه الخزانات موجودة في المناطق السفلى منها . وما على إلا أن أدير الصمامات ، فتمتلئ الخزانات ، وتهبط الغواصة إلى ما تحت سطح الماء . » .

وعندئذ قلت :

– حسنا يا كابتن . إنني أستطيع أن أفهم كيف يمكنك الاحتفاظ بالغواصة على مستوى سطح المحيط . ولكن عندما تهبط إلى الأعماق . ألا تعاني أجهزة الغواصة ضغطاً مائياً من أسفل يوازي ضغطاً جويّاً كاملاً لكل ثلاثين قدماً من الماء ؟

– نعم هذا صحيح .

– إذن فأنا لا أدري كيف تهبط بالغواصة إلى الأعماق ، ما لم تملأها كلها بالماء .

فأجاب الربان نيمو قائلاً :

– أرجو ياسيدي البروفسور ألا تخلط بين علوم التوازن وبين علوم القوى المحركة ، وإلا تعرضت لأخطاء فاحشة إن الهبوط إلى الأعماق لا يحتاج إلا إلى جهد جد يسير . لأن للأجسام قابلية الهبوط . . . هل ترى مدلول كلامي ؟

– إنني منصت إليك يا كابتن .

– عندما أردت البت في زيادة ثقل الغواصة لكي تهبط إلى الأعماق لم يكن على إلا أن أعمل على تخفيف كثافة الضغط المائي كلما ازدادت هبوطاً .

– هذا واضح .

– والآن . . . إذا كان الماء كما نعرف غير قابل للضغط العالي ، فإنه من الممكن ضغطه بدرجة يسيرة جداً . . . بل أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة أنه يمكن ضغطه بنسبة ٤٣٦,٠٠٠٠٠ في كل ضغط جوى ، أى في كل

ثلاثين قدماً من الماء تحت السطح . فإذا أردت أن أهبط إلى عمق ألف متر ،
 وجب على أن أرفع تخفيض الكثافة تحت ضغط ثلاثين ضغطاً جويًا .
 وعلى هذا يجب أن أزيد ثقل وزن الغواصة إلى ١٥١٣,٧٩ طن . بدلا من
 ١٥٠٧,٢ . أى أن الزيادة اللازمة في الوزن هي فقط ٦,٧٧ طن . والغواصة
 مزودة بخزانات يمكن أن تحمل مائة طن من الماء . فأنا حين أريد الصعود
 إلى سطح الماء أفرغ الخزانات من هذه الكمية الضخمة حتى يطفو عشرين
 فوق السطح .

ولم أستطع الاعتراض أمام هذا الحديث المؤيد بالأرقام .

– إننى معجب بتقديرائك يا كابتن ، ومن الحماقة أن أجادلك فيها لأن
 التجارب أثبتت صحتها كل يوم . ولكننى أرى أن هناك مشكلة حقيقية .
 – وما هى ياسيدى ؟

– عندما نكون على عمق ألف ياردة . فإن جوانب الغواصة تحتل
 مقدار مائة ضغط جوى ، فإذا أردت عندئذ تفريغ الخزانات مما فيها من
 الماء لتخفيف وزن الغواصة بغية الصعود إلى السطح ، فإن على مضخات
 التفريغ أن تتغلب على هذا الضغط الشديد البالغ مائة ضغط جوى أى الذى
 يساوى ضغط مائة كيلو جرام على السنتيمتر المربع . ولا شك أن مثل هذه
 المضخات تحتاج إلى قوى . .

فأسرع الربان نيمو يقول :

– إلى قوى لا يمكن أن ينتجها غير الكهرباء . إن القوة الجبارة فى
 آلاتى لا يكاد يكون لها حدود . وإن مضخات الغواصة لقوية أشد القوة
 كما رأيت بنفسك حين غمرت بعمودين من الماء سطح السفينة إبراهيم لنكولن
 كالسيل العرم . فضلا عن هذا فإنى أستخدم خزانات إضافية لأهبط
 بالغواصة إلى عمق يتراوح بين ١٥٠٠ وألفى متر . وذلك لإنقاذ أجهزتى
 من الضغط العالى . فإذا تراءى لى أن أقوم بزيارة قاع المحيط على عمق فرسخين

أو ثلاثة ، فإنني أستخدم وسائل أخرى أبعد مدى وإن كانت لا تقل دقة وإحكاماً .

– وما هي هذه الوسائل يا كابتن ؟

– إن حديثي عنها يستدعي الكلام عن طريقة تسييرى للغواصة ،

– إنني أشد ما أكون شوقاً لسماعه .

– إنني استعمل لقيادة غواصتي أفقياً ، دفعة عادية تحركها عجلة ذات آلات وحبال وعند ما أسيرها عمودياً فإنني أستخدم ألواح انسيابية مشنودة إلى الجوانب وإلى وسط الغواصة ذات روافع ضخمة . فإذا كانت هذه الألواح في مستوى متواز مع الغواصة فإنها تسيير أفقياً ، وإذا مالت إلى أسفل أو إلى أعلى ، فإن الغواصة بقوة رفاصها – ترتفع أو تهبط حسب رغبتى وبالزاوية التي أحدها . بل وإذا بدالى الارتفاع بسرعة مضاعفة ، فإنني أستخدم الرفاص فيؤدى ضغط الماء إلى جعل الغواصة ترتفع عمودياً كالبالون في الهواء .

فهمت قائلاً :

– مرحى يا كابتن . ولكن كيف يستطيع الموكل بالدفة أن يسلك الاتجاه

الذي ترسمه له في وسط الأعماق .

– إنه يقف في مقصورة من الزجاج في أعلا الغواصة مزودة بعدسات

مكبرة .

– ويمكن للزجاج مقاومة مثل ذلك الضغط ؟

– نعم فإن الزجاج الذى تحطمه ضربة ، له قوة احتمال كبرى ، ففي خلال

تجارب لصيد السمك أجريناها في عام ١٨٦٤ بالضوء الكهربائى في البحار

الشمالية وجدنا ألواحاً من الزجاج في البحار الشمالية يقل سمكها عن ثلث

بوصة تقاوم ضغطاً قدره ستة عشر ضغطاً جويماً . وأنا أستعمل زجاجاً لا يقل

سمكه عن ثلاثين مثلاً لهذا النوع .

– فهمت الآن . ولكن أياً كان الأمر فالظلام سائد تحت الماء . فكيف

يمكن أن تتبين طريقك ؟

– يوجد كشاف كهربائي قوى خلف المقصورة الزجاجية ، تنضى أشعته البحر مدى نصف ميل إلى الأمام .

– آه . الآن أستطيع أن أعرف سر هذا الإشعاع الفسفوري الذى حيرنا ونحن نظن أنه منبعث من الكركدن البحرى . هل أستطيع أن أسألك الآن عما إذا كانت الإصابة التى أحدثتها فى السفينة سكوتيا قد وقعت مصادفة .

– نعم . كانت الغواصة تسير على عمق نحو خمسة أمتار تحت سطح الماء عند ما وقع الاصطدام . . هل كانت له نتائج سيئة ؟

– لا يا سيدى . ولكن ما رأيك فى الصدمة التى أحدثتها فى السفينة إبراهيم لنكون ؟

– أعترف أنه كان من المؤسف جدا حدوث ما حدث لإحدى القطع الممتازة فى البحرية الأمريكية ولكنها هاجمتنى . وكان على أن أدافع عن نفسى . وفضلا عن هذا فقد اكتفيت بأن أجعلها عاجزة عن القدرة على الإضرار بى . ولن يصعب إصلاحها فى أقرب ميناء .

وعندئذ هتفت بلهجة الإقتناع

– الواقع ياسيدى الربان أن النوتيلوس سفينة رائعة .

فراح الربان يقول بحمية صادقة :

– نعم يابروفوسور . وأنا أحبها وكأنها قطعة من لحمى . فإنه على رغم المخاطر التى تتعرض لها سفنكم بسبب ثقلبات البحار . ورغم أن أهم ما يشغل بال ركاب البحر ويزعجهم هى أعماقه المجهولة . فإننا نحن الموجودين فى هذه الغواصة لا نخاف شيئا . لا نخاف حدوث التواء بها . لأن هيكلاها المزدوج من الحديد الصلب . وليس بها أشعة ولا حبال ينال منها تقاذف الأمواج ويظيرها الخواء . وليس بها مراجل للبخار نخشى انفجارها ولا نار نفرع من اندلاعها ، لأن الجهاز مصنوع من الحديد لا الخشب . ولا فحم نخشى نفاذه ، لأن الكهرباء هى أدواتنا الآلية . ولا نخاف الاصطدام لأنها

السفينة الوحيدة التي تتحرك في الأعماق وليس ثمة عواصف تناجزها ، لأن السكون التام يسود تحت سطح الماء بأمطار قليلة . إن نويتليوس ياسيدى هي سفينة السفن . وإذا صحح أن مهندس السفينة يثق بها أكثر من منشئها ، وأن منشئها يثق بها أكثر من ربانها ، فإنك ستدرك مبلغ ثقتي بغواصتي هذه وأنا ربانها ومنشئها ومهندسها في وقت واحد .

وكان الربان نيمويتحدث بطلاقة أخاذاً ، وكانت نظراته المتوقدة وإشارات الحارة . تم عن مدى حبه للغواصة . أجل كان يحبها حب الوالد لابنه .

وقلت له :

— ولكن كيف استطعت أن تصنع هذه الغواصة العجيبة سرّاً ؟

— لقد رتبت أن يصنع كل جزء منها في مكان مختلف من الكرة الأرضية وكانت الأجزاء المختلفة تصلني بعناوين وأسماء مستعارة . فالهيكل مصنوع في مصانع كوريرز . ومحور الرفاص في شركة بن بلندن والألواح الحديدية . في مصانع لارد بليفربول ، والرفاص نفسه في شركة سكوت بمدينة جلاسجوا ما خزاناتها فقد صنعت في شركة كابل بباريس ، والمحركات في شركة كروب الألمانية . ومقدمتها في مصانع موتالا بالسويد ، والآلات الحاسبة في شركة إخوان هارت بنيويورك وهكذا . وقد أرسلت طلباتي إلى جميع تلك الشركات والمصانع بأسماء مختلفة .

— ولكن كيف أمكنتك ترتيب جميع الأجزاء ؟

— لقد أنشأت مصنعاً في جزيرة غير مأهولة بالحيط . وهناك أخذت مع عمالي ، أعني أصحابي البواسل الذين علمتهم وأرشدتهم ، في تركيب أجزاء الغواصة . فلما فرغنا أشعلنا النيران في كل ما تبقى من عملنا بالجزيرة ، بل ما كنت أتردد في نسفها لو استطعت .

— لاشك أنها كلفتك أمولا طائلة .

- إن ثمن الطن الواحد في السفينة المصنوعة من الصلب ٤٥ جنيا ،
ويبلغ وزن غواصتي ١٥٠٠ طن ، أي أن ثمنها يتراوح بين ٦٧ ألف وخمسمائة
جنيه وثمانين ألف جنيه . ولكن هذا ثمن الهيكل فقط ؛ أما جملة الثمن شاملة
للأعمال الفنية ومجموعات التحف فيناهمز مائتي ألف جنيه ؛
– لا بد أنك من الأغنياء .
– بل واسع الغنى .. إنني أستطيع في سهولة سداد ديون إنجلترا كلها .
فجعلت أحلق في هذا الرجل الفريد وأنا أتساءل : أهو يستغل تسليمي
بكلامه وتصديقي له ، ويتهادى فيما يقول ؟

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامه

الفصل الرابع عشر

النهر الأسود

إن المحيط الهادى يمتد من الشمال إلى الجنوب فيما بين الدائرتين القطبيتين ، ومن الغرب إلى الشرق فيما بين آسيا وأمريكا ، فى مساحة قدرها ١٤٥ درجة من خطوط الطول . وهو أهلاً للمحيطات سطحاً ، فتياراته واسعة بطيئة ، ومدته خفيف وأمطاره غزيرة ، وذلك هو المحيط الذى شاءت الأقدار أن تدفع بي إليه فى مثل هذه الظروف الضرورية .

وقال الربان نيمو :

– والآن يابرفسور ، سنحدد مكاننا ونقطة بدء الرحلة إذا سمحت . الساعة الآن الثانية عشر إلا ربعاً وسنصعد إلى السطح . وضغط على زر كهربائى ثلاث مرات ، فأخذت المضخات تدفع الماء إلى خارج المستودعات . وكان مؤشر المانوميتر يتحرك ويعين عن طريق فوارق الضغط المائى مراحل صعود الغواصة . . . وأخيراً توقف .

فقال الربان

– لقد وصلنا .

ومضينا إلى السلم الرئيسى المفضى إلى السطح . وصعدنا الدرجات الحديدية وإذا نحن على سطح الغواصة تونيلوس .

وكان لإفريز سطحها يعلو الماء بقدر ثلاثة أقدام لا أكثر وكانت مؤخره الغواصة ومقدمتها مخروطى الشكل مما أوحى إلى تشبيهها بالسيجار . وقد لاحظت أن ألواحها الحديدية كانت متحركة الأطراف . كالخراشيف التى تغضى أجسام الزواحف الأرضية الكبيرة . ومن ثم أدركت السبب فى حسابان هذه السفينة حيواناً مائياً رغم المناظر القوية .

ورأيت في مقدمة الغواصة ومؤخرتها مقصورة متوسطة الارتفاع ،
انسيابية الجوانب ، صنع جانب منها من زجاج العدسات السميك ، وكان
في إحداها عامل الدفة الذي يوجه الغواصة في الطريق المرسوم ، وفي الأخرى
مصباح كهربائي كشاف يضيء له خط السير .

وكان البحر بديعاً والسماء صافية ، والغواصة لا تكاد تستقر بحركة
الأمواج وكان النسيم الرقيق الآتي من الشرق يداعب سطح الماء ، والأفق
خالياً من السحب مما يعين على حسن الرؤية ولم يكن ثمة شيء في مدى البصر :
لا صخرة ولا جزيرة ، ولا السفينة إبراهيم لنكولن ، ولا شيء غير المياه
الخالوة .

وشرع الربان نيمو يرصد المكان عن طريق موضع الشمس من السماء :
وانتظر بضع لحظات حتى بلغ قرص الشمس مستوى معيناً من الأفق . وكان
يقوم بعمله دون أن يعرو وجهه أدنى اختلاف ، ولو كانت الآلة في
يد تمثال لما بدت أكثر ثباتاً .

وقال الربان أخيراً :

— هذا وقت الظهيرة وعند ما تكون مستعداً ؟؟

فألقيت نظرة على الماء الذي بدا لونه أصفراً قليلاً بسبب السواحل
اليابانية . ولم ألبث أن عدت إلى الصالون حيث حدد الربان موضعنا بأجهزته
المختلفة ، ثم قال :

— إننا يامسيو أروناكس في غرب خط الطول ١٥ : ١٣٧ درجة .

فقلت لأستدرجه إلى الكشف عن جنسيته :

— بالنسبة إلى أي خط رئيسي ؟؟

— إنني ياسيدي أستعمل أجهزة قياس معدة لتحديد المواضع بالنسبة
لخطوط جرينتش ، وباريس وواشنطن ، ولكنني تكريماً لك سأستعمل
الجهاز المعد للعمل على خط باريس .

لم أفد شيئاً من هذا الجواب ولكنني أحنيت رأسي ، بينما استطرد وهو يقول :

– إننا الآن على خط طول ٣٧ درجة ، ١٥ شرطة غربى خط باريس .
وعلى خط عرض ٣٠ درجة و٧ دقائق شمالاً . ومعنى هذا أننا نبعد الآن نحو
ثلاثمائة ميل من شواطئ اليابان ، وفي هذا اليوم الثامن من شهر نوفمبر ، وفي
ساعة الظهيرة تبدأ رحلتنا الاستكشافية في أعماق البحار .
فقلت :

– أسأل الله أن يحفظنا .

وأردف الربان قائلاً :

– سأتركك الآن يابرفسور للدواستك وقد أصدرت تعليماتى بالسير في
الاتجاه الشمالى الشرقى على عمق خمسين ياردة من سطح الماء . وإليك هذه
الخرائط التى تبين لك اتجاه سيرنا وموضع الغواصة من الأعماق . . . وإني
إذ أترك الصالون تحت أمرك ، أرجو أن تأذن لى بالانصراف .

وانحنى الربان نيمو تحية وهقيت بمفردى مستغرقاً في أفكارى التى كانت
تدور كلها حول ربان هذه الغواصة ، ترى هل سأعرف يوماً اسم الدولة
التي ينتمى إليها هذا الرجل ، الذى يفخر بأنه لا جنسية له ؟ وهذه الكراهية
التي أضمرها للجنس البشرى . . . هذه الكراهية التي قد تدفعه إلى ارتكاب
ألوان من الانتقام الرهيب . ما سببها ؟ إننى أنا الذى كانت حياتى بين يديه
لم أجد منه غير استقبال فاتر ، وإن لم يخل من كرم الضيافة . ولكنه أعرض
عن يدي التي مددتها إليه ، ولم يبسط يده إلى قط .

وبقيت ساعة كاملة مستغرقاً في هذه الخواطر ، أسعى للنفاذ إلى
هذا الغموض الذى أثار أشد اهتمامى . ولم ألبث أن اتجه نظرى إلى الخارطة
الكبيرة الموضوعة فوق المنضدة . . . ووضعت أصبعى على النقطة التي حددت
موضعنا من خطوط الطول والعرض .

إن للبحر أنهاره الكبيرة كما هو الحال في القارات . . . إنها تيارات خاصة

تعرف بحراراتها وألوانها وأشهرها هو المعروف باسم تيار الخليج وقد اكتشف العلم مجارى خمسة تيارات رئيسية إحداها شمالى المحيط الأطلسى ، والثانى جنوبى المحيط نفسه ، والثالث شمالى المحيط الهادى والرابع جنوبه ، والخامس جنوبى المحيط الهندى ومن المحتمل أنه كان يوجد تيار سادس فى شمال المحيط الهندى عند ما اتصل بحر آرل وبحر قزوين ببحيرات آسيا العظمى حيث تكونت مساحات شاسعة من الماء .

وفى المكان الذى وضعت عليه أصبغى من الحارطة ، كان ثمة تيار من هذه التيارات ينساب فى مياه المحيط . . إنه التيار الأسود اليابانى الذى يعبر مضيق ملقا ، بعد أن يترك خليج البنغال حيث تدفنه أشعة الشمس الاستوائية وينطلق إلى الشاطئ الآسيوى ، ثم ينعطف إلى شمالى المحيط الهادى حتى جزائر اليوشان حاملا جنود أشجار الكافور وغيرها من المنتجات المحمية مما يجعله يبدو قائم اللون بالنسبة لأمواج المحيط الصافية ، وبعد ذلك تتلاشى أمواج المحيط الشاسع ، وقد أحسست أنى سأمضى مثله إلى نفس المصير ، حين لاح لى نيدلاند وكونساييل لدى الباب ، والواقع أن رفيق تسمرا فى مكانهما لمراى العجائب التى تجلت لأعينهما .

وقد هتف الكندى قائلا :

— أين نحن . . أين نحن ؟ فى متحف مدينة كوبيك ؟

وقال كونساييل :

— إذا سمح لى سيدى قلت إننا فى مكان قريب الشبه بفندق دى

سوميرار .

فقلت :

— يا صديقاي . . لستما فى كندا ولا فى فرنسا أنتما فى الغواصة نوتيلوس ،

وعلى عمق يزيد عن خمسين متراً تحت سطح البحر .

فقال كونساييل :

– إننا نصدق ما يقول سيدى . ولكن هذا الصالون جدير بأن يدهش
أى إنسان حتى ولو كان هولندياً مثلى .

وفى خلال هذا سألنى نيدلاند – الذى لم يكن يهتم كثيراً بعالم الأصداف
البحرية – عن مقابلتى للربان نيمو ، هل استطعت أن أعرف من هو ، من
أين جاء وإلى أين يمضى ، أو إلى أية أعماق يهبط بنا ، وبالإجمال راح
يمطرنى بآلاف الأسئلة التى لم أجد وقتاً للإجابة عليها .

وقد ذكرت له كل ما أعرفه ، أو على الأصح كل ما لم أعرفه ، ثم
سألته عما رأى وعما سمع من جانبه فأجاب قائلاً :

– إننى لم أسمع ولم أر شيئاً . بل إنى لم أر ملاحى الغواصة . فهل كان
هذا مصادفة . أم هى الكهرباء أيضاً ؟

– الكهرباء .

فقال نيدلاند بإصرار :

– نعم . هذا ما قد يظنه كل إنسان . وأنت يا مسيو أروناكس ، هل
تعرف عدد الرجال فى الغواصة ؟ وهل تعرف إن كانوا عشرين أو خمسين
أو مائة ؟

– أنا لا أعرف أكثر مما تعرف يا نيدلاند . ويحسن أن نتخلى فى الوقت
الحاضر عن كل تفكير فى الاستيلاء على الغواصة أو فى الهرب منها ، لأنها
تحفة رائعة من الصناعة الحديثة . ولو لم أرها لندمت على ضياع فرصة كهذه .
إن كثيراً من الناس يقبلون أن يحلوا محلنا لكى يعيشوا بين هذه العجائب .
إن الشيء الوحيد الذى يجب أن نفعله هو أن نلزم الهدوء . وأن نرقب مايجرى
أمامك .

فهمتف نيدلاند قائلاً :

– أرقب . ليس هناك ما أراقبه . إننا لا نستطيع أن نرى شيئاً فى هذا
السجن ، إننا مسترون بعيون محجوبة ،

وما كاد نيدلاند ينطق هذه الكلمات حتى ساد الظلام فجأة .

لقد انطفأ الضوء المناسب من السقف بسرعة شديدة آلت عيني بسبب هذا التغيير ، وهو ما يحدث أيضاً للعينين عند الانتقال فجأة من الظلام إلى النور الوهاج :

وقد لزمنا الصمت ولم نتحرك ونحن لا ندرى أية مفاجأة سارة أو مزعجة تنتظرنا . ولكننا سمعنا صوتاً انسياقاً كصوت تحريك ألواح في جوانب الغواصة .

فقال نيدلاند :

— هي النهاية .

وفجأة سطع الضوء في جانبي الصالون عن طريق فتحتين بيضاويتين : وبدت مياه البحر متألقة بضوء الكهرباء الباهر .

وكان ثمة لوحان من البللور يفصلان بيننا وبين الماء . وقد سرت في جسمي رعدة أول الأمر حين فكرت في احتمال انكسار هذا الفاصل الرقيق . ولكن المقابض النحاسية التي كانت تشده أتاحت له قوة مقاومة لا حد لها .

إن صفاء مياه البحر معروف للجميع ، فهو أكثر صفاء من المياه العذبة . ذلك أن الأملاح المعدنية والمواد العضوية التي يشتمل عليها تضاعف شفافيته .

وفي بعض نواحي المحيط في جزائر الأنتيل ، يمكن الإنسان أن يرى بوضوح من سطح البحر قاعه الرمل على عمق يزيد عن مائة وثلاثين متراً . والمعروف أن أشعة الشمس لا تخترق مياه البحر إلى أبعد من تسعمائة قدم . ولكن في هذا العالم المائي الذي تتحرك فيه الغواصة ، كانت الكهرباء تتولد في أحضان الأمواج نفسها ، فلم يكن المشهد مجرد ماء مضاء ، بل كان ضوءاً سائلاً .

ونحن إذا سلمنا بوجود الضوء القسفوري في أعماق البحار ، فإن الطبيعة تدخر للأحياء البحرية مشهداً من أشد مشاهدها عجباً . وقد أمكنني تأكيد هذه الحقيقة عن طريق آلاف الأشعة الصادرة من هذا الضوء الكهربائي .

وكان ثمة نافذتان من البللور على جانبي الصالون نبصر منهما هذه الأعماق المجهولة . وكان ظلام الصالون يضاعف من قوة الضوء الخارجى ، حتى إنه كان فى مقصورنا أن نبصره وكأنه ألواح البللور الشفاف فى معرض مائى كبير

وبدا لنا أن الغواصة لا تتحرك . وذلك لأنه لم يكن ثمة معالم للطريق ولكننا مع هذا نرى أحياناً خطوط المياه المضطربة الناشئة من مقدمتها ، تناسب أمام أعيننا بسرعة كبيرة .

ووقفنا أمام هذه النوافذ مستسلمين للعجب ، ولم يقطع أحدنا سكون الدهشة الذى خيم علينا حتى قال كونساييل :

— حسناً أيها الصديق نيد لقد أردت أن ترى فيها أنت ذا ترى الآن

فهتف نيدلاند قائلاً وقد نسى غضبه ومشروعاته للهرب بتأثير هذه المفاتن الآسرة :

— إن هذا شىء عجيب . من ذا يرفض الحضور إلى هنا لمشاهدة هذه العجائب ؟

فهتفت قائلاً :

— الآن أستطيع أن أفهم حياة هذا الرجل . إنه صنع لنفسه عالماً خاصاً من العجائب والمدهشات .

فقال نيدلاند :

— ولكننى لم أر أية أسماك .

فقال كونساييل :

— وماذا يهمك من هذا يا صديقى نيدلاند ما دمت لا تعرف عنها شيئاً ؟

فصاح نيدلاند :

— أنا ! صياد السمك !

عندئذ قامت مناقشة بين الرجلين لأن كلا منهما كان يعرف عن الأسماك معلومات تختلف عن معلومات الآخر .

وربما كان كونسايل يعرف عنها أكثر مما يعرف صاحبه . ولكنه وقد أصبح صديقاً لنيد لاند ، أبي أن يبدو أقل منه علماً ومن ثم قال :

– إنك يانيد صياد أسماك ماهر جداً . لقد اصطدت كثيراً من هذه الأحياء الطريفة ولكنني أراهن أنك لا تعرف كيفية تصنيفها ؟

فقال صياد الحيتان :

– بل أعرف أنها مقسمة إلى نوعين . نوع صالح للأكل ونوع غير صالح .

فقال كونسايل :

– هذا تصنيف الخائض . . ولكن هل تعرف الفرق بين الأسماك العظمية والغضروفية ؟

– ربما كنت أعرف يا كونسايل .

– والرتب الفرعية التي ينقسم إليها كل من هذين النوعين الكبيرين ؟

فأجاب الكندي

– يمكنني أن أقول نعم .

– إذن اسمع وتذكر . . إن الأسماك العظمية تنقسم إلى ست رتب ؟

الرتبة الأولى هي المعروفة باسم « الأكانثوبتريمجى » التي يكون فكها الأعلى كامل النمو له خياشيم متحركة على هيئة المشط . وتضم هذه الرتبة خمس عشرة أسرة ، أى ثلاثة أرباع الأسماك المعروفة ، مثل سمك البرش النهري ؟

فقال نيدلاند في ازدراء :

– سمك المياه العذبة ؟

واستطرد كونسايل قائلاً :

– والرتبة الثانية هي السمك الجوفى وهي رتبة من السمك الذى تثبت زعانفه البطنية وراء الصدر دون أن تتصل بعظام الكتفين . وتضم هذه الرتبة خمس أسرات معظمها يعيش فى المياه العذبة مثل السلمون والكراكي المصبوغة ، والشبوط الخ .

فقال نيدلاند :

– وكلها أنواع لذيذة الطعم .

– والرتبة الثالثة هي أسماك السبراكانز ، وهي التى تثبت زعانفها البطنية تحت الصدر وتتصل بعظام الكتفين . وتضم هذه الرتبة أربع أسرات : مثل البكلاه وسمك الترسة ، والبياض وسمك موسى الخ
فهتف نيد لاندهو لاي فكر فى هذه الأنواع إلا من زاوية صلاحيتها للأكل .

– عظيم جداً .

فقال كونساييل دون أن يرتبك :

– والرتبة الرابعة هي أسماك الزوأحف « الأبود » ذات الأجسام الطويلة الخالية من الزعانف والمكسوة بجلد سميك عادة ، وهذه الرتبة تضم أسرة واحدة مثل ثعبان البحر ، وسمك الذئب ، وسمك الحربة ، والرماح الخ

فقال نيدلاند :

– أنواع متوسطة . . . متوسطة لا أكثر .

فاستطرد كونساييل قائلاً :

– والرتبة الخامسة هي أسماك « اللدفيادى » التى تتميز بامتداد عظام الرسغ مما يكون لها نوعاً من الذراع الذى يدعم زعانف الصدر ، مثل سمك الانجلو « سمك عريض الرأس » أو سمك الضفدع .

فقال نيدلاند مشمئزاً :

– إنه نوع ردىء .

– والرتبة السادسة والأخيرة هي أسماك البلكتونات التي تضم بين أنواعها:
الأسماك ذات العظام الفكية دون أن يكون لها زعانف بطنية حقيقية . وهي
تضم أسرتين مثل سمك الشمس .
فهتف الكندي قائلا :

– وهو نوع تجبل منه أواني الطهي .
فقال كونساييل العالم :

– هل فهمت يا صديقي نيد ؟

– أبدأ يا صديقي كونساييل . ولكن استمر في حديثك . فإنه على كل
حال شيق .

فاستطرد كونساييل قائلا دون أن يتزائل :

– أما عن الأسماك الغضروفية ، فإنها تنقسم إلى ثلاث رتب فقط .
فقال نيد :

– وهذا أحسن .

– الرتبة الأولى أسماك السايكلستوم ، ذات الفم المستدير والحيشوم ذى
الفتحات العديدة ، وهي تضم أسرة واحدة ، مثل سمك الدينا أوكالانكيس .
فقال نيدلاند :

– لا بد أن تعتاد هذا النوع حتى تحب أكله .

– والرتبة الثانية هي أسماك السلاخو ولها خياشيم تشبه خياشيم أسماك
الرتبة الأولى ولكن فكها الأسفل متحرك . وهذه الرتبة التي تعتبر أهم أصناف
السمك . تضم أسرتين مثل سمك القرش وسمك السفن .
فهتف نيدلاند قائلا :

– ماذا ؟ . أتقول إن القرش والسفن من نفس الرتبة ؟ إذن أنصحك
يا صديقي ألا تضعهما في إناء واحد .

واستطرد كونساييل يقول :

– والرتبة الثالثة هي أسماك الاستريون ذات الحياشيم المفتوحة بشق واحد وهي تضم أربع فصائل ، مثل سمك الاسترجون .
فقال نيدلاند :

– حسناً يا صديقي كونساييل ... لقد جعلت ختام هذه الأنواع خيراها وأفضلها . أهذا كل ما لديك ؟

– نعم يا نيد . ولكن لا تنس أنك وأنت تعرف هذا كله فأنت لا تعرف شيئاً لأن كل أسرة من هذه الأنواع والرتب تنقسم إلى فصائل ، وأقسام للفصائل ، وفروع وأصناف .

فقال نيدلاند وهو يعتمد على زجاج النافذة :

– حسنا يا كونساييل . إنني أرى الآن بعض الأصناف تمر أمامي .
فصاح كونساييل :

– نعم . بعض الأسماك . كأننا الآن في معرض مائي .
فقلت :

– إن المعرض المائي ليس إلا قفصاً . أما هذه الأسماك فإنها طليقة كالطير في الهواء .

فقال نيدلاند

– لا بأس يا كونساييل . أخبرني عن أسماها . أخبرني بأنواعها .
فقال كونساييل :

– أنا ؟ ليس هذا شأني . إن هذه مهمة سيدي البرفسور .

وفي الواقع إن تابعي وإن كان مصنفاً مجتهداً ، فإنه لم يكن بالعالم الطبيعي . ولست أدري ما إذا كان يستطيع التفريق بين سمكة التونة وسمكة البلطي . أما الكندي فقد كان بعكسه يعرفها بأسمائها دون تردد .

وقد توليت الإجابة قائلاً :

– هذه سمكة البالستر .

فقال نيدلاند :

– وهى بالستر من النوع الصينى أيضاً .

وغمغم كونساييل قائلاً :

– إنها فصيلة البالستر ، من أسرة الاسكليدروم من رتبة البليكتونات .

لاشك أن صاحبينا هذين جديران بأن يكون منهما عالم طبيعى ممتاز .

ولم يكن الكندى مخطئاً . فقد كان ثمة قطع من أسماك البالستر بأجسامها البدينة وجلودها المرقطة ، وسلاحها الذى يشبه الحراب على زعانفها الظهرية ، يمرح حول الغواصة ، وقد جعلت كل منها تحرك صفوف الريش الأربعة القائمة على جانبي الذيل . ولم يكن ثمة ما هو أبدع من ظهورها الرمادية وبطونها البيضاء ، والنقط الذهبية المتألقة بين الأمواج . وقد رأيت بينها سمكة الورنك اهزاز كأنها ورقة تلعب بها الريح . كما رأيت وأنا فى أشد السرور سمك الورنك الصينى ذا الظهر الأصفر والبطن القرمزى الفاتح والأسهم الثلاثة وراء العين . إنه لنوع نادر حقاً .

وظل جيش كامل من هذه الأحياء البحرية يرافق الغواصة مدى ساعتين وقد عرفت بين هذه الأنواع التى بدت كأنها تنبارى فى استعراض بهاها وسرعتها ، أسماك الراس الأخضر ، والسرموليه المعلم بخطين مزدوجين أسودين ، وسمك الجوبي بذيله المستدير وجلده المضيء بالنقط البنفسجية ، وسمك « المكرونة » اليابانى بجسمه الأزرق ورأسه الفضية ، والأسماك المذهبة الرؤوس بخطوط سوداء تصل إلى ذيوها ، وسمك الأليستون بأبواقها التى تشبه المزامير وسمك الودوكوك الذى يبلغ طول بعضه ثلاثة أقدام ، ثم أسماك السلامندر اليابانى وثمانين البحر التى يبلغ طولها ستة أقدام ، والتى تتألق عيناها الصغيرتان وتنفرج أفواهها الكبيرة عن أسنان حادة .

وبلغ إعجابنا مداه إذ كان نيدلاند يذكر اسم السمك ، وكونساييل

يفصل أنواعه ، وأنا مبتهج بروعتها وجمال تكوينها وذلك أنه لم يسبق لى قط أن رأيت هذه الأحياء البحرية حية طليقة في مواطنها الطبيعية ، ولن أذكر مختلف الأنواع التي مرت أمام أعيننا المبهورة ، ولا تلك المجموعات من أسماك البحار اليابانية والصينية فأنها أكثر عدداً وتنوعاً من طيور الجو . وقد جعلت تسبح حولنا مأخوذة ولا شك بالضوء الكهربائي .

وفجأة سطع الضوء مرة أخرى في الصالون وأغلقت الألواح الحديدية على النوافذ البلورية واختفى المنظر الباهر ، ولكنى بقيت بعد ذلك طويلاً وأنا في شبه حلم حتى وقعت عيناى على الأجهزة المعلقة على الجدران وكانت البوصلة لا تزال تشير إلا أننا نسير في اتجاه الشمال بشمال غرب . وكان المانوميتر يدل على أن الضغط يساوى خمسة ضغوط جوية ، أى بعمق ألفى ياردة ، أما مقياس السرعة فكان يدل على أننا نسير بسرعة خمسة عشر ميلاً في الساعة .

وتوقعت قدوم الربان نيمو ، ولكنه لم يظهر . وكانت الساعة تناهز الخامسة . ومالبت لاند وكونساييل أن عادا إلى مقصورتهم ، وقصدت إلى غرفتي الخاصة حيث كان طعام العشاء معداً ، وكان على التحديد من أطيب أجزاء سلحفاة « الهوكسبل » ومن سمك السرموليه الذى كان كبده المطهو بذاته يكون طبقاً لذيذاً هذا إلى قطع من الفليتو المصنوع من سمك الامبراطور هولر كامتوس الذى كانت نكهته تفوق نكهة السالمون الممتاز .

وأمضيت السهرة في القراءة والكتابة والتفكير وأخيراً غلبنى النوم فتمددت على الأريكة الوثيرة واستغرقت في نوم عميق بينما كانت الغواصة نوتيلوس تنساب مسرعة في تيار « النهر الأسود »

الفصل الخامس عشر

دعوة مكتوبة

استيقظت في اليوم التالي - التاسع من شهر نوفمبر - بعد نوم طويل دام اثنتي عشرة ساعة . وأقبل كونساييل يسأل كغادته « كيف قضى سيدي ليلته » ولكني يقدم خدماته . وكان قد ترك صاحبه الكندي مستغرقاً في النوم كما لو كان النوم هو مدار حياته كلها .

وتركت تابعي الشجاع يثرثر بأسلوبه المعهود دون أن أعنى كثيراً بالإجابة على كلامه . فقد كنت قلقاً لغياب الربان نيمو خلال مشاهد الليلة السابقة ، وكنت آمل أن أراه مرة أخرى في هذا اليوم .

وبادرت إلى ارتداء الملابس المصنوعة من منتجات البحر . وكان تكوينها موضع تعليقات كثيرة من كونساييل . فذكرت له أنها منسوجة من خيوط حريرية لامعة تربط نوعاً من المحار الذي يكثر على سواحل البحر الأبيض المتوسط بالصخور . وقد يما كانت بعض المنسوجات تصنع من هذه الخيوط . كالحوارب والقفازات ، وهي تجمع بين نعومة اللمس والدفء وعلى هذا الأساس يمكن كساء بحارة الغواصة بنفقات زهيدة ، دون الاحتياج إلى شجيرات القطن والأغنام ودود القز ، من إمدادات اليابسة .

ولما فرغت من ارتداء ملابسى ، ذهبت إلى الصالون ، فوجدته خالياً . وانصرم اليوم كله دون أن أتشرف بزيارة من الربان نيمو ، ودون أن تفتح ألواح نوافذه البلورية ، ولعلمهم أرادوا ألا نمل هذه المشاهدة الحميلة . وكانت الغواصة لا تزال في اتجاهها السالف وكانت سرعتها اثني عشر ميلاً في الساعة . على عمق يتراوح بين خمسين وستين ياردة .

ومر اليوم التالي على هذا النمط . . . نفس أعراض الجميع عنا . . . ونفس

العزلة

لم أر أحداً من رجال الغواصة . وأمضى نيدلاند وكونسايل أكثر اليوم .
معي ، وقد اعترتهما الدهشة لغياب الربان ، ترى أهذا الرجل الفريد مريض .
هل ينوى أن يغير نهجه معنا ؟

وأياً كان الأمر ، فقد كنا نستمتع بالحرية الكاملة . كما قال كونسايل .
وكان الطعام يقدم إلينا بوفرة وبأسلوب رقيق . لقد حرص مضيفنا على
تنفيذ الاتفاق الودي بيننا وبينه . فلم يكن لنا أن نشكو . فضلاً عن موقفنا
الحرج كانت له مزاياه الكبيرة إلى حد لا يدع لنا سبيلاً للشكوى أو الاتهام .
وفي هذا اليوم بدأت تدوين هذه المغامرات ، مما أتاح لي تسجيلها بدقة
بالغة ، ومن الطريف أني كتبتها على ورق مصنوع من أعشاب البحر .

وفي وقت مبكر من صباح اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر ، أحسنا
بتيارات الهواء التي تنتشر في جوانب الغواصة مما دل على صعودنا إلى سطح
الماء لتجديد زادنا من الأوكسوجين . وذهبت إلى السلم الرئيسي ، وصعدت
إلى إفريز السطح . وكانت الساعة السادسة صباحاً ، والجو مكفهر والبحر
معكر ولكنه هادئ لا موج فيه . وتمنيت مقابلة الربان نيمو هنا .. فهل تراه
يأتى ؟ إننى لم أبصر سوى الرجل المكلف بعجلة القيادة في مقصورته الزجاجية .
ومن ثم فقد جلست في أعلى بقعة وأخذت أنهل نسائم البحر في ابتهاج
وسرور

وأخذت السحب تنقشع رويداً رويداً بتأثير أشعة الشمس . وكان ظهور
السحب إيداناً بهبوب الرياح طوال ذلك اليوم . ولكن الرياح لم يكن لها
أدنى تأثير بالنسبة لى . وفيما كنت أمتع بصرى بمشهد شروق الشمس وبما يثيره
في النفس من بهجة وانتعاش ، إذ سمعت وقع أقدام تصعد إلى إفريز السطح
فتأهبت لمخاطبة الربان نيمو ، ولكن القادم لم يكن سوى ضابط الغواصة
الأول الذى شاهدته مع الربان في زيارته الأولى لنا . وبدا أنه لم يلحظ
وجودى على السطح وإنما اكتسح الأفق بمنظاره القوى المقرب ، ثم اقترب

من رأس السلم وتفوه ببعض كلمات أسجلها هنا بنصها ، لأنها كانت تقال كل صباح وفي نفس هذه الظروف . وهذه الكلمات هي

“Nantron Respoc Borni Verch”

أما ما هو معنى هذه الكلمات فذلك ما لا أعرفه .

وبعد أن تفوه الضابط الأول بكلماته هبط مرة أخرى إلى داخل الغواصة . وخطر لي أنها ستستأنف طريقها تحت الماء ولهذا تبعته وعدت إلى غرفتي .

وانقضت خمسة أيام على هذه الوتيرة دون أى تغيير في موقفنا وفي صباح كل يوم كنت أصعد إلى السطح وكان الضابط يكرر كلماته الآنفة الذكر أما الربان نيمو فلم يظهر لنا .

وبدأت أعتقد أنني لن أرى الربان مرة أخرى ، ولكنني فوجئت في اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر أثناء دخول غرفتي مع نيد لاند وكونسايل بروية رسالة موجهة إلى وموضوعة على المائدة .

وفضضت الرسالة وكانت الكلمات مكتوبة بخط واضح ثابت وبحروف شبه ألمانية .

« إلى البروفسور أرونالكس بالغواصة نوتيليوس »

« يدعو الربان نيمو البروفسور أرونالكس إلى رحلة صيد غداً في غابة جزيرة كريسيو ، ويرجو ألا يعوق البروفسور شيء عن قبول الدعوة ، ويسره أن يستقبل زميليه أيضاً » .

وهتف نيد لاند قائلاً :

— رحلة صيد !

وأضاف كونسايل قائلاً :

— وفي غابات جزيرة كريسيو .

وقال نيدلاند :

— إذن فإن صاحبنا هذا يرسو على البر أحياناً .

فقلت وأنا أعيد قراءة الخطاب :

– يبدو أن الأمر كما تقول ،

وأجاب نيدلاند بقوله :

– حسناً ، يجب أن نقبل الدعوة . متى وصلنا إلى اليبسة كان لنا أن نقرر ما نفعله . وفضلاً عن هذا فلن آسف إذا أتيح لي أن أكل بغض اللحم الطازج :

ونظرت إلى الخارطة لأرى موقع جزيرة كريستو منها ، فإذا هي تقع فيما بين خط عرض ٣٢,٤٠ درجة شمالاً وخط طول ١٦٧,٥٠ درجة غرباً . ولما كانت جزيرة صغيرة اكتشفت عام ١٨٠١ على يد الكابتن كريستو وسجلت في بعض الخرائط الأسبانية القديمة باسم روكسادى لابلاتا ، أى « الصخرة الفضية » وكنا عندئذ على مسافة ١٨٠٠ ميل من مبتدأ رحلتنا . وكانت الغواصة قد غيرت اتجاهها نحو الجنوب الشرقى . وأشرت بأصبعي لصاحبي على الصخرة الغارقة في وسط المنطقة الشمالية من المحيط الهادى وقلت :

– إذا كان الريان نيمو ، يرسو على اليبسة أحياناً ، فإنه يختار على الأقل الجزر المهجورة .

فهز نيدلاند كتفيه دون أن يقول شيئاً ثم ما لبث أن انصرف مع كونسابل وبعد طعام العشاء الذى قدمه الخادم الأخرس الحامد ، أويت إلى فراشي بخالجي بعض القلق .

وفي اليوم التالى ، أحسست حين استيقظت بالغواصة ساكنة تماماً ، فارتديت ملابسى بسرعة وقصدت إلى الصالون .

وهناك وجدت الريان نيمو جالساً فى انتظارى . فما أن رأيت حتى نهض وانحنى تحية لي ، ثم سألنى إذا كان من الملائم لي أن أرافقه :

– هل أستطيع أن أسألك يا كابتن كيف تمتلك غابات فى جزيرة كريستو

رغم أنك قطعت الصلة بينك وبين الأرض ؟

فقال الربان :

— إن غاباتي يابروفوسور ليست غابات أرضية ، بل غابات بحرية هـ

فهتفت قائلاً :

— بحرية ؟

— نعم يابروفوسور .

— وأنت تدعوني للذهاب معك إليها ؟

— نعم . ودون أن ينالك أى بلل :

— ولكن كيف نصطاد ؟ ببندقية ؟

— نعم ببندقية :

وظننت أن الربان جن ، وشفقت ملامح وجهي عن هذا الظن . ولكنه لم يلبث أن طلب مني أن أتبعه وكان على أن أمثل لكل شيء وقد دخلنا غرفة الطعام حيث وجدنا الإفطار معداً .

وقال الربان :

— هل تسمح يا مسيو أروناكس بمشاركتي طعام الإفطار دون كلفة ؟ سنتحدث أثناء الطعام كما أننا لن نجد في طريقنا إلى الغابة مطعماً نأكل فيه ولهذا أرجو أن تفطر كرجل ربما لا يتغدى إلا في ساعة متأخرة .

وأقبلت على الطعام بشهية كبيرة . وكان مؤلفاً من أصناف مختلفة من السمك وشرائح من لحم الهوليثوريا والزوفيت الفاخر مطهوه بمختلف أعشاب البحر . وشربنا ماء صافياً ، وحذوت حذو الربان فأضفت قطرات من شراب كحولي تُقطر من أعشاب بحرية تعرف باسم « رودومينيا بالماتا » وقد أخذ الربان نيمو في تناول طعامه دون أن يقول شيئاً أول الأمر ، وأخيراً قال لي :

— عند ما دعوتك للصيد في غابتي البحرية ، خطر ببالك أنني مجنون .

لقد تسرعت في الحكم على . فأنت تعرف مثلى أن في مقدور الإنسان أن يعيش تحت سطح الماء . فحين نرتدى ملابس عازلة محكمة ، ونضع على رؤوسنا خوذة معدنية . ونحصل على الهواء من أجهزة فوق السطح ترسل إلينا بالمضخات .

— إذن فهي أجهزة الغواصة ؟

— نعم ولكنها أجهزة خاصة يستطيع الغواص فيها أن يتخلص من الأنبوب المطاطي المتصل بالمضخة . . إنه نفس الجهاز الذي اخترعه اثنان من مواطنيك ، ولكني أدخلت عليه من التحسينات ما يجعله صالحاً لأغراض الخاصة ، وسوف يتيح لك المخاطرة في الهبوط إلى أعماق البحر دون حدوث أذى . إنه يتكون من مستودع من ألواح الحديد السميكه لاختزان الهواء المضغوط تحت خمس ضغطاً جويًا . ويربط هذا المستودع على الظهر بأربطة كما يفعل الجندي بعناده ، ويتكون جزء المستودع الأعلى من صندوق يحتفظ فيه بالهواء بواسطة مفاتيح . ولا يتسرب هذا الهواء إلا بضغطه العادي . ويخرج من هذا الصندوق أنبوبتان من المطاط ويتصلان بشبه قناع يكسو الفم والأنف بإحكام ، وإحدى الأنبوبتين تدفع بالهواء النقي إلى الرئتين والأخرى تطلق الهواء الفاسد خارجاً واللسان يغلق أيهما حسب الحاجة إلى التنفس . ولكنني وأنا أعاني ضغطاً شديداً في قاع البحر مضطراً إلى وضع رأسي في كرة نحاسية تفتح فيها الأنبوبتان .

فقلت :

— عظيم جداً يا كابتن نيمو . . ولكن الهواء الذي تحمله معك سوف يستهلك سريعاً ، لأنه لن يصلح للنفس بعد أن تصبح نسبة الأوكسجين فيه ١٥% .

— لقد ذكرت لك يابروفور أن مضخات الغواصة تسمح لي باختزان الهواء تحت ضغط كبير وفي هذه الحالة يمكن لمستودع الجهاز أن يزودني بالهواء الصالح للتنفس لمدة تسع أو عشر ساعات .

فقلت :

– ليس لدى اعتراضات أخرى ، ولكننى سأسألك عن شئ واحد ،
يا كابتن . . . وهو كيف تضيء طريقتك فى قاع المحيط ؟

– بجهاز رومكورف يامسيو أروناكس . إنه يتكون من ملف بنزن الذى
أديره بالصوديوم وهناك سلك يستجمع الكهرباء المولدة ويوجهها إلى مصباح
صنع لهذا الغرض خاصة . وفى هذا المصباح زجاجة حلزونية تحتوى على
كمية قليلة من غاز الكربون ، وعند ما يدار الجهاز يصبح الغاز مضيئاً
ويطلق ضوءاً أبيض مستمراً وعلى هذا النحو تزود بالهواء والضوء .

– ولكن أى نوع من البنادق تستعمل يا كابتن نيمو ؟

– إنها ليست بندقية بارود . وإنما بندقية تنطلق بضغط الهواء وإلا فكيف
أستطيع أن أصنع بندقية بارود دون الحصول على الكبريت أو الفحم الحجرى
أو ملح البارود .

فأضفت قائلاً :

– وعدا هذا فإن إطلاق النار تحت الماء فى وسط أكثف من الهواء
بمقدار ثمانمائة وخمس وخمسين مرة ، يواجه مقاومة شديدة لا بد من التغلب
عليها . .

– ليس فى هذا صعوبة . فهناك نوع من بنادق فلتون مزودة بأجهزة
إقفال يمكن إطلاقها فى مثل هذه الظروف ولكننى أكرر القول بأنه نظراً
لعدم وجود بارود لدى ، فإنى أستخدم الهواء المضغوط ضغطاً عالياً ، وهو
ما تزودنى به الغواصة .

– ولكن مثل هذا الهواء لا بد أن يستهلك عاجلاً .

– حسناً . أليس لدى مستودعات ردكايروول التى تزودنى بكل حاجياتى
من هذا الهواء . وفضلاً عن هذا فسوف ترى بنفسك يا مسيو أروناكس أننا
لن نستنفد الكثير من الهواء أو الرصاص أثناء رحلتنا للصيد فى الغابة البحرية .

– ولكن يبدو لي أن الأهداف لن تكون واضحة ولن تصيب منها مقتلاً في محيط أكثر كثافة من الجو وأقل ضوءاً .
 – سيدى إن كل طلقة من هذه البنادق تصيب مقتلاً . وإن الحيوان البحرى ليسقط ميتاً حالما تلمسه القذيفة ولو مساً ضعيفاً :
 – لماذا ؟

– لأن القذائف ليست رصاصاً عادياً . فإن لدينا كبسولات من الزجاج المتفجر وفي الغواصة كميات كبيرة منه . هذه الكبسولات الزجاجية المكسوة بالصلب والمثقلة في القاع بالرصاص ، هي زجاجات ليدن التي يحول فيها التيار الكهربائى إلى ضغط عال . وهى تنفجر لأقل صدمة ، فيسقط الحيوان صريعاً مهما تكن قوته ، إن هذه الكبسولات لا تزيد في حجمها عن الرصاصة رقم ٤ ويمكن أن تحتوى خزانة البندقية العادية على عشرة كبسولات منها .
 فقلت وأنا أنهض عن المائدة :

– لن أناقش أكثر من هذا . ولم يبق أمامى إلا أن أحمل بندقيتى ،
 إننى سأتبعك إلى حيث تذهب .

وبعد ذلك قادنى الربان نيمو إلى مؤخرة الغواصة ، ثم استدعيت صاحبي اللذين تبعانى فوراً وقصدنا حجرة صغيرة بالقرب من غرفة الآلات ، حيث ارتدينا ملابس السير فى الأعماق .

الفصل السادس عشر

في قاع البحر

كانت الغرفة الصغيرة بمثابة ترسانة ومخزن ملابس في الغواصة . فقد رأيت على جدرانها عشرات من أجهزة الغوص في انتظارنا .

وما أن رأها نيدلاند حتى أبدى نفوراً بيناً من ارتداء إحداها . فقلت له :

– ولكن يا عزيزي نيدلاند إن غابات جزيرة كريسيو ليست إلا غابات تحت البحر .

وهكذا خاب أمل صياد الحيتان حين رأى أحلامه بصدد اللحم الطازج تتلاشى .

وأخيراً قال

– وأنت يامسيو أروناكس . هل سترتدي واحداً منها ؟

– لا بد من هذا يا سيد نيد .

فهز صياد الحيتان كتفيه وأجاب قائلاً :

– لك يا سيدي أن تفعل ما تريد . أما أنا فلن أرتدي إحداها إلا إذا

أرغمت على ذلك .

فقال الزبان نيمو :

– لن يرغمك أحد .

فقال نيد :

– وهل ينوى كونساييل أن يغامر بذلك ؟

فأجاب كونساييل :

– سأتبع سيدي حيثما يذهب .

واستدعى الربان اثنين من بحارة الغواصة لمساعدتنا في ارتداء ملابس الغوص الثقيلة المصنوعة من المطاط والمصممة خصيصاً لمقاومة الضغط العالى . وكانت تبدو كحلة مدرعة بحالها من مرونة وقوة احتمال . كانت مؤلفة من بنطلون وسترة : فأما البنطلون فكان طرفاه ينتهيان بحذاء غليظ ذى نعل من الرصاص الثقيل ، وكان نسيج السترة مشدوداً بأربطة من النحاس متشابكة فوق الصدر لتحميه من ضغط الماء تاركة للرئتين حرية التنفس وكانت أكمام السترة تنهى بقفاز لا يقيد حركات اليدين بأى حال .

وبعد قليل فرغنا من ارتداء هذه الملابس أنا وكونسابل والربان نيمو وأحد بحارته ، وكان رجلا هرقلى الجسم . ينم منظره عن القوة المفرطة : ولم يبق إلا أن يضع كلا منا رأسه فى الكرة النحاسية ؛ ولكنى قبل أن أقوم بهذه العملية سألت الربان أن يأذن لى بفحص البنادق التى سنأخذها .

وقد سلمنى أحد البحارة بندقية عادية الشكل كانت مؤخرتها المصنوعة من الصلب والمجوفة من الداخل كبيرة الحجم فهى بمثابة مستودع للهواء المضغوط الذى كان ينطلق إلى أنبوبة معدنية عن طريق صمام يعمل بزبرك . وكان ثمة صندوق للقذائف صغير مثبت فى فجوة خاصة بمؤخرة البندقية . يحتوى على نحو عشرين رصاصة كهربائية تدفع عن طريق الزبرك إلى (ماسورة) البندقية وكلما انطلقت رصاصة أصبحت الثانية معدة .

وقلت :

— إن هذه البندقية يا كابتن نيمو كاملة ومسهلة الاستعمال . وكل ما أرجوه الآن هو تجربتها ، ولكن كيف نصل إلى قاع البحر ؟

— إن الغواصة يا بروفيسور قائمة الآن على عمق ثلاثين ياردة وما علينا إلا أن نبدأ الرحلة .

— ولكن كيف سنخرج منها ؟

— سترى حالا .

وضع الربان نيمو خوذته على رأسه ، وحدثت أنا وكونسايل خنوه ونحن نسمع من نيدلاند هذه العبارة التهكمية « صيد طيب » وكان طرف السترة العلوى ينتهى بياقة نحاسية شدت إليها الخوذة المعدنية . وما أن تم ارتداء الملابس حتى بدأ الجهاز الموضوع على الظهر عمله . وقد وجدت من ناحيتى أنى أستطيع التنفس بسهولة .

وبعد أن تم إعداد كل شىء وجدت أنى لا أستطيع التقدم خطوة واحدة ، ولكن هذا كان متوقعا ، فقد شعرت بأنى أدفع إلى مقصورة ملحقة بغرفة الملابس ، وتبعنى رفاقى مدفوعين بنفس الكيفية . وسمعت باباً مزوداً بمفصلات ذاتية يغلِق ورائى ، وإذا نحن فى ظلام دامس .

وبعد لحظات سمعت صغيراً عالياً ثم أحسست بالبرودة تسرى من قدمى إلى صدرى وكان واضحاً أن الغرفة تمتلئ بماء البحر من صنوبر خاص ، وفتح باب آخر فى جانب الغواصة ولاح ضوء يسير وبعد لحظة كانت أقدامنا تطأ قاع البحر .

والآن كيف أستطيع أن أسجل مشاعرى وأنا أسير تحت سطح البحر ؟ إن الألفاظ قاصرة عن التعبير عن هذه الروائع . وإذا كانت فرشاة الرسم نفسها تعجز بالألوان عن تصوير تأثيرات هذه العناصر المائية الفريدة فكيف يكون ذلك فى طوع العلم ؟

وكان الربان نيمو يسير فى المقدمة ورفيقه على مسافة خطوات يسيرة وبقيت مع كونسايل وكأنما كان يمكن أن تتبادل الحديث من خلال الخوذات المعدنية . ولم أعد أشعر بثقل ملابس الغوص أو الحذاء أو مستودع الهواء أو بالكرة المعدنية المخوفة التى كان رأسى يتأرجح داخلها كاللوزة فى غلافها .

وأدهشنى الضوء الذى أنار القاع على عمق ثلاثين قدماً تحت سطح المحيط بقوته وسطوعه ، فقد كانت أشعة الشمس تنفذ من حجاب الماء وتمحلل إلى ألوان الطيف ، وكان يمكن رؤية الأشياء بوضوح على مسافة مائة وعشرين ياردة . أما فيما وراء ذلك فقد كان الضوء يتدرج فى ظلال بديعة

الألوان ثم يتلاشى وتسود العتمة : وكانت المياه حولي تبدو أشد كثافة من جو اليابسة . ولكنها تقاربه شفافية . أما فوقى فقد كان بوسعى أن أبصر سطح البحر الهادئ .

وكنا نسير على أرض رملية ناعمة مستوية لا أثر فيها للموجات ، كما يحدث في شاطئ رملى مسطح تنطبع فيه آثار الأمواج . وكانت هذه السجادة الرائعة تعكس أشعة الشمس بقوة مدهشة ، وكنت أستطيع في هذا العمق البالغ ثلاثين قدماً أن أبصر كما لو كنت في وضع النهار .

ولبثت ربع ساعة أسير فوق هذه الرمال البراقة المرصعة بغير المحار الملون الأملس . وكانت مقدمة الغواصة التي لاحت لى وكأنها صخرة مستطيلة تختفي تدريجياً ، ولكن مصباحها إذ جن الليل كان كفيلاً بتسهيل عودتنا إليها . وكنت وأنا أسير أجذب أستار الماء بيدي فلا تلبث أن تنسدل ورائى ، أما آثار قدمى على الرمال فكانت تتلاشى بضغط الماء .

وسرعان ما وصلت إلى مجموعة من الصخور البديعة المكسوة بأنضر أعشاب البحر ، ولأول وهلة داخلنى انفعال خاص بهذا الجو المحيط بي ؟

وكانت الساعة إذ ذاك العاشرة صباحاً . وكانت الشمس ترسل أشعتها على سطح الأمواج في زاوية حادة وعند التقاء الشمس بسطح البحر كان الضوء يتحلل وكأنه ينفذ من منشور بللورى إلى ألوان الطيف السبعة التي تنعكس في رونق وبهاء على الأزهار والصخور والأعشاب والرمل والمحار . وكان المنظر في جملة يهر العين لتشابهه ، وألوانه المتباينة التي تتعاقب بين الأخضر والأزرق . . . وصفوة القول كانت جميع الألوان التي في جعبة رسام موهوب .

وتوقفت مع كونسائل أمام هذا المشهد الرائع . فقد كانت زهور الإيريس المبرقشة ، وأكوام المرجان الصافى . ونبات الاسفنج ، وشقائق النعمان المتكاثفة بإطاراتها القوية تشكل حديقة بحرية غناء مموهة بطلاء كالرخام الناشئ من قواقع

البورنيثا ، ومزخرقة بقرون استشعارها السماوية اللون ، كما كانت أزهار نجوم البحر ترصع الرمال ، والقواقع تترك في زحفها على الرمال آثارا كأنها الوشى الرقيق . وكم تملكنى الأسى وأنا أدوس بقدمى هذه الأنواع التي لا حصر لها من النباتات والأزهار والأحياء البحرية الدقيقة والمحار والأصداف وغيرها من كنوز المحيط التي لا يحصها عدد . ولكن كان علينا أن نتابع السير بينما كانت أنواع وأصناف أخرى من الحيوانات البحرية تسبح فوقنا بمختلف ألوانها وأشكالها وسماتها وكأنها مظلات عجيبة تحميها من أشعة الشمس . ولو كان الوقت ليلا لأضاء لنا سمك الباتوفيريان الطريق بإشعاعه الفسفورى . شاهدت هذه الأعاجيب كلها في مساحة ربع ميل مربع . ثم سرعان ما تبدلت طبيعة التربة فبعد السهول الرملية ، أخذنا نسير في منطقة موحلة زلقة تتكون من أجزاء متساوية الأصداف الرملية والبحيرية ثم انتقلنا إلى مراع من أعشاب البحر اللينة التي تفوق أفخر أنواع السجاد التي صنعتها يد الإنسان وفي الوقت الذي انبسطت فيه تحت أقدامنا هذه الحضرة البحرية . كانت هناك نباتات أخرى تطفو على سطح الماء وقد لاحظت أن الحضراء منها كانت قريبة من سطح الماء أما ذات اللون الأحمر فكانت تقع في عمق متوسط . وبقية النباتات ذات اللون الأسود أو البنى تكون حداثق النباتات وأحواض الزهور في أعماق المحيط البعيدة . وأن أسرة الأعشاب البحرية تضم أكبر وأصغر أنواع النبات في الكرة الأرضية .

وكنا قد غادرنا الغواصة منذ نحو ساعة ونصف ، وكان الوقت يناهز الثانية عشرة ظهراً ؛ وقد عرفنا هذه الحقيقة من استقامة أشعة الشمس التي لم تعد تتحلل إلى ألوان الطيف . وهكذا اختفت هذه الألوان الساحرة تدريجياً وتلاشت الظلال الزمردية والياقوتية ، ومضينا نسير بخطوات منتظمة كان لها فوق الأرض رنين أدهشنا وضوحه ، ذلك أن أقل صوت كان يصل إلى الأذن بسرعة لم تألفها اليابسة . والواقع أن الماء أفضل من الهواء في توصيل الصوت . بنسبة أربعة إلى واحد .

وبدأت الأرض تنحدر تدريجياً وأخذ الضوء يزداد خفوياً لقد كنا في عمق
 يجاوز مائة ياردة . وتحت ضغط يوازي عشرة ضغوط جوية . ولكن ملايس
 الغوص كانت أصغر من أن أشعر معها بوطأة هذا الضغط وكل ما أحسست
 به هو اضطراب يسير في مفاصل أصابعي ، وحتى هذا لم يلبث أن تلاشى .
 أما التعب الذي كنت متوقفاً أن نشعر به في هذه الجولة وبهذه الملابس العجيبة
 فلم يكن له وجود . فقد كنت أتحرك بسهولة مدهشة والماء خير عون لي .
 وكنت رغم هذا العمق البالغ ثلاثمائة قدم – لا أزال أرى أشعة الشمس ،
 ولكن في غير وضوح . فقد أعقب ضوءها الباهر ، ضوء أحمر كالشفق الذي
 يفصل بين الليل والنهار . ومع ذلك كان هذا الضوء كافياً لهدايتنا في الطريق
 وهكذا لم يتحتم علينا بعد أن نستعين بمصابيحنا .
 وفي تلك اللحظة توقف الربان نيمو ، منتظراً وصولي إليه ، ثم أشار
 بأصبعه إلى كتلة عائمة بدت من بين الظلال على مسافة يسيرة ، فقلت
 لنفسى

– إنها جزيرة كريستو .

ولم أكن مخطئاً .

الفصل السابع عشر

غابة في قاع المحيط

وصلنا أخيراً إلى مشارف الغابة التي تعتبر بلاشك من أجمل ممتلكات الربان نيمو الشاسعة . كان ينظر إليها على أنها ملك يمينه ، وإلا فأين الذي يستطيع أن ينازعه هذا الحق ؟ وكانت هذه الغابة تتكون من أشجار كثيفة : وما أن نفذنا من عقودها الضخمة حتى أدهشني وضع أغصانها الفريد الذي لم ألاحظه من قبل .

لقد استرعى نظري أن الأعشاب التي تكسو الأرضية والأغصان والنباتات الأكبر حجماً ، كانت منحنية متدلّية أو منتشرة أفقياً ، لم يكن بينها أي نبات حتى ولا الألياف الدقيقة إلا وقد امتد رأسياً كقضيب من الحديد . وكذلك كانت نباتات الفاسكي واللياناس تنمو في خطوط رأسية مستقيمة تسيطر عليها كثافة العناصر التي تنمىها . وعند ما أحنيت بيدي بعضها استردت وضعها الراسي فوراً ، لقد كنا في عالم النباتات الرأسية الصاعدة .

ولم ألبث أن ألفت هذه الأوضاع الغريبة كما ألفت الظلمة اليسيرة التي تشملنا . وكانت الأرض تبدو مكسوة بكتل لم يكن من السهل اجتنابها ، ولكن الغابة في جملتها بدت لي أكمل وأغنى من غابات المناطق القطبية أو الاستوائية . وقد اختلط الأمر عليّ لأول وهلة ، فكنت أخطئ في التفريق بين بعض الحيوانات والنباتات . ومن ذا الذي لا يخطئ في عالم بحري يتحد فيه عنصر النبات والحيوان اتحاداً يكاد يكون كاملاً .

وقد لاحظت أن كل هذه النباتات البحرية ليست لها جنور ، وإنما هي عالقة فقط بالرمال أو الأصدف أو الصخور ، لأنها لا تستمد غذاءها وحيويتها من شيء غير الماء . وكان أكثرها ينبت بدل الأوراق نصالاً نباتية الأشكال

تتعاقب ألوانها بين الوردى والأحمر الزاهى والأحمر العادى والزيتونى
والبنى

وبين هذه الأشجار المختلفة التى تبلغ فى أحجامها أشجار المناطق المعتدلة .
وتحت ظلالها الرطبية رأيت كتلا من أدغال الزهور الحية وأعني بها مختلف
أنواع القواقع والحار وحيوانات الإسفنج وغيرها من الأحياء البحرية الدقيقة
التي تشبه النبات والزهور بألوانها وخطوطها وتفتح أوراقها . ولكي تم
الصورة العجيبة رأيت السمك الطائر ، الذى كان يطير من غصن إلى غصن
وكأنه أسراب من الطيور الطنّانة . .

وفى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر أشار لنا الربان نيمو بالتوقف ، فلم
يؤسفى هذا . ولم نلبث أن تمددنا تحت دغل من نبات الألاريا التي كانت
نصالحا تندفع إلى أعلى كالسهم .

وبدت لى هذه الراحة القصيرة ممتعة . ولم يكن ينقصنا إلا لذة الحديث ،
ولكن الحديث كان مستحيلا . كل ما استطعته هو تقريب خوذي المعدنية
الكبيرة من خوذة كونساييل ، فرأيت عينيه تلمعان رضى ؛ وكان يتحرك فى
ملابس الغوص بطريقة تثير أشد الضحك .

وقد أدهشنى بعد مسيرة هذه الساعات الأربع أنى لم أشعر باشتداد الجوع .
ولست أدى ما السبب ، ولكنى كنت أشعر برغبة قوية فى النوم كما هو شأن
جميع الغواصين . لقد أغمضت عيني وراء زجاج الخوذة السميك واستغرقت
فى نوم غلاب لم يحل بينى وبينه حتى ذلك الحين سوى المسير ؛ وكان الربان
نيمو وصاحبه القوى قد ضربا لنا المثل فى الخضوع لسلطان النوم بعد أن رقدا
على أرضية هذا العالم البلورى .

ولست أدرى كم لبثت نائماً ، ولكنى حين استيقظت كانت الشمس
مائلة إلى المغرب ، وكان الربان نيمو قد استيقظ ونهض واقفاً بينما كنت أعمطاً ،
ولكن مشهداً مفاجئاً جعلنى أثب واقفاً .

رأيت على بعد خطوات منى عنكبوتاً بحرياً ضخماً يبلغ ارتفاعه أكثر من ياردة يحدق إلى بعينه الحولاوين ويتأهب للوثوب على ، ورغم أن سمك ملابسي كان كافياً للحمايتي من لدغة هذا العنكبوت الوحشي فلاني لم أستطع كتمان حركة تم عن الفرع ، واستيقظ كونساييل وبحار الغواصة على صوت حركتي . وأشار الربان نيمو للبحار إلى ذلك الوحش البحري الخيف وإذا بضربة عنيفة من مؤخرة البندقية تقضى عليه . . ورأيت مخالفه البشعة وهي تتلوى بحركات تشنجية فظيعة . .

وذكرتني هذه الحادثة بأن ثمة حيوانات أخطر قد تكمن في هذه الأعماق المظلمة . وأن ملابس الغوص قد لا تحميني من هجماتها ، والواقع أن شيئاً كهذا لم يخطر ببالي من قبل . ولهذا قررت التزام الحذر – وكنت أظن أن هذه الراحة هي نهاية رحلتنا ولكني تبينت خطئي ؛ فإن الربان نيمو بدلا من العودة إلى الغواصة استأنف السير .

واستمرت الأرض في الانحدار حتى أفضت بنا إلى مزيد من الأعماق . وأعتقد أن الساعة كانت الثالثة بعد الظهر حين بلغنا وادياً ضيقاً بين هضبتين عاليتين على عمق أربعمئة قدم تحت سطح الماء ، ويرجع الفضل إلى ملابس الغوص التي جعلتنا نحتمل الضغط المائي ونحن في هذا العمق فقد كنا على عمق ٢٧٠ قدماً تحت المستوى الذي لا يستطيع الإنسان تجاوزه دون أجهزة الغوص ، وقد عرفت مدى العمق الذي وصلنا إليه لأن الظلمة صارت مطبقة بحيث لم يكن في مقدورنا أن نرى إلى أبعد من عشر خطوات، وبينما كنت أسير وأنا أتحمس طريق رأيت فجأة ضوءاً أبيض يسضع . لقد أضاء الربان نيمو مصباحه الكهربائي فاقتديت به أنا والبحار وكونساييل ، وتم ذلك بإدارة لمولب يصل بين قطعة سلك والزجاجة الحلزونية المضيئة . وقد أضاءت هذه المصابيح الأربعة الطريق حولنا إلى مسافة خمس وعشرين ياردة .

وتابع الربان نيمو توغله في أعماق الغابة المظلمة التي أخذت أشجارها

تقل تدريجياً كلما تقدمنا . وقد لاحظت أن العنصر النباتي كان يختفي أمامنا بأسرع من اختفاء العنصر الحيواني ، فبينما كانت بعض المناطق خالية من النبات إذا هي في ذات الوقت زاخرة بأنواع من الأحياء البحرية المختلفة .
 وخطر لي ونحن نسير أن مصابيحنا لا يمكن إلا أن تلفت أنظار بعض سكان هذه الأعماق المظلمة . ولكنها إذا كانت لم تقرب منا فإنها على الأقل تبعتنا من مسافة غير قصيرة ، ورأيت الربان نيمو مراراً وهو يتوقف ويصوب بندقيته ثم لا يلبث بعد تدقيق النظر أن ينهض ويستأنف السير .

وحوالي الساعة الرابعة انتهت هذه الرحلة العجيبة أخيراً ، فقد ارتفع أمامنا جدار من الصخور الشاخحة . إلى هضبة من الجرانيت يستحيل أن يتسلقها إنسان . تلك هي جزيرة كريسيو . وفجأة توقف الربان نيمو وتوقفنا نحن بإشارة منه . فهنا كانت آخر حدود مملكته .
 وبدأنا طريق العودة . . . وتقدم الربان فرقة الصغيرة كالمعتاد دون تردد ولا التواء ؛ وبدأ لي أن عودتنا إلى الغواصة لم تكن من نفس الطريق الذي جئنا فيه ، فقد كان الطريق شديد الانحدار يشق السير فيه ولكنه أفضى بنا إلى السطح بسرعة ، على أن عودتنا إلى المناطق العليا لم تكن مفاجئة على النحو الذي يسبب الأضرار المهلكة للغواصين . وسرعان ما وضح الضوء مرة أخرى وأخذ يزداد . وكانت الشمس عندئذ قد مالت إلى المغيب وصبغت المرثيات بهالات طيفية .

وعلى عمق عشر ياردات أخذنا نسير بين أسراب من السمك الصغير من كل صنف أكثر كثيراً من طيور الجو وأخف منها حركة ولكننا لم نلتق حتى ذلك الحين بحيوان بحري يستحق أن نصوب إليه بنادقنا .
 وفجأة رأيت الربان نيمو يرفع بندقيته على كتفه ويقتفي أثر شيء متحرك بين الشجيرات ، ولم يلبث أن أطلق البندقية فسمعت فحيحاً يسيراً ثم رأيت حيواناً يسقط على مسيرة خطوات منا .

كان « قندسا » أو كلب البحر بديع الصورة وهو الحيوان الوحيد من ذوات الأربع الذى يعيش فى الماء فقط . وكان طوله خمس أقدام مما يضاعف من قيمته المادية . وكان جلده الكستنائى اللون فى أعلى ، الفضى فى أسفل يجعل منه فراء نفيساً يشتد الإقبال عليه فى روسيا والصين . وأعتقد أن هذا الفراء اللامع الناعم الملمس لا يقل ثمنه عن ثمانين جنيهاً . وأخذت أتأمل بإعجاب هذا الحيوان البحرى الثلجى برأسه المستديرة وأذنيه القصيرتين وعينه المستديرتين وشواربه البيضاء كالقطن . وأقدامه ومخالبه ذات الأغشية . لقد كان صيادو السمك يجدون فى طلب صيد هذا الحيوان الثمين حتى أصبح نادراً ، وأخذ يلتجئ إلى البقاع الشمالية من المحيط الهادى حيث يحتمل أن ينقرض نوعه فى زمن قريب . وما لبث تابع الرهبان نيمو أن حمل هذا الحيوان فوق كتفه ثم تابعتنا السير .

وفى الساعة التالية كنا نسير فى سهل رملى مترامى الأطراف كان يرتفع أحياناً قرب سطح الماء بمقدار ياردتين وبضع بوصات وكنت أرى فوقنا انعكاس صورنا وهى انعكاسات تمثلنا تماماً وإن جعلت رؤوسنا إلى أسفل وأرجلنا إلى أعلى . .

وكانت لبحر الأمواج فوقنا تبدو كالسحاب فوق رؤوسنا . وهو سحاب ما يكاد أن يتجمع حتى يتلاشى سريعاً كما كنت أرى ظلال الطيور الكبيرة وهى تملق فوق سطح الماء .

وفى هذه المناسبة أتيت لى أن أشهد انطلاق بندقية الصيد بضربة فذة تسهوى الصياد . فقد راح طائر كبير عريض الجناحين يرفرف فوقنا فرفع تابع الرهبان نيمو بندقيته إلى كتفه وأطلقها عند ما حلق الطائر قريباً من سطح الماء فهوى الطائر سريعاً فى متناول يد الصياد البارح الذى تلقفه . وكان كطائر القادوس .

ولكن هذه الحادثة لم تعطل سيرنا . . وقد نال منى الجهد كل منال

حتى لمحت آخر الأمر ضوءاً باهتاً على بعد نصف ميل . فقدرت أنه لن تنقضى عشرون دقيقة حتى نصل إلى الغواصة حيث أستطيع التنفس بسهولة . فقد بدا لي أن مستودع الهواء الخاص بي لم يعد فيه كفاية من الأوكسيجين بيد أني لم أحسب حساباً لحادث آخر وصولي إلى الغواصة .

كنت إذ ذاك خلف الريان نيمو بنحو عشرين خطوة عند ما استدار نحوي فجأة وطرحني بيده القوية أرضاً بينما فعل تابعه مثل هذا بكونساييل . ولم أستطع أول الأمر أن أعرف كيف أواجه هذا الهجوم المفاجئ ولكني اطمأنت حين رأيت الريان راقداً على الأرض بجوارى في سكون تام . تمددت في ظل شجيرة من نوع الأرجياء . وماكدت أرفع رأسي حتى رأيت أجراماً ضخمة ذات إشعاعات فسفورية تمر صاخبة عن كذب مني .

لقد شعرت بالدماء تجمد في عروقي لدى رؤيتي كلبى بحر يهددان حياتنا وكانا مخلوقين رهيبين ضخمي الذيل تنبعث منهما نظرات جوفاء جامدة ذات إشعاع فسفورى ، كلاهما وحش مروع يمكن أن يحطم رجلا مكتمل النمو بين كفيه . ولم أدر هل حاول كونساييل أن يعرف نوعهما وفصيلتهما . وإنما الذى أدريه أني لاحظت بطونهما الفضية وأفواههما الضخمة وأنيابهما الحادة التى كنت أنظر إليها بعين الضحية لا بعين العالم الذى يفحصها من الناحية العلمية .

كانت هذه الحيوانات الوحشية ضعيفة النظر لحسن الحظ . وهكذا مر كل منهما بجانبنا دون أن يرانا وإن كنا لن نسلم من احتكاك زعانفه القوية بنا . وكذلك نجونا بمعجزة من خضر كان أشد من تعرض الإنسان لتمر في غابة . وبعد نصف ساعة وصلنا إلى الغواصة بمساعدة ضوء المصابيح الكهربائية وكان بابها الخارجى قد ظل مفتوحاً . وقد أغلقه الريان نيمو بعد أن دخلنا القمرة الأولى ثم ضغط على لولب فسمعت المضخات وهى تعمل فى الداخل

وشعرت بالماء يهبط من حولي . وبعد لحظات كانت القمرة الأولى خالية من الماء تماماً وعندئذ فتح الربان الباب الداخلى المؤدى إلى غرفة الملابس . وبعد أن تخففت من ملابس الغوص ، عدت إلى غرفتي وأنا مكثود لفرط حاجتي إلى الطعام والنوم ولكن العجب كان يملك على نفسي لما رأيت من غرائب هذه الرحلة تحت البحر .

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامه

الفصل الثامن عشر

أربعة آلاف فرسخ تحت المحيط الهادى

زايلى التعب فى صباح اليوم التالى ، فصعدت إلى سطح الغواصة ، فى نفس الوقت الذى كان فيه الضابط الأول يقول عبارته اليومية المعهودة ، وعند ذلك خطر لى أن لهذه العبارة علاقة بحالة البحر وأن معناها « ليس هناك شىء على مدى النظر » .

وكان المحيط فى الواقع خلواً من أى شىء فلم يكن ثمة شراع فى الأفق . واختفت جزيرة كريسبو أثناء الليل وامتص البحر ألوان الطيف الشمسى . فيما عدا الأشعة الزرقاء التى انعكست منه فى كل اتجاه ، زاهية بديعة . وانبعثت موجة كبيرة تراوح على سطحه متعاقبة .

وبينما أنا أتأمل هذا المنظر الرائع للبحر ، إذ أقبل الربان نيمو وبدأ لى أنه لم يفتن إلى وجودى ؛ فقد انهمك فى سلسلة من العمليات الفلكية . ولما فرغ منها يمم شطر مقصورة الكشاف حيث وقف مستنداً إليها وراح يرقب سطح المحيط .

وفى خلال هذه الفترة صعد إلى سطح الغواصة نحو عشرين رجلاً من بحارة الغواصة وهم أقوياء أشداء البنية ، وقد أقبلوا لسحب شباك الصيد التى ظلت مطروحة فى الماء طوال الليل . وكان جلياً أن هؤلاء البحارة ينتمون إلى جنسيات مختلفة رغم الطابع الأوروبى الذى يشملهم : لقد تبينت منهم الإيرلندى والفرنسى وبعض السلاقيين واليونانيين ، وكانوا قليلي الكلام ، يتخاطبون بلهجة غريبة لم أتمكن حتى من معرفة مصدرها من اللغات ولهذا لم أستطع تبادل الحديث معهم .

ورفعت الشباك من الماء . وكانت من نوع « الكالوت » المستعمل لصيد

السّمك على شاطئ نورماندى بفرنسا . وهى عبارة عن جيوب كبيرة تظل نصف مفتوحة بعوامات وسلاسل خفيفة مشدودة إلى أطرافها السفلى . وعند سحب هذه الجيوب ، تكتسح الثقالات الرصاصية أرض المحيط وتجمع داخل الشباك كل ما يعترض سبيلها . وفى هذا الصباح جاءت الشباك بأنواع غريبة من حقول السمك هذه . وقد رأيت بينها أسماك اللوفياذا بحركاتها المضحكة مما جعلها تستأثر باسم « السمك المهرج » .

وأعتقد أن هذه الحصىلة لم تكن تقل عن تسعمائة وزنة من السمك . وهى حصىلة بديعة ، ولكنها لا تدعو إلى الغرابة ؛ فإنه ينبغي ألا نشعر بنقص فى حاجتنا إلى الطعام .

وسرعان ما أنزلت هذه المتجات البحرية المختلفة من الباب الخارجى المؤدى إلى مخازن المؤونة لتقدم بعضها طازجاً ، ويحفظ بعضها الآخر . وبعد أن تمت عملية الصيد وتجديد مؤونة الهواء خطرلى أن الغواصة ستستأنف رحلتها تحت سطح الماء فتأهبت للعودة إلى غرفتى عند ما استدار الربان إلى قائلا :

— أليس المحيط قد وهب حياة حقيقية يابروفوسور ؟ إنه أحياناً رقيق ، وأحياناً أخرى عاصف ، لقد نام فى الليلة الماضية مثلنا . وها هو ذا الآن قد استيقظ بعد نوم هادئ .

ولاحظت أن الربان لم يقل لى مرة « طاب صباحك أو سعدت مساء » وكان صاحب هذه الشخصية كان يواصل معى حديثاً بدأه من قبل . واستطرد يقول :

— انظر . . . إنه يستيقظ بتأثير الشمس . وإنه لمن الطريف جداً أن ترقب تفاعله الحيوى . إن له نبضاً وعروفاً . إن له انتفاضات ودورة دموية حقيقية كدورة الدماء فى الحيوانات .

وكان الواضح أن الربان نيمو لم ينتظر منى جواباً . كان يتحدث كأنما

يتحدث إلى نفسه وهو يتوقف بين عبارة وأخرى . وكان حديثه تأملات مسموعة .

وعاد يقول :

– نعم إن للمحيط دورة ذموية حقيقية . وقد اكتفت الإرادة الإلهية في خلقها لهذه الدورة بمضاعفة الأملاح القلوية والخلايا الحيوانية . فالقلويات تنشئ اختلاف الكثافات التي تؤدي بدورها إلى خلق التيارات السطحية والتحتية ، وأن التبخر الذي لا يحدث أبداً في المناطق الشمالية القصوى يكثر حدوثه ونشاطه في المناطق الاستوائية ، يؤدي بدوره إلى التبادل الدائم بين المياه الاستوائية والمياه القطبية . فضلاً عن هذا فإنني شعرت بالتيارات الرأسية التي يتكون منها جهاز التنفس الحقيقي للمحيط . لقد رأيت ذرات مياه البحر وهي تسخن على السطح ، ثم تهبط إلى الأعماق حيث تصل إلى مستواها العادي من الكثافة في درجة ٢ مئوية تحت الصفر ، ثم تعود إلى الصعود بعد أن تصبح بالبرودة أخف وزناً . وأنت تعرف في القطبين نتائج هذه الظاهرة الطبيعية ، وستدرك وفقاً لقانون الطبيعة ، أن التجمد لا يمكن أن يحدث قط إلا على سطح الماء .

وفما كان الربان يقول هذا ، ساءلت نفسي :

– هل ينوى هذا الرجل الجريء أن يمضي بنا إلى هناك ؟

وفي خلال ذلك توقف الربان عن الحديث وراح يتأمل هذه العناصر التي كان يدرسها بلا انقطاع . وما لبث أن استأنف حديثه قائلاً :

– إن الأملاح توجد بكميات ضخمة في البحر يابروفوسور . ولو أنك استخرجت كل ما في مياه البحار من هذه الأملاح لحصلت على أربعة ملايين ونصف مليون ميل مربع منها أي ما يمكن لأن يكسو سطح الكرة الأرضية بطبقة سمكها أكثر من عشر ياردات ولا تحسب أن وجود هذه الأملاح يرجع إلى بذخ من الطبيعة وإنما هو يجعل مياه البحر أقل قابلية للتبخر ، كما

يمنع الرياح من نقل كميات كبيرة من البخار الذي حين يتكثف قد يغرق المناطق المعتدلة . إن لهذه الأملاح دورها الكبير في توازن القوى الطبيعية للكرة الأرضية .

وأمسك الربان نيمو عن الحديث ونهض وسار بضع خطوات ، ثم عاد إلى قائلاً :

– أما مئات الملايين من الدويبات الحيوانية التي تعيش بالملايين في فطرة الماء والتي يزن الثمانمائة ألف منها مقدار مئليجرام واحد فإن لها دوراً لا يقل أهمية . لأنها تمتص الأملاح البحرية ، وتحلل العناصر الصلبة في الماء وبالتالي تصنع الأراضي الصخرية . إنها تكون أحجار المرجان وعروق اللؤلؤ . وعند ما تفقد قطرة الماء عناصرها المعدنية ، ينحف وزنها فترتفع إلى السطح حيث تمتص الأملاح الباقية من عملية التبخر ، فتثقل ، وتهبط حاملة عناصر معدنية جديدة لكي تمتصها الدويبات الحيوانية ، وهكذا دواليك . وهذا سر التيارات الرأسية المزدوجة صعوداً وهبوطاً : حركة دائمة . . . وحياة متجددة . . . إنها أروع حيوية من الحياة على اليابسة . وأشد غزارة ، وأعظم نماء في كل جزء من المحيط . . . إن أسباب موت الإنسان في المحيط كما يقال هي أسباب الحياة لملايين الملايين من الأحياء . . . ولى أيضاً .

وخيل إلى أن الربان نيمو قد تبدل إلى شخص آخر أثناء هذا الحديث وأثار في نفسي أحاسيس عجيبة .

وأضاف قائلاً :

– هنا حياة حقة . وبوسعي أن أتصور الأساس الذي ستقوم عليه المدن البحرية في المستقبل ، وأعني بها المدن في داخل البحار . ومجمعات المنازل الغائصة التي سوف تصعد كغواصتي هذه صباح كل يوم إلى سطح الماء للتنفس : مدن متحررة مستقلة ، إن وجد مثلها حقاً . ولكن . . . من يدري . . . فلعل بعض المستبدين الطغاة . . .

وختم الربان نيمو عبارته بحركة عنيفة من يده ، ثم يم شطر الفتحة العليا واختفى في جوف السلم ولم ألبث أن تبعته وقصدت إلى الصالون وبدأ الرفاص في العمل وبدأ من قياس السرعة أن الغواصة تسير بسرعة عشرين ميلا في الساعة .

ومضت أسابيع قلت فيها زيارات الربان نيمولى فلم أكن أراه إلا بين حين وآخر وكان الضابط الأول يحدد بانتظام خط سير الغواصة على الخارطة ، وهكذا تيسر لى أن أتابع سيرها بدقة .

وحدث في خلال الليلة الفاصلة بين التاسع والعاشر من شهر ديسمبر ، أن شاهدنا قطعان الأحياء البحرية اللاققرية المهاجرة وهى تتجاوز الملايين . وكانت مهاجرة من المناطق المعتدلة إلى المناطق الحارة ، مقتفية آثار السمك الرنجة والسردين . وجعلنا نراقبها من نوافذنا البلورية وهى تسبح فى اتجاه خلقى مقتفية آثار الأسماك الأخرى ، فتأكل الصغيرة ويأكلها الكبيرة ، محرقة فى عنف واضطراب أذرعها العشرة التى وضعتها الطبيعة فوق رؤوسها كالحيات ذات الرثة .

وقد ظلت الغواصة رغم سرعتها البالغة ، مبحرة ساعات متوالية بين هذه الحشود . وظفرت شباكها بمقادير كبيرة منها ، تعرفت بينها على الأنواع التسعة المعهودة فى المحيط الهادى .

وكان البحر أثناء الرحلة سخياً بالمشاهد الجميلة العجيبة المذهلة التى كانت تتعاقب بلا حصر ، كان البحر يغير مشاهدته وتشكيلاته إمتاعاً لنواظرننا . وقدر لنا ألا نظفر فحسب بالتأمل فى آثار صنع الخالق فى هذا العالم المائى بل أن ننفذ كذلك إلى أرواح أسرار المحيط .

وذاذ يوم كنت جالساً فى الصالون أقرأ ، وجلس كونسايلى ونيد لاند يتفرجان من خلال النوافذ البلورية على المياه المضاءة وكانت الغواصة مستقرة

على عمق ألف ياردة في منطقة مهجورة لا يظهر فيها سوى الأسماك الضخمة لماماً .

ومالبث كونسايل أن قطع على القراءة قائلاً بصوت غريب :

– هل يسمح سيدى بالانتقال إلى هنا ؟

فهمضت وذهبت إلى النافذة ونظرت من خلالها فرأيت في ضوء الكهرباء الساطع كتلة سوداء ضخمة ساكنة معلقة في وسط الماء . وتأملتها بإمعان محاولاً أن أعرف طبيعة هذا الوحش الضخم ، ولكن فكرة خطرت ببالي فجأة جعلتني أهتف قائلاً :

– سفينة .

فقال نيد لاند :

– نعم سفينة معطوبة غارقة في وضع رأسى ؟

وكان الرجل على حق . فقد كنا بالقرب من سفينة غارقة لا تزال أشرعها المهلهلة معلقة بسلاسلها ، وكان هيكلها يبدو سليماً مما جعلني أعتقد أنها لم تغرق إلا منذ ساعات معدودة . وكان على السفينة كما بدا لي أن تضحي بساريتها الكبرى للنجاة . وكانت السفينة مائلة على جانبها وقد امتلأت بالماء . والواقع أن هيكل هذه السفينة التي كانت من قبل عامرة بالحياة بدا مشهداً أليماً تحت الأمواج . ولكن كان أبعث منه على الألم مشهد سطحها وما عليه من جثث تعلقت بالحبال . لقد أحصيت خمساً منها . عامل الدفة وامرأة كانت بالقرب من المؤخرة حاملة طفلها بين ذراعيها كانت في ريعان الشباب ، إذ استطعت أن أتبين في الضوء المناسب من الغواصة ملامحها التي لم تكن المياه قد شوهتها بعد ، ويبدو أنها رفعت ابنها إلى أعلى في محاولة أخيرة بينما التفت ذراعاً الصغير حول عنقها . وكانت مناظر البحارة مروعة وقد بدا أنهم كانوا يبذلون آخر محاولة لتخليص أنفسهم من الحبال التي تشدهم إلى السفينة . وبدا عامل الدفة وحده هادئاً رصيناً قد التصق شعره الأشيب بجبينه وتشبث بعجلة الدفة وكأنما

أخذ على عاتقه أن يوجه السفينة - حتى في غرقها - إلى أعماق المحيط .
يا له من مشهد ! لقد انعقدت ألسنتنا ، وخفقت قلوبنا بعنف وسرعة إزاء
مشهد هذا الحطام الذي سجلته نواظرنا في اللحظة الأخيرة ، وكنت في خلال
هذا أرى أسماك البحر الكبيرة وهي تتجه إلى اللحم البشرى بأعين جائعة .
ودارت الغواصة عندئذ حول حطام السفينة الغارقة فقرأت هذه الكلمات
على مؤخرتها :
« فلوريدا - ساندرلاند » .

الفصل التاسع عشر

فاينكورد . . .

كان هذا المشهد المروع فاتحة سلسلة من مشاهد الكوارث البحرية التي قدر للغواصة أن تلتقي بها في طريقها . ولما كانت تسير في بحار مطروقة فكثيراً ما كنا نشاهد هياكل السفن الغارقة وقد دب التعطن إلى حطامها في وسط المياه . وفي المناطق الأشد عمقاً كنا نرى المدافع والقذائف والمراسي الحديدية والسلاسل وغيرها من الأشياء الحديدية وقد تآكلت بفعل الصدأ .

وانقضى أسبوع لم أرفيه الربان نيمو . وفي صباح اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر دلف إلى الصالون وقد بدا وكأنه لم يفترق عنا أكثر من خمس دقائق . وكنت عندئذ أتتبع خط سير الغواصة على الخارطة حين اقترب مني ووضع إصبعه على موضع منها ثم فاه بهذه الكلمة الواحدة .

– فاينكورد . . .

وكان لهذا الاسم أثر السحر في نفسي فهو اسم الجزائر التي فقدت فيها سفينتا الربان لايروز .

ومن ثم نهضت فوراً وقلت :

– هل تمضي بنا الغواصة إلى فاينكورد ؟

فأجاب الربان قائلاً :

– نعم يا بروفيسور .

– وهل أستطيع أن أزور هذه الجزائر المشهورة التي فقدت فيها

السفينتان بوسول واسترولوب ؟

– إذا شئت يا بروفيسور .

– ومتى سنصل إليها ؟

– لقد وصلنا فعلا يا بروفيسور .

وتقدمت الربان نيمو إلى السطح ، حيث وقفت أدير النظر في لهفة إلى أنجناء الأفق .

رأيت في الجهة الشمالية الشرقية جزيرتين بركانيتين متساويتين الحجم تحيط بهما الحواجز المرجانية وهكذا كنا أمام جزيرة قاينكورد – وهذا هو اسمها الحقيقي – وإن كان دومونت دورفيل قد أطلق عليها اسم جزيرة (دى لاريشرش) . وكانت الغواصة في مواجهة ميناء فانو الصغير . وبدت الأرض مكسوة بالخضرة من الشاطئ إلى مرتفعات الوسط . التي تتوجها قمة كابوجو وهي ترتفع عن سطح البحر ثلاثة آلاف قدم .

وبعد أن عبرت الغواصة حلقة الصخور الخارجية عن طريق ممر ضيق دخلت إلى منطقة حواجز المرجان حيث لا يزيد عمق الماء عن ستين أو ثمانين ياردة . وقد رأيت في ظلال الحمائل المتكاثفة بعض سكان الجزيرة الهمج الذين أدهشهم اقترابنا . ولعلمهم ظنوا جسم الغواصة المستطيل الزاحف على سطح الماء وحشاً بحرياً هائلا ينبغي حماية أنفسهم منه . وفي تلك اللحظة سألتى الربان نيمو عما أعرف عن كارثة الربان لايروز فقلت :

– هو ما يعرفه كل إنسان .

فقال بصوت ينم عن تهكم يسير :

– وهل يمكن أن تخبرني بهذا الذى يعرفه كل إنسان ؟

وعندئذ ذكرت له ما ورد في آخر مؤلفات دومونت وما قيل عن هذا الموضوع إذ قال « في عام ١٧٨٥ عهد إلى الربان لايروز ونائبه الكابتن لانج في القيام برحلة حول العالم . ولهذا الغرض جهز السفينتين بوسول واسترولوب ، وبعد ذلك لم يعرف شيء عن السفينتين» .

وفي عام ١٧٩١ أعدت الحكومة الفرنسية التي أقلقها الأمر ، السفينتين لاريشرش واسبيراتس اللتين أبحرتا من ميناء برست بقيادة الربان برونى دافتر

يكاستو . وقد عرف بعد شهرين أن بقايا حطام السفينتين المفقودتين شوهدت بالقرب من سواحل جورجيا الجديدة . ولكن الربان دانتر يكاستو تجاهل هذا واتجه إلى الجزائر التي قدر أنها موضع غرق سفينتي لابيروز .

ولم يصل في بحثه إلى شيء ومرت السفينتان اسبرانس ولا ريشرش بجزيرة فاينكورد . دون أن تتوقفا عندها . ولازم سوء الحظ هذه الرحلة ، فقد توفي الربان دانتر يكاستو كما مات اثنان من الضباط وعدد كبير من البحارة .

وكان أول من عثر على الآثار الأولى لحطام السفينتين هو الربان ديلون أحد خبراء الملاحة القدامى في المحيط الهادى . ففي منتصف شهر مايو عام ١٨٠٤ مرت سفينة سانت باتريك بالقرب من نيكوبيا إحدى جزائر الهبريد الجديدة . وهناك باعه أحد سكانها الوطنيين من « اللاسكار » مقبض سيف فضى يعلوه نقش معين . وقال البائع إنه عندما كان في جزيرة فاينكورد منذ ست سنوات شاهد فيها رجلين أوروبيين ينتميان إلى سفن غرقت منذ أعوام بعيدة عند الحواجز المرجانية للجزيرة .

وأدرك ديلون أن الرجل يقصد سفينتي الربان لابيروز اللتين أثار اختفاؤهما اهتمام العالم كافة وقد رغب ديلون في الوصول إلى فاينكورد التي قال له البائع إنها تضم الكثير من بقايا حطام السفينتين ولكن التيارات والرياح العكسية حالت دون تحقيق هذه الرغبة . فلم يسعه إلا العودة إلى كالكتا حيث وفق إلى إثارة اهتمام الجمعية الآسيوية وشركة الهند الشرقية بهذا الموضوع . وسرعان ما وضعت تحت إمرته السفينة ريشرش ، وقد أبحر بها في اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير عام ١٨٢٧ يرافقه مندوب فرنسى .

وفي اليوم السابع من شهر يوليه من نفس العام ألفت السفينة ريشرش مرساها أمام جزيرة فاينكورد في نفس ميناء فانو الذى تظفو أمامه الآن الغواصة نوتيلوس وهناك جمع الكثير من بقايا حطام السفينتين كالأواني

الحديدية والمراسى والبكرات . والمدافع البحرية ، وقنبلة زنة ١٨ رطلا وبقايا آلات فلكية وقطعة من شراع المقدمة ، وجرساً معدنياً يحمل عبارة « صناعة بازان » وهى شعار مصنع للآلات المعدنية فى برست عام ١٧٨٥ . وهكذا لم يبق مجال للشك فى الحقيقة .

ورغبة فى أن يستكمل ديلون تحرياته ، بقى فى مسرح الكارثة حتى شهر أكتوبر ثم غادر فاينكورد إلى نيوزيلاند وفى السابع من شهر إبريل عام ١٨٢٨ ألقى مراسيه فى كلكتا ثم عاد إلى فرنسا حيث استقبله الملك شارل العاشر بحفاوة .

وكان دومون دورفيل قد أبحر بسفينته استرولوب . ثم ألقى مراسيه أمام مدينة هوبرت بعد أن ذهب ديلون عن فاينكورد بشهرين . وهناك علم بالنتائج التى وصل إليها ديلون ، كما علم أن المدعو جيمس هوبنز الضابط بالسفينة يونيون التابعة لشركة كلكتا لاحظ أن الأهالى فى جزيرة هبط إليها دومونت مرة وكانت واقعة جنوب خط العرض ١٨، ٨٠ درجة وشرقى خط الطول ٣٠، ١٥٦ درجة . كانوا يستخدمون قضباناً من الحديد وأدوات أخرى حمراء وشعر بالحيرة ولم يدر إن كان يمكن الاعتماد على هذه التقارير المستقاة من صحف غير موثوق بها ؟ وأخيراً قرر أن يمضى فى أثر الربان ديلون .

وفى اليوم العاشر من شهر فبراير عام ١٨٢٨ ألقى الاسترولوب مراسيها أمام جزيرة نيكوبيا واستعانت بأحد الهاربين من الخدمة البحرية ليكون لربانها دليلاً مترجماً ، ثم أبحرت إلى جزيرة فاينكورد حيث رست داخل الحاجز المرجانى أمام ميناء فانو .

وطاف عدد من ضباطها حول الجزيرة ثم عادوا حاملين بقايا حطام قليل الأهمية . أما الأهالى فقد ركنوا إلى المراوغة والإنكار إذ رفضوا لإرشادهم إلى مكان الحادثة . وقد أدى هذا المسلك المريب إلى الاعتقاد بأن الأهلىن أساءوا معاملة الناجين من الكارثة ، ويبدوا أنهم خشوا فى الواقع

من أن يكون حضور دومونت ورجاله للانتقام مما حدث للربان لا يبروز .
ومهما يكن فإن الهدايا والاطمئنان إلى عدم وجود ما يبرر الخوف كان
لها أثرها في حسم الموقف وهكذا صحبوا الضابط البحري جاكينو إلى مسرح
الكارثة . . .

وعلى عمق ست أوثمان ياردات من سطح الماء وبين الحواجز المرجانية
لميناء بكو وفانو استطاع جاكينو مشاهدة المراسي . والمدفع ، والكتل
الحديدية والرصاصية مستكنة في الطبقات المرجانية وسرعان ما أرسل ربان
الاسترولوب إلى المكان زورقاً من زوارق النجاة وآخر من قوارب صيد
الحيتان ، واستطاع بحارة الزورقين بعد جهد أن يرفعوا المرساة الكبيرة
البالغ وزنها ثمانمائة رطل ، والمدفع النحاس الذي يبلغ مثل هذا الوزن .
وبعض كتل الرصاص ومدفعين نحاسيين .

وقد علم دومونت ودر فيل من تحرياتهما لدى الأهلين أن الربان لا يبروز
بعد أن فقد سفينتيه على حواجز الجزيرة ابنتى سفينة صغيرة لقيت نفس
المصير في مكان لا يعرفه أحد . وعندئذ أمر ربان الاسترولوب بإقامة نصب
تذكاري لذكرى لا يبروز ورجاله في ظلال إحدى الخائل وكان النصب
عبارة عن هرم مربع الأضلاع فوق أساس من صخور المرجان الحالية من
قطع الحديد ، لكيلا يعتمد الأهالي إلى هدم النصب للحصول على هذا
المعدن .

ولما سمع الربان نيمو هذه البيانات قال لى :

— إذن لا يعرف أحد أين تحطمت السفينة الثالثة التي شيدها الربان
لا يبروز ورجاله ؟

— نعم هذا ما لا يعرفه أحد .

فلم يجب الربان نيمو وإنما أشار لى أن أتبعه إلى الصالون وهبضت الغواصة
يضع ياردات تحت سطح الماء ثم أزيحت المصاريع عن النوافذ البللورية ،

فاندفعت إليها حيث شاهدت تحت طبقات المرجان المكسو بأنواع مختلفة من النباتات البحرية ، وبين أسراب الأسماك ، أشياء عجزت روافع المقبين عن استخراجها . كانت مراسي ومشابك حديدية ومهاميز معدنية ومدافع ومؤخرة سفينة وكانت كلها من حطام السفينة الغارقة التي ما لبثت أن كستها بالزهور الأحياء البحرية . وبينما كنت أقلب النظر في هذه البقايا المؤلمة قال لي الربان نيمو بصوت رصين :

— لقد بدأ لايروز رحلته بالسفينتين بوسول واسترولوب وقد ألقى مراسيه أولاً في بوتاني ، وزار جزائر فرندلي ونيوكاليدونيا ، ثم توجه إلى سانتا كروز ومر بجزيرة جابوكا إحدى جزر هابي ، وأخيراً وصلت السفينتان إلى منطقة الحواجز المرجانية غير المعروفة في جزيرة فاينكورد ، وقد اصطدمت السفينة بوسول أولاً بالحواجز المرجانية في الناحية الجنوبية ، وبادرت الاسترولوب إلى نجاتها فلقبت نفس المصير وكانت السفينة الأولى قد تحطمت تماماً ولكن الثانية صمدت عدة أيام . وقد أحسن الأهالي استقبال البحارة الناجين الذين أقاموا بالجزيرة وشيدوا سفينة أصغر من بقايا السفينتين الغارقتين . واختار بعض البحارة البقاء في جزيرة فاينكورد بينما أبحر الباقيون مع الربان لايروز الذي يمم شطر جزائر سليمان ، ولكنهم جميعاً لقوا حتفهم لدى الساحل الغربي للجزيرة الكبرى في مجموعة الجزر وهي الواقعة بين رأسى ديسبشان وساتسفاكشان .

فقلت بدهشة :

— وكيف عرفت هذا ؟ .

— إليك ما حصلت عليه في مكان الحادث :

وأطلعني على صندوق من الصفيح يعلوه شعار الفرنسي ، وآثار المياه المالحة ، ولما فتحه رأيت مجموعة من الأوراق كانت صفراء ولكنها مقروءة .

وقد تضمنت تعليمات وزير البحرية الفرنسي للربان ، لايبروز ، وعلى حواشيتها ملاحظات بخط الملك لويس السادس عشر :

وقال الربان نيمو :

– إنها ميتة رائعة لملاح . وإن القبر المرجاني لثوى هادىء . أدعو الله ألا يمنحني وزملائي قبرا غيره :

الفصل العشرون

مضايق توريز

غادرت الغواصة نوتيلوس جزيرة فاينكورد ليلا بسرعة فائقة ، وفي خلال ثلاثة أيام قطعت ٧٥٠ فرسخاً وهي المسافة الفاصلة بين مجموعة جزر لايروز وجنوب شرقي جزيرة مابو . وفي ساعة مبكرة من صباح أول يناير عام ١٨٦٣ ، جاءني كونساييل على سطح الغواصة وقال لي :

– هل يسمح لي سيدي أن أرجو له عاماً جديداً سعيداً ؟

– عجباً يا كونساييل . قد يظن الإنسان وهو يسمع كلامك أنني الآن في حديقة النباتات بباريس . أشكر لك حسن تمنياتك ، وإن كنت أحب أن أسألك ماذا تعني بعبارة « العام الجديد السعيد » في ظروفنا الحاضرة ؟ هل سيكون هذا العام إيداناً بانتهاء أسرنا ، أم سيشهد استمرارنا في هذه الرحلة العجيبة ؟

فأجاب كونساييل قائلاً :

– لا أدري على وجه التحديد ، ماذا أقول لسيدي ، فليس من ريب في أننا نرى العجائب ، ولم نشعر بالملل يوماً خلال الشهرين الأخيرين وأن آخر أعجوبة نراها تكون دائماً أبعث على الدهشة من سابقتها وإذا استمر الحال على هذا المنوال العجيب ، فلست أدري كيف ينتهي بنا الأمر وفي رأيي أننا لن نظفر بمثل هذه الغواصة مرة أخرى .

– بتاتاً يا كونساييل .

– وفضلاً عن هذا فإن السيد نيمو – الذي تضايق تصرفاته اسمه اللاتيني لا يقلقنا في شيء وكأنه غير موجود . وهذا أرى أن العام السعيد . هو العام الذي يتيح لنا الفرصة لرؤية كل شيء .

– رؤيـة كل شـيء يا كونسايـل . أن هذا يستغرق زمناً طويلاً . ولكن ما رأى نيد لاند في هذا الأمر .
فأجاب كونسايـل :

– إن تفكير نيد لاند يتعارض مع تفكيرى على طول الخط . إن له عقلاً إيجابياً ومعدة قاهرة . إنه لا يرضى بالنظر دائماً إلى السمك ولا باقتصار الطعام عليه . إن الحرمان من الحمر والخبز واللحم لا يرضى بأية حال صاحبنا السكسونى الذى اعتاد أكل لحم البقر ، والإسراف فى الشراب كلما سنحت له الفرصة .

– إن هذا يا كونسايـل ليس هو مصدر عذابى وإنى لأروض نفسى على قبول كل ما يقدم إلينا من طعام هنا .
فقال كونسايـل :

– هذا ما أفعله أيضاً وبقدر ما أفكر أنا فى البقاء ، يفكر لاند فى الهرب . ولهذا ، فإذا لم يكن هذا العام الحديد عام خير لى ، فسوف يكون عام خير له ، والعكس صحيح . وهذا يعنى أن واحداً منا سيكون راضياً ، وإنى فى النهاية أتمنى لسيدى كل ما يرضيه .

– شكراً يا كونسايـل . وكل ما أرجوه أن تتجاوز عن موضوع هدية رأس السنة ، وأن تكتمنى بمصافحتى لك فى الوقت الحاضر ، فهذا كل ما فى وسعى أن أقدمه .

– إن هذا كرم عظيم من سيدى لم يسبق أن تمتعت به .
وانصرف التابع الوفى عند هذا الحد .

وفى اليوم الرابع من شهر يناير لاحت لنا شواطئ جزيرة بابو . وفى هذه المناسبة أخبرنى الربان نيمو أنه قرر الوصول إلى المحيط انخدى عن طريق مضائق توريز حيث تنتهى مواصلاته ، وقد اغتبط نيد لاند حين رأى أن هذا الطريق سيقربه من البحار الأوروبية .

ولم تكن مضائق توريز أقل خطراً بسبب الصخور المرجانية المتشعبة أو بسبب السكان المتوحشين الذين يترددون على الشواطئ . وهى تفصل نيوهولاند عن جزيرة بابو الكبيرة التى أطلق عليها أيضاً اسم غينيا الجديدة . ودخلت الغواصة أخيراً مضائق معروفة على وجه الكرة الأرضية ، إنها المضائق التى لا يجسر أشجع الملاحين على اجتيازها إلا فى القليل النادر التى اكتشفها لويز بازدي توريز أثناء عودته من البحار الجنوبية ، وفيها كادت سفن الربان دومونت ودرفيل تغرق عام ١٨٤٠ . ولكن مهما يكن من أمر هذا كله فإن الغواصة نوتيلوس التى تسمى على كافة مخاطر البحر ، توشك أن تتعرف على حواجزها المرجانية .

ويبلغ عرض مضائق توريز نحو أربعة وثلاثين فرسخاً ، ولكن يعترض مياهها عدد لا يحصى من الجزر والصخور والحواجز المرجانية مما يجعل الملاحة فيها شبه مستحيلة . ولهذا كان الربان نيمو يلتزم كل حيطة وحذر أثناء عبوره هذا المضيق . وأخذت الغواصة وهى فى مستوى سطح الماء تتحرك ببطء بينما كان رفاصها يضرب الأمواج كذيل وحش بحرى كبير .

وانتهزت مع زميلى هذه الفرصة واتخذنا أماكننا على سطح الغواصة المقفر فى كل وقت ، وكانت مقصورة رجل الدفة قائمة أمامنا ، وأكبر ظنى أن الربان نيمو كان يتولى بنفسه قيادة الغواصة فى تلك المنطقة الخطرة . وكان البحر من حولنا عنيفاً مهتاجاً ، وتيارات الأمواج المنطلقة من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى بسرعة ميلين ونصف تتحطم على الحواجز المرجانية التى كانت تبرز هنا وهناك .

وقال لى نيد لاند :

— بحر نائر .

فأجبت قائلاً :

— مروع حقاً ، وهو لا يلائم غواصة مثل نوتيلوس .

فقال الكندي :

– لاشك أن هذا الربان اللعين واثق من خط سيره ، لأنى أرى حواجز مرجانية متشعبة إذا لمستها الغواصة مجرد اللسن لتحطمت عن آخرها .
وبينما كنت أتساءل عما إذا كان الربان نيمو بهوره الأبله سيشتق طريقه بالغواصة فى هذا المر الذى ترددت فيه سفينتا الربان دومونت دورفيل ، إذا هو يغير اتجاهه ويقصد إلى جزيرة جلبوا ، وكانت الساعة إذ ذاك الثالثة مساء حيث ابتداء انحسار المد منذ قليل وأخذت الغواصة تقترب من الجزيرة التي كنت أرى أشجار الأناناس تحت شواطئها .

وعلى مسافة ميلين تقريباً من الشاطئ إذا بطئمة عنيفة تسقطنى ، لقد مست الغواصة إحدى الشعب المرجانية وتوقفت حركتها وجنحت على جانبها الأيمن .

ولما نهضت واقفاً رأيت الربان نيمو وضابطه الثانى على السطح يفحصان موقف الغواصة ويتبادلان الحديث بلهجتهم المجهولة .

وكانت جزيرة جلبوا تقع على بعد ميلين ، وكان شاطئها يدور من الشمال إلى الغرب كأنه ذراع ضخمة تشير إلى الجنوب الشرقى . وكانت ثمة رؤوس صخرية مرجانية بارزة بعد انحسار المد عنها . وكانت الغواصة قد ارتطمت بالقاع فى موضع قليل المد . وهى حالة يؤسف لها فى تاريخ نوتيلوس . ولكنها مع ذلك لم تصب بسوء وبقى هيكلها سالمًا متماسكًا . لكن إذا كانت بمنجاة من الغرق أو التحطم فإنها لا تستطيع أن تتجنب خطر الالتصاق بهذه الشعب المرجانية إلى الأبد ، وعند ذلك يقضى على الغواصة قضاء مبرماً .

كنت أفكر فى هذا عند ما أقبل الربان فى سكون وثبات ودون أن يعتره شىء من الاضطراب أو التأثير .

فقلت له :

– أهو حادث ؟

– لا . بل عارض يسير .

فقلت له :

– ولكنه عارض قد يضطرك لأن تكون من سكان هذه الأرض التي تحاول الهرب منها .

فنظر إلى نيمو الربان نظرة غريبة ، ثم هز رأسه نفيماً وكأنما يقول لي إنه ما من شيء يمكن أن يضطره لوضع قدمه على اليابسة مرة أخرى ، ثم قال :
– إن الغواصة لم تضع ، إنها سوف تملك دائماً بين عجائب المحيطات .
إن رحلتنا لم تبدأ سوى الآن ، ولست أود أن أحرم من شرف صحبتك بهذه السرعة .

فأجبت قائلاً دون أن ألقى بالاً إلى عبارته التهكمية :

– ولكن الغواصة يا كابتن نيمو تحتاج إلى مد عال قوى لكي تعود ، والمد في المحيط الهادى ضعيف فإذا لم تعمل على تخفيف حملها فلست أدرى كيف تتمكن من تعويمها .

– إن المد في هذا المحيط ليس قوياً ، حقاً يا بروفيسور . ولكن يوجد في مضائق توريز فارق بين المد العالى وبين المد المنخفض يبلغ مقداره خمسة أيام . ونحن في اليوم الرابع من شهر يناير . وسيبلغ القمر تمامه بعد خمسة أيام وستكون دهشتى بالغة إذ لم يؤد اكتمال القمر إلى رفع مياه المد وإسدائى صنيعاً أود أن يكون الفضل فيه للقمر وحده .

قال الربان نيمو هذا وهبط مرة أخرى داخل الغواصة التي ظلت جامدة في مكانها وكأن الحيوانات المرجانية قد أطبقت عليها ولا فكاك منه .

وقال نيد لاند الذى أقبل نحوى بعد انصراف الربان :

– حسناً يا سيدى ؟

– حسناً يا صديقى نيد . ولا بد أن ننتظر في صبر ارتفاع المد في اليوم التاسع من الشهر . فإنه يبدو أن القمر سيتعطف علينا ويساعد الغواصة على أن تطفو من جديد .

– ألم يحاول هذا الربان أن يرفع المراسى ، أو يدير المحركات أو يفعل شيئاً لتعويم الغواصة ؟

فأجاب كونساييل ببساطة :

– ولماذا يفعل مادام المد يكفي .

فنظر نيد لاند إليه ثم هز كتفيه ثم قال بلسان البحارالذى يكمن فى نفسه :
– اعتقد ياسيدى أن هذه الكتلة الحديدية لن تصلح للملاحة مرة أخرى سواء على سطح الماء أو فى جوفه . إنها لم تعد تصلح للبيع كحديد مفكك .
وقد آن الأوان للافتراق عن الربان نيمو .

فقلت :

– إننى لا أبأس مثلك يا نيد من هذه الغواصة العظيمة ، وفى خلال أربعة أيام سنعرف ماذا ينبغى أن نقرر ، وفضلا عن هذا فإن فكرة الهرب قد تبدو وجهة لو كنا على مرأى من شواطئ إنجلترا أو فرنسا ولكن الأمر مختلف فى منطقة بابوا هذه . وسيتسع أمامنا الوقت للالتجاء إلى هذا الحل إذا لم تنجح الغواصة فى استئناف جولتها . وهو تطور ساعده من الأمور الخطيرة .

فقال نيد لاند :

– ومع هذا قد يجوز لنا أن نستمتع باليابسة . فهناك جزيرة ، وفى الجزيرة أشجار ، وتحت الأشجار حيوانات ، وهذه الحيوانات لحم طيب المذاق . آه لو استطعت أن أتذوقه !

فقال كونساييل :

– إن الصديق نيد لاند على صواب فى هذا . وأنا أؤيده . ألا يستطيع سيدى البروفسور أن يستأذن صديقه الربان نيمو فى السماح لنا بالانتقال إلى البر . وإن لم يكن لشيء فلكيلا ننسى عادة السير على الأجزاء الصلبة من كوكبنا هذا ؟

فقلت :

— بوسعى سؤاله ولكنه سيرفض .

فقال كونسایل :

— ليُجازف سيدي . عندئذ سنعرف لطف الربان .

ولشد ما كانت دهشتي حين أذن لنا الربان نيمو بما نريد . وقد أبدى مجاملة كبيرة في هذا المقام ودون أن يضغط علينا لكي نتعهد بالعودة إلى الغواصة ، ولكن الحرب عبّر أراضى غينيا الجديدة كان محفوفاً بالخطر الشديد وما كان ينبغي لي أن أشجع نيد لاند عليه . فإنه من الأفضل أن يكون الإنسان أسيراً في الغواصة على أن يقع بين أيدي سكان الجزيرة .

وفي صباح اليوم التالي وضع الزورق الكبير تحت تصرفنا ولم أحاول أن أعرف إن كان الربان نيمو سيرافقنا . بل كنت أعلم أنه لن يسمح لنا باصطحاب أحد بحارة الغواصة ، وأن نيد لاند سيقع عليه عبء توجيه الزورق ، وفضلا عن هذا فإن الأرض لم تكن بعيدة عنا بأكثر من ميلين ، وإن التوجه إليها لا يعدو أن يكون نزهة بالنسبة إلى نيد لاند وهو يقود زورقاً خفيفاً كهذا بين الشعاب المرجانية التي تعتبر شديدة الخطر على السفن الكبيرة .

وفي اليوم التالي رفع الزورق من مكانه وأنزل إلى الماء من فوق سطح الغواصة ، وقد تولى هذه العملية اثنان من رجال الغواصة ، وكانت المجاديف بالزورق . ولم يكن علينا إلا أن نتخذ أماكننا فيه ؛

وفي الثامنة صباحاً ، تسلمنا البنادق والبلط وهبطنا من جوانب الغواصة وكان البحر هادئاً والرياح الخفيفة تهب من اليابسة ؛ أخذت أنا وكونسایل في التجديف بقوة بينما أمسك نيد لاند بالدفة وراح يوجه الزورق بين مسارب الصخور .

ولم يستطع نيد لاند أن يخفي بهجته . كان كسجين أفلت من السجن ، وليس في نيته العودة إليه . وكان يكرر القول :

– اللحم . سنأكل اللحم . وأى لحم ! اللحم الحقيقي ، وإن لم يكن معه خبز . وليس معنى هذا أن السمك طعام غير طيب ولكن لك أن تأكل منه ما تشاء ، مع قطعة فخذ مشوية على نار الفحم ، إن طعاماً كهذا سيكون تغييراً محبباً في طعامنا المعتاد .

وقال كونسایل :

– ياله من أكل ! إنه يجعل في يتحلب اشتهاً للحم المشوى .

فقلت :

– إننا لا نعرف بعد ما إذا كان ثمة حيوانات تصاد في هذه الغابات أم أن الصيد فيها سيصطاد الصياد .

فقال نيد لاند الذى كانت أسنانه حادة كنصل بلطة :

– حسناً يامسيو أروناكس . أنا في حالة أكل مع اللحم نمر . فخذة من لحم النمر ، إذا لم يكن ثمة حيوان غيره في هذه الجزيرة .

فقال كونسایل :

– إن الصديق نيد رجل خطر .

فأجاب نيد لاند :

– أياً كان نوع هذا الحيوان ، وسواء كان من ذوات الأربع ولا ريش

له ، أو برجلين فقط أو ريش ، فإنى سأحبيه بأول رصاصة في بندقتى . .

فأجبت قائلاً :

– حسناً ولكنى أراك تتسرع .

فقال الكندى :

– لا تخف يامسيو أروناكس : اضربا الماء بالمجاديف ، ولا أطلب إلا

مهلة ثلث ساعة لأقدم إليكما طبقاً من صنع يدي .

وفي الثامنة والنصف صباحاً كان الزورق ينساب في رفق إلى الشاطئ

الرملي بعد أن تخلصنا لحسن الحظ من شعاب المرجان المحيطة بجزيرة جلبوا .

الفصل الحادى والعشرون

بعض أيام في البر

كان للملامسة البر أثر عميق في نفسى . وقد ضرب نيد لاند الأرض
بقدمه وكأنما يريد أن يستولى عليها . ومع هذا فلم نكن من ركاب الغواصة
إلا لمدة شهرين كما قال الربان نيمو ، أى أننا لم نقض في أسر الربان سوى
شهرين فقط .

وكان تكوين التربة يكاد يكون كله مرجانيا ، ولكن بعض الحجارى
الحافة للأشجار التى تناثرت منها بقايا الصخور الجرانيتية دلت على أن هذه
الجزيرة سابقة في تكوينها للعهد المرجانى . وكان الأفق كله محجوباً بستار
من الغابات الرائعة ، وكانت الأشجار الضخمة – التى يبلغ ارتفاع بعضها
٢٠٠ قدم – والتى تتكاثف عليها النباتات المتسلقة وتشعب بين أغصانها ، تصلح
لأن تكون أراجيح طبيعية للنوم ، يهزها أرق النسيم . وكانت الغابات تتكون
من أشجار السنط والصبّار ، والساج والنخيل ، اختلط بعضها ببعض في غير
نظام ، ونمت في ظلها زهور الأركيد ، والنباتات البقلية ، والسرخس .

ولكن صاحبنا الكندى لم يحفل بهذه الأنواع البديعة من النباتات في
منطقة بابوا على أساس أن الصالح المفيد أهم في نظره من اللطيف الجميل .
حتى إذا لمح شجرة جوز هند أسقط بعض ثمارها وكسر قشرتها فشربنا
عصيرها اللبني ، وأكلنا لبابها في لذة أين منها طعام الغواصة المعهود .

ولم يتمالك نيد أن قال :

– مدهش .

فرد عليه كونسابل قائلاً :

– رائع .

– لا أظن أن ربانك نيمو هذا يعترض على عودتنا إلى غواصته بحمل من ثمار جوز الهند .

فقلت :

– لا أظن أنه يعترض . ولكنه لن ينوقها .

فقال كونسایل :

– في هذه الحالة سيكون هو الخاسر .

فقال نيد لاند

– ونحن الفائزون . فستبقى الكمية كلها لنا .

فقلت لصياد الحيتان الذي كان ينهب ثمار شجرة أخرى :

– كلمة واحدة يا لاند . إن جوز الهند طعام لذيذ . ولكن من الحكمة

قبل أن نملأ الزورق به أن نرى هل تلتج الجزيرة مواد لا تقل فائدة عنه ؟

أعتقد أن الخضر الطازجة ستلقى ترحيباً طيباً في مطبخ الغواصة :

فقال كونسایل :

– إن سيدى على حق . وأنا أقترح أن نجعل في الزورق ثلاثة أقسام :

قسم للفواكه ، وآخر للخضر ، والثالث للحوم التي لم أر بعد أية عينة منها .

فرد الكندى بقوله

– لا ينبغي أن نياس من شيء يا كونسایل :

فقلت :

– لتتابع رحلتنا مع التزام الحذر . فرغم أن الجزيرة تبدو مأهولة ، فقد يكون

سكانها أسلس قياداً من حيوانها .

فلما أرسل نيد لاند ضحكة عالية ، قال له كونسایل :

– ماذا يضحكك يا نيد ؟

فأجاب الكندى قائلاً :

– لقد بدأت أدرك ما في اللحوم البشرية من لذائذ .

فقال له كونساييل :

ماذا تقول يا نيد إذا كنت من أكلة لحوم البشر فلن آمن على نفسي معك في غرفة واحدة . هل أستيقظ ذات يوم لأجد أنك التهمت نصفي ؟
- إنني أجبك كثيراً يا صديقي كونساييل إلى الحد الذي لا يغريني بأكلك إلا اضطراراً .

فقال كونساييل :

- لا ثقة لي بهذا الكلام . لا بأس . هلموا نبحث عن صيد لإرضاء هذا الوحش الآدمي ، وإلا فإن سيدي البروفسور قد يستيقظ في صباح يوم جميل فلا يجد إلا بقايا خادمه .
وبمثل هذه الأجاديث أخذنا نتوغل في مجاهل الجزيرة الخضراء ، وانقضت ساعتان ونحن نرتاد أنحاءها .

وحالفنا الحظ في بحثنا عن الطعام . فقد عثرنا على أفضل نباتات المنطقة الاستوائية لتزويدنا بـغذاء مفيد لا أثر له في الغواصة نوبيلوس ، وأعني به ثمار شجرة الخبز التي كانت موفورة في الجزيرة ، فمن بين أغصانها المتكاثفة كانت الثمار الكروية التي يبلغ قطرها نحو بوصتين ونصف تتدلى بقشرتها الخشنة في زخرفة سداسية الشكل . إنه نبات مفيد جادت به الطبيعة على المناطق المحرومة من القمح . وشجرة الخبز تنتج ثمارها طوال ثمانية أشهر في العام دون حاجة إلى جهد أو فلاحة . وكان لاند يعرف ثمار هذه الشجرة تمام المعرفة ، وقد أكلها من قبل ، فكانت له دراية بإعداد الطعام منها ولاعجب أن أثار منظرها شهيته ، فلم يستطع أن يتمالك نفسه وإذا هو يهتف قائلاً لي :

- سيدي . أكبر ظني أنني سأموت إذا لم أذق ثمار شجرة الخبز هذه .
- كل يا صديقي نيد . كل منها ما شئت . إننا هنا لإجراء التجارب على أنواع المأكولات . فلإلى العمل .

فقال الكندي :

– إن إعداد هذه الثمار للأكل يستغرق وقتاً طويلاً .
 واستعان بعدسة مقعرة في إيقاد نار من حطب جاف ، وسرعان ما انبعث
 الضرام متصلاً .

وفي هذه الأثناء كنت وكونسایل نتخير أفضل الثمار . وكان بعضها لم
 ينضج بعد . فكانت قشرته السميكة مكسوة بلباب أبيض لينى القوام نوعاً ،
 ولكن أكثرها كان أصفر اللون هلامياً معداً للتنظيف ولما لم يكن لهذه الثمار
 بذور ؛ فإن نيد لاند تناول الكمية التي جمعها كونسایل وقطعها شرائح
 ووضعها على النار المشبوبة وهو يقول :

– سترى ياسيدى أن هذا الخبز طيب المذاق إلى حد كبير .

– ولا سيما إذا حرم الإنسان طويلاً منه يا كونسایل .

فأردف الكندى قائلاً :

– إنه أطيب مذاقاً من الخبز العادى . إنه كالفطير الرقيق . ألم يسبق
 ياسيدى أن تذوقته ؟

– لا يا نيد .

– حسناً . استعد إذن لشيء لذيذ . وإذا لم يعجبك فلن أكون ملك
 صيادى الحيتان .

وسرعان ما اسود الجانب المعرض للنار ولكن الجزء الداخلى بقى كالعجينة
 البيضاء ذات اللباب الرقيق ، وكان فى مذاقه أقرب إلى الخرشوف .
 ولكننى أعترف أنه كان خبزاً ممتازاً وقد أكلت منه بلذة عظيمة .
 ثم قلت :

– إن هذه الفطائر لسوء الحظ . لا تبقى طازجة ، ويبدو أن لافائدة
 من اختزانها فى الغواصة .

فهمتف نيد لاند قائلاً :

– ولماذا يا سيدى ؟ إنك تتحدث بلسان العالم الطبيعى ، ولكننى
 سأصرف كالحباز . اجمع كمية من هذه الثمار يا كونسایل فسنحملها معنا إلى
 الغواصة .

فقلت :

- وكيف تعدها ؟
- بأن أصنع من لبابها عجائن محمرة تظل محفوظة أى وقت نشاء .
- فلذا شئت إعداد بعضها ، سهل لإنضاجها في مطبخ الغواصة . وستجدها طيبة المذاق رغم ما قد يشوبها من طعم حمضي خفيف .
- إذن فلن ينقصنا شيء بعد هذا الخبز يا نيد .

فقال الكندي :

- تنقصنا الفاكهة على الأقل .
- هلموا إذن نبحث عن الخضر والفاكهة .
- وبعد أن جمعنا كثيراً من ثمار شجرة الخبز أخذنا نستكمل حاجتنا من طعام اليابسة ولم يذهب بحثنا سدى ، فما أن حل وقت الظهر حتى جمعنا مؤونة طيبة من ثمار الموز ، والمانجو اللذيذة . والخوخ الكبير الحجم وقد استغرقنا في هذا وقتاً طويلاً لم نندم عليه .
- وكان كونساييل لا يكف عن مراقبة نيد لاندي الذي تقدمنا في الغابة وأخذ بيد الخبير ينتقى أطيب الفواكه والخضر لاستكمال مؤونته .
- وقلت له :

- هل بعد هذا من مزيد يا نيد ؟
- فغمغم بكلمة مبهمه ، فقلت له :
- عجباً . أهنالك ما تشكرو منه ؟
- إن كل هذه الخضر لا تغني عن وجبة واحدة ، لأنها بمثابة الحلوى فقط . إنما ينقصنا الحساء واللحم المشوى .

فقلت :

- نعم . . لقد وعدنا نيد بشرائح اللحم . وهو ما اعتبره مشكلة عويصة .
- فرد الكندي قائلاً :
- سيدى إن رحلتى للصيد لم تنته . بل هى لم تبدأ بعد . صبراً سنتمم رحلتنا بلقاء طير أو حيوان وإذا لم يكن هناك فى مكان آخر .

وأضاف كونساييل قائلاً :

– وإذا لم يكن اليوم فغداً ، إذ يجب ألا نبتعد أكثر من هذا ، وإني أقترح أن نعود الآن إلى الغواصة .

فصاح نيد لاند :

– ماذا ؟ الآن ؟

فقلت :

– نعم . يجب أن نعود قبل الليل .

فقال الكندي :

– كم الساعة الآن ؟

فأجاب كونساييل :

– الثانية على الأقل .

وهتف نيد لاند وهو يتنهد أسفاً .

– ما أسرع مرور الوقت فوق اليابسة .

واجتزنا الغابة في طريق العودة ، وقد استكملنا زادنا بكميات من سباطات البلح ، وكان علينا أن نتسلق النخيل من أجلها . كما ظفرنا ببعض الحبوب البقلية الصغيرة التي يعدها سكان الملايو طعاماً طيباً . هذا عدا بعض ثمار تشبه البطاطا . ووصلنا إلى القارب ونجى نوء بأحماننا ، ومع ذلك كان نيدلاند يعد مؤونته غير كافية ولكن الحظ لم يلبث أن حالفه فقبل صعودنا إلى الغواصة رأى أشجاراً يترأوح ارتفاعها بين ٢٥ و ٣٠ قدماً من فصيلة النخيل وهي تعتبر بحق من أجود نباتات الملايو . إنها أشجار السانمو الذي ينتج النشا اخندي ، وهي تنمو طبيعياً دون جهد أو فلاحه كأشجار التوت البري وكان نيد لاند يعرف كيف يعالج هذا النوع من الأشجار فقد تناول بلطة وراح يضرب الخدع بقوة حتى أسقط شجرتين أو ثلاثة . وكان نضج ثمارها يعرف بوجود مسحوق أبيض مثور على أغصانها .

وأخذت أراقبه كعالم طبيعي أكثر منى كإنسانٍ جائع . وقد رأيتُه ينزع اللحاء عن جذع الشجرة الذي يبلغ سمكه نحو بوصة والذي كان مكسواً بشبكة من الألياف الطويلة التي تكوّن عقداً ممتلئة بنوع من الدقيق الصمغى . وهذا الدقيق هو المادة الأساسية في طعام أهل الملايو . وقد اكتفى نيد لاند في الوقت الحاضر بتقطيع الخدوع إلى قطع صغيرة ، كقطع الخشب المعدة للوقود ، يقصد استخراج الدقيق فيما بعد . وذلك بتصفيته من نسيج خفيف لفصله عن الألياف الكاسية وتركه في الشمس حتى يجف ويصبح قوالب متماسكة .

وغادرنا شواطئ الجزيرة أخيراً في نحو الخامسة مساءً محمّلين بكنوزنا فوصلنا الغواصة بعد ساعة . ولم نجد من يستقبلنا على سطحها . لقد بدا هيكلها الضخم مهجوراً . حتى إذا نقلنا المؤونة إليها ، قصدت إلى غرفتي حيث وجدت طعام العشاء معداً فتناولته وأويت إلى فراشي .

وفي اليوم التالي لم يجد في الغواصة جديد . إلا جلبة في داخلها ، وعلامة حياة . وكان الزورق باقياً حيث تركناه بالأمس فقررنا العودة إلى الجزيرة وقد داعب الأمل نيد لاند في أن يكون أسعد حظاً في مجال الصيد عن المرة الأولى ، وقد رغبت في زيارة منطقة أخرى في الغابة .

وبدأنا الرحلة عند شروق الشمس ، ووصل بنا الزورق الذي حملته الأمواج المتجهة شطر الجزيرة إلى الشاطئ بعد دقائق . وبعد أن وصلنا إلى البر قررت أنا وكونسايل أن أترك الأمر لغيرزة نيد لاند فتبعناه ونحن نخشى أن يسبقنا لطول ساقيه . وأخذ الكندي يتجه غرباً ، وبعد عبورنا بعض الجداول الصغيرة وصلنا إلى سهل مرتفع تحيط به الغابات الرائعة . وقد رأيت بعض الطيور آكلة السمك على ضفاف جدول ولكنها لم تدع لنا الفرصة أن نقرب منها . وقد دل مسلكها هذا على أنها تعرف ماذا يتوقع من أمثالنا ، ومن هذا استخلصت أن الجزيرة إذا لم تكن مأهولة ، فهي على الأقل مطروقة من بعض المخلوقات البشرية ، وبعد أن عبرنا بقعة موفورة

العشب ، بلغنا حدود غابة صغيرة امتلأ جوها بأغاريد، وصفق أجنحة طيور كثيرة .

فقال كونسایل :

– لا يوجد حتى الآن سوى طيور .

فأجاب صياد الحيتان قائلاً :

– ولكن بعضها صالح للأكل .

فرد كونسایل قائلاً :

– لا يا صديقي نيد . لأننى لا أرى فى هذه الطيور سوى البيغاوات

العادية .

فقال نيد لاند برصانة :

– يا صديقى كونسایل . إن البيغاء صديق أولئك الذين لا يجدون

ما يأكلون غيره .

وقلت أنا :

– وأضيف إلى هذا أن البيغاء إذا أحسن اعداده طاب أكله .

وكان ثمة عالم بأكله من البيغاوات فى ظلال الغابة الكثيفة تطير من غصن إلى غصن فى انتظار الفرصة لتتعلم لغة الإنسان . أما فى الوقت الحالى فقد كانت تتصايح وقد اختلطت أنواعها المتباينة الألوان ، منها بيغاء الككتوه الوقور الذى يبدو كالمأمل فى مشكلة فلسفية ، وبيغاء اللورة الأحمر الفاتح الذى كان لصفق أجنحته صوت مسموع ، والبامبو الملون بظلال سماوية بديعة ، وغير هذا وذاك من أنواع البيغاوات ، ولكنها مع ذلك لا توكل .

ولكن هذه المجموعة كان ينقصها طائر غريب لم يكن فى طيرانه يتجاوز حدود جزائر آرو ، ومجموعة جزر بابوا . بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى حالفتى الحظ وأتيح لى أن أراه وأعجب به .

وبعد أن تجاوزنا دغلا متوسط الكثافة ، خرجنا مرة أخرى إلى سهل تتناثر فيه الحماثل والشجيرات وفيه رأيت طيوراً بديعة تحلق في الجو في اتجاه مضاد للريح بسبب ذيوها الطويلة التي ترغمها على هذا الاتجاه . وكان أسلوبها في الطيران ، ورشاقة انعطافاتها في الجو ، وتموج ألوانها مما يسترعى النظر ويبهج العين ، ولم أجد صعوبة في التعرف عليها ، فهتفت قائلاً :

– طيور الحنة .

وقال كونسایل :

– من رتبة الخطاطيف قسم الكليستورنور .

وأضاف نيد لاند قائلاً :

– ومن أسرة القطا .

فقلت :

– لا أظن هذا يانيد وعلى كل حال فأنا أعتمد على براعتك في صيد واحد من هذا التاج الجميل ذي الطابع الاستوائى .

– سأحاول يا سيدى البروفسور . وإن كنت أكثر اعتياداً للحراب منى للبنادق .

إن سكان الملايو الذين يعتمدون في أكثر تجارتهم مع الصين لهم وسائل كثيرة لصيدها لا نستطيع نحن أن نستخدمها . فهم أحياناً ينشرون الشباك على رؤوس الأشجار التي تؤثر طيور الحنة استيطانها ، وأحياناً أخرى يصيدونها بالفخاخ القوية التي تشل حركتها . بل إنهم في مناسبات أخرى يسممون منابع المياه التي تردها تلك الطيور عادة . أما نحن فقد اضطررنا إلى إطلاق النار عليها وهي طائفة مما يجعل احتمال إصابتها ضعيفاً . وقد استنفدنا في الواقع كثيراً من ذخيرتنا دون جدوى .

وفي الحادية عشر صباحاً كنا قد عبرنا أولى سلسلة الجبال التي يتكون منها وسط الجزيرة دون أن نصيد شيئاً . ولكن الجوع اضطررنا إلى متابعة

السير . إن الصيادين قد اعتمدوا على حصيلة الصيد ، ولكنهم أخطأوا الحساب . ولم يلبث كونسايل أن حالفه الحظ ، فصاد وهو في أشد الدهشة طائرين بطلقة واحدة مما كفل لنا طعام الإفطار . وكان الطائران حامتي غاب يعضاوين سرعان ما نزعنا ريشهما وشويناها فوق النار . وفي خلال ذلك انهمك نيد في إعداد فطائر من شجرة الخبز ثم أقبلنا على الحمامتين نلتهمها حتى العظام ، فقد كان لهما طعم سائع نظراً لأن جوزة الطيب التي تلتقطها تلك الطيور تجعل للحومها نكهة طيبة .

وقال كونسايل :

— إن هذا الحمام يشبه الطيور التي تأكل السمسم .

فقلت للكندی :

— والآن ماذا يتقصنا ؟

فأجاب نيد لاند قائلاً :

— بعض الحيوان من ذوات الأربع . فإن هذا الحمام يعتبر طعاماً ثانوياً لا يشبع ، ولن أستريح حتى أظفر بحيوان موفور اللحم .
— ولن أستريح أنا أيضاً يا نيد حتى أظفر بطائر من عصافير الجنة .

وقال كونسايل :

— لتتابع رحلتنا للصيد ، ولكن في اتجاه البحر ، فقد بلغنا أولى منحدرات الجبال ، والأفضل أن نعود إلى منطقة الغابات .

وكانت نصيحة معقولة وقد عملنا بها . وبعد مسيرة ساعة بلغنا غابة من أشجار السانمو حيث رأينا بعض الأفاعى السامة تفر عند وقع أقدامنا ، وكذلك هربت عصافير الجنة عند اقترابنا ، فخامرني اليأس من اصطيد أحدها ولكني فوجئت بروؤية كونسايل الذي كان يسير في المقدمة وهو ينحني ثم يرسل صيحة الانتصار ويهرع إلى حاملاً عصفوراً رائع المنظر . فهتفت قائلاً :

— مرحى يا كونساييل .
 — هذا تلتظف من سيدى .
 — لا يا بنى لأنها ضربة بارعة لا لأنك ظفرت بطائر من هذه الطيور
 حياً ، وإنما لاقتناصه بيديك فقط .
 — إذا فحص سيدى هذا الطائر بعناية لرأى أنى غير جدير بكل
 هذا الثناء .

— لماذا يا كونساييل ؟
 — لأن هذا الطائر نشوان كطائر السلوى .
 — نشوان ؟
 — نعم بجوزة الطيب التى كان يلتمها تحت شجرة من هذا النوع حيث
 وجدته . انظر يا صديق نيد . انظر إلى النتيجة المولمة لتعاطى المخدرات .
 فقال نيد :

— لا داعى للتعريض بى وأنا لم أذق الحمر منذ مدة .
 وكنت فى خلال هذا . أفحص الطائر العجيب . فتبينت أن كونساييل لم
 يجانبه الصواب . ذلك أن عصفور الجنة خدره عصير جوزة الطيب المسكر .
 فغدا بلا حول ولا قوة ، فهو لا يستطيع طيراناً ، ولا يكاد يقوى حتى على
 السير . ولكن هذا لم يقلقنى ، وتريثت حتى يفيق من تأثير المخدر .
 إن هذا الطائر من أسرة أنواع الطيور الثمانية البديعة التى تعيش فى
 مجموعة جزر بابوا وما يجاورها إنه بمثابة الزمردة الكبيرة ، لندرته بين أنواع
 الطيور . وهو يناهز فى طوله خمسة وعشرين سنتيمتر . صغير الرأس نسبياً ،
 وعينه القريبتان من منقاريه تماثلان الرأس فى الصغر . ولكن ألوانه رائعة .
 فنقاره أصفر وساقاه ومخالبه كستنائيتى اللون ، وجناحاه فى لون البندق
 ويحف بهما شريط قرمزى ، ورأسه أصفر فاقع وكذلك مؤخره . عنقه ،
 أما الجزء الأمامى من العنق فهو أخضر كالزمرد . وصلره رمادى . وكان

ثمة نتوءان من مادة قرنية مكسوة بالزغب يرتفعان عند الذيل الذى استطالت فيه ريشتان من أرق وألطف أنواع الريش فلا عجب أن أطلق عليه الأهالى اسم « طائر الشمس » .

وشد ما تمنيت لو تهيأت لى العودة إلى باريس بهذا النوع النادر من الطيور لأضمه إلى جنة نباتاتى التى ليس بينها طائر حى .

وقال نيد لاند بصوت الصياد الذى لا يحفل كثيراً بهذا النوع :

– أهذا الطائر نادر جداً إذن ؟

– نعم يا صديقى الباسل ومن العسير أن تظفر به حياً . بل إن هذه الطيور وهى ميتة – تعتبر مورداً تجارياً هاماً ولهذا السبب يعمد الأهالى إلى صنع طيور مقلدة منه كما يصنع الماس واللؤلؤ المقلد .

فتهتف كونساييل قائلاً :

– ماذا ؟ أهناك تقليد فى طيور الجنة ؟

– نعم يا كونساييل .

– وهل يعرف سيدى كيف يتوصل الأهالى إلى هذا ؟

– نعم فإن هذه الطيور تفقد خلال الرياح الموسمية الشرقية ريشها الفاخر المحيط بالذيل الذى يسميه علماء الطبيعة « الريش المتبدل » . ويجمع المزيفون هذا الريش المتساقط ويشدونته ببراعة إلى نوع هزيل من الببغاوات بعد نزع ريشها سلفاً ثم يصبغون مكان الاتصال ويصقلون الطائر ويرسلونه إلى المتاحف والهواة فى أوروبا

فقال نيد لاند :

– بديع .. مادامت المتاحف لا تظفر بالطائر نفسه فهى تظفر على الأقل بريشه . وماداموا لا يطلبونه للأكل ، فلست أجد ضرراً فيما يقوم به هؤلاء المزيفون .

لكن إذا كانت أمانى قد تحققت باقتناء (طائر الجنة) ، فإن أمانى

الكندي لم تتحقق بعد . على أنه لحسن الحظ استطاع في الساعة الثانية بعد الظهر أن يصرع خنزيراً يطلق عليه سكان المنطقة (بارى - أوتاج) وقد جاء هذا الحيوان في الوقت المناسب لتزويدنا باللحم الذي طالماً اشتبهناه ؛ وقد استقبلناه بحفاوة - وكان نيد لاند جد فخور بطلقته النارية ، فقد سقط الخنزير سريعاً إثر إصابته بالرصاصه المكهربة .

وسرعان ما انهمك الكندي في سلخه وإعداده للطعام بعد أن حجز منه شرائح لوجبة العشاء . وبعد الطعام استأنفنا رحلة الصيد التي اضطلع فيها نيد وكونسايل بالنصيب الأكبر .

واستطاع الصديقان بتوغلها بين الشجيرات أن يثرا قطعاً من حيوانات القنغر التي انطلقت هاربة متواثبة بقوة مخالها المطاطة ؛ ولكن سرعتها لم تمنع الرصاص المكهرب من إصابتها .

وصاح نيد لاند منفعلاً بلذة الصيد :

- آه يا سيدى البروفسور ما أبدع حيوانات الصيد هذه خصيصاً بعد حفظ لحومها للغواصة نوتيلوس ، اثنان . . . ثلاثة . . . خمسة . . . وإلى حين أفكبر في كل هذا اللحم الذى سنأكله ، وفي أن بحارة الغواصة البلهاء لن يشاركوننا مضغاً منه . . .

وأعتقد أنه لو لم يكثر من الحديث في غمرة طربه لاستطاع أن يصيد القطيع كله . ولكنه اكتفى بصيد اثني عشر من هذه الحيوانات التي أخبرنا كونسايل أنها تكون أول مرتبة في الحيوانات الثديية النباتية .

وكانت هذه الحيوانات صغيرة من نوع القنغر المعروف باسم « الأرنب » وهي تعيش عادة في فجوات بجذوع الشجر وتنطلق بسرعة بالغة - ولكنها كانت رغم حجمها المتوسط تزودنا على الأقل بلحم ممتاز .

وامتلأت نفوسنا رضى من رحلة الصيد هذه ، ولذلك اقترح نيد لاند وهو في نشوته أن نعود في اليوم التالى إلى هذه الجزيرة الساحرة التي أراد

أن يستنفد كل ما فيها من حيوان يؤكل . ولكنه لم يحسب للظروف الطارئة حساباً .

وعدنا إلى الشاطئ في السادسة مساء . وكان زورقنا ساكناً في موضعه والغواصة تبدو كصخرة مستطيلة بين الأمواج على مسافة ميلين من الجزيرة . وشرع نيد لاند دون مزيد من التأخير في إعداد طعام العشاء . وكان خبيراً في الطهي ، وسرعان ما انتشرت في الجو رائحة الشواء الزكية المتصاعدة من ضلوع لحم الخنزير وهي تنضج على النار .

ولكن بدا أني أصبحت مثل نيد لاند في ابتهاجه باللحم المشوى . فهل يمكن أن يلتمس لي العذر كما التمسته للكندى لنفس السبب ؟ لقد كان الطعام ممتازاً . ومما زاد في بهجته زوج الحمام السمين المشوى وفضيرة من ثمار السانمو . وأخرى من شجرة الخبز . وكمية من المانجو والخوخ وبعض الشراب المخمر من عصير جوز الهند . ولهذا السبب أعتقد أن تفكير صاحبي لم يكن على ما ينبغي من سلامة وصفاء حين قال كونسایل :

— ماذا لو أننا لم نعد الليلة إلى الغواصة ؟

فقال نيد لاند :

— وماذا لو أننا لم نعد إليها أبداً ؟

وفي تلك اللحظة سقط حجر عند أقدامنا ، فوضع حداً لاقتراح صياد

الحيتان .

الفصل الثاني والعشرون

صواعق الربان نيمو

اتجهت أنظارنا إلى الغابة دون أن نهض وتوقفت يدي في الهواء قبل أن تبلغ في ، ولكن يد نيد لاند أدت مهمتها ، بينما قال كونساييل :
– إن الحجر لا يسقط من السماء إلا إذا كان قطعة من نيزك أو شهاب .
وعند ما سقط حجر ثان مستدير على يد كونساييل وأطار منها قطعة لحم شهى مؤكداً بذلك المعنى الذي أشار إليه لم نمالك أن نهضنا ثلاثتنا فوراً ورفعنا بنادقنا إلى أكتافنا استعداداً لصد أي هجوم

وقال نيد لاند :

– هل يمكن أن يكون هذا من فعل القروود ؟

فقال كونساييل :

– شيء من هذا القبيل . وإن سكان هذا المنطقة من الهمج .

فقلت وأنا أتجه إلى البحر

– هلموا إلى الزورق .

والواقع أنه لم يكن أمامنا بد من الانسحاب فقد رأينا نحو عشرين من الأهالي المسلحين بالأتراس والمقاليع يظهرون عند نهاية الأحراش التي تحجب الأفق على مسافة مائة خطوة .

وكان زورقنا راسياً على بعد ستين قدماً من مكاننا .

وأخذ المتوحشون يقتربون منا ، دون جري ، وهم يحركون أذرعهم

بشدة ، وقد أنهالت علينا الحجارة والسهام .

ولم يشأ نيد أن يتخلى عن الزاد رغم الخطر المحدق بنا ، وهكذا راح يركض

حاملاً الخنزير في جانب وحيوانات القنغر في جانب آخر .

وصلنا إلى الشاطئ في دقيقتين، واستطعنا في لحظات أن نضع مؤونتنا وبنادقنا في الزورق وأن ندفع به إلى البحر ونمسك بالمجدافين؛ ولكن ما كدنا نبتعد نحو عشرين قدماً حتى رأينا مائة من المتوحشين المزجرجين الملوحين بأذرعهم يهبطون إلى الماء حتى خصورهم . فجعلت أنظر مؤملاً أن يلفت ظهورهم أنظار بحارة الغواصة نوتيلوس .. ولكن لا . لقد ظلت الغواصة الضخمة ساكنة في موضعها وكأنها مهجورة تماماً ، وبعد عشرين دقيقة كنا نتسلق جوانبها . وكانت المنافذ المؤدية إلى داخلها مفتوحة . فدخلنا إلى الداخل بعد أن شددنا الزورق في موضعه .

وذهبت إلى الصالون حيث سمعت بعض نغبات الأرغن ، ثم رأيت الربان منحنياً على العزف وهو في نشوة موسيقية .

فقلت له :

— كاتبن نيمو .

ولما لم يسمعني كررت النداء وأنا ألمس يده .

فانتفض واستدار نحوي قائلاً :

— آه . أهذا أنت يا بروفوسور . حسناً هل استمتعتم برحلة الصيد ،

هل وجدت من أنواع النبات والحيوان ما أرضى نزعتك العلمية ؟

— نعم يا كاتبن ولكننا لسوء الحظ جلبنا وراءنا شرذمة من (ذوى الساقين)

الذين يعتبر الاقتراب منهم خطر .

ماذا تعنى بذوى الساقين ؟

— متوحشون .

فقال الربان متهاكماً :

— متوحشون ! وهل يدهشك يا بروفوسور أن تجد متوحشين في هذه

البقعة من اليابسة التي وطأتها قدماك ؟ وأي مكان في الدنيا يخلو من المتوحشين ؟

ثم هؤلاء الذين تسميهم متوحشين ، هل هم أسوأ من غيرهم ؟

- ولكن يا كابتن ؟
- إننى من ناحيتى يا سيدى قد التقيت بأمثال هؤلاء فى كل مكان .
- فقلت له :
- حسناً . إذا كنت لا تحب أن تستقبل بعضهم فى الغواصة ، فيحسن أن نتخذ بعض الاحتياطات .
- اطمئن يا بروفيسور . فليس ثمة ما يدعو إلى القلق .
- ولكن أولئك الأهالى كثيرون .
- كم أحصيت منهم ؟
- مائة على الأقل .
- فقال الربان نيمو وقد وضع أصابعه على أوتار الأرغن مرة أخرى :
- يا مسيو أرونالكس . لو أن جميع الأهالى فى بابوا اجتمعوا على الشاطئ فليس للغواصة أن تخشى شيئاً من هجأتهم .
- وانطلقت أصابع الربان تجرى على أوتار الأرغن وقد لاحظت أنه يجربها على الأوتار السوداء فقط مما أضفى على ألحانه الطابع الاسكتلندى وسرعان ما نسى وجودى واستغرق فى تأملات لم أحاول قطعها عليه .
- وصعدت إلى سطح الغواصة مرة أخرى . فإذا الليل قد أرخى أستاره ، وذلك لأن الشمس فى تلك المنطقة الاستوائية تغرب بسرعة دون أن يعقبها شفق .
- ولم أعد أرى الجزيرة بوضوح . ولكن النيران الكثيرة الموقدة على الشاطئ أبانت لى أن الأهالى لا يفكرون فى الانصراف .
- وبقيت هكذا وحدى بضع ساعات وأنا أفكر أحياناً فى الأهالى ، ولكن دون شعور بالقلق من ناحيتهم بعد أن سرت إلى نفسى ثقة الربان بقوته ، وأحياناً أخرى أنساهم لفرط إعجابى بجمال الليل فى ذلك الإقليم الاستوائى .
- وطارت أفكارى إلى فرنسا مع النجوم التى لن تلبث بعد ساعات قليلة أن

تبرز هناك . وكان القمر يسطع وضاحا . وإذا ذلك خطر لى أن هذا التابع الأمين للأرض سيبزغ غداً في نفس المكان ليرفع الأمواج وينتزع الغواصة من مرقدتها المرجاني . وأوشك الليل أن ينتصف . ولما رأيت السكون الشامل ينجم على الأمواج المظلمة . وعلى كل شيء تحت أشجار الشاطئ ، لم ألبث أن عدت إلى غرفتي حيث استسلمت للنوم في هدوء .

ومرت الليلة دون أحداث . ولا شك أن أهالي بابوا قد أفرعهم مشهد هذا «الوحش البحرى» الرابض في الخليج . إذ كان في مقدورهم أن يقتحموا الغواصة عن طريق المنافذ المفتوحة .

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم الثامن من شهر يناير صعدت إلى السطح والنهار تبدو طلائعه . ولم يطل الوقت حتى لاحت الجزيرة من ثنايا الضباب المنقشع .

ورأيت الأهلين ما برحوا حيث كانوا . بل رأيتهم أكثر عدداً مما كانوا في اليوم السابق ، خمسمائة أو ستمائة من الرجال الأشداء ، وكان بعضهم قد انتهر فرصة الجزر ، فتقدموا فوق الرؤوس المرجانية على مسافة عشرين ياردة من الغواصة . وقد سهل على معرفة جنسهم . فهم من سكان منطقة بابوا الأصليين ، ذوى الأجسام الفارهة ، والأعراق الطيبة . جباههم عالية كبيرة ولكنها ليست عريضة ، وأنوفهم مفرطحة وأسنانهم بيضاء ، وكان شعرهم الصوفى المصبوغ باللون الأحمر ، والمحقوق عن أجسامهم ، يكشف عن بشرتهم السوداء اللامعة كبشرة النوبيين . وتدلّت من شحومات آذانهم المفتوحة المستطيلة أقراط من العظام . وكان أغلب هؤلاء الهمج عرايا . وقد رأيت بينهم نساء كاسيات من الردف إلى الركبة بجداول من العشب المشدودة إلى الخصر بحزام نباتى . وكان بعض رؤسائهم يزينة أعناقهم بعقود وأطواق من الخرز الأبيض والأحمر . وكان أكثرهم مسلحين بالأقواس والسهام والدروع ويحملون على أكتافهم شباكاً بها الحجارة المستديرة التي يقذفونها من مقاليعهم براعة فائقة .

وكان أحد هؤلاء الرؤساء قريباً من الغواصة وقد راح يتفحصها باهتمام ويبدو أنه من ذوى المراتب العالية ، لأنه كان متشجاً بجلباب من صفائر أوراق الموز المطرزة الخوافي ، المصبوغة بألوان بهيجة . وكنت أستطيع بسهولة أن أصيب هذا الزعيم الواقف على مرمى بندقيتي . ولكني آثرت أن أنتظر بواذر تم عن عداء سافر ، فإذا كان الأمر بين الأوربيين والهمج ، فمن الخير أن يبدأ هؤلاء بالهجوم .

وظل الأهالي يحومون حول الغواصة طوال فترة الجزر ولكن في غير ضجيج . وقد سمعهم يرددون كلمة (آساي) وأدركت من إشارتهم أنهم يدعونني إلى البر ، ولكني آثرت أن أرفض هذه الدعوة .

وهكذا لم نستطع مغادرة الغواصة بالزورق في يومنا هذا ، وهو ما أثار شديد استياء نيد لاند لحرمانه من استكمال موثوته . ولكن هذا الكندي البارع استغل وقته في إعداد وحفظ اللحوم والمواد الغذائية الأخرى التي جلبها من جزيرة جلبوا . أما الأهالي فقد عادوا إلى الجزيرة في نحو الساعة الحادية عشر صباحاً عقب اختفاء رؤوس الشعب المرجانية تحت مياه المد المتزايدة ؛ ولكني رأيت جموعهم تزايد بكثرة على الشاطئ ويبدو أنهم جاءوا من المناطق المجاورة أو من بابوا نفسها ، وأيا كان الأمر فلاني لم أر زورقاً واحداً لهم .

ولما لم يكن لبي ما أفعله فقد فكرت في الخوض تحت هذه المياه الراكدة الممتلئة بألوان من المحار والأصداف والنباتات البحرية المختلفة . يضاف إلى ذلك أن هذا اليوم كان آخر أيام الغواصة في هذه البحار إذا تم تعويمها في اليوم التالي ، كما وعد الربان نيمو .

وهكذا استدعيت تابعي كونسابل الذي جاءني بمصفاة صغيرة خفيفة كالتى يستعملها صيادو المحار وقد سألتني قائلاً :

- ما رأيك في هؤلاء المتوحشين ؟ إنهم لا يبدوون قساة غلاظ القلوب .
- إنهم على أية حال من أكلة اللحوم البشرية يا بني .

فقال كونساييل :

– من الممكن أن يكون آكل اللحم البشرى رجلاً قوياً في آن واحد
كإمكان أن يكون الإنسان أكلًا وقوياً في نفس الوقت . إن إحدى الصفتين
لا تنفي الأخرى .

– حسناً يا كونساييل سأسلم بوجود أكلة لحوم بشر قويمى الخلق وأنهم
يلتهمون ضحاياهم بشرف وأمانة . ولكن ما دمت أود ألا يأكلنى أحد
حتى بأمانه وشرف ، فسوف ألزم الحذر فيما ينبغي أن أفعل ما دام الربان
نيمو لا يتخذ أية احتياطات وقائية ، والآن إلى العمل .

وظللنا ننتج الماء بنشاط مدى ساعتين دون أن نظفر بشيء نادر وكانت
المصفاة تخرج بألوان مختلفة من نباتات وأعشاب البحر وبعض الأحياء
المائية مع مجموعة من أجود أنواع سمك (المطرقة) ومحار اللؤلؤ ونحو
عشر سلاحف صغيرة احتفظنا بها لمطبخ الغواصة .

ولكنى لم ألبث أن فوجئت في اللحظة الأخيرة بإحدى العجائب وهي
من أعاجيب الشذوذ في الطبيعة مما يندر أن يصادفه الإنسان ، فقد رفع
كونساييل المصفاة زاحرة بالمحار العادى ، ولما دسست يدي فيها وتناولت
قوقعة منها سرعان ما بدت منى صبيحة نفاذه قل أن يصدر مثلها من حلق
آدمى .

فسألنى كونساييل فى دهشة بالغة :

– آه ما ذا دهى سيدى ؟ هل لدغه شىء ؟

– لا يا بنى ولكنى مع هذا كنت مستعداً فى سبيل هذا الكشف للتضحية

بأصبعى .

– أى كشف ؟

وقلت وأنا أريه الكشف الذى عددته نصراً

– هذه القوقعة .

فراح كونساييل يذكر لى اسمها ونوعها ورتبتها وفصيلتها والأسرة التى تنتمى عليها حتى قاطعته قائلاً :

– نعم يا كونساييل ولكن الاتجاه الحلزوني لهذه القوقعة هو من اليسار إلى اليمين وليس من اليمين إلى اليسار كما هو الحال مع جميع أنواع القواقع ..

فصاح كونساييل :

– أهذا ممكن ؟ –

– نعم يا بنى لأنها قوقعة ممسوخة .

فكرر كونساييل عبارتى بقلب يخفق انفعالا :

– قوقعة ممسوخة ؛

– انظر إلى غلافها الحلزوني .

فقال كونساييل وهو يتناول القوقعة النادرة بيد مرتعشة :

– آه . أرجو أن يصدقنى سيدى إذا قلت لى لم أشعر فى حياتى من

قبل بمثل هذا الانفعال .

وكان له العذر فى انفعاله ، فالمعروف تماماً مما قرره علماء الطبيعة أن الاتجاه اليميني هو قانون فى الطبيعة ... فالنجوم فى مجاريها الفلكية تتحرك من اليمين إلى اليسار . والإنسان بصفة غالبية يستخدم يده اليميني أكثر مما يستخدم اليسرى ، وعلى هذا الأساس صمم وصنع الأجهزة ، والآلات ، والسلاالم والأقفال وزنبركات الساعات وغيرها لتستخدم من اليمين إلى اليسار . وقد التزمت الطبيعة هذا القانون نفسه فى تكوين الغلاف الحلزوني للقواقع ، فهى جميعاً يمينية الاتجاه فيما عدا النادر الشاذ فإذا حدث ووقعت إحدى هذه القواقع فى يد أحد الهواة فهو يدفع ثمناً لها مثل وزنها ذهباً .

وبينما كنت مستغرقاً مع كونساييل فى تأمل هذا الكنز معللاً نفسى بضمه إلى المتحف كقنية عظيمة إذا بحجر ألقاه أحد الأهالى يسقط ويحطم القوقعة فى يد كونساييل .

وسرعان ما بدت منى صبيحة يأس وأمسك كونساييل ببندقيتي وصوبها إلى واحد من الأهالي كان يطوح بمقلعه على بعد عشر ياردات من مكانه فأردت منعه ولكنه أطلق البندقية وحطم سوار التمام المحيط بذراع الرجل .
وصحنت به :

– كونساييل . كونساييل .

– ألم ير سيدى أن هذا الوحش كان البادئ بالهجوم ؟
فقلت له :

– إن الغواصة لا تساوى حياة رجل .

فهمت كونساييل :

– ياله من وغد . ليته حطم ذراعى بدلا من هذه القوقعة النادرة .
وكان كونساييل مخلصاً فيما قال ولكنى لم أشاطره رأيه . ومهما يكن فإن الموقف كان قد تغير خلال الدقائق الأخيرة دون أن ندرى فقد أحاطت بالغواصة عشرون قارباً . وهذه القوارب المصنوعة من جذوع الشجر المحوفة طويلاً ، ضيقة تمتاز بالسرعة ، وتحفظ توازنها مجموعة من غاب البامبو تشد إليها وتطفو معها على سطح الماء ، وكان ركابها من الوطنيين أنصاف العراة ، يجدفون ببراعة مما أثار قلتي وهم يقتربون ، وكان جلياً أن أهل بابوا على صلة بالأوروبيين ، ولأنهم يعرفون سفنهم ولكن ما هو رأيهم في هذا الحرم الحديدى الاسطوانى الشكل المستطيل الذى لا يعلوه شراع ولا مدخنة ، لاشك أنه ليس بالرأى المطمئن ، ولكنهم حرصوا أول الأمر على البقاء بعيداً عنا مسافة طيبة ، حتى إذا رأوا أن هذا الحرم لا يتحرك استعادوا رباطة جأشهم شيئاً فشيئاً وحاولوا أن يألخوا مشهدها . فكان علينا إذن أن نحول دون استقرار هذه الألفة فى نفوسهم . إن أسلحتنا التى لا يتحدث ضوضاء ، لا تترك سوى أثر يسير فى نفوس هؤلاء الأهلين الذين لا يهابون سوى الأسلحة المفرقة . إن مثلهم لا يفرغ من صاعقة لا يصحبها قصف الرعد وإن كان الخطر كامناً فى البرق لا فى الصوت القاصف .

- وفى تلك اللحظة ازدادت القوارب دنواً من الغواصة وإذا مطر من
السهم ينهر على جوانبها مما جعل كونسائل يهتف قائلاً :
- ما هذا ؟ انه وابل من السهام . وقد تكون سهاماً مسممة .
فقلت وأنا أهبط داخل الغواصة :
- يجب إبلاغ الربان نيمو .
وهبطت إلى الصالون فلم أجد أحداً ، فتجاسرت وطرقت باب غرفة
الربان ، فرد على قائلاً :
- ادخل .
ولما دخلت وجدته منهمكاً فى عمليات حسابية كانت فيها العلامات الجبرية
هى الغالبة .
فقلت له :
- أخشى أن أكون أزعجتك .
— نعم يامسواروناكس . ولكنى أعتقد أن لديك أسياًباً خطيرة تدفعك
إلى مقابلتى .
— جد خطيرة . إننا محاصرون بقوارب الأهالى وفى دقائق معدودة
سيهاجمنا بضع مئات من هؤلاء المتوحشين .
فقال الربان نيمو بهلوء :
- آه . إذن فقد جاءوا فى زوارقهم ؟
— نعم .
— حسناً ما علينا إلا أن نغلق منافذ الغواصة .
— تماماً . وهذا ما جئت لأجله .
فقال الربان نيمو :
- ليس ثمة ما هو أيسر من هذا .
وضغط على جرس كهربائى نقل أوامره إلى قسم البحارة ثم قال لى بعد
بضع دقائق :

– لقد تم كل شيء ، الغواصة في مكانها ، ومنافذها مغلقة . ولا أظنك تخشى أن أصحابنا هؤلاء يستطيعون اقتحام جدران غواصة عجزت قنابل سفينتكم عن مسها بشيء .

– هذا صحيح يا كابتن . ولكن ثمة خطر آخر .

– وما هو ياسيدى ؟

– إنك ستضطر صباح الغد في مثل هذا الوقت إلى فتح المنافذ لتجديد هواء الغواصة .

– مؤكد ياسيدى . فإن غواصتى تنفس كما يتنفس الحوت الضخم .

– لوحدث في تلك اللحظة أن الأهالي يحتلون سطحها فلست أدري كيف تمنعهم من الدخول .

– فأنت إذن تعتقد أنهم سيصعدون إلى سطحها ؟

– أنا واثق من هذا .

– حسنا . دعهم يفعلون فإنى لأجد سبباً يدعوني لمنعهم ؛ إن أهالى بابوا مساكين ولن أجعل زيارتى إلى جزيرة جلبوا سبباً فى هلاك أحدهم .

قلت هذا وهممت بالانسحاب ، ولكن الربان نيمو استبقانى ودعانى للجلوس بجانبه ، وسألنى باهتمام عن رحلتنا فى الجزيرة وعن الصيد ، وبدا لى أنه لم يدرك معنى لهفة نيد لاند إلى اللحوم . ثم تناول الحديث موضوعات شتى أظهر الربان نيمو خلالها تلطفاً دون ميل إلى التبسط .

كان من بين الموضوعات التى طرقتها ، موقف الغواصة نوتيلوس الجانحة فى نفس المضائق التى كاد الربان دومونت دورفيل أن يلتقى حتفه فيها . وقد قال الربان فى هذا الصدد :

– كان واحداً من ربابنكم العظام . نعم إن دورفيل هذا كان أحد عباقره الملاحين . إنه (كابتن كوك) الفرنسى ، وباله من عالم سبى الحظ . فبعد

أن غامر بحياته على شواطئ الخليج الجنوبية وعلى الشعب المرجانية في أوشيانا وبين متوحشى المحيط الهادى من أكلة لحوم البشر ، إذا هو يموت ميتة بائسة في حادث سكة حديدية . ولو أتيج لهذا الرجل الباسل أن يفكر في لحظاته الأخيرة . فإذا تعتقد أن يكون قد دار بذهنه وقتذاك ؟

وكان التأثير يبدو على الربان نيمو وهو يقول هذا . وإني أسجل هذا الشعور بين مناقبه .

وشرعنا نرسم على الخريطة أعمال ذلك الملاح الفرنسى الكبير . رحلاته ومغامراته البحرية ومحاولاته المتكررة للوصول إلى القطب الجنوبي ، هذه المحاولات التى أدت الى اكتشافه لأراضى آديل ولويس فيليب ثم أبحائه وتخطيطاته للمجارى المائية في منطقة جزائر أوشينيان الرئيسية .

وقال الربان نيمو :

— إن ما قام به دورفيل على سطح الماء قمت أنا به في داخل المحيط وبكيفية أيسر وأتم مما قام به . فإن السفينتين استرولوب وزيليه اللتين كانت الأمواج تتقاذفها باستمرار ، لم تكونا في صلاحية الغواصة نوتيلوس التى تتيسر فيها الدراسة الهادئة والإقامة الدائمة بين أطواء المياه .

فقلت له :

— مهما يكن يا كابتن فهناك عنصر مشابهة بين سفينتى دورفيل وبين غواصتك

— وما هو ياسيدى ؟

— إن غواصتك قد جنحت مثلهما .

فقال الربان نيمو ببرود

— إن غواصتى لم تنجح . لقد صممت لتستقر في قيعان البحار . وأنا لمن أحتاج للقيام بالعمليات الشاقة والمناورات التى اضطر دورفيل إلى

القيام بها لتعويم سفينته بعد جنوحها ؛ إن استرولوب وزيليه أشرفنا على الغرق ولكن نوتيلوس لا تتعرض لمثل هذه المخاطر . إن المد سيرفعها غداً ، في الموعد المحدد وسوف تستأنف نشاطها الملاحي في البحار .

فقلت :

— أنا لا أشك في هذا يا كابتن .

فأردف الربان قائلاً وهو ينهض :

— غداً . . غداً في الثانية والدقيقة الأربعين بعد الظهر ستطفو الغواصة مرة أخرى ، وسأبرح بها مضائق توريز دون خطر .

فاه الربان نيمو بهذه الكلمات في اقتضاب شديد وهو ينحني قليلاً . فكان معنى هذا أن انصرف . وهكذا عبرت إلى غرفتي حيث وجدت كونسایل الذى رغبت في أن يعرف نتيجة مقابلتى للربان . فقلت له :

— عند ما بدا لى يا بنى أن الغواصة مهددة من ناحية أهالى بابو كان الربان يرد على متهاكماً فليس لدى إذن ما أقوله لك سوى أن تضع ثقتك فيه ، وأن تمضى للنوم آمناً .

— هل سيحتاج سيدى إلى شيء من خدماتى ؟

— لا يا صاحبي . ماذا يفعل نيد لاند ؟

— إنه يطهو ألواناً فاخرة من لحم القنغر .

وبعد انصراف كونسایل . أويت إلى فراشى ، ولكن نومي كان مضطرباً فقد كنت أسمع وقع أقدام المتوحشين على سطح الغواصة ، وكان لها دوى يصم الآذان وانصرمت الليلة هكذا دون أن يخرج بحارة الغواصة عن سكونهم المعتاد . لم يكونوا قلقين من وجود هؤلاء المتوحشين حولهم إلا كما يقلق حراس قلعة مكسوة بالدرع أمام جماعة من النمل تزحف على دروعهم .

واستيقظت في السادسة صباحاً ، وكانت المنافذ لم تفتح بعد ، وهكذا لم

يتم تجديد الهواء في الداخل ولكن مستودع الهواء الاحتياطي الممتلئ لمثل هذه الظروف الطارئة ، أرسل في جِو الغواصة المفتقرة إلى الهواء النقي بضع ياردات مكعبة من الأوكسجين .

وبقيت مشغولا في غرفتي حتى الظهر دون أن أرى الريان ولولحظة واحدة . ولم تبد دلالة ما على الاستعداد للرحيل داخل الغواصة .

وانتظرت فترة أخرى من الوقت ، ثم قصدت إلى الصالون ، وكانت الساعة قد بلغت النصف بعد الثانية أى أن المد سيبلغ ذروته بعد عشر دقائق ولن تلبث الغواصة أن تتحرر من مكانها إذا لم يكن الريان نيموقد وعد ما وعده مفاخرة ومباهاة . فإن لم يتم هذا فسوف تنصرم أشهر طوال قبل أن تغادر هذه الشعاب المرجانية المستقرة فيها .

وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين أقبل الريان إلى الصالون وقال لى :

— إننا سنبدأ الرحيل .

فلما غمغمت بكلمة استحسان ، أردف قائلا :

— لقد أمرت بفتح المنافذ .

— وماذا عن أهالى بابوا ؟

فقال الريان وهو يرفع كتفيه قليلا :

— أهالى بابوا ؟

— ألن يقتحموا الغواصة ؟

— كيف يمكنهم هذا ؟

— عن طريق المنافذ التى أمرت بفتحها .

فقال الريان بهدوء :

– لن يستطيعوا دخول الغواصة عن طريق المنافذ يامسيو أروناكس ،
حتى ولو كانت مفتوحة .
فلما تطلعت إليه قال لي :
– ألم تدرك ما أعني ؟
– لا مطلقاً .
– حسناً تعال وسترى بعينيك .

وانتقلت معه إلى السلم المركزي ، وهناك رأيت كونساييل ونيد لاند
ينظران في جيرة بالغة إلى بحارة الغواصة الذين كانوا يفتحون المنافذ بينما كانت
صيحات الغضب والخوف تردد في الخارج .

فعندما رفعت أغطية المنافذ لاح منها نحو سبعين من السنج الخفيفة ، ولكن
ما كاد طليخهم يمد يده إليها للوصول إلى السلم حتى سقط على ظهره بقوة
خفية جعلته يفر وهو يعوى ويلوح بذراعيه في فزع ورعب .

وتبعه عشرة من زملائه . وإذا هم يلقون نفس المصير . وقد ابتهج
كونساييل بما رأى . أما نيد لاند فقد دفعه الحماس المعروف عنه إلى ارتقاء
السلم ولكنه ما كاد يمسك السياج العلوي بين يديه حتى سقط بدوره على ظهره
وهو يهتف قائلاً :

– يا للشيطان لقد صعقت .

وكان في هذه الكلمة تفسير كل شيء ، فقد أدركت أن السياج شحن
بالتيار الكهربائي حتى أصبح كمجموعة أسلاك كهربائية عارية تحدث صدمة
عنيفة في جسم من يلمسها . وكان من الممكن أن تكون هذه الصدمة قاتلة
لو أن الربان نيموسلط على السياج كل ما في الغواصة من قوة كهربائية . ويمكن
القول بحق أنه جعل بينه وبين المهاجمين حاجزاً كهربائية لا يجزؤ أحد على
اجتباره سالماً

وفى خلال ذلك لجأ أهالى بابوا إلى الفرار ، وقد أطار الفزع صوابهم ؛
أما نحن فقد أخذنا ونحن نغالب الضحك فى مواساة نيد لاند المنكود وفى
تدليكه ، وهو يسب ويلعن كمن به مس .

وكانت الغواصة عندئذ قد ارتفعت وطففت مع آخر موجات المد ،
فغادرت مرقدها المرجانى فى الدقيقة الأربعين التى حدها الربان . وأخذ
رفاصها يضرب الموج فى اثناد وجلال ، ثم ازدادت سرعتها تدريجياً ،
وأنشأت تشق عباب المحيط بعد أن اجتازت بسلام دروب مضايق توريز الخطرة .

-

الفصل الثالث والعشرون

سجن . . . وتحدير . . . ونوم . . .

وفي اليوم التالي استأنفت الغواصة رحلتها تحت سطح الماء بسرعة كبيرة لم تكن تقل في تقديري عن خمسة وثلاثين ميلاً في الساعة . أما سرعة دوران رفاصها فقد بلغت حداً لم أستطع معه أن أقدر اتجاهه أو عدد دوراته .
و حين بدأ لي أن هذه القوى الكهربائية التي زودت بها الغواصة نوتيلوس لاتتمدها بالحركة والحرارة والضوء فحسب ، بل تصونها كذلك من كل عدوان خارجي ، وتجعلها كمحراب مقدس لا يمسه غير مرغوب فيه إلا وصعق ، فاق إعجابي كل حد وتسامى الإعجاب من الغواصة ذاتها إلى المهندس العبقري الذي صنعها

وفي اليوم الثالث عشر من شهر يناير ، بلغنا بحر تنمور . ورأيت الجزيرة المسماة بهذا الاسم عبر خط الطول ١٢٢ درجة وكانت هذه الجزيرة التي تبلغ مساحتها ١٦٢٥٥ فرسخاً مربعاً أي ٤٨٧٦٥ ميلاً مربعاً « خاضعة لحكم الراجات » أمراء الهند « وكانوا ينعتون أنفسهم « بأبناء التماسيح » ومقصودهم من هذا أنهم ينجلرون من أرفع أصول يمكن أن يتناول إليها إنسان . وكانت « أسلافهم التماسيح » تملأ أنهار الجزيرة وتحظى بكل احترام وتقديس . كانت تتمتع بالحماية والتدليل والعبادة كما كان يقدم لها الطعام والنفايات الصغيرة قرباناً وتقديساً . والويل للأجنبي الذي يضع يده على هذه الزواحف المقدسة .

ولكن الغواصة لم يكن لها شأن بهذه المخلوقات الدميمة . فإن جزيرة تيمور لم تبد لنا إلا برهة في وقت الظهيرة عند ما كان الضابط الأول

يحدد اتجاهنا . وكذلك لم أشهد إلا لمحة من جزيرة كيتي التي كانت واحدة من جزر المجموعة التي تشتهر نساؤها بالجمال في الأسواق الملاوية .

ومن هذا الموضع تحولت الغواصة إلى الجنوب الغربي من خطوط الطول لقد أديرت إلى المحيط الهندي . ترى إلى أين تمضي بنا نزوات الربان نيمو؟ هل يمضي بنا إلى الشواطئ الآسيوية ، أو يقترب من سواحل أوروبا ! إن كلا الاحتمالين بعيد مع رجل صمم على الهرب من القارات المأهولة . هل تراه إذن يتجه إلى الجنوب؟ هل يعبر رأس الرجاء الصالح ثم رأس هورن ثم يشق طريقه إلى منطقة القطب الجنوبي؟ ثم هل يعود بعد ذلك إلى المحيط الهادى حيث يتيسر للغواصة ملاحه سهلة هادئة إن المستقبل وحده كفيلا بالحواب .

وبعد أن اجتازت الغواصة الشعب المرجانية لجزائر كاريتير ، وسيرنجا باتام وهبرينا ، وسكوت ، وهي أقصى كفاح اليابسة ضد الخضم المائى ، أصبحنا في اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير وراء حدود اليابسة . وقد خففت الغواصة الكثير من سرعتها ، وُغدت متقلبة في حركاتها ، فهي أحيانا تمضي في وسط الماء وأحيانا أخرى تنطلق على سطحه .

وكان الربان نيمو خلال هذه الفترة من الرحلة يجرى تجارب طريفة على مختلف درجات الحرارة في مختلف درجات العمق البحرى . وكانت هذه التجارب في الظروف العادية تجرى بأجهزة شديدة التعقيد وكانت نتائجها في الغالب غير مكفولة سواء ما تم منها بأجهزة القياس الترمومترية التي كان زجاجها يتحطم تحت ضغط الماء في حالات كثيرة ، أو بأجهزة ترتكز على أساس اختلاف مقاومة المعادن للتيار الكهربائى ، وفي هذه الحالة يصعب ضبط النتائج بدرجة كافية . ولكن الربان نيمو كان على النقيض من ذلك كان يهبط بالغواصة إلى مختلف الأعماق ليظفر بنفسه بدرجات الحرارة المتفاوتة ، وذلك بأن يضع مقياس الحرارة في الماء على مختلف درجات

العمق . فيظفر بالحرارة بطريقة مباشرة وبكل دقة . وكان الهبوط يتم عن طريق ملء المستودعات بالماء أو بهبوط الغواصة رأساً بألواحها الانسيابية ، مما هياً لها أن تبلغ المخاق في مسافات تراوحت بين ثلاثة آلاف متر . وقد تبين من النتائج النهائية لهذه التجارب أن للبحر درجة حرارة ثابتة قدرها أربع درجات ونصف على عمق ألف متر في جميع خطوط العرض .

وكنت أتبع هذه التجارب بأحر الاهتمام وكان الربان نيمو يدرسها بأشد الشغف . وطالما تساءلت عن الهدف من هذه الأبحاث وهل يقوم بها لصالح إخوانه في البشرية ؟ إن هذا غير محتمل ، فيوماً ما ستطوى أبحاثه معه في مكان مجهول من البحار وذلك ما لم يعهد إلى بهذه النتائج ، ولكن معنى هذا أن رحلتى الغربية ستكون لها نهاية ، وهو ما لم ألمح بوادره حتى الآن .

وفي اليوم السادس عشر من شهريناير بدت الغواصة وكأنها راقدة على عمق ياردات قليلة تحت سطح الأمواج . فقد توقف جهازها الكهربائي وتركها الرفاض الدائب الحركة تتأرجح تحت رحمة التيار وقد خطر لي أن يحارثها مشغولين في الداخل بإجراء الاصلاحات اللازمة التي تحتاجها المحركات بعد كل رحلة طويلة غنيمة .

أما أنا وصاحبى فقد تهيأ لنا أن نبصر مشهداً عجيباً . فقد رفعت الألواح عن الفتحات البلورية في الصالون ولم يكن الكشاف الكهربائي الخارجى وضاء ، وكانت الظلال الغامضة تنجم في قلب الماء والسماء المكفهرة الملبدة بالسحب لا ترسل إلى أطواء المحيط السطحية سوى ضوء يسير .

وبينما كنت أنظر إلى البحر في مثل هذا الجو الذى كانت فيه أكبر الأسماك تبدو كظلال غير مكتملة المعالم إذا بالضوء الكهربائي يغمر الغواصة كلها . وقد خطر لي أول الأمر أن الكشاف الكهربائي قد أضىء وأخذ يرسل

إشعاعه الباهر في الخضم المائي . ولكنى كنت مخطئاً ، وقد تجلى خطئى أثر ملاحظة سريعة .

كانت الغواصة طافية في طبقة مائية فسفورية تبدو في مثل هذه العتمة باهرة الضوء . وكان هذا الضوء الفسفورى يتولد عن ملايين الدويبات الحيوانية المشعة التي يتضاعف إشعاعها بانعكاسه على هيكل الغواصة المعدنى . ولم ألبث أن رأيت وميضاً متألّقاً بين هذه الطبقات المائية المشعة . كوميض الرصاص المذاب في الأفران ، أو كالكتل المعدنية المتوهجة من فرط صهرها . وكان ذلك يحدث بطريقة تبدو فيها بعض العناصر الضوئية وكأنها ظلال في صميم هذا الوضع الذى ينبغى أن يتقدم في كافة الظلال . أجل . لم يكن هذا مجرد ضوء عادى مما نعهده بل كان فيه قوة غير مألوفة وكان فيه حركة ، حتى أحسنا كأنه ضوء ينبض بالحياة .

والواقع أن هذا الضوء ناشئ من تكثيل الدويبات المائية بالملايين ، وهي دويبات فقاعية شفافة الشكل ، جلاتينية القوام ذات قرون استشعار دقيقة وقد أمكن إحصاء ٢٥ ألف دويبة منها في كمية من الماء لا تزيد عن ثلاثين سنتيمتراً مكعباً وأن ضوءها ليتضاعف بإشعاع أصناف أخرى عديدة من هذه الدويبات المائية الفسفورية .

وظلت الغواصة طافية بضع ساعات بين هذه الطبقات المائية المضيفة ، وقد اشتد إعجابنا بمنظر الأحياء البحرية الكبيرة وهي ترتع في أجوائها كهرائس الماء الأسطورية . ورأيت بين وميض هذه النيران غير المحرقة حيوانات الدرفيل الرشيقة السريعة ، وهي لا تكل من حركتها البهلوانية . كما رأيت الأسماك الاستيوتور التي يبلغ طولها ثلاث ياردات ، والتي تحسن التنبؤ بالأعاصير وهي ذات زعانف شبيهة بالسيوف ، كانت تضرب بها زجاج نوافذ الصالون ، ثم تتابعت من بعدها أنواع من السمك الأصغر حجماً بدت وهي متباعدة كالذيل في أثر هذا الوسط الضوئى .

كان هذا المشهد الباهر رائع الجمال وقد خيل إلى أن ثمة ظروفاً جوية

تضاعف من قوة هذه الظاهرة . ولعل عاصفة كانت تجتاح سطح البحر دون أن تحس الغواصة بفورتها وهي على عمق بضع ياردات حيث كانت تطفو آمنة بين المياه الهادئة .

وهكذا تابعنا طريقنا مهورين دائماً بألوان جديدة من كل عجيب طريف وكان كونساييل يلاحظ ويصنف أنواع ما يرى من أصداف وعمار وقواقع وأسماك ، وتعاقت الأيام سراعاً حتى لم أعد أحصيها . وكان نيد لاند كهادته يحاول أن يغير من أصناف الطعام في الغواصة ، ولكننا كنا كالقواقع ، قد اعتدنا الحياة داخل الصدف وقد تبين لي أنه من السهل على الإنسان أن يعيش تماماً كأنه قوقع . ذلك أن حياتنا داخل الغواصة لم تلبث أن بدت لنا طبيعية ميسورة ، فلم نعد نفكر في الحياة المختلفة القائمة على سطح اليابسة ، ظل ذلك شأننا حتى وقع حادث ذكرنا بغرابة موقفنا .

كانت الغواصة في اليوم الثامن عشر من شهر يناير في خط الطول ١٠٥ درجة وخط العرض ١٥ درجة جنوباً ، وكان الجو ينذر بالعاصفة والبحر مهتاجاً ، والرياح تهب عاصفة من ناحية الشرق . وكان مؤشر الباروميتر الذي ظل يهبط خلال الأيام السابقة ، ينذر بقرب ثوران عناصر الطبيعة .

وكنت قد صعدت إلى الغواصة وقت أن كان الضابط الأول يحدد الاتجاهات العامة . وتوقعت أن أسمع كالمعتاد تلك العبارة التي يرددتها يوماً . ولكنه فاه هذا اليوم بعبارة أخرى لا تقل غموضاً . وعلى الأثر أقبل الربان نيمو وأخذ يكتسح الأفق بمنظاره المقرب .

وظل الربان دقائق ساكناً دون أن يرفع نظره عن النقطة التي ركز فيها اهتمامه . وما لبث أن أنزل المنظار عن عينيه وتبادل بضع كلمات مع الضابط الأول الذي بدا أنه صار فريسة لانفعال كان يجاهد عبثاً لكتمانها .

أما الربان نيمو فكان أكثر سيطرة على نفسه ، ولذلك ظل على

هدوئه . وفوق هذا كان يبدو أنه يعترض على شيء وكان الضابط يجيب بعبارات روتينية ، أو كان هذا على الأقل ما فهمته من اختلاف لهجتهما وإشارتهما .

وكان الربان نيمو في خلال هذا ينزع السطح جيئة وذهاباً دون أن يلتفت إلى ، ولعله لم يكن يراني ، وكانت خطواته تم عن الثبات ، وإن كان ينقصها طابع النظام المعهود . وكان يتوقف أحياناً ويعقد ذراعيه على صدره وينظر إلى البحر . ترى ما الذي كان يلتمسه في هذا الفضاء المائي العريض؟ أما الغواصة فكانت عندئذ على مسافة بضعة مئات الأميال من اليابسة .

وتناول الضابط الأول منظاره المقرب مرة أخرى وأخذ يستشف الأفق بإصرار وهو يروح ويغدو ويضرب السطح بقدمه . وكان في انفعاله على التقيض من رئيسه الهادئ .

وكان لا بد لهذا الغموض أن ينجلى لأن سرعة الغواصة لم تلبث أن ازدادت بأمر من الربان نيمو وأخذ الرفاص يضرب الأمواج بعنف في حركته الدائرية المتزايدة .

وفي تلك اللحظة ، لفت الضابط نظر الربان مرة ثانية فوقف عن السير ، ووجه منظاره المقرب إلى الموضع المشار إليه ، وظل يراقبه فترة طويلة ، ولما اشتد في الفضول ، هبطت إلى الصالون واستحضرت منظاراً قوياً كنت أستخدمه عادة ، ثم أسندته على مقصورة الكشاف الكهربائي القائمة على مقدمة السطح ، وتأهبت للنظر إلى الأفق ، ولكنني ما كدت أضع عيني عليه حتى انتزع المنظار من يدي .

فاستدرت ، ورأيت الربان نيمو واقفاً أمامي . ولكنني كدت أنكره لما بدا عليه من تغير رهيب . كانت عيناه تقدحان شرراً تحت حاجبيه المقطبين ، وأسنانه تلمع بين شفثيه المنفرجتين ، وكان جسمه المتصلب ، ويدها المقبوضتان ، ورأسه الثابت بقوة بين كتفيه ، ثم كلها عن الحقد

الشديد الذى تمتلئ به نفسه ، وينم عليه مظهره ، ولم يتحرك ، وإنما سقط
منظارى من يده ، وتدحرج عند قدميه .

ترى ، هل أثرت دون قصد غضبه !؟ هل خطر لهذه الشخصية الغامضة
أنى وقفت على بعض الأسرار التى لا يجوز أن يعرفها الغرباء عن الغواصة ؟
وما لبث الربان نيمو أن استزد أخيراً رباطة جأشه ، واستعاد وجهه
المربد. ههوه المعتاد وتحدث إلى ضابطه بلغة غير مفهومة ، ثم استدار نحوى
مرة أخرى قائلاً بصوت ينم على الاستعلاء .

– يامسيو أروناكس . إننى أطلبك بتنفيذ إحدى التعهدات التى
تربطنى بك .

– وما هو يا كابتن ؟

– أن تسجن نفسك مع صاحبيك حتى يحين الوقت الذى أراه مناسباً
لإطلاق سراحكم مرة أخرى .

فقلت وأنا أنظر إليه بثبات :

– أنت هنا صاحب الأمر . ولكن أيمكن أن أتى عليك سؤالاً واحداً ؟

– لا يا سيدى ولا سؤال واحد !

فهبضت إلى الغرفة المخصصة لنيد لاند وكونسايل ، وأخبرتهما بقرار
الربان ، وإنى أترك للقارئ أن يتصور وقع هذا الكلام على نيد لاند . ومع
ذلك لم يكن لدى أى وقت للشرح والتفسير . فقد كان أربعة من البحارة
فى انتظارنا بالبواب ، وقد صحبونا إلى الزنزانة الحديدية التى أمضينا فيها ليلتنا
الأولى بالغواصة .

وحاول نيد لاند أن يحتج على هذا المسلك . فكان الجواب أن أغلق

عليه الباب

وقال لى كونسايل :

– هل يبين لى سيدى ما معنى هذا ؟

فذكرت لها ما حدث ، فكانا مثلي في دهشة ، ولم يصل علمهما إلى أكثر مما وصل إليه علمي . وأمضيت وقتاً في التأمل ووجه الربان نيموالغريب لا يغيب عن خيالي ، وقد عجزت عن الاهتداء إلى رأى منطقي . واستسلمت لطائفة من الفروض العميقة سيطرت على تفكيري حتى أفقت على صوت نيد لاند وهو يقول :

– عجباً . لقد أعدوا لنا هنا طعام الإفطار :

وكانت المائدة معدة حقاً ، ويبدو أن الربان أصدر أمره بهذا الشأن عند ما أمر بزيادة سرعة الغواصة . وقال كونساييل :

– هل يأذن لي سيدي أن أشير بشيء ؟

– نعم يا بني .

– إنى أنصح سيدي بأن يتناول طعام الإفطار . فإن هذا من الحكمة ..

لأننا لا نعرف ما قد يحدث .

– أنت على حق يا كونساييل .

وقال نيد لاند :

– إنهم لسوء الحظ لم يقدموا إلينا سوى الطعام العادي عندهم .

فقال له كونساييل :

– مارأيك يا صديقي نيد إذا أنت لم تفطر البتة ؟

فوضعت هذه الملاحظة حداً لتذمر نيد لاند .

وجلسنا إلى المائدة وتناولنا الطعام صامتين . وقد أكلت لماماً . وأكل

كونساييل مكرها بعقل وحكمة . أما نيد لاند فلم يقصر في طعامه . وبعد أن

فرغنا جلس كل منا في ركن يلمس الراحة والهدوء .

وفي تلك اللحظة انطفأ المصباح الكهربائي الذي كان يضئ الزنزانة ،

وتركنا في ظلام دامس وسرعان ما استغرق نيد لاند في النوم ، وشد ما كانت

دهشتي إذ وجدت كونساييل قد استغرق مثله في نوم عميق . وفيما كنت أسائل

تفسى عن سر هذا النوم القاهر إذ شعرت بخدر ثقيل يشيع فى ذهنى
وإذا عىناى تغمضان برغمى ، وانتابى هذىان ألىم . وبدا بوضوح أن ثمة
مادة مخدرة مزجت بطعامنا وأن السجن وحده لم يكن كافياً لإخفاء مقاصد
الربان نىمو عنا فلم يكن بد من أن يعززه بالنوم الثقىل أيضاً .

وسمعت المنافذ تغلق ، وتوقف تأرجح الغواصة على الأمواج . فهل
غادرت سطح المحيط ؟ هل غاصت مرة أخرى إلى الأعماق الساكنة ؟

وحاولت مغالبة النوم ولكن دون جدوى ؛ وسرعان ما ضعفت حركة
أنفاسى ، وأحسست ببرودة كبرودة الموت تشل أعضائى ، وبأجفائى تنسدل
وكأنها محملة بشىء ثقىل فلم أستطع فتحهما . وأخيراً طغى على نوم ملىء
بالهذىان ، ثم تلاشت الرؤىا .

الفصل الرابع والعشرون

مملكة المرجان

واستيقظت في اليوم التالي وأنا أشعر بصفاء عجيب في ذهني ، وشد ما كانت دهشتي إذ ألفتيني في غرفتي . ولم يكن ثمة شك أن صاحبي قد نقلنا أيضاً إلى غرفتهما دون أن يشعرا مثلي بما حدث . وكذلك لم يعرفا مثلي ما حدث في الليلة السابقة . وهكذا اعتمدت على المستقبل وحده في كشف هذا السر .

وفكرت عندئذ في مغادرة الغرفة . أتراني مطلق السراح كما كنت ، أم ما زلت سجيناً ؟ لقد ألفتيني أنعم بالحرية كاملة . فقد فتحت الباب ، ومضيت إلى وسط الغواصة ، وارتقيت درجات السلم المركزي ، ووجدت المنافذ التي أغلقت في الليلة السابقة مفتوحة . فخرجت إلى السطح .

ووجدت نيد لاند وكونسايل في انتظاري هناك . وقد قررا لي حين سألتهما أنهما لا يعرفان مما حدث شيئاً . فقد استغرقا في نوم بلا أحلام ، وكم كانت دهشتهما حين استيقظا فوجدا نفسيهما في مقصورتهما .

أما الغواصة نفسها فقد بدت لنا ساكنة غامضة كألوف أمرها . كانت تطفو إلى سطح الأمواج بسرعة معتدلة . ولم يبد على سطحها تغير ملحوظ . وجعل نيد لاند يرقب الأفق بنظراته النفاذة ، فلم يجد على مدى البصر شيئاً كشرع أو يابسة . وكان ثمة نسيم جاف يهب من الغرب ، والغواصة تتمايل فوق الأمواج العالية التي أثارها الرياح .

وكانت الغواصة بعد أن تم تهويتها ، تبقى تحت سطح الماء في عمق خمس عشرة ياردة لكي تطفو بسرعة عند الضرورة . وقد تكررت هذه

العملية بضع مرات خلال اليوم التاسع عشر من شهر يناير خلافاً للمعتاد .
وصعد الضابط الثاني إلى السطح وردد العبارة الغامضة لمن في داخل
الغواصة .

ولم يظهر الريان نيمو بل لم أر أحداً من رجال الغواصة سوى الخادم
الحامد الملامح الذي كان يقوم على خدمتي أثناء الطعام بصمته ودقته
المألوفين .

وفي نحو الثامنة بعد الظهر ، كنت في الصالون عاكفاً على تصنيف
مذكراتي ، عند ما فتح الباب وأقبل الريان فأنخيت أمامه فرد على تحيّي
بسكون دون أن يلفظ بكلمة . فعدت إلى استئناف عملي وأنا أود أن يفسر لي
بعض الأحداث الغامضة التي وقعت في الليلة السابقة . ولكنه لم يفعل شيئاً
من هذا .

ولما نظرت إليه وجدت أمارات التعب مرتسمة على وجهه ، وكانت أجفانه
الحمراء تدل على أنه لم ينعم بالنوم . وكانت سماته تنم عن أشد الحزن ؛ وأخذ
يسير في الغرفة ، ثم يجلس ثم ينهض ، ثم يتناول كتاباً ما ولا يلبث أن يدعه
ثم ينظر في أجهزته ومقاييسه دون أن يلون ملاحظاته كالمعتاد ، وبدا عاجزاً
عن البقاء لحظة واحدة في سكينته وهدوء .

وأخيراً أقبل على قائلاً :

— هل أنت طبيب يامسيو أروناكس ؟

فقلت :

— نعم إنني طبيب وجراح ، وقد تدرّبت على مهنتي سنوات عديدة
قبل الانضمام إلى المتحف .

— هذا أمر طيب .

وبدا لي واضحاً أن إجابتي أرضت الريان نيمو ، ولكني وأنا لا أعرف
ماذا يريد — انتظرت المزيد من الأسئلة وفي نيتي أن أجيب عليها طبقاً
للظروف .

وقال الربان :

– هل تتكرم يا مسيو أروناكس بفحص رجل مريض ؟

– هل يوجد مريض بالغواصة ؟

– نعم .

– وأنا على استعداد للذهاب معك إليه ؟

– هيا بنا .

وينبغي أن أعترف أني قد شعرت بقلبي يخفق في عنف ، ولست أدري لماذا رأيت ثمة وشيجة بين مرض أحد بحارة الغواصة ، وبين أحداث الليلة الماضية ، وقد شغلني هذا السر على الأقل بقدر ما شغلني أمر الرجل المريض .

وصحبنى الربان نيمو إلى مؤخرة الغواصة نوتيلوس ، وأدخلني مقصورة تقع في جناح البحارة .

وهناك رأيت رجلا في نحو الأربعين من عمره واقداً في فراش ، وقد نم وجهه الانجلوساكسوني الأصيل عن القوة والنشاط .

وانحنيت فوقه ، فرأيت أنه لم يكن مريضاً فحسب . بل كان جريحاً أيضاً . وكان رأسه الملفوف بالضمادات مستقراً على وسادتين . ولما رفعت الضمادات ظل يحدق بعينه الكبيرتين دون أن تند آهة واحدة .

وكان الجرح مروعاً . فعظام الرأس المحطمة بآلة تكشف عن المخ . وقد بدا لي أن المادة المخية أصيبت بتهتك شديد ، كما تشكل الدم المتجمد في الجرح على هيئة رواسب الحمر . وكان ثمة ارتجاج في المخ أيضاً ، ونزيف من بعض شرايينه ، أما تنفس الرجل المريض فكان بطيئاً ، كما كانت حركات عضلاته المتشنجة تشيع الاضطراب في وجهه . وكان يبدو عليه الأعراض الكاملة للالتهاب بالمخ ، مما سبب شللاً في الحركة وفي الإحساس .

وبقياس النبض وجدته متقطعاً وكانت الأطراف تميل إلى البرودة تدريجياً

وهكذا كان الموت يقترّب منه شيئاً دون أن يكون ثمة احتمال لإمكان التغلب عليه . ولكنى لم أتوان عن تنظيف الجرح وإعادة تضميده ، ثم استلّرت إلى الربان نيمو قائلاً :

– كيف وقعت هذه الإصابة ؟

فأجاب الربان نيمو مراوفاً ؟

– وماذا بهم ؟ لقد أسقط اهتزاز الغواصة العنيف رافعة على رأسه ولكن ما رأيك فى حالته ؟ .

فترددت برهة قبل أن أجيب ، فقال الربان :

– يمكنك أن تتحدث بصراحة ، فإن هذا الرجل لا يعرف الفرنسية .

وأرسلت نظرة أخيرة على وجه الرجل الجريح ثم قلت :

– سيموت خلال ساعتين .

– ألا من سبيل إلى إنقاذه ؟

– لا ..

فأطبق الربان نيمو قبضته ، ورأيت عينيه تمتلئان بالدموع وكنت أحسبهما

لا تعرفان البكاء .

وبقيت فترة من الوقت أرقب الرجل المحتضر والحياة تنحسر عنه تدريجياً . وقد بدا أشد شحوباً تحت الضوء الكهربائى الذى كان يغمر فراش الموت . وجعلت أنظر إلى جبينه الذى ينم عن الذكاء والذى ارتسمت عليه تجاعيد مبكرة خطها سوء الحظ ، وربما البؤس . وكنت أحاول أن أعرف بعض أسرار حياته من الكلمات الأخيرة التى تفلت من شفثيه . ولكن الربان قال لى :

– يمكنك أن تنصرف الآن يا مسيو أروناكس .

فتركت الربان فى غرفة المحتضر ، وعدت إلى غرفتى وقد اشتد تأثرى بما رأيت وسلخت سحابة النهار تنتابنى مخاوف شنيعة . ونمت فى تلك الليلة

الليلة نوما مضطرباً . وخيل إلى أثناء أحلامي المتقطعة أني أسمع تهديدات بعيدة وأصوات كترانيم الجناثر . فهل كانت صلاة تردد على روح الميت بتلك اللغة التي لا أعرفها ؟

وفي صباح اليوم التالي صعدت إلى سطح الغواصة حيث وجدت الربان قد سبقني إليه . وما كاد أن يلمحني حتى أقبل إلى قائلاً :
 - هل تحب يا بروفيسور أن تقوم برحلة إلى الأعماق اليوم ؟
 فقلت :

- مع صاحبي ؟

- إذا أرادا .

- إني رهن أمرك يا كابتن .

- إذن أرجو أن ترتلوا ملابس الغوص .

ولم يرد أي ذكر للرجل المحتضر أو الميت . فقصدت إلى نيد لاندا وكونسايل ونقلت لهما اقتراح الربان ، فوافق كونساييل فوراً وبدا الكندي هذه المرة على استعداد للذهاب معنا .

وكانت الساعة الثامنة صباحاً . . وبعد نصف ساعة . كنا قد ارتدينا ملابس الغوص وتزودنا بأجهزة التنفس والإضاءة ، وفتح لنا الباب المزدوج وصحبنا الربان نيمو الذي كان يتبعه اثنا عشر من بحارته . وانتقلنا إلى الأرض الصلبة التي استقرت عليها الغواصة على عمق عشر ياردات .

وانتهى بنا انحدار خفيف إلى امتداد من الأرض المتموجة على عمق ثلاثين ياردة وكانت هذه الأرض تختلف تماماً عن كل أرض رأيتها في الرحلة الأولى تحت سطح المحيط الهادى فلم يكن هناك رمال ناعمة ، ولا مراعي بحرية ، ولا غابات تحت سطح البحر . وقد تعرفت فوراً على طبيعة هذه الأرض التي يقول الربان نيمو إنها مملكة المرجان .

إن المرجان هو تراكم جسيمات حيوانية تتجمع على شعب من خلايا

بحرية حية ذات طبيعة صخرية هشة ، ولهذه الشعب قوى إنتاجية فريدة تسبب تكوينها عن طريق الانقسام والتكاثر ، وتمتع في الوقت نفسه بمخاصة التكون الذاتي التي يتيح لها المشاركة في الحياة العامة . وهي من هذه الناحية لون من الاشتراكية الطبيعية . وأنا أعرف النتائج النهائية الناشئة عن هذا التحجر الغريب الذي يتحد في الوقت نفسه مع الأملاح المعدنية مكوناً شعباً متحجرة على هيئة أشجار ونباتات كما لاحظ بحق علماء الطبيعة . وهكذا لم يكن هناك ما هو أمتع من زيارتي لإحدى الغابات المتحجرة التي غرسها الطبيعة في أعماق البحر .

وأدرنا جهاز رومكورف للإضاءة ، وسرنا في حذاء ضفة مرجانية في مستهل تكوينها ، ولكنها بمرور الزمن ستتصل يوماً بهذا الجانب المرجاني من المحيط الهندي . وكان الطريق محفوفاً بأدغال متشابكة مكونة من شجيرات تكسوها زهور نجمية بيضاء . وكانت هذه النباتات تنمو في بعض الأماكن الصخرية من أعلى إلى أسفل بعكس نباتات اليابسة .

وكان الضوء يكشف لنا عن آلاف الانعكاسات الفاتنة وهي تتأرجح بين الأغصان الزاهية الألوان ؛ وكان يبدو لي أن النباتات الغشائية الأنبوبية ترتعش تحت الأمواج المتأرجحة . فساورتني رغبة في جمع أوراقها القضيية المزينة بأطراف دقيقة بعضها قد تفتح وبعضها في طور التفتح ، وكانت الأسماك الخفيفة السريعة تلمسها برفق وهي تمر بجانبها كأنها أسراب من الطير . ولكن ما كادت يدي تقترب من هذه الأزهار الحية ، هذه النباتات الحساسة ذات الحيوية ، حتى انتفضت المستعمرة النباتية كلها على أهبة الحذر ، وإذا الوريقات البيضاء تدخل في أغلفتها الحمراء ، والزهور تختفي عن نظري والشجيرات كلها تتحرك إلى كتل من العقد الصخرية .

ولكن الأدغال لم تلبث أن أخذت في التناقص أثناء مسيرنا ، وكثرت النباتات البحرية ، ثم تفتحت أمام أقدامنا الطرق إلى أحراش حقيقية متحجرة وعقود على أشكال هندسية بديعة ، ودخل الريان نيمو إلى ما يشبه البهو

المظلم . وكانت أضواء مصابيحنا تحدث انعكاسات سحرية وهي تنسكب كسهام من نار على العقود والتكوينات الطبيعية المدلاة كالاشجار ، وقد رأيت بين أدغال المرجان أنواعاً أخرى من الشعب لا تقل غرابة وإثارة للعجب فهي مكونة من نباتات البلسا وزهور الأقحوان المتحجرة على هيئة شعب رائعة المنظر ، كما رأيت حواجز مرجانية بعضها أخضر وبعضها أحمر ، وكأنما رصع تكوينها الجيرى بأعشاب البحر . وقد قرر علماء الطبيعة بعد مداولات شتى تسجيلها في جدول المملكة الناتية ، ولكن أحد المفكرين قال عن هذه المملكة المرجانية « إنها قد تكون اليقظة الحقيقية التي تنبثق منها الحياة بعد نموها الحجري ودون أن تنسلخ نهائياً عن نقطة البدء الحافية » .

وبعد مسير ساعتين وصلنا أخيراً إلى عمق ٣٠٠ ياردة ، أى إلى أقصى الحدود التي يمكن عندها أن تتكون الشعب المرجانية . وفي هذا العمق لم يكن ثمة شجيرات متفرقة ، أو أحراش من شجر صغير قصير بل غابات ضخمة من نباتات بحرية عظيمة ، وأشجار متحجرة هائلة متصلة بعقود وأكاليل من النباتات المتسلقة والأعشاب البحرية وهي مزدانة بألوان وظلال . ومررنا بسهولة تحت أغصانها العالية الضائعة في أعماق المياه فوقها . بينما كانت الزهور النجمية والسرخس والزنابق الدرنية وغيرها من أزهار البحار تنسج تحت أقدامنا بساطاً رائعاً من الزهور مرصعاً بالبراعم المتألقة .

كان مشهداً يجلب عن الوصف . آه . كيف لم يكن في مقدورنا أن نتبادل التعبير عن مشاعرنا ؟ لماذا كنا مسجونين تحت هذه الأقنعة من المعدن والزجاج ؟ لماذا حرم علينا الحديث ؟ لماذا لا نعيش على الأقل كما تعيش الأسماك التي تسكن عالم الماء ؟ أو كالأحياء البرمائية التي تستطيع إذا شاءت أن تعيش في الماء وفي اليابسة .

وفي هذه الأثناء توقف نيمو ، فاقتديت به مع صاحبي ، ولما استدرت رأيت رجاله قد التفوا حوله ولما دققت النظر لاحظت أن أربعة منهم يحملون شيئاً مستطيلاً على أكفهم .

وكنا عندئذ في وسط رحبة واسعة مكشوفة تحيط بها نباتات عالية متحجرة من غابات الأعماق . وكانت مصابيحنا تضيء المكان بما يشبه ضوء الشفق الذي يطيل الظلال على الأرض . أما عند حلود الرحبة الواسعة فقد كان الظلام كثيفاً تشقه الومضات الخفيفة التي يعكسها الضوء على التواءات المرجانية .

وكان نيد لاند وكونسايل بالقرب مني ، فوقنا ننظر وقد بدا لي أني سأشهد شيئاً غريباً ؛ وبينما كنت أنظر إلى الأرض لاحظت ارتفاعها في مواضع معينة وأن بها نتوءات تعلوها رواسب جيرية ، كما كانت ممهدة بعناية وانتظام مما يدل على أنها من صنع الإنسان .

وفي منتصف الرحبة الواسعة ، وفوق قاعدة من الصنخور رأيت صليباً من المرجان الأحمر ، مبسوط الذراعين ، بحسب الرأى أنه مصنوع من الدماء المتحجرة .

وتقدم أحد الرجال إثر إشارة من الربان نيمو وأخذ يحفر حفرة على مسافة بضعة أقدام من الصليب بمعول كان يحمله في حزامه .

عندئذ فهمت الموقف كله . فهذه الرحبة مدافن . وهذه الحفرة قبر وذلك الشيء المستطيل هو جثمان الرجل الذي مات أثناء الليل . وقد جاء الربان نيمو ورجاله إلى هذا المكان لمواراة زميلهم الثرى تحت أعماق من المحيط لم يصل إليها بشر غيرنا .

ولم يسبق أن أحسست بمثل هذا الانفعال الذهني ، ولم يحدث أن تواردت على فكري مثل هذه الخواطر المثيرة حتى كدت لا أبصر ما تقع عليه عيناى .

وفي خلال هذا استمرت عملية حفر القبر ببطء . وكانت الأسماك تفر هنا وهناك كلما قطعت عليها السبل . وكنت أسمع رنين المعول الحديدى فوق الأرض الجيرية وأرى بعض الشرر يتطاير كلما اصطدم بقطعة من المعادن

الملقاة في أعماق المحيط . وازداد اتساع الحفرة ، حتى أن بلغت من العمق ما يكفي لمواراة الخثة .

وأخيراً اقترب حاملو الجثمان الذي كان ملفوفاً في نسيج أبيض من ألياف نباتية مائية ووضعوه في القبر البحري ، وركع الربان نيمو وهو عاقد ذراعيه على صدره مع أصدقاء الرجل ومحبيه تأهباً للصلاة فانحنيت مع صاحبي في خشوع .

ثم أهيلت على القبر المواد التي أخرجت منه ، فتكون مرتفع بسيط من الأرض . قبر جديد في الرحبة .

وبعد الفراغ من هذه العملية نهض الربان مع رجاله ثم التفوا حول القبر وركعوا مرة أخرى وقد بسطوا أذرعهم يودعون الراحل الوداع الأخير .

وعلى إثر هذا سار الموكب الجنازى غائداً إلى الغواصة ، مجتازاً مرة أخرى ممرات الغابة ومناطق الأدغال على جانب الشعب المرجانية ، مُصعّداً في منحدر الأكمة المتحجرة .

ولاحت أخيراً أضواء الغواصة عن بعد فاسترشدنا بها في المرحلة الأخيرة من الطريق .

وكانت عودتنا إليها في الساعة الواحدة من الظهر .

وما أن فرغت من استبدال ملابس الغوص ، حتى صعدت إلى السطح وأنا لا أكاد أغالب انفعالاتي العنيفة المتضاربة فيممت شطرمقصورة الكشاف الكهربائي حيث جلست بجانبها هناك إلى أن أنضم إلى الربان نيمو فهضت قائلاً :

– إذن فقد مات هذا الرجل ليلاً كما تنبأت ؟

فأجاب الربان قائلاً :

– نعم يا مسيو أروناكس .

١ – وهو الآن يرقد في سلام بجوار زملائه في المدافن المرجانية .

- نعم . . منسياً من الجميع إلا منا : إنا نحفر القبر ، وتتولى الحسيات
المرجانية إغلاقه وختمه إلى الأبد .
- وأخفى الربان نيمو وجهه بحركة مفاجئة ، وعبثاً حاول أن يكتم شهقة
بلدت منه برنعمه ، ثم أردف قائلاً :
- هذه مدافنتنا الآمنة . . على عمق مئات الأقدام تحت سطح الأمواج .
- إن موتاك ياكابتن يرقلون في أمان على الأقل بعيداً عن أنياب نمور
البحر .

فقال الربان نيمو برصانة :

- نعم ياسيدى بعيداً عن هؤلاء ، وعن نمور البشر :

الفصل الخامس والعشرون

المحيط الهندي

نُ على هذه الصورة إذن كان الربان نيمو ينفق كل حياته كلها في خفايا المحيط . بل إنه أعد قبره في أعماق لا سبيل إلى النفوذ إليها وحيث لا يستطيع وحش بحرى أن يقلق الرقدة الأخيرة لسكان الغواصة نوتيلوس - أولئك الذين ارتبطوا معاً في الحياة وفي الموت ، والذين لا يستطيع حتى الإنسان إزعاجهم ، كما قال الربان نيمو . ففي أعماقه دائماً يكمن ذلك التحدى العنيف الوحشى لكل مظاهر المجتمع البشرى :

إننى لم أكن مقتنعاً بالنظرية التى انتهى إليها كونساييل . لقد أصر صاحبنا على اعتبار الربان واحداً من العلماء الذين لم يظفروا بالتقدير فى حياتهم ومن ثم آثر أن يواجه أعراض البشرية عنه بالتراجع والازدراء . نعم . ما برح يرى أنه عبقرى لا يفهمه أحد ، فلما ضاق ذرعاً بنفاق العالم ، لجأ إلى هذا الوسط السحيق حتى يستطيع إطلاق العنان لغرائزه العلمية ولكن هذه النظرية فى رأى - لم تكن تفسر غير جانب واحد من حقيقة الربان نيمو .

والواقع أن الغموض الذى اكتنف ليلتنا السابقة ، عند ما أدخلنا فى السجن وخلدت حواسنا والحذر البالغ الذى دفع بالربان لاختطاف المنظار المقرب من يدي بعنف وأنا أحاول النظر إلى الأفق البعيد ، والجرح القاتل الذى أصيب به الرجل والذى عزى إلى صدمة عنيفة فى الغواصة - كل هذا انحاز بى إلى اتجاه فى التقسيم جديد .

كلا . . إن الربان نيمو لا يعتمد إلى الهرب من الجنس البشرى
إن غواصته الهائلة هذه ليست مجرد وسيلة لإرضاء غرائزه نحو الحرية ولكنها أيضاً أداة للانتقام الرهيب .

! ولم يكن في مقدوري عندئذ أن أتبين الحقيقة بجلاء ، وما كنت أراه لم يكن سوى ومضات في الظلام . ولهذا لم يكن أمامي إلا الكتابة في هذه الحدود ، والتحدث وفقاً لمجرى الحوادث .

وفي الواقع لم يكن ثمة ما يربطنا بالربان نيمو . إنه يعرف أن الهرب من غواصته مستحيل ونحن لم نكن حتى أسرى حرب ، بل سجناء تحت اسم ضيوف بحكم مظاهر المجاملة . ولكن نيد لاند مع هذا لم يفقد الأمل في استرداد حريته . وكان من المؤكد أنه سينتزع أول فرصة سانحة للاستفادة منها ، ولم يكن ثمة شك في أني سأحنو حنوه ، ولكني لن أفارق الغواصة دون إحساس بالأسف لأنني سأحمل معي من أسرارها ما سمح كرم الربان بإطلاعي عليه . ومهما يكن من شيء هل يستحق هذا الرجل الإعجاب أو الكراهية أم هو ضحية أم جلاذ ، وأقوفا في صراحة إلى أحب قبل أن أكون رأيي عنه نهائياً أن أتم رحلة الغواصة حول العالم بعد أن رأيت مدى ما في أولها من روعة وجمال . أحب لو استطعت أن أرى السلسلة الكاملة للعجائب والغرائب المتكاثرة تحت بحار هذه الكرة الأرضية . أحب لو أني رأيت ما لم يره إنسان من قبل ، ولو دفعت حياتي ثمناً لرغبتى العارمة في المعرفة والعلم وماذا اكتشفت حتى الآن ؟ لا شيء . . . ولاشي تقريباً . لأننا لم نقطع من المحيط الهادئ أكثر من ستة آلاف فرسخ .

وأيا كان الأمر ، فأنا أعرف أن الغواصة تقترب من الأرض المأهولة ، وأنه إذا سنحت لنا فرصة للنجاة ، فإنه من القسوة أن أضحي بزملائي في سبيل شغفي بالمجهول ، يجب أن أسير معهم بل ربما يجب أن أقودهم . ولكن . هل ستتاح لنا مثل هذه الغواصة يوماً ما ؟ إن من حرم من حريته عنوة يهفو إليها . أما العالم المدارس فإنه يفر منها .

وفي ذلك اليوم ، الواحد والعشرين من شهر يناير وفي ساعة الظهيرة صعد الضابط الأول ليحدد ارتفاع الشمس ، فصعدت إلى السطح أيضاً

وأشعلت سيجارى ، وجعلت أراقب الضابط وهو يقوم بعمله وكان من الجلى أنه لا يعرف الفرنسية لأسباب عديدة . ولكنى جعلت أردد أفكارى بصوت مسموع كان من الممكن أن يثير بعض انتباهه برغمه لو أنه فهم ما أقول . ولكنه ظل جامد الوجه أبكم .

وبينما كان الضابط يقوم بعمله ، أقبل أحد بحارة الغواصة ، وهو نفس الرجل القوى الذى صحبنا فى رحلتنا الأولى إلى جزيرة كريسيو . وأخذ ينظف زجاج الكشاف الكهربائى ، وعندئذ فحصت تركيبات هذا الجهاز الذى كانت قوته تتضاعف مائة مرة بعدساته الدائرية كعدسات كشاف المنار والى كانت تحتفظ بالضوء فى المستوى المناسب . وكانت أسلاك المصباح الكهربائى مجمعة لإطلاق كل قوتها الضوئية ، وكان الضوء فى الواقع يتولد فى أنبوبة مفرغة للمحافظة على تركيزه وانتظامه فى آن واحد . وتوفر هذه الأنبوبة أيضاً من استهلاك الأطراف الجرانيتية التى تقوى الإشعاع الضوئى ، وهى عملية اقتصادية بارعة لحأ إليها الربان نيمو الذى قد لا يستطيع تجديدها بسهولة .

ولما تأهبت الغواصة لاستئناف رحلتها تحت سطح الماء ، نزلت إلى الصالون حيث رأيت نوافذه البللورية مغلقة . ولكنى عرفت أن الغواصة أخذت تتجه غربا .

وأنشأت الغواصة تمخر عباب المحيط الهندى ، وهو سهل مائى شاسع يبلغ امتداده نحو ألف ومائتى مليون فدان . وكانت مياهه من الصفاء بحيث يشعر الناظر إلى الأعماق بالدوار . وكانت الغواصة تمضى عادة على عمق يتراوح بين مائتى وأربعمائة ياردة . وعلى هذه الصورة تابعتنا رحلتنا أياماً عديدة . ولو كان شخص غيرى ، أنا الذى أهتم بالبحر ، لبدت له الساعات طويلة مملة . ولكن مسيرى كل يوم على السطح ، للتزود بقوة جديدة من هواء البحر المنعش ومشهد هذه المياه الموفورة الثراء التى كنت أراها من نوافذ الصالون البللورية وعكوفى على القراءة وتدوين مذكراتى – كل أولئك كان يشغل وقتى ، ولا يدع لى لحظة أشعر فيها بالفراغ والملل .

وكان جميع من في الغواصة يتمتعون بصحة جيدة . وكان الطعام ملائماً لنا تماماً . وكان بوسعى ألا أحفل كثيراً بمسألة تنوع الطعام التي اتخذ منها نيد لاند سبباً للشكوى والاحتجاج كما أنه لم يكن في مثل هذا الجو ذى الحرارة الثابتة خوف من الإصابة بالبرد . يضاف إلى هذا أن الغواصة كان بها كمية كافية من « عرق اللؤلؤ » المعروف في إقليم بروفانس باسم « شجرة البحر » وهو دواء ناجح للسعال .

وفي كثير من الأيام كنا نشاهد أسراباً كبيرة من طيور القرفصاء ، ومرعى البحار ، وطيور النورس والطيور العوامة . وقد أمكن اصطيد بعضها ببراعة وإعدادها للطعام بطريقة خاصة ، والواقع أنها كانت ضيماً طيباً . ولاحظت بين الطيور الكبيرة ، التي تبعد كثيراً عن اليابسة وتستريح أحياناً على سطح الماء أنواعاً بديعة من طيور القادوس التي كانت لها صرخات مزعجة كنهيق الحمير . أما أسرة طيور « التوتبلاميت » فكانت ماثلة في خطاطيف البحر البارعة في التقاط ما يظهر على سطح الماء من أسماك . وفي مجموعات كبيرة من طيور « الفراشات » ذات الخطوط الحمراء ، التي تقارب الحمام حجماً والتي يخفف ريشها الأبيض المظلل باللون الأحمر من قوام أجنحتها السوداء .

وجاءتنا شباك الغواصة بأنواع مختلفة من السلاحف البحرية ذات الظهر المحدبة والأصداف الغالية إلى حد كبير . هذه الزواحف المائية التي تغوص بسهولة ، تستطيع أن تبقى تحت سطح الماء فترات طويلة . بعد إغلاق صماماتها اللحمية القائمة في نهاية القصبة الهوائية . وقد اصطدنا بعضها وهي لاتزال نائمة ، مستكنة في درعها العظمى الذي يحميها من وحوش البحر . أما لحمها فلم يكن طيب المذاق ، ولكن بيضها كان يزودنا بأطباق من الطعام الشهى . وفي اليوم الواحد والعشرين إلى اليوم الثالث والعشرين ، استمرت الغواصة تسير بسرعة ٢٥٠ فرسخاً في اليوم أى ٢٢ ميلاً في الساعة . وكانت

أنواع كثيرة مختلفة من الأسماك التي جذبتها الأنوار الكهربائية تحاول مرافقتنا ، ولكن أغلبها تخلف بعد أن سبقته الغواصة ، وإن استطاع بعضها أن يحتفظ بسرعه في نطاق مياه الغواصة فترة من الوقت . . .

وفي صباح اليوم الرابع والعشرين رأينا من بعيد جزيرة كيلنج ، وهي مرجانية التربة ، وتمتاز بأشجار الكاكاو البديعة ، وسارت الغواصة على امتداد شواطئ هذه الجزيرة المهجورة مسافة يسيرة . وقد جاءتنا الشباك بأنواع مختلفة من الأصداف والمحار وبعض العينات النادرة التي أضيفت إلى كنوز الربان نيمو .

ولم تلبث جزيرة كيلنج أن اختفت وراء الأفق ، بينما اتجهت الغواصة إلى الشمال الغربي ، شطر شبه الجزيرة الهندية .
وفي ذلك اليوم قال لي نيد لاند :

— هذه بلاد متحضرة . أفضل كثيراً من مجموعة جزر بابوا التي رأينا فيها أكلة لحوم البشرية أكثر مما رأينا من اللحوم الصالحة للأكل . أما في هذه الأراضي الهندية ياسيدى البروفسور ، فسوف نجد طرقاً وسككاً حديدية . وفرنسيين وإنجليز ومدناً هندية . إن الإنسان لا يسير فيها أكثر من خمسة أميال دون أن يلتقي بواحد من مواطنيه . لا بأس ! أليست هذه اللحظة المناسبة لوداع الربان نيمو على الطريقة الفرنسية ؟

فقلت في صوت كله الخزم والتصميم :

— لا — لا يا نيد لاند دعنا نرى كل ما في جعبة الربان . إن الغواصة تزداد قرباً من القارات المأهولة إنها في طريق العودة إلى القارة الأوربية . فدعها تقصد بنا إليها . ومتى أصبحنا في مياها الإقليمية ، فسترى كيف نتصرف وفقاً لما تقضى به الحكمة ، وفضلا عن هذا فلا أظن أن الربان نيمو سيسمح لنا بالصيد على شاطئ مالابار أو كورماندل كما فعل في غابات غنيا الحديدية .

– حسنا ياسيدى . ألا يمكن أن نحاول الهرب بغير إذنه ؟
 فلم أرد على الكندى ، زهداً في المجادلة . فقد كنت أود في أعماق نفسى
 أن أستنفذ الفرص التى هياتها الأقدار التى دفعت بي إلى الغواصة .
 وبعد جزيرة كيلنج ، تناقصت سرعة الغواصة وأخذت تسلك طرقاً
 مختلفة ، وكثيراً ما كانت تهبط إلى أعماق بعيدة . ورغم استخدامنا لألواح
 الغوص المنحدرة ، فقد قطعنا ميلين دون أن نبلغ إلى أغوار المحيط الهندى
 العميقة . بل إن حبال الأعماق لم تستطع الوصول إلى قاعه رغم أن طولها
 كان يبلغ سبعة آلاف ياردة . أما درجة الحرارة في أعماق بقعة وصلنا إليها
 فكانت حوالى أربع درجات فوق الصفر . وقد لاحظت أن برودة الطبقات
 العليا من البحر أكبر منها في الطبقات السفلى .

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير ، أمضت الغواصة اليوم
 كله فوق سطح الماء الذى كان خالياً تماماً من السفن ، وكانت تضرب الأمواج
 برفاصها القوى . فتزيدها ارتفاعاً واهتياجاً . وكانت الغواصة تبدو في مثل
 هذه الظروف كوحش بحرى هائل . وقضيت ثلاثة أرباع اليوم فوق سطحها .
 وكنت أنظر إلى المحيط فلا أرى شيئاً في الأفق . فلما كانت الساعة الرابعة
 بعد الظهر . شاهدت سفينة تجارية متجهة نحو الغرب . ولم أر منها في الواقع
 غير صواربها برهة وجيزة قبل أن تغيب عن ناظرى . ولكن من فيها لم يروا
 الغواصة إذ كانت تطفو بانخفاض شديد على سطح المحيط .

وفي الساعة الخامسة مساءً أى قبل اختفاء هذا الشفق القصير الذى يربط
 النهار بالليل في المناطق الاستوائية ، فوجئت أنا وكونسایل بمشهد غريب
 فهناك حيوان بحرى جميل كان القدماء يتفاءلون بلقائه . وقد درس أرسطو
 وأقينيوس وأوبيان عاداته وطباعه واستنفدوا في دراسته كل التعبيرات العلمية
 في اليونان وإيطاليا . وكانوا يسمونه نوتيلوس أو بومبيلوس . ولكن العلم
 الحديث لم يعترف بهذه التسمية وأطلق على هذا النوع من الحيوانات الرخوة
 اللاققرية . اسم « أرجونوت » .

وكان ثمة قطيع من هذه الحيوانات البحرية يسبح إذ ذاك على سطح المحيط ، وكان في مقدورنا أن نحصى بضع مئات منه وكان من نوع الارجونوت القريب من المحيط الهندي . كانت هذه الحيوانات الرشيقة تسبح إلى الوراء على سطح الماء بوساطة أنبوبة تدفع منها الماء الذي سبق أن امتصته . وبين أذرعها الثمانية ، ستة طويلة رفيعة تطفو على سطح الماء بينما يرتفع الذراعان الآخران في الهواء كأنهما أشرعة خفيفة وكنت أستطيع بسهولة أن أرى أصدافها الحلزونية الجوفاء التي قارنها العالم كافيير بزورق رشيق . ذلك أن هذه الأصداف كانت تحمل الحيوانات التي صهغتها دون أن تلتصق بها وقلت لكونسايل :

— إن هذه الحيوانات البحرية حرة في ترك أصدافها . ولكنها لم تحاول يوماً أن تستفيد من هذه الحرية .

فرد قائلاً :

— إنها في هذه الحالة تشبه الربان نيمو . وكان خيراً لو سمي غواصته أرجونوت .

وظلت الغواصة تطفو بين هذا القطيع من اللافقريات نحو ساعة . ولا أدري كيف استبد بها الخوف فجأة وكأنا صدر إليها إشارة واحدة ، فإذا بكل شراع منها يهبط ، وكل ذراع تطوى ، وإذا أجسامها تتكور ، وإذا مركز الجاذبية فيها يتغير مع انقلاب الأصداف إلى أسفل ، وإذا القطيع كله يجثو تحت سطح الماء ، ثم كل هذا في سرعة خاطفة ، وما أظن أى أسطول بحرى يمكن أن يقوم بمناورة كهذه بمثل هذا النظام الرائع .

وفي هذه اللحظة ، أسدل الليل أستاره فجأة ، وانسابت نسائمه هادئة ، فهي لا تكاد تحرك الأمواج حول الغواصة الساكنة .

وفي اليوم التالي ، اجتزنا خط الاستواء وهكذا دخلنا نصف الكرة الأرضية الشمالي ٥

وفي هذا اليوم رافقتنا قطعان ضخمة من نمور البحر . وهي وحوش بحرية رهيبة تكثر في هذه البحار وتزيد من أخطارها .

وكانت هذه النمر البحرية من نوع « كستراشيوفيلبي » وهي رمادية الظهر ، بيضاء البطن ، مسلحة بأحد عشر صنفاً من الأسنان وكانت أعناقها منقطة ببقع سوداء كبيرة تحيط بها دوائر بيضاء فتبدو كقطة العين . وكانت هذه الوحوش الضارية تندفع بأجسامها على نوافذ الصالون البلورية في قوة عارمة لم تتألك معها من الارتعاد . ولم يستطع نيد لاند إذ ذاك أن يسيطر على نفسه . كان يتلهف على الصعود إلى سطح الغواصة واصطياد هذه الوحوش بالحرايب ، ولا سيما ذلك النوع منها الذي تبدو أسنانه كالفسيفساء أو النوع الوحشي الكبير الذي يبلغ طوله نحو سبب ياردات والذي كان يثير غضبه . ولكن الغواصة لم تلبث أن زادت من سرعتها ، وما هي غير فترة وجيزة حتى خلفت وراءها أسرع هذه الوحوش سباحة .

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر يناير وفي مدخل خليج البنغال الفسيح كنا نلتقي بين حين وآخر بمشهد مروع : أجساد موتى طافية على سطح الماء . كانت أجساد المتوفين في القرى الهندية حملها نهر الجونج إلى عرض البحر قبل أن تتمكن الحوارح من التهامها ، وكانت تقوم مقام اللجادين ولكن نمور البحر لم تكن تتردد في مساعدتها على أداء هذه المهمة البشعة .

وفي الساعة السابعة مساءً ، كانت الغواصة تسير وهي نصف طافية في مياه بيضاء كاللبن . فقد كان المحيط يبدو على امتداد البصر كأنما تحول إلى لبن . فهل كان هذا تأثير ضوء القمر ، كلا فقد كان القمر بعد يومين ما زال محجوباً خلف الأفق بسبب أشعة الشمس الغاربة التي كانت تبدو سوداء بالقياس إلى بياض الماء .

ولم يستطع كونسابل أن يصدق عينيه فسألني عن تعليل هذه الظاهرة الطبيعية الفريدة . ولحسن الحظ كان في مقدوري أن أجيب . فقلت :

– هذه المساحات الشاسعة من الأمواج البيضاء التي كثيراً ما تشاهد على ساحل (أمبونا) وفي هذه المناطق ، تسمى بحر اللبن .
فقال كونساييل :

– ولكن .. ما سبب هذه الظاهرة فلا أظن أن الماء استحال إلى لبن حقاً ؟
– لا . لا . بالتأكيد . . إن هذا البياض الذي يدهشك كثيراً يرجع إلى وجود تجمعات من ديدان « الأنفاسوريا » وهي ديدان صغيرة إشعاعية لا لون لها ، هلامية القوام لا يزيد سمكها عن الشعرة ولا طولها عن ٠,٠٧ ، من البوصة ! هذه الديدان يتصل بعضها ببعض على امتداد عدة فراسخ ...
فهتف كونساييل قائلاً :

– عدة فراسخ ؟
– نعم يا بني ولا تحاول أن تحصى عددها . . فلن تستطيع ذلك لأن بعض الملاحين إذا لم تخنى الذاكرة ساروا بسفنهم في هذا الخضم اللبني أكثر من أربعين ميلاً .

ولا أدري إذا كان كونساييل قد اهتم بنصيحتي ، ولكني رأيتته مستغرقاً في التفكير ، ولعله كان يحسب كم تحوى أربعون ميلاً على ما مقداره ٠,٠٧ ، من البوصة . أما أنا فقد استأنفت ملاحظة هذه الظاهرة .

وقد ظلت الغواصة ساعات عديدة تشق غمار هذا البحر اللبني . ولاحظت أنها تنساب بغير صوت على هذه المياه الصابونية ، وكأنما هي طافية فوق دوامات الزبد التي تتولد من التيارات البحرية و التيارات العكسية في بعض الخلجان .

وحوالى منتصف الليل استردت المياه لونها العادي فجأة . واكن السماء كانت تبدو خلفنا حتى حواف الأفق وهي تعكس بياض الماء مدة طويلة كأنها مشربة بذلك الضوء الخفيف المنساب من الشفق الشمالى .

الفصل السادس والعشرون

اقترح جديد للربان نيمو

عند ما عادت الغواصة إلى سطح الماء شمالي خط العرض ٩٠,٤ درجة في ظهيرة اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير ، كان في مقلدورنا أن نشاهد اليابسة على مسافة ثمانية أميال غرباً . وكان أول ما رأيته سلسلة من الجبال على ارتفاع ألقى قدم بدت غريبة التكوين وقد علمت بعد تحديد موقفنا أننا بالقرب من جزيرة سيلان أى اللؤلؤة المعلقة في أذن شبه الجزيرة الهندية .

وعدت إلى المكتبة طلباً لكتاب عن هذه الجزيرة التي تعتبر من أخصب بقاع العالم . وفي تلك اللحظة أقبل الربان نيمو والضابط الأول وقد ألقى أوهما نظرة على الخارطة ثم استدار نحوي قائلاً :

— إن جزيرة سيلان ذات شهرة كبيرة في صيد اللؤلؤ . فهل تحب أن ترى إحدى عمليات الصيد يا مسيو أرونالكس ؟
— هذا ما أتوق إليه يا كابتن .

— حسناً . هذا أمر سهل . وإذا كنا سنرى مصايد اللؤلؤ فلن نرى الصيادين لأن موسم الصيد السنوي لم يبدأ بعد . ولكن هذا لا يهم . سأمر بالاتجاه إلى خليج مانار حيث نصل إليه أثناء الليل .

وفاه الربان بكلمات قليلة إلى الضابط الأول الذي انصرف على الأثر وسرعان ما عادت الغواصة إلى جوف الماء ودل مؤشر الغوص أننا أمسينا على عمق ثلاثين قدماً .

وقال الربان نيمو :

— إن مصايد اللؤلؤ يا بروفيسور موجودة في خليج البنغال وفي المحيط

الهندي وفي بحار الصين واليابان وفي خلجان بناما وكاليفورنيا ولكن ليس بين هذه المصايد كلها ما يماثل سيلان في إنتاجها . سنصل إليها قبل الموسم بقليل ، لأن الغواصين لا يجتمعون في خليج مانار إلا في شهر مارس وهناك ينهكون في عمليات الصيد. الممتدة مدة ثلاثين يوماً ؛ وعندهم أسطول من زوارق الصيد تبلغ ثلاثمائة زورق لكل منها عشرة مجدفين وعشرة غواصين . وينقسم هؤلاء إلى مجموعتين تتناوبان الغوص في البحر إلى عمق ثلاث عشرة ياردة تقريباً بواسطة أحجار ثقيلة يمسكون بها بين أقدامهم وبحبال غليظة تشدهم إلى الزورق .

فقلت :

- إذن فوسائل الصيد البدائية لا تزال سائدة هنا .
- نعم . وذلك رغم أن هذه المصايد تمتلكها إنجلترا التي تعتبر من أوائل الدول صناعة .
- ولكن يبدو لي على كل حال أن ملابس الغوص التي تستعملها هنا . أعظم نفعاً في مثل هذه العمليات .
- نعم . لأن الغواصين المساكين لا يستطيعون البقاء طويلاً تحت سطح الماء وقد ذكر الرحالة الإنجليزي برستيال أنه رأى في رحلته إلى سيلان أحد سكانها من قبيلة كافري استطاع البقاء تحت سطح الماء مدة خمس دقائق . ولكني لا أكاد أصدق هذا . فأنا أعرف أن هناك غواصين يستطيعون البقاء تحت سطح الماء مدة ٥٧ ثانية وقد يستطيع بعضهم البقاء ٨٧ ثانية ولكن هذه كلها حالات نادرة كما أن هؤلاء الغواصين المساكين تنزف الدماء من آذانهم وأنوفهم عند عودتهم إلى الزوارق واعتقادى أن الفترة العادية لبقاء الغواص تحت الماء هي نصف دقيقة يسرع أثناءها في ملء كيسه الصغير بمحار اللؤلؤ . ولا يحيا هؤلاء الغواصون حتى سن متأخرة ؛ كما أنهم يصابون بضعف البصر . وتتقرح عيونهم . وتتفتح جلودهم بالقرح الصديدية وكثيراً ما يصابون في الأعماق بالصرع .

فقلت :

— آه . إنها مهنة البؤس إذن . ولا فائدة منها إلا إرضاء نزعات الزهو والكبرياء في بعض النفوس . ولكن أخبرني يا كابتن ما هي كمية المحار التي يظفر بها الزورق الواحد في اليوم ؟

— من أربعين إلى خمسين ألف محارة . وقد قيل إن الحكومة الإنجليزية استطاعت بواسطة غواصيها في عام ١٨١٤ ، عند ما كانت تقوم بعمليات صيد اللؤلؤ لحسابها أن تحصل على ستة وسبعين مليون محارة .
— ولكن لا بد أن هؤلاء الغواصين يكافأون بسخاء .

— قلما يحدث هذا يا بروفيسور ، إن أجر الغواص في بناما دولار واحد في الأسبوع . والغواص عادة يظفر بمنحة إضافية مقدارها قرش عن كل محارة توجد بداخلها حبة لؤلؤة . وأكثر المحار الذي يصيدونه خلو من اللؤلؤ .

— قرش واحد للغواص المسكين الذي يجلب الثراء لسيدة ؟ هذا شنيع !
— هكذا سترى يا بروفيسور مع صاحبك شاطئ المحار في مثار .
وإذا تصادف ووجدنا هناك بعض الغواصين المبكرين فسوف تراهم أثناء العمل .

— موافق يا كابتن .

— ولكن ألا تخاف نمور البحر يامسيو أروناكس ؟
— أعترف يا كابتن أني لم آلف بعد هذا النوع من الوحوش البحرية .
— لقد اعتدنا رؤيتها ، وستعتاد أنت أيضاً عليها بمرور الزمن ، وأيا كان الأمر فسنكون مسلحين وربما قمنا أثناء الطريق بصيد هذه النور البحرية والآن . . . إلى اللقاء مبكراً صباح الغد .

وانصرف الربان نيمو بعد أن فاه بكلماته تلك في غير مبالاة .
والآن . . . إذا أنت دعيت للاشتراك في صيد اللؤلؤة بجبال سويسرا ،

فإنك تقول حسناً سنذهب لصيد الدببة غداً وإذا دعيت لصيد الأسد في جبال الأطلس أو النمر في غابات الهند قلت : « . . . يبدو أننا سنذهب لصيد الأسود والنمر ، « ولكن إذا دعيت لصيد نمر البحر في موطنها فإنك على الأرجح ستطلب مهلة للتفكير قبل قبول الدعوة .

أما عن نفسى . فقد مسحت يدي على جيبى الذى تفصد بقطرات من العرق البارد وقلت لنفسى :

– ينبغي أن أفكر على مهل . إن صيد القناوس « كلاب الماء » في غابات الأعماق كما فعلنا في غابة كريسيو المائىة شىء . . . ولكن السير في قاع البحر وأنت واثق من ملاقاته نمره شىء آخر . أنا أعرف أنه في بعض المناطق ولا سيما في جزائر اندامان لا يتردد الزوج في مهاجمة هذه النمر بالخنجر والأنشطة . ولكنى أعرف أيضاً أن الكثيرين ممن التقوا بهذا الوحش لم يرجعوا أحياء . فضلاً عن هذا فأنا لست زنجياً باسلاً . وحتى لو كتته فلن يستغرب منى بعض التردد .

وبدأت أحلم بنمر البحر متخيلاً الأشداق الهائلة المسلحة بصفوف متراكبة من الأسنان القادرة على قصم الرجل نصفين ولقد شعرت لمجرد الخيال بألم في ظهري . وعندئذ لم أستطع أن أهضم لهجة الربان الهادئة وهو يوجه إلى تلك الدعوة وكأنما يدعونى لمطاردة ثعلب مسلم وعدت أقول لنفسى :

– حسناً . إن كونساييل لن يقبل هذه الدعوة قط وهذه حجة أتذرع بها للتخلص من مصاحبة الربان في هذه الرحلة .

أما عن نيد لاند فينبغى أن أعترف بأنى لم أكن واثقاً من حرصه وحذره . فإن للمخاطر مهما عظمت إغراء شديداً لطبيعته المحاربة .

واستأنفت مطالعة الكتاب الموضوع عن سيلان ولكنى كنت أقلب صفحاته بطريقة آلية فقد كنت أرى أشداقاً هائلة مفتوحة بين سطوره .

وعندئذ أقبل كونساييل ونيد لاند في هدوء بل في مرح كأنهما لا يعرفان
ماذا ينتظرهما .

وقال نيد لاند :

– مرحى يا بروفيسور . . لقد عرض علينا الربان – قاتله الله – اقتراحاً
لطيفاً .

فقلت :

– آه . . إذن فقد عرفت . .

فقاطعتني كونساييل قائلاً :

– نعم لقد دعانا الربان غداً مع سيدي البروفيسور لزيارة مصائد
اللؤلؤ في سيلان . وكان رقيقاً في دعوته كأى سيد مهذب .

– ألم يذكر لكما شيئاً آخر .

فقال نيد لاند :

– لا ياسيدي . ولكنه ذكر أنه تحدث معك عن هذه الرحلة .

– نعم . حدثني ، إذن لم يذكر لكما شيئاً عن . . .

– لم يذكر شيئاً ياسيدي العالم الطبيعي . أنت ذاهب معنا . . أليس

كذلك ؟

– أنا . آه . . طبعاً . . أعتقد أن هذه الدعوة مناسبة لك يانيد .

– نعم ستكون رحلة غريبة جداً .

فقلت بلهجة معنوية .

– وربما شديدة الخطر أيضاً .

فقال نيد لاند :

– شديدة الخطر . أتكون رحلة بسيطة إلى شاطئ المحار شديدة الخطر .

وكان واضحاً أن الربان نيمو لم يستصوب أن يثير لدى صاحبي فكرة

نور البحر . فنظرت إليهما في قلق وكأني أرى بعض أطرافهما مفقودة

فعلا . فهل يجب أن أحذرهما . نعم بالتأكيد . . . ولكنى لم أدر كيف أفاتحهما
في هذا الأمر . وقال كونسايلى :

— هل يتكرم سيدى ويذكر لنا بعض التفاصيل عن مصايد اللؤلؤ .
— أحدثكما عن طريقة الصيد . أم عن الأحداث التى . . .
فقال نيد لاند :

— عن طريقة الصيد . إذ يحسن قبل أن تنتقل إلى اليابسة أن نعرف شيئاً
عن الموضوع عامة .

— حسن جداً . أجلسا سأحدثكما عما قرأت الآن .
وبعد أن على جلسا الأريكة الوثيرة .
قال نيد لاند :

— سيدى . ما هى اللؤلؤة .

— إن اللؤلؤة يا صديقى نيد هى فى نظر الشاعر قطرة من دموع المحيط .
وفى نظر الشرقيين قطرة متحجرة من الندى . وفى نظر السيدات حلية
بيضاوية الشكل لها بريق الزجاج مصنوعة من مادة « عرق اللؤلؤ » وهى تزين
أصابعهن وأعناقهن وآذانهن وهى فى نظر الكيميائى مزيج من فوسفات
وكربون الجير مع قليل من الهلام . وأخيراً هى فى نظر العالم الطبيعى مجرد
عصارة عضوية فاسدة تنتج عرق اللؤلؤ فى أصداف معينة .

وبعد أن ذكر كونسايلى كعادته الفرع والرتبة التى تنتمى إليها الأحياء
البحرية المكونة للؤلؤ استطردت أقول :

— كل هذه الأحياء البحرية الدقيقة التى تفرز تلك العصارة ، أو تلك
المادة البيضاء أو الزرقاء أو المائلة للزرقة أو البنفسجية التى تبطن جدران المحار
قادرة على إنتاج حبات اللؤلؤ .

— حتى « الماصل أيضاً » .

— نعم . حتى (الماصل) الموجود فى بعض أنهار اسكتلندا أو ويلز ،

وإيرلاندا ، وساكونيا ، وبوهيميا وفرنسا .

فقال الكندي :

– حسنا . سأهتم بهذا الأمر في المستقبل .

فاسترسلت في بياناتي قائلا :

– ولكن النوع الخاص من الحيوانات البحرية اللاقضية التي ترسب اللؤلؤ هي محار اللؤلؤ المعروف باسم ميلياجرينا مارجونيفيرا أى البنادين الثمين • وما حبة اللؤلؤ إلا مجرد عرق لؤلؤي ترسب في شكل بيضاوي ، وتلتصق اللؤلؤة بداخل الصدفة وهي لينة القوام ولكنها تختلط دائماً في داخلها بمادة صلبة «بيوضة عقيم» أوبحبة من الرمل لتكون بمثابة النواة التي ترسب حولها عاماً بعد عام في طبقات رقيقة كروية .

فقال كونسایل :

– هل يمكن أن يوجد عدد من اللؤلؤ في محارة واحدة .

– نعم . وقد قيل إنه وجد في إحدى المحارات مائة وخمسون نمرأ بحرياً .
وإن كنت لا أصدق هذا .

فصاح نيد لا ند :

– نمرأ بحرياً !

فهتفت قائلاً بسرعة :

– هل قلت نمرأ بحرياً ؟ أعني مائة وخمسين حبة لؤلؤ . أما النور البحرية فكلام فارغ .

وقال كونسایل .

– نعم . ولكن هل يذكر لنا سيدى الآن كيف يستخرجون اللؤلؤ ؟

– إنهم يفعلون هذا بوسائل مختلفة .. وفي أحيان كثيرة ينتزع الغواصون اللؤلؤ الملتصق بالمحار بواسطة الملاقط . ولكن الطريقة المتبعة عادة هي فرش المحار فوق حضير من العشب النامي على الشاطئ ، وبهذه الطريقة تموت المحارات في الهواء الطلق . وبعد عشرة أيام تكون قد تحللت بما فيه الكفاية فتوضع

في مستودعات من مياه البحر . ثم تفتح وتغسل . وعندئذ يبدأ دور الفرازين المزدوج . فهم أولا يفصلون مراقده اللؤلؤ المعروفة في الأسواق التجارية باسم الفضة الصافية « الصدف الأبيض والصدف الأسود » ثم يأخذون قلب المحارة ويغسلونها ويغربلونها لاستخلاص أصغر حبات اللؤلؤ

فقال كونسایل :

– وهل تختلف أسعار اللؤلؤ باختلاف أحجامه . .

– ليس باختلاف أحجامه فقط . بل كذلك باختلاف أشكاله وألوانه وتلألؤه . أعنى ذلك التباين اللوني الذي يجعله خالبا للنظر . وأن أجمل أنواع اللؤلؤ هو المعروف باسم « اللآلىء العذراء » فهي الوحيدة المكونة من نسيج اللافقریات . وهي بيضاء . وأحيانا غير شفافة . ولكنها في أحيان أخرى تكون لها شفافية جواهر عين القط « أحجار متعددة الألوان » وشكلها عادة كروى أو بيضاوى ، فإذا كانت كروية صيغت منها الأساور . وإذا كانت بيضاوية فهي أقراط وعقود . وهي بسبب ارتفاع ثمنها تباع بالحبة الواحدة ٥ أما اللآلىء التي تلتصق بجدران الأصداف . فهي أكثر الأنواع شذوذا أو عدم انتظام في الشكل . وتباع بالوزن . ومن بين أردأ الأصناف النوع المعروف باسم بنور اللؤلؤ وتباع بالكيل وتستخدم في وشى أستار الكنائس :

وقال نيدلاند :

– ولكن عملية فرز اللؤلؤ بالنسبة لحجمه عملية لا شك طويلة شاقة .

لا . إنها تم بواسطة سبعة غرابيل ذات عيون متفاوتة العدد ... فاللآلىء التي تبقى في الغرابيل التي تكون عيونها من عشرين إلى مائة عين هي لآلىء الدرجة الأولى واللآلىء التي لا تسقط من غرابيل عيونها من مائة إلى ثمانمائة هي لآلىء الدرجة الثانية . واللآلىء التي تستخدم لفرزها غرابيل عيونها من ثمانمائة إلى ألف عين هي بنور اللآلىء .

فقال كونسایل :

– هذه طريقة بارعة . وقد فهمت الآن أن فرز وتقسيم اللؤلؤ يتم بطريقة آلية .

والآن هل يستطيع سيدي أن يخبرنا عن مقدار إنتاج شاطي* اللؤلؤ .

– إذا كان علينا أن نصدق ما جاء في هذا الكتاب الذي كنت أقرأه الآن . فإن إنتاج مصائد اللؤلؤ في سيلان يبلغ ثلاثة ملايين (نمر بحري) . فقال كونسایل مصححاً .

– يقصد سيدي فرنك فرنسي ٥

– نعم . نعم . ثلاثة ملايين فرنك . ولكني أعتقد أن إنتاج هذه المصائد قد هبط عما كان من قبل . وكذلك الحال في المصائد الأمريكية التي كان إنتاجها في عهد تشارلس الخامس يساوي أربعة ملايين فرنك في العام . ولكن هبط الآن إلى الثلثين . ويمكننا إجمالاً تقدير إنتاج مصائد اللؤلؤ في العالم بنحو تسعة ملايين فرنك سنوياً .

ولكن . ألم نسمع عن بعض اللآلي* المشهورة التي قيل إنها بيعت بأثمان ضخمة .

– نعم يابني . يقال إن قيصر أهدى سيرفيليا لؤلؤة تساوي أربعة آلاف وثمانمائة جنيه .

وقال نيد لاند :

– لقد سمعت أن سيدة في العصور القديمة كانت تشرب اللؤلؤ مع الحمره .

فتساءل كونسایل :

– أهي كليوباترا ؟

فقال نيد لاند :

– لاشك أنه شيء كريبه .

فقال كونسايل :

– لكنه كان كأساً يساوى ستين ألف جنيه .

فقال نيد لاند وهو يحرك ذراعيه بطريقة تعوزها الثقة في النفس :

– إننى آسف لأننى لم أتزوج تلك السيدة .

فهتف كونسايل :

– نيد لاند . . زوج كليوباترا . .

فأجاب نيد لاند بلهجة جادة :

– لقد كنت يوماً على وشك الزواج يا كونسايل . ولم أكن أنا السبب

في فشل مشروع الزواج بل إنى اشتريت عقداً من اللؤلؤ لفتاتى كيت تنلر ،

ولكنها رغم ذلك تزوجت شخصاً آخر . لا بأس أن ذلك العقد لم يكلفنى على

كل الأحوال أكثر من دولار ونصف . مع هذا أرجو أن تصدقنى يا بروفيسور

إذا قلت إن حبات هذا العقد ما كانت لتنفذ من غربال ذى عشرين عيناً .

فقلت ضاحكاً :

- هذه حبات من اللؤلؤ الصناعى يا نيد . إنها مجرد حبات زجاجية

مطلية من الداخل بمادة زيتية شرقية .

فقال الكندى :

– لاشك أن هذه المادة غالية الثمن .

– بل زهيدة . إنها المادة الفضية المستخرجة من قشور السمك البياض

بعد نزعها في الماء وحفظها في محلول النشادر . إنها زهيدة القيمة جداً .

فقال نيد لاند متفلسفاً :

– لعل هذا إذن سبب زواج كيت تنلر بشخص غيرى .

فقلت :

– إذا عدنا إلى الحديث عن اللالى الثمينة . فلا أعتقد أن هناك ملكاً

لديه لؤلؤة كالتى يملكها الربان نيمو :

فأشار كونساييل إلى جوهرة فاخرة في خزانتها الزجاجية وقال :

— أتعنى هذه . . . ؟

— بالتأكيد . لست مغالياً إذا قلت إنها تساوى مليوني . . .

فأسرع كونساييل يقول :

— فرنك .

فقلت

— نعم . مليوني فرنك . . . وأعتقد أنها لم تكلف الربان أكثر من عملية

التقاطها .

فهتف نيد لاند قائلاً :

— آه . . . من يلدرى أننا لن نلتقى غداً بأخت لها أثناء رحلتنا ؟

فلما أبدى كونساييل شكه قال نيد لاند :

— ولم لا

— لأنه ما قيمة الملايين لنا ونحن في الغواصة .

فقال نيد لاند :

— في الغواصة ؟ لا بل في مكان آخر .

فقال كونساييل هازأ رأسه :

— في مكان آخر .

فقلت :

— إن نيد لاند مصيب في الواقع فإذا أتبع لنا أن نأخذ معنا إلى أوربا

أو أمريكا لؤلؤة تساوى الملايين فلإنها على الأقل . تضفى طابع الصدق على

مغامرتنا هذه وتسبغ عليها قيمة أخرى .

فقال نيد لاند :

— وهذا هو رأي أيضاً .

فقال كونسایل الذى یمیل دائماً إلى الجانب الثقافى .
 - وهل ينطوى الغوص وطلب اللآلى على الخطر .
 فقلت :

- لا . لاسیما إذا اتخذت احتیاطات معينة .
 فقال نید لاند :

- ما هو الخطر المحتمل . إنه لا يعدو أن يكون ابتلاع حفنة من الماء
 المالح .

فقلت وأنا أقلد الزبان نیمو فى صوته المستهتر :
 - أنت على حق يا نید لاند وهذه المناسبة . . هل تخاف نمور
 البحر یا نید ؟
 فقال الكندى :

- أنا . أنا الذى أحترف صید الحیتان ؛ إن مهنتى هى السخرية منها .
 - ولكن . . لن يكون الصيد هذه المرة بالحراب أو أخذها إلى سطح
 السفينة لتقطیع ذیولها بالشواطیر وفتح بطونها وانتزاع قلوبها ثم إلقاء بقاياها
 إلى البحر .
 - هل تعنى إذن

- نعم . تماماً .

- فى الماء ؟

- نعم فى الماء .

- یاللسماء .. إنك تعرف یاسیدى أن لهذه الوحوش تصرفات غريبة
 وأحابیل خادعة . . ولا بد لها أن تنقلب على بطنها لکی تقضمك .

والواقع أن الكندى فاه بكلمة القضم هذه بلهجة جعلت الدماء تجمد
 فى عروقى . ثم قلت :

- حسنا . . . وأنت يا كونسایل ما رأيك في نمور البحر ؟
- أنا سأكلم سيدي بصراحة .
- فقلت لنفسي : « إذن هناك أمل في عدم اشتراكى في هذه الرحلة »
- وأردف كونسایل قائلا :
- إذا كان سيدي ينوى مهاجمة هذا الوحش فأنا لا أرى سبباً يمنع خادمه من مواجهتها معه .

الفصل السابع والعشرون

لؤلؤة تساوى عشرة ملايين

ولما أسدل الليل أستاره . أويت إلى فراشى واستغرقت في نوم غير مريح .
فقد لعبت نمور البحر في أحلامى دوزاً رئيسياً ولا سيما أن عبارتى «نمور البحر»
و« صلاة الحناز » كان اشتقاقها في اللغة الفرنسية من أصل واحد .

وفي اليوم التالى أيقظنى الخادم الذى خصصه لى الربان نيمو في الساعة
الرابعة صباحاً . فنهضت مسرعاً . وارتديت ملابسى . وذهبت إلى الصالون
حيث وجدت الربان نيمو فى انتظارى وقد قال لى :

– هل أنت على استعداد يا مسيو أروناكس ؟

– نعم .

– تفضل لإذن واتبعنى .

– وصاحبى يا كابتن

– إنهما فى انتظارنا .

– هل سترتدى ملابس الغوص .؟

– ليس الآن . لأنى لم أمر بعد باقتراب الغواصة من الشاطئ . وما زالت
هناك مسافة بيننا وبين شاطئ مانار . ولكنى أمرت بأن يكون قارب الغواصة
على استعداد . وسيمضى بنا إلى المكان المحدد لهبوطنا وبذلك توفر مسافة طويلة
وستكون ملابس الغوص معدة على سطحه لكى نرتديها بمجرد البدء فى
رحلتنا تحت سطح الماء .

وصحبنى الربان نيمو إلى السلم المركزى المؤدى إلى سطح الغواصة .
وهناك رأيت نيد لاند وكونسايل مبهجين للرحلة المنتظرة التى يعدون لها

العدة . وكان خمسة من بحارة الغواصة ينتظروننا في القارب الذي كان مشدوداً إلى جانب الغواصة . وقد أمسكوا بالمجاديف .

وكان الليل لم يزل مظلماً . والسحب الملبدة تغطي وجه السماء فلا يكاد يبلو نجم واحد . ونظرت شطر اليابسة . فلم أبصر غير خط مبهم يضم ثلاثة أرباع الأفق من الجنوب الغربي إلى الشمال الغربي . وكانت الغواصة قد اجتازت أثناء الليل الشاطئ الغربي لجزيرة سيلان وأصبحت الآن غربي الخليج المكون من الأرض ومن جزيرة مانار .

وهناك . . تحت المياه القائمة . يمتد شاطئ المحار . . وهو حقل من اللؤلؤ لا ينضب له معين يزيد طوله على عشرين ميلاً .

واتخذنا « الربان نيمو وكونسايل ونيد لاند وأنا » أماكننا في القارب الذي لم يلبث أن تحرك بنا واتجهنا جنوباً . وكان البحارة يجدفون في غير تعجل . فقد لاحظت أن ضرباتهم القوية كانت تتوالى كل عشر ثوان طبقاً للمتبع في البحرية وخيم الصمت علينا . ترى فيم كان الربان نيمو يفكر؟ لعله كان يفكر في اليابسة التي كنا نقرب منها . والتي وجدها جد قريية . بعكس نيد لاند الذي كان يراها أبعد ما تكون .

وفي الساعة السادسة وضح فجأة نور الصباح بتلك السرعة التي تتميز بها المناطق الاستوائية . وهي المناطق التي لا تعرف فجرأ ولا شفقاً . ورأيت اليابسة بوضوح وقد تناثرت فيها الأشجار هنا وهناك . حتى إذا دنا القارب من جزيرة مانار نهض الربان وراح يرقب سطح البحر . وبإشارة منه ألقى المرساة . ولم تهبط سوى مسافة يسيرة لأن القاع لم يكن بعيد عن السطح بأكثر من ياردة . وكنا في أكثر المواضع ارتفاعاً في شاطئ المحار ، وقال الربان نيمو :

— ها نحن الآن هنا أخيراً يا مسيو أرونالكس وفي خلال شهر ستكثر الزوارق في هذا المكان . وهذه المياه التي يفتحم الغواصون مجاهلها ببسالة . وموضع هذا الخليج ملائم لكل الملاءمة لأغراض الصيد فهو محجوب عن

الرياح الهوج والبحر قلما يثور فيه . مما يجعله أصح ما يكون لعمليات الصيد والآن سترتدى ملابس الغوص ثم نبدأ مهمتنا .

وشرعت في ارتداء ملابس الغوص الثقيلة بمعاونة البحارة . وكذلك فعل الربان نيمو وصاحباي . ولكن كان مقررأ ألايصحبنا أحد من بحارة الغواصة .

وسرعان ما غلدونا سجناء حتى الرقاب داخل الملابس المطاطية . ثم شدت أجهزة التنفس على ظهورنا ولم تكن بحاجة إلى أجهزة رومكروف للإضاءة . وقد سألت الربان نيمو عنها قبل أن أدخل رأسي في الخوذة النحاسية فقال :

– لن نكون بحاجة إليها . لأننا لن نغوص إلى أعماق بعيدة . وسوف تزودنا أشعة الشمس بما يكفينا من الضوء . ثم إنه ليس من الحكمة أن نستخدم المصابيح الكهربائية داخل هذه المياه لأن ضوءها الساطع قد يجتذب بعض سكان هذه المنطقة الخطرين .

وفيما كان الربان نيمو ينطق بهذه الكلمات . التفت أنا إلى كونسابل ونيد لاند ، فإذا هما قد ادخلا رأسيهما في الخوذتين النحاسيه . فلم يعد أحدهما يستطيع أن يسمع أو يجيب :

وكان ثمة سؤال أخير في جعبي للربان نيمو فقلت :

– أين أسلحتنا ؟ أين بنادقنا ؟

– بنادقنا ؟ لماذا ؟ ألا يهاجم هواة الصيد في الجبال الدبية بالخناجر ؟ أليس السلاح الصلب أضمن من الرصاص . هذا نصل قوى ضعه في حزامك . وسنبدا الآن .

ونظرت إلى صاحبي فوجدتهما مسلحين مثلنا بل رأيت نيد لاند يشحذ حربة كبيرة كان قد وضعها في القارب قبل أن يتعد عن الغواصة .

وحذوت حذو الربان . فتركت البحارة يضعون على رأسي الخوذة

الحوذة المعدنية الثقيلة وسرعان ما بدا مستودع الهواء في العمل . وعلى أثر ذلك هبطنا إلى عمق خمسة أقدام من الماء على أرض رملية صلبة . وأشار لنا الربان نيمو بيده فتبعناه سائرين على أرض منحدره حتى اختفينا تحت الأمواج ، وعندئذ زالت غنى الحواطر التي سبق أن أثارت القلق في نفسى ، وأحسست بهلوه عجيب وضاعفت سهولة حركتى من ثقى في نفسى . واستأثرت بلبى غرابة المناظر حولى .

وكانت الشمس حينئذ ترسل ضوءاً كافياً تحت سطح الماء ومن ثم كانت أقل الأشياء تبدو بوضوح ؛ وبعد مسيرة عشر دقائق أصبحنا على عمق ستة عشر قدماً تحت سطح الماء . وفوق أرض مستوية تقريباً .

وفى نحو الساعة السابعة وصلنا أخيراً إلى شاطئ « النادين » حيث يتوالد محار اللؤلؤ بالملايين . فإن هذه اللافقرات الثمينة تلتصق بالصخور حيث تشدها إليها بقوة أنسجة بنية اللون تمنعها من الحركة . ومحارة هذا النوع تعتبر أدنا فى ميزان الطبيعة من محارات « الماصل » التى لم تحرمها الطبيعة من حرية الحركة

أما (البنادين) المعروف باسم ميلياجرنيا . أو عرق اللؤلؤ . أو المحارة ذات الغلافين المتساويين فهى صدفة مستديرة سميكة ذات سطح خشن . وبعض هذه المحارات تكون مورقة ومميزة بشرائط خضراء تتألق فى أعلاها . وهذا النوع هو المحار الصغير . أما النوع الآخر الأسود ذو السطح الخشن . فإنه يبلغ من العمر عشر سنوات أو أكثر ويبلغ طول الواحدة منه نحو خمس بوصات

وأشار الربان نيمو إلى هذا الموطن الغنى بمحار اللؤلؤ فأدركت أنه منجم لا ينضب له معين حقاً . ذلك لأن قوى الطبيعة الخلاقة أعظم من غرائز الإنسان الهدامة . وقد أسرع نيد لاند وهو من أوفى الناس لغرائزه - إلى ملء الشبكة التى كان يحملها إلى جانبه بأجود أنواع المحار .

ولم يكن في مقدورنا أن نتوقف - إذ كان علينا أن نتابع الربان الذي بدا أنه يختار ممرات معروفة لديه . وبدأت الأرض ترتفع قليلا وكنت أحيانا أرفع يدي فتخرج من سطح الماء . ثم عادت الأرض إلى الانحدار في غير انتظام وكنا أحيانا ندور حول مجموعة من الصخور العالية على هيئة الأدرامات وفي بعض المناطق المظلمة كنا نرى السلاحف البحرية الكبيرة تتراجع على على قوائمها الخلفية كأنها آلات حربية وتحقق إلينا بنظرات ثابتة . أما تحت أقدامنا فكانت تزحف الديدان البحرية وغيرها من عجائب الأحياء المائية .

وفي تلك اللحظة تفتح أمامنا ما يشبه الكهف الواسع . وكان محفورا بين أكوام من الصخور على صورة بديعة ومكسوا بأعشاب البحر وقد بدا لي هذا الكهف الواسع مظلماً في أول الأمر . وكانت أشعة الشمس تتلاشى فيه تدريجياً حتى أصبح ضوءها الواضح غائماً .

ودخل الربان نيمو أولاً ثم تبعناه ولم ألبث أن اعتادت عيناي الرؤيا في هذا الظلام النسبي ، فرأيت أن أسقف هذا الكهف الضخم شديدة التعرج والالتواء . قامت على أعمدة طبيعية تتركز على قواعد من الجرانيت كأعمدة فن المعمار التوسكاني . ترى لماذا يقودنا الربان الغامض إلى أعماق هذا السرداب المائي . لاشك أني سأعرف السبب وشيكاً .

وبعد أن هبطنا في منحدر شديد . وصلنا إلى قاع بئر مستديرة . وهناك توقف الربان نيمو وأشار إلى شيء لم نلاحظه من قبل .

كانت محارة ذات حجم هائل . وصدفة مغلقة ضخمة ثلاثية الشكل . أو حوض تعמיד مقفل يحتوي على بحيرة من الماء المقدس . أو وعاء يزيد عرضه على ياردتين وهو بذلك أكبر من الصدفة الموجودة في صالون الغواصة .

واقتربت من هذه المحارة التي لا مثيل لها . كانت ملتصقة بأنسجتها إلى صخرة جرانيتية . هنا كانت تنمو في عزلة داخل مياه هذا القبو الهادئ . وقدرت وزن هذه المحارة الضخمة بنحو ٦٠٠ رطل وهي في هذه الحالة

تحتوى على ما لا يتقل عن ثلاثين رطلا من اللحم . ولا تستطيع معدة وحش بحرى هائل أن تهضم جزءاً منها .

وكان واضحاً أن الربان نيمو يعلم بوجود هذه المحارة الضخمة ، وأن هذه لم تكن زيارته الأولى لها وخطر لى أنه لم يصحبنا إلى هذا المكان إلا ليطلعنا على إحدى عجائب الطبيعة . ولكنى كنت مخطئاً فقد تبين أن الربان نيمو لم يكن يهتم بالكهف المائى قدر اهتمامه بالمحارة الكبيرة .

كان غلافا المحارة نصف مفتوحين ، فذهب الربان نيمو إليها ودس بينهما خنجره لمنعهما من الانطباق ثم رفع بيده كساءها الغشائى المحيط بها والذي يكون دثاراً كاملاً للمحارة .

ورأيت بين طبقاتها الداخلية لؤلؤة تبلغ فى حجمها جوزة الهند . وكانت بشكلها البيضاضوى وتمام صفاتها ، وروعة لألأنها درة لا تقدر بثمن . ودفعنى الفضول إلى مد يدي لكى أتناولها وأزنها وأتحسسها ، ولكن الربان منعى بإشارة من يده . ثم جذب الخنجر بحركة سريعة جعلت الغلافين ينطبقان .

وأدركت عندئذ هدف الربان نيمو . فإنه يترك هذه المحارة اللؤلؤية فى كسائها الطبيعى لكى تنمو فى هدوء . فى كل عام يزيد الإفراز ويضيف طبقة جديدة عليها . ولا يعرف غير الربان نيمو سر هذا الكهف المائى وثمرته الطبيعية النادرة التى تنضج بهدوء . وهو وحده الذى يرهاها - إن صح هذا التعبير - لكى ينقلها يوماً إلى متحفه الفاخر . بل لعله يحنوحذو الهنود والصينيين ، فيحدد حجم هذه المحارة بوضع قطع من الزجاج أو المعدن لكى تغلف بطبقات المادة اللؤلؤية تدريجياً . وعلى أى حال فإنى إذا قارنت هذه اللؤلؤة بما أعرفه من طرازها وبما شاهدته متألماً فى مجموعة الربان نيمو ، كان ثمنها لا يقل عن عشرة ملايين فرنك . فالواقع أنها إحدى عجائب الطبيعة الرائعة وليست مجرد جوهرة فاخرة للزينة . لأنى لا أعرف أذنأ نسائية يمكن أن تحتمل هذه اللؤلؤة .

وبعد أن فرغنا من زيارة هذه الأعجوبة الثمينة . غادر الربان نيمو الكهف البحري . وعدنا إلى شاطئ اللؤلؤ مرة أخرى حيث كانت المياه صافية لم تتعكر بعد بأعمال الغواصين والصيادين .

وسرنا فرادى . . نتوقف أو نسير حسبما يحلو لكل منا . وقد نسيت من ناحيتي كل المخاطر التي كان خيالي يجسمها بلاهة مني . وذلك عند ما بدأ قاع البحر يقترّب من السطح . ثم لم ألبث أن ارتفع رأسي فوق مستوى الماء . وانضمّ كونساييل إلى . ثم وضع قناعه الزجاجي أمام قناعي وحياني بعينه . ولكن تلك الهضبة المرتفعة لم تزد عن بضع ياردات طولاً . إذ سرعان ما عدنا إلى جوف الماء أو إلى موطننا المائي وفي ظني أفي محق في هذه التسمية .

وبعد عشر دقائق ، توقف الربان نيمو فجأة . وخطر لي أنه يتوقف للراحة قبل البدء في طريق العودة . ولكنني أخطأت التقدير ، كما أن وقوفنا هذه المرة لم يكن له علاقة بوحش بحري بل بإنسان حي . . بهندي أسود . . غواص . بائس . . جاء ولا شك لجنّي بعض المحصول قبل الموسم . ولحمت قاع زورقه راسياً على مسافة بضعة أقدام فوق رأسه . ورأيت يغوص ثم يطفو مرة بعد مرة وكان ثمة حجر منحوت على شكل (قمع السكر) بين قدميه مشدود إلى الزورق بجبل . وكان الحجر يعينه على الغوص بسهولة وكانت هذه كل أدواته للغوص . ورأيت حين وصل إلى القاع على عمق ست ياردات يركع على ركبتيه ويملأ الكيس بالمحار اللؤلؤي كيفما يكون . ثم يطفوا ويفرغ الكيس في الزورق ويعيد وضع الحجر بين قدميه ثم يكرر هذه العملية التي لا تكاد تستغرق نصف دقيقة .

ولم يبصرنا الغواص لأن ظل الصخرة حجبتنا عنه ، وفوق هذا كيف يتسنى لهندي مسكين أن يتصور وجود رجال أمثاله تحت سطح الماء يراقبون حركاته . ولا يغفلون عن شيء من عمله .

وصعد الرجل ثم غاص مرات عديدة ولم يكن يحصل في كل غطسة على

أكثر من عشر محارات إذ كان مضطراً إلى انتزاعها من الشاطئ الذى شدت إليه بأنسجتها القوية . ترى كم واحدة من هذه المحارات التى يقامر من أجلها بحياته تحتوى على اللؤلؤ .

وجعلت أراقبه بانتباه شديد . فرأيتَه يقوم بالعمل فى انتظام آلى . ولم يبد ثمة خطر يهدده مدى نصف ساعة حتى استهوانى هذا المشهد الممتع لصيد اللؤلؤ . ولكنى لم ألبث أن فوجئت أثناء ركوع الصياد لجمع المحار بروئيه وهو يأتى بحركة تم عن الفرع وما لبث أن نهض ووثب للوصول إلى سطح الماء .

وأدركت سر خوفه حين رأيت ظلاً ضخماً يبدو فوق الغواص التمس . كان ظل نمر بحرى هائل « قرش » يقترب متحفزاً بعينين كالنار . وبفكين مفتوحين . ووقفت لا أريم وقد انعقد لسانى من فرط الرعب . كان الوحش الرهيب يندفع بضربة من زعنفته نحو الهنذى الذى ارتمى على جانبه متحاشياً أسنان النمر ولكن لم يستطع النجاة من ذيله الذى طرحه بضربة فوق صدره على الأرض .

لم يستغرق هذا المشهد سوى ثوان معدودات استدار النمر بعدها إلى تكرار الهجوم . ثم انقلب على ظهره استعداداً لقصم الغواص شطرين وإذ ذاك شعرت بالربان نيمو وكان قريباً منى ينهض فجأة والخنجر بيده ويتقدم رأساً إلى الوحش للالتحام معه وجهاً لوجه

وفى اللحظة التى أوصلك النمر فيها أن يقصم الغواص المسكين لمح ذلك الغريم الحديد فاسترد وضعه الطبيعى . واتجه نحوه سريعاً .

ومازلت حتى اليوم أذكر صورة الربان نيمو فى تلك اللحظة الحاسمة . . كان واقفاً فى شموخ وبرود ينتظر النمر المهاجم . فلما اندفع إليه راغ الربان بخفة رائعة متفادياً الصدمة . ثم طعن بطن الوحش بخنجره ولم تكن هذه هى النهاية لأن معركة مروعة دارت على الأثر . لقد اضطرم النمر غضباً إن صح

هذا التعبير وتدفقت الدماء كالينابيع من جراحه فصبغت البحر باللون الأحمر . ولم أستطع في ذلك السائل المعتم أن أرى شيئاً حتى صفا لونه قليلاً . وعندئذ أبصرت الربان الباسل ممسكاً بإحدى زعانف النمر البحرى وهو يصرعه بقوة ويمزق جسمه بطعنات من خنجره . دون أن يستطيع الوصول إلى قلبه حيث تكون الطعنات قاتلة . وكان الوحش في صراعه قد أثار دوامات من الماء حتى لقد خشيت أن تلقى بي على الأرض .

وأردت أن أخف لنجاة الربان . ولكنى وجدت نفسى مسمرأ في مكاني لفرط النزغ .

وأخذت أراقب المشهد بنظرات زائغة . ولم ألبث أن رأيت وجه المعركة بتغير عند ما وقع الربان على الأرض بسبب عنف حركات الوحش الضخم النائر . ثم إذا الأشدق الرهيبه تنفتح وخيل إلى أن الربان قد انتهى لولا سرعة يديه نيد لاندى الذى اندفع إلى الوحش والحربة في يده . فضعنه بسنها الفتاك وسرعان ما اصطبغت الأمواج بالدماء ، واصطخبت تحت ضربات الوحش الذى كان يلطمها في هياج يجل عن الوصف . ولم يخطئ نيد لاندى إصابة الهدف فكانت ضربته هى القاضية ، ذلك أن الإصابة جاءت هذه المرة في القلب وجعلت حركات الوحش أقرب إلى تقلصات الموت . ومع ذلك فقد ألفت حركة منها بكونسائل على الأرض .

هكذا أنقذ نيد لاندى الربان الذى نهض سالماً وأسرع إلى الغواص الهندى فقطع بسرعة بالغة الحبال التى تربطه بالحجر وحمله بين ذراعيه واندفع إلى سطح الماء ونحن الثلاثة في إثره بعد أن نجونا بمعجزة ، ثم وصلنا إلى زورق الغواص .

وركز الربان نيمو عنايته أولاً لإعادة الغواص البائس إلى الحياة . ولم أستطع أن أعرف هل سينجح في محاولته ، ولكنى كنت أرجو هذا ، لأن الرجل لم يمكث تحت سطح الماء فترة طويلة . ولكن كان يحتمل أن تكون

الضربة التي أصابته من ذيل الوحش قد قضت عليه - ومن حسن الحظ أني رأيت الغريق يسترد وعيه بفضل تدليك الربان وكونسايل له بقوة . ففتح عينيه . وشد ما كان عجبه بل فزعه وهو يرى هذه الرؤوس النحاسية الأربعة منحنية فوقه . ولا شك أن إحساسه هذا قد تضاعف عند ما تناول الربان نيمو من جيبه كيساً من اللآلي ووضعها في يده الرجل . وقُبِلَتْ هذه الهدية الرائعة المقدمة من ملك البحر لرجل فقير من سكان سيلان بيد مرتعدة . وكانت نظراته الخائفة تدل على أنه لا يعرف إلى أي نوع من الكائنات البشرية السامية هو مدين بحياته وراثته .

وعدنا بإشارة من الربان إلى شاطئ اللؤلؤ . ومنه سرنا في نفس الطريق عائدين إلى قاربنا فوصلنا إليه في نصف ساعة .

وما أن صعدنا إليه حتى ساعدنا بحارة الغواصة الخمسة على خلع ملابس الغوص . وكانت أول كلمات الربان نيمو موجهة إلى نيد لاند . إذ قال له :

- شكراً يا لاند . .

- هذه هي طريقي في الاعتراف بالجميل وكنت مديناً لك يا كابتن .

فارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه الربان . ولم يزد عن قوله . :

- إلى الغواصة .

وطار الزورق على سطح الماء . وبعد دقائق صادفنا جثة نمر البحر طافية

فوق الماء .

وعرفت من اللون الأسود الذي يبلو في أطراف زعانفه أنه من نوع نمور البحر الوحشية المعروفة في البحار الهندية باسم « ميلانوبتر » ويبلغ طول هذا النوع أكثر من خمسة وعشرين قدماً . ويحتل فيه الضخم نحو ثلث جسمه . وكان هذا النمر بالغاً . يدل على ذلك صفوف أسنانه الستة النابتة في شدة الأعلى على هيئة مثلث متساوي الأضلاع .

وفيا أنا أتأمل هذه الكتلة الجامدة إذا بنحو عشرة من زملائه تظهر فجأة

حول الزروق ولكنها لم تحفل بنا . وإنما انقضت على جثة زميلها وأخذت
تسابق في نهشها .

وعدنا إلى الغواصة في الساعة الثامنة والنصف صباحاً .

وهناك جعلت أفكر في أحداث رحلتنا هذه إلى شاطئ مانار . وكان
طبيعياً أن ينتهي تفكيري إلى ملاحظتين . الأولى بسالة الربان نيمو الفائقة
والثانية مخاطرته بحياته لإنقاذ حياة رجل آخر . . رجل يمثل الجنس البشري
الذي يهرب الربان منه في أعماق البحار . ومهما يكن دفاعه عن نفسه فإنه
لم يستطع أن يقتل قلبه تماماً .

ولما عبرت له عن رأيي هذا أجابني في صوت لم يخل من تأثير يسير :
- إن هذا الهندي يابروفوسور أحد سكان بلاد مضطهدة وقد كنت
وسأظل حتى آخر لحظة من حياتي واحداً من هؤلاء المضطهدين .

الفصل الثامن والعشرون

البحر الأحمر

اختفت جزيرة سيلان وراء الأفق خلال هذا اليوم . وظلت الغواصة نوتيلوس تنساب بسرعة عشرين ميلا في الساعة بين شبكة القنوات التي تفصل بين جزائر مالديث وجزائر لاكسادفيد •

وعند ما صعدت الغواصة إلى سطح المحيط في اليوم التالي ، وكان يوافق الثلاثين من شهر يناير ، لم يكن ثمة أثر لليابسة على مدى البصر . وكانت وجهتها شطر الشمال الغربي إلى بحر عمان الواقع بين بلاد العرب وشبه الجزيرة الهندية وفيه ينساب تيار الخليج الفارسي •

وكان واضحا أن هذا البحر بلا مخرج من الناحية الأخرى . فإلى أين يمضي بنا الربان نيمو . لم أستطع أن أعرف . وغلب الفضول على نيد لاند فسألني في ذلك اليوم عن وجهتنا فقلت له :

— إننا نمضي إلى حيث يشاء الربان يا نيد •

— لن نذهب بعيداً . فليس للخليج الفارسي مخرج من الناحية الأخرى إذا دخلنا فلن نلبث أن نعود منه . .

— حسنا . لا بد من هذا يا نيد لاند . وإذا أراد الربان بعد زيارتنا للخليج الفارسي ، أن نطرق البحر الأحمر ، فهناك مضائق باب المنذب نجتازها إليه . فقال نيد لاند :

— لست بحاجة إلى القول يا سيدى أن البحر الأحمر مغلق كالخليج . لأن قناة السويس لم يتم حفرها بعد وحتى لو تم ذلك فإن غواصة عجيبة كهذه لا تستطيع أن تغامر في هذه الممرات المائية الممتلئة بالسود ؛ وإذن فإن البحر الأحمر ليس حتى اليوم هو الطريق إلى أوربا .

– لم أقل إننا نقصد أوروبا .

– إذن ما هو رأيك ؟

– رأي أن الغواصة بعد زيارتها لشواطئ مصر وبلاد العرب ستعود مرة أخرى إلى المحيط الهندي إما عن طريق قناة موزامبيق أو عن طريق جزائر كومورومكي حيث تصل إلى رأس الرجاء الصالح .

فقال نيد لاند في إصرار عجيب :

– وماذا بعد رأس الرجاء الصالح ؟

– حسناً . سنمضي بعدئذ إلى المحيط الأطلنطي الذي لم نتعرف عليه بعد .
عجباً لك يا نيد . هل سئمت هذه الرحلة تحت سطح الماء ؟ . هل ضقت بكثرة ما رأيت من عجائب الأعماق ؟ أنا شخصياً سيكون أسنى لاحد له إذا انتهت هذه الرحلة التي لم يستمتع بمثلها إلا القليل .

– ولكن . . هل تعرف يا مسيو أروناكس أننا ستم قريباً ثلاثة أشهر ونحن سجناء في هذه الغواصة ! .

– لا يا نيد . لا أعرف . ولا أريد أن أعرف . أنا لا أحصى الأيام أو الساعات .

– ولكن . كيف ستنتهي هذه الرحلة ؟

– ستأتي النهاية في وقتها المناسب . وفوق هذا فليس في مقدورنا أن نفعل شيئاً . وإذن فلا جدوى من هذا الجدل . ولو أياها . جئتني وقلت لي : « هناك فرصة للهرب » لتشاورت معك في الأمر . ولكن هذا لم يحدث وإن شئت الحقيقة ، فلست أعتقد أن الربان نيمو سيغامر يوماً بدخول البحار الأوربية .

وتبين من هذا الحوار القصير أنني أصبحت شديد التعلق بالغواصة مثل صاحبها الربان نيمو :

أما نيد لاند فقد اختتم المحادثة بهذه الكلمات التي فاه بها كأنما يحدث نفسه :

– كل هذا حسن جداً . ولكني أرى أنه حيث تبدأ المتاعب تنتهى
المباهج

وظلت الغواصة أربعة أيام . حتى الثالث من شهر فبراير وهى تسير
في خليج عمان في أعماق مختلفة وبسرعة متفاوتة . وكان يبدو أنها تمضى على
غير هدى وكأنما هى تتردد في اختيار الطريق الذى تسلكه ولكنها لم تتجاوز
أبداً مدار السرطان .

وعند مغادرتنا لبحر عمان . رأينا في لحظة سريعة مدينة مسقط . وهى
أهم المدن في إمارة عمان وقد أعجبت بوضعها القريب بين الجبال الصخرية
السوداء أو المحيطة بها والتي تزيد من مضاعفة بياض منازلها وقلاعها .
ولمحت القباب المستديرة لمساجدها والمآذن الرشيقة والهضاب الخضراء النضرة
ولكنها كانت لحظة عابرة غاصت بعدها نوتيلوس تحت مياه شواطئها الهادئة .
ودارت الغواصة على مسافة ستة أميال حول الشواطئ العربية حيث رأينا
سلطنة حضرموت بسلسلة جبالها المتعرجة وأبنيتها الأثرية . وفي اليوم الخامس
من فبراير دخلنا أخيراً خليج عدن وهو كنفق مستقيم في عنق زجاجة باب
المنذب تتدفق منه مياه المحيط الهندي إلى البحر الأحمر .

وفي اليوم السادس من شهر فبراير كانت الغواصة تسير على مرمى البصر
من مدينة عدن التي تربض على مرتفع مثل جبل طارق . وكان الإنجليز قد
أعادوا تحصينها بعد استيلائهم عليها عام ١٨٣٩ . وقد استطعت أن ألمح
المآذن العظيمة المثلثة الزوايا في هذه المدينة التي كانت من قبل أوفر المدن
التجارية ثراء على هذا الشاطئ طبقاً لما أورده الإدريسي المؤرخ . !

وكان قد دار بذهني أن الربان نيمو حين يصل إلى هذه النقطة سيقفل
عائداً ولكني أخطأت الظن فإنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل . مما أثار دهشتي .
وفي اليوم التالي السابع من شهر فبراير دخلنا مضيق باب المنذب ومعناه
« بوابة الدموع » باللغة العربية . ويبلغ اتساع المضيق عشرين ميلاً . وطواه

ثلاثين ميلاً فقط أى أن الغواصة تستطيع بأقصى سرعتها أن تقطعه في ساعة واحدة . ولكنى لم أتمكن من رؤية اليابسة ولا جزيرة بريم أيضاً التي استغلتها الحكومة الإنجليزية في تحصين موقع عدن . فقد كانت السفن الإنجليزية والفرنسية التي تبخر بين السويس وكلكتا وبومباي وملبورن وبوربون ومورميوس ، تشق طريقها بكثرة في هذه المضائق وهكذا لم تجسر الغواصة على الظهور فوق سطح الماء بل آثرت جانب الحكمة وبقيت على عمق مناسب وأخيراً كنا نمخر عباب البحر الأحمر ظهراً .

إنه البحر الأحمر أو البحيرة المشهورة في الأقاليم الدينية ، الذي قلما تهطل عليه الأمطار أو يرويه نهر كبير بل يتعرض لعوامل التبخر المائي بلا انقطاع . بحيث يفقد في كل عام طبقة مائة قدمها نحو ياردة ونصف ياردة إنه خليج فريد في نوعه لو أغلقت منافذه لأصبح بحيرة لا يلبث ماؤها أن يجف على مر السنين وهو من هذه الناحية أقل من الخلدجان القريبة منه التي يتوازن نسبة تبخيرها مع نسبة المياه التي تصب فيها مثل بحر قزوين .

ويبلغ طول البحر الأحمر ستمائة كيلو متر فقط وعرضه ٢٤٠ كيلومتر . وقد كان في عهد البطالسة وأباطرة الرومان من أعظم شرايين التجارة في العالم وسيعد إليه حفر قناة السويس مجده القديم وإن لم أحاول معرفة السبب الذي حدا بالربان نيمولاجتياز هذا البحر . ولكنى كنت في قرارة نفسي راضياً عن دخول الغواصة فيه . وكانت تنساب بسرعة معتدلة ، أحياناً فوق السطح ، وأحياناً في الأعماق لاجتناب السفن ، وهكذا أتيج لى رؤية هذا البحر باطناً وظاهراً .

وفي فجر اليوم الثاني من شهر فبراير . لاحت مدينة « مُخَا » وهي الآن خرائب أثرية تهاوى جدرانها حتى بتأثير دوى المدافع ، ولكن أشجار النخيل كانت تبدو هنا وهناك بين خرائبها وكانت من قبل مدينة هامة ، بها ستة أسواق عامة ، و ٢٦ مسجداً ، و ١٤ قلعة كانت جدرانها تكون حزاماً بديعاً طوله ثلاثة كيلو مترات

واقربت الغواصة عندئذ من الشاطئ الأفريقي الذي يزداد في عمق البحر ، وأتيح لنا في هذه المياه التي تبدو في صفاء البللور ، أن نتأمل من النوافذ الزجاجية الغابات المرجانية اللألاء والصخور الضخمة المكسوة بفراء فاخر من الطحالب وأعشاب البحر .

يا لتلك المشاهد التي تجل عن الوصف . وبالتنوع المعالم والجزائر البركانية والحواجز المرجانية في هذه الشواطئ الأفريقية . ولكن أبهى أنواع المتحجرات المائية كانت تبدو على الشواطئ الشرقية . وأعنى بها شواطئ تهما حيث تزدهر الأعشاب البحرية وتبدو كالشرفات الواسعة تحت سطح الماء . وكالضفاف الحميلة الفاتنة التي ترتفع فوق السطح بنحو عشرين ياردة . وهي وإن كانت بديعة إلا أنها ليست في بهاء الألوان التي تحفظ المياه رونقها ونضارتها تحت السطح .

إنها لساعات رائعة تلك التي أمضيها أمام النوافذ البلورية في الصالون . ولإنها لأنواع جديدة عجيبة من الحيوانات والنباتات المائية تلك التي بهرت أنظارى في ضوء مصباحنا الكهربائي المتألق . وقد رأيت بينها ألواناً من الفطريات والطحالب والقواقع التي تشبه المزامير . وكأنما هي في انتظار أنفاس الآلهة لترنم ، ولا فقريات غريبة عن هذا البحر تستقر في تجاويف محاربه تتحول قواعدها مع الزمن إلى أشكال حلزونية . وأخيراً آلاف الأنواع من الشعبيات المائية التي لم أر مثلها من قبل وأعنى بها : الإسفنج العادى .

إن مرتبة الاسفنجيات ، وهي المجموعة الأولى من الشعبيات تتكون على وجه التحديد من هذا التاج العجيب الذي لا جدال في منافعه ، وأعنى به الاسفنج . ليس من فصيلة النبات كما لا يزال يعتقد بعض العلماء وإنما هو حيوان من أدنا المراتب . . أقل مرتبة من الدويبات التي تتكون منها الشعب المرجانية ، وليس هناك شك في حيوانيته ، ويمكننا أن نعرف برأى القدماء الذين كانوا ينظرون إليه على أن مرتبته بين النبات والحيوان : ويجدر بي على

كل حال – أن أقول إن علماء الطبيعة لم يتفقوا بعد على طبيعة تكوين الإسفنج فهو في نظر البعض من الشعبيات ، وفي نظر البعض الآخر كالعالم (ميلين أوردز) حيوان مفرد فريد في طبيعته .

وتحتوى مرعبة الاسفنجيات على ثلاثمائة نوع ، موزعة على مختلف البحار وبعض الأنهار التي تسمى فيها باسم « سليات » ، ولكن المياه التي تفصلها عن غيرها هي مياه البحر الأبيض المتوسط وأرخييل اليونان وسواحل سوريا ومياه البحر الأحمر . وتنتج هذه المناطق الاسفنج الناعم الرقيق الذي يساوى الرطل منه أحياناً خمسة جنيهات ، والاسفنج الأشقر السورى والاسفنج الصلب الخشن . . . ولم لم يكن في مقدورى أن أدرس هذه الاسفنجيات في سواحل البحر الأبيض التي يفصلنا عنها برزخ السويس ، فقد قنعت بملاحظاتها في البحر الأحمر .

ومن ثم فقد استدعيت كونسایل حين كانت الغواصة تسير في بطء تجاه الساحل الشرقى ذى الصخور الحميلة على عمق يناهز عشر ياردات .

هنا رأيت الإسفنج نامياً في مختلف الأشكال . . . فهو حيناً في شكل الحشرات أو الزهور وحيناً في أشكال كروية أو أصبعية . ومن ثم تنطبق عليها هذه الأسماء ، السلة ، الكأس ، المغزل ، قرن الوعل ، مخلب السبع ، ذيل الطاووس ، قفاز نبتون ، وهذه الأسماء يطلقها الغواصون الأكثر شاعرية من العلماء . وكانت تناسب في غير انقطاع من بين أنسجتها الليفية المكسوة بمادة نصف هلامية ، خيوط مائية هي التي تحمل الغذاء والحياة إلى كل خلية ، ثم تظرد إلى الخارج بفعل الحركات الانقباضية في الاسفنج .

وتختفى المادة الداخلية بعد موت الدويبات المكونة للاسفنج ، وذلك بعد أن تتعفن وتتحول إلى أملاح النوشادر . ولا يتبقى بعد هذا إلا الأنسجة الليفية الهلامية المركبة من الاسفنج العادى الذى يصبح مائلا للاحمرار ، والذي يستخدم في مختلف الأغراض طبقاً لدرجة مرونته ، وطرأوته أو مقاومته للتعفن . .

هذه الشعبيات الدقيقة تلتصق بالصخور أو بحار اللافقریات بل وفي سيقان النباتات المائية . وهي تنمو بأقل كمية من الغذاء ، وبعضها يتشعب وينتشر وبعضها ينمو في وضع أفقي وبعضها الآخر يتدلى كالزوائد المرجانية . وقد أخبرت كونسایل أن هذه الاسفنجيات تؤخذ بطريقتين : إما بالخطاطيف أو بالأیدی وأفضلهما الطريقة الثانية التي تستلزم استخدام الغواصين لأنها تتيح للغواص حرية اختيار أنضج وأنى أنواع الإسفنج .

أما الشعبيات والدوبيات الأخرى التي تتكاثر حول الإسفنج فتكون على الأرجح من لافقریات تمتاز بالمرونة ومن زواحف مائية كان بعضها يزودنا بصحاف من الطعام الشهي .

أما عن الأسماك فهي كثيرة ، وبعضها ممتاز جداً . وكانت الأسماك التي جاءتنا بها شبك الغواصة يتكون أكثرها من نوع السفن ذي اللون الطوبى والشكل البيضوى والجسم المرقط بالنقط الزرقاء ، والتي تعرف بأسنانها الشائكة المزدوجة . ومن أسماك الكارناك ذات الأظھر النصفية والباستناك ذات الذبول المرقطة والبوكات التي يبلغ طولها ياردتان ، والأيوون الخالية تماماً من الأسنان وهي ذات قوام غضروفي مثل سمك كلب البحر ، وسمك الهجين الصلدي الذي ينتهي سنامه بانحناءة طولها قدم ونصف قدم ، وثعابين الماء على أنواع مختلفة ، منها الفضي الذيل ، والأزرق الظهر ، والبني الصلدي بأطراف رمادية . وأسماك الفماتول وهي من أنواع لاستروماتيا المقلمة بخطوط ذهبية ضيقة . والمزينة بألوان العلم الفرنسي الثلاث الأبيض والأحمر والأسود . وأسماك الكرانكس الفاخرة المحلاة كل منها يسبع شرائط زرقاء قائمة مستعرضة وزعانف ذهبية وزرقاء وقشور في لون الفضة أو الذهب ، والبربونى ذي الرأس الأصفر وآلاف غيرها من أنواع السمك المعروفة في البحار التي سبق أن خضناها .

وفي اليوم التاسع من شهر فبراير كانت الغواصة تبخر في المنطقة الواسعة

من البحر الأحمر الواقعة بين سواكن على الساحل الغربي وجيونفوده على الساحل الشرقى وهى منطقة يبلغ اتساعها مائة وتسعين ميلا .

وفى ظهر ذلك اليوم وبعد تحديد موقع الغواصة ، صعد الربان إلى السطح حيث تصادف وجودى ، وقد آليت على نفسى ألا أدعه يهبط دون أن أحاول معرفة أهدافه المقبلة على الأقل . وما أن أبصرنى حتى تقدم نحوى . وقدم إلى سيجارة وهو يقول :

— خسناً يا بروفيسور . هل أعجبك البحر الأحمر ؟ هل دقت النظر إلى ما يحتويه من عجائب أسماكه وقواقعه ، ومراقد الإسفنج فيه ، وغاباته المرجانية وهل رأيت مدنه الساحلية ؟

— نعم يا كابتن . وقد ساعدتني الغواصة كثيراً فى دراستى . آه ... إنها سفينة علمية . .

— أجل . . سفينة علمية . . عاقلة . . باسلة . . لا تهاب عواصف البحر الأحمر المخيفة ، ولا تياراته العنيفة ولا حواجزه المرجانية .
— الواقع أن هذا البحر من أسوأ البحار فى تقلباته ، كانت له على مدار التاريخ إذا لم أكن مخطئاً شهرة بغیضة .

— بغیضة يا مسيو أرونالكس ؟ إن المؤرخين الإغريق لم يختصوه بالثناء حقاً ، وقد قال عنه سترابور إنه بحر عنيف خصوصاً الرياح الموسمية والأمطار الغزيرة . ويذكر لنا الإدريسي المؤرخ العربى الذى أطلق عليه اسم بحر القازم ، أن السفن كانت تهلك زرافات على شواطئه الرملية وأن أحداً لم يكن يجروء على الإبحار فيه ليلاً . ويقول أيضاً إنه بحر معرض للعواصف الرهيبة ومفعم بالجزر الخطرة . وإن هذا كله يجعله بلاخير فى أعماقه أو على سطحه . وتلك هى أيضاً آراء المؤرخين إريانوس وأجاتاركيدس وارتميدراس .

فقلت

— ولكن هؤلاء المؤرخين لم يشاهدوا هذا البحر من غواصة كهذه .
فقال الربان وهو يتسم :

– نعم . . وفي هذا الشأن يتساوى المؤرخون العصريون مع القدماء :
فقد مرت قرون عديدة قبل أن تكتشف الطاقة الآلية في البخار : فن يدري
أن مائة عام أخرى قد تمضي قبل أن يعرف العالم غواصة أخرى كهذه . إن
تقدم العلم بطيء يامسيو أروناكس .

– نعم . هذه هي حقيقة . فإن غواصتنا تسبق عصرها بقرن ، وربما
بعده قرون . وإنه لمن أسوأ الأمور أن يموت سرها مع مخترعها .
فلم يجب الربان نيمو . ولكنه قال بعد فترة :

– أكنت تتحدث عن آراء قدامى المؤرخين بصدد مخاطر الملاحة في

البحر الأحمر ؟

– نعم ولكن يامسيو أروناكس . إن الخطر الذي لا يهدد الآن سفينة عصرية
كاملة الإعداد قوية البناء متحركة في الاتجاه بفضل طواعية البخار ، كان
يهدد السفن القديمة بألوان من المخاطر المهلكة . ويجدر بنا أن نتخيل الملاحين
القدامى وهم يغامرون بسفائنهم المصنوعة من ألواح خشبية مشلود بعضها
إلى بعض بألياف النخيل ، ومثبتة بالصمغ أو الراتنج ، ومشحمة بدهن
كلاب البحر . إنهم لم يكونوا مزودين حتى بالآلات الضرورية لتحديد أمانهم
كما كانوا يسيرون مع التيارات التي لم يكونوا يعرفون عنها سوى القليل .
وفي مثل ظروف كهذه لا بد أن تكثر حوادث غرق السفن . أما في وقتنا
الحالي فإن السفن البخارية التي تبخر فيما بين السويس والبحار الجنوبية
لا تخش شيئاً من مخاطر هذا البحر رغم الرياح الموسمية العكسية ، وربابنتها
وركابها لا يستعدون للسفر عليها بتقديم القرايين كما كان الحال في الماضي ولم
يعودوا بعد رجوعهم يتزينون بالأكاليل والأساور الذهبية وهم يقدمون صلاة
الشكر في معابد الآلهة القريبة .

– أترف أن الآلة البخارية قتلت في قلوب الملاحين عاطفة عرفان

الجميل . ولكن يمكنك يا كابتن – وقد درست هذا البحر كما يبدو لي – أن
تخبرني بمنشأ هذه التسمية ؟

- هناك عدة تفسيرات يامسيو أروناكس . فهل تحب أن تعرف رأى أحد مؤرخي القرن الرابع عشر في هذا الصدد ؟
- نعم .
- زعم ذلك المؤرخ الخيالي أن هذا الاسم أطلق على البحر الأحمر بعد هرب بنى إسرائيل وغرق فرعون بين أمواجه .
- ثم ردد الربان أربع شطرات شعرية تدعيها لأقواله .
- فقلت :
- هذا تفسير شاعرى ياكابتن . ولن أقنع بهذا ، ولا بد أن أطلب رأيك الشخصى .
- رأى يامسيو أروناكس أن البحر الأحمر ترجمة للكلمة العبرية . «أردم» وأن القدماء أطلقوا عليه هذا الاسم بسبب لون مائه الغريب .
- ولكنى لا أرى الآن غير أمواج هادئة بلا ظلال لونية خاصة !
- بلا ريب ، ولكن حين تتجه نحو الأعماق ستلاحظ ظاهرة غريبة وأذكر مرة أنى رأيت خليج الطور قانياً كالدماء .
- وهل ترجع السبب فى هذا اللون إلى وجود جسيمات الألبىسا المكرسكوبية ؟
- نعم . . لأنها مادة حمراء هلامية تنتج من جسيمات نباتية وثيقة معروفة باسم (تريكوديسمز) وأربعون ألفاً منها لا تشغل أكثر من ٠,٣٩٣٧ جزء من البوصة المربعة وربما نلتقى ببعضها عند وصولنا إلى الطور .
- إذن فليست هذه أول مرة تجتاز فيها البحر الأحمر فى الغواصة نوتيلوس ؟
- كلا ياسيدى !
- مادمت قد تحدثت الآن عن عبور الإسرائيليين للبحر وغرق فرعون وجيشه ، فهل يمكن أن أعرف إن كنت وجدت آثاراً لهذا الحدث التاريخى تحت الماء ؟

– لا يا بروفيسور . وذلك لسبب وجيه .

– أى سبب ؟

– لأن الموضع الذى اجتازه النبي موسى بقومه ممتلئ الآن بالرمال بحيث لا يرتفع الماء إلى مستوى مواطئ أقدام الجمال ومعنى هذا أن الغواصة لا تجد فيه كفايتها من الماء هناك .

– وأين هذا الموضع ؟

– إنه يقع بعد السويس بقليل . . فى ذلك الذراع الذى كان يكون هذا الخور العميق عند ما كان البحر الأحمر متصلاً بالبحر الميت . وأيا كان الأمر فقد تم عبور بنى إسرائيل فعلاً وهلاك جيش فرعون فى نفس المكان وأعتقد أنه لو تمت عمليات الحفر والتنقيب فى ذلك الموضع لأمكن العثور على آلات وأسلحة من أصل مصرى قديم .

فقلت :

– هذا محتمل . والمأمول لفائدة علماء الآثار أن تم هذه الحفريات عاجلاً أو آجلاً عند ما تقام المدن الجديدة على برزخ السويس بعد حفر قناته .. وهى قناة لن تكون ذات نفع للغواصة .

فراح الربان نيمو يقول :

– نعم . ولكنها ستكون عظمة النفع للعالم كله . وكان الناس فى العهود القديمة قد فطنوا إلى الفوائد التى تعود على تجارتهم من وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض ، ولكن لم يحلموا بإمكان حفر قناة مستقيمة بينهما وإنما اتخذوا نهر النيل واسطة لربطهما معاً ويحتمل جداً أن تكون القناة التى ربطت النيل بالبحر الأحمر قد بدأت عند مدينة سيزستريس . والمؤكد أن الملك نيفوس تولى فى عام ٦١٥ قبل الميلاد إنشاء قناة تغذيها مياه النيل عبر الوادى المصرى المواجه لبلاد العرب . وكان اجتياز القناة يتم فى أربعة أيام وكان عرضها يكفى لمرور سفينتين كبيرتين جنباً إلى جنب وقد استمر إنشاء القناة

في عهد الملك داريوس وربما أتمها بطليموس الثاني ، وقد رآها المؤرخ سترابو وهي تؤدي مهمتها في خدمة الملاحة البحرية ، ولكن ضعف انحدارها من نقطة البدء بالقرب من مدينة بوباست إلى البحر الأحمر جعلها صالحة للملاحة بضعة شهور في العام فقط . وظلت هذه القناة بضعة قرون مستغلة لخدمة التجارة ، ثم أهملت وامتلات بالرمال ، ثم أعيد إنشاؤها بأمر الخليفة عمر ، ثم تم ردمها عام ٧٦١ و ٧٦٢ بأمر الخليفة المنصور الذي أراد منع وصول المدد إلى محمد بن عبد الله الذي أعلن الثورة عليه . وقد عثر على آثار هذه القناة في صحراء السويس أثناء الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت الذي كاد يغرق ومن معه عند ما فاجأه المد قبل وصوله بساعات قليلة إلى مدينة حضروت . أي نفس المكان الذي عسكر فيه النبي موسى قبل ٣٣٠٠ عام .

— حسناً يا كابتن . إن ما لم يجروا عليه القدماء من ربط البحرين واختصار المسافة آلاف الأميال بين قاوش وجزر الهند الشرقية — قد اضطلع به المحدثون ولن يمضي زمن طويل حتى تصبح القارة الأفريقية جزيرة هائلة .
ثم استطرد الربان نيمو قائلاً

— من سوء الحظ أني لن أستطيع أن أمضي بك خلال القناة . . ولكنك ستري أرصفة ميناء بور سعيد عند ما نصل إلى البحر الأبيض المتوسط .
فهتفت قائلاً :

— البحر الأبيض المتوسط ؟

— نعم يا بروفيسور . أيدهشك هذا ؟

— إن ما يدهشني هو أن تكون هناك بعد غد .

— أحقاً ؟ .

— نعم يا كابتن . وإن كان على أن أعتاد البعد عن كل دهشة ما دمت

في هذه الغواصة .

- لكن فيم دهشتك الآن ؟
- للسرعة الرهيبة التي ينبغي أن تبهر بها الغواصة إذا أرادت الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط بعد غد . بعد أن تدور حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح .
- ومن قال يا بروفيسور إن الغواصة ستلور حول أفريقيا أو أنها ستأخذ طريق الرجاء الصالح ؟
- إلا إذا كنت ستسير على الأرض وتجتاز برزخ السويس . .
- أو تمرق من تحته يا سيد أروناكس .
- من تحته ؟ !
- فقال الربان بهدوء :
- بالتأكيد لقد مضت أحقاب طويلة منذ أن أتمت الطبيعة مهمتها تحت هذا اللسان الأرضي الذي يحاول الإنسان أن يحفره فوق السطح ...
- ماذا ؟ ! أوجد ممر مائي تحت البرزخ ؟ !
- نعم . . ممر مائي تحت الأرض أطلقت عليه اسم « نفق إبراهيم » إنه يبدأ من السويس وينتهي عند خليج المنزلة .
- ولكن البرزخ ليس إلا رمالا متحركة .
- إلى عمق معين فقط . . ولكن هناك طبقة صخرية على عمق خمسين ياردة :
- فقلت وقد تزايدت دهشتي :
- وهل اكتشفت هذا النفق المائي بطريق المصادفة ؟
- بالمصادفة والتفكير المنطقي يا بروفيسور . . بل لعل التفكير أغلب من المصادفة .
- إنى أسمعتك يا كابتن ولكن أذنى تأييان ماتسمعان .
- آه يا سيدي . هذه طبيعة الإنسان الذي يأتي أن يصدق إلا ما ترى

عيناه . إن هذا النفق ليس موجوداً فحسب بل إنى مررت فيه بضع مرات ولولا هذا لما جرؤت اليوم على دخول البحر الأحمر .

— وهل أتجاوز الحدود إن سألتك كيف اكتشفت هذه النفق ؟

— سيدى . ليس هناك سر بين أناس لن يفترق أحدهم عن الآخر مدى

الحياة ..

ولم أحفل بدلالة هذا المعنى ، وانتظرت إجابة الربان الذى جعل يقول :
 — إن التفكير المنطقى للعالم الطبيعى هو ما هدانى إلى اكتشاف هذا النفق الذى لا يعرف سوى شيئاً عنه . فقد لاحظت فى البحر الأحمر وفى البحر الأبيض المتوسط وجود أسماك معينة من نوع واحد ، كالثعابين والنياتول والخبزيريل والاكسوسيتى أو (الطيبار) ولما تأكدت من هذه الحقيقة سألت نفسى هل يوجد اتصال بين البحرين ؟ فإن وجد ، فإن التيارات التحتية لا بد أن تتدفق من البحر الأحمر إلى البحر الأبيض لاختلافات المستوى بينهما ، ولهذا جمعت عدداً كبيراً من الأسماك بالقرب من السويس ووضعت فى ذيوها حلقات نحاسية وأعدتها إلى البحر وبعد أشهر قليلة وكنت بالقرب من سواحل سوريا وقعت فى يدى أسماك من ذوات الحلقات النحاسية الآنفه الذكر . وهكذا تأكدت تماماً من وجود وصلة بين البحرين . ولما بحثت عنها بالغواصة اكتشفتها وغامرت بالمرور فيها . ولن يمضى وقت طويل يابروفوسور حتى تمر أنت أيضاً فى هذا النفق العربى

الفصل التاسع والعشرون

النفق العربي

في ذلك اليوم أعدت على مسامع كونساييل ونيذ لاند ما يهمهما من هذا الحديث . ولما ذكرت لهما أننا سنكون بعد يومين في مياه البحر الأبيض صفق كونساييل طويلا ، ولكن نيد لاند هز كتفيه ، وهتف قائلا :
- نفق مائي يصل بين البحرين ؟ من سمع بمثل هذا من قبل ؟

فأجابه كونساييل قائلا : [

- يا صديقي نيد . هل سبق في حياتك أن سمعت عن شيء كالفواصة نوتيلبوس ؟ لا . ومع ذلك فلإنها موجودة ولهذا لا تهز كتفك ببساطة ولا تسخر من الأشياء لأنك لم تسمع بها من قبل .
فهز نيد لاند رأسه وقال :

- سوف نرى على كل حال . أريد أن أؤمن بوجود نفق هذا الربان ،
وأسأل الله أن يؤدي بنا إلى البحر الأبيض المتوسط .

وفي غروب هذا اليوم انسابت الفواصة على سطح البحر شمالي خط العرض ٣٠،٢١٠ درجة ، حتى اقتربت من شواطئ بلاد الغرب حيث لاحت لنا مدينة جدة ، وهي إحدى المدن التجارية الهامة لمصر وسوريا وتركيا والهند واستطعت أن أتبين مبانيها بوضوح ، والسفن الراسية بمينائها ، وسفنأ أخرى اضطرت للرسو على بعد يسير من الميناء ، وكانت الشمس الغاربة عند الأفق ترسل أشعتها على منازل المدينة فتكشف بياضها . . وفي خارجها شاهدت أكواخاً من الخشب والغاب التي يقيم فيها أعراب البادية ، وسرعان ما اختفت جدة في ظلال المساء ، وبدأت الفواصة في الهبوط إلى الماء المتلألئ بلون فسفوري خفيف .

وفي اليوم التالي ، العاشر من شهر فبراير ، رأينا عدة سمن مبحرة في اتجاه الريح ، واستمرت الغواصة في سيرها تحت الماء حتى الظهر ، ثم صعدت إلى السطح بعد تحديد الاتجاهات ، وبعد الاطمئنان إلى خلو البحر من السفن المضيت مع كونساييل ونيد لاند إلى السطح حيث جلسنا ، ولاحظنا السواحل الشرقية يكسوها الضباب رطب ٥

وبينما كنا نتبادل الحديث في مختلف الشئون ونحن مطلون من جانب الغواصة ، إذ أشار نيد لاند إلى نقطة في البحر وقال :

– هل ترى شيئاً هناك يا بروفيسور ؟

– لا يا نيد . ولكن عيني ليستا عينيك كما تعرف ٥

– انظر جيداً . ألا ترى عند الخط المائى خلف الغواصة ، على مستوى

الكشاف الكهربائى ، كتلة تتحرك ؟

فقلت بعد أن دقت النظر :

– نعم . أرى جسماً طويلاً : أسود غلى سطح الماء ٥

فقال كونساييل :

– أهي غواصة أخرى !

فأجاب نيد لاند :

– لا . وإذا لم يكن هذا نوعاً من الحيوانات البحرية ، كنت مسرفاً

في الخطأ ٥

فسأله كونساييل :

– أتكثر الحيتان في البحر الأحمر ؟

فأجبت قائلاً :

– نعم يا نبي . إن هذا البحر لا يخلو من الحيتان .

فقال نيد لاند الذى لم يرفع بصره عن ذلك الجسم :

– إنه ليس حوتاً . فأنا والحيتان أصدقاء من قديم ، ومن ثم لا يمكن

أن أخطئ في تمييزها .

فقال كونساييل :

— انتظر . إن الغواصة ذاهبة إليه . وسنعرف حقيقة الأمر بعد وقت

غير بعيد ٥

وسرعان ما صار الجسم الطويل الأسود على مسافة تقل عن ميل مئاً .
وقد بدا لنا كأنه صخرة كبيرة قائمة في عرض البحر . ترى ما كُنْه هذا
الجسم ؟ ذلك ما لم أستطع أن أتأكد منه ٥
وصاح نيد لآند قائلاً :

— آه . . إنه يتحرك ، ويغطس ، أى حيوان يمكن أن يكون ؟ إنه

حتى بلا ذيل ذى شعبتين كالخيتان وزعانفه تبدو كالجنوع . .

وقبل أن أعلق على حديثه ، استطرد يقول :

— آه . . إنه على ظهره الآن . . إنه يرفع ثدييه في الهواء ٥ ٥

فصاح كونساييل قائلاً :

— إنها حورية . . . حورية بحر حقيقية ! ٥

وأثار اسم « الحورية » اهتمامي فقد كنت أعرف أن هذا الحيوان ينتمي
إلى مرتبة الحيوانات البحرية التي تزعم الأساطير القديمة أنه نصف امرأة
ونصف سمكة . وأخيراً قلت لكونساييل :

— لا . . إنها ليست حورية . وإنما هي حيوان عجيب لم يبق منه في

العالم إلا أنواع قليلة في البحر الأحمر ، إنها بقرة الماء ٥

فأخذ كونساييل في سرد مرتبتها ونوعها وفصيلتها والمجموعة التي تنتمي

إليها بحيث لم يترك قولاً لقائل ٥

وفي هذه الأثناء كان نيد لآند يدمن النظر بعينين تلمعان اشتاء إلى هذه

البقرة المائية . وبدأ لي أن يده تتأهب لضربها بالخرية ٥ ومن يحسبه يراه في

انتظار اللحظة المناسبة لإلقاء نفسه في الماء ومهاجمة هذا الحيوان في عقر داره ٥

وأخيراً قال بصوت يتهدج تأثراً :

– آه . إننى يا سيدى لم أقتل حيواناً كهذا !
والحق أن هذه العبارة كانت تصور الصياد أبلغ تصوير .
وفى تلك اللحظة ظهر الربان على سطح الغواصة ، ولمح بقرة الماء
وأدرك إحساس نيد لاند ، فقال له :

– إذا أمسكت حربة يا مستر لاند ألا تتحرق يدك إلى الصيد ؟

– هوذاك .

– ألا تأسف إذا عدت إلى مهتك القديمة مرة أخرى وأضفت هذا
الحيوان إلى قائمة صيدك ؟

– لا . لن أسف .

– إذن . يمكنك أن تحاول .

فقال نيد لاند بعينين تضطربان :

– شكراً ياسيدى .

فاستطرد الربان قائلاً :

– ولكن أنصحك . ألا تخطيء إصابة هذا الحيوان ؟

فقلت رغم أن نيد لاند هز كتفيه احتقاراً :

– هل ثمة خطر فى مهاجمة بقرة الماء ؟

فأجاب الربان قائلاً :

– نعم . أحياناً . فإن هذا الحيوان يكر على مهاجمه ويحطم زورقهم ولكن

ليس ثمة ما يخشاه نيد لاند من هذه الناحية . فإن بصره حديد . ويده ثابتة

وإذا كنت أوصيه ألا يخطيء الهدف فذلك لأن بقرة البحر صيد طيب

وأنا أعرف أن نيد لاند يحب اللحم الطيب .

فقال نيد لاند :

– آه . إذن فإن هذا الحيوان يسمح لنفسه برفاهية تكوين لحم طيب

المذاق ؟

نعم يا مستر لاند . إن لجسمه لحمًا طيباً يحبه سكان الساحل الملاسى
ويخصصونه لموائد الأمراء ، وبلغ من الإقبال على صيد هذا الحيوان أنه
أصبح وشيك الانقراض .

فقال كونسایل في اهتمام :

— إذا كان هذا الحيوان يأسىدى الربان آخر واحد من نوعه ألا يجدر بنا
أن نبقى عليه لفائدة العلم ؟ .
فقال نيد لاند :

— ربما ولكن لفائدة بطوننا يحسن أن نصيده .

فقال الربان نيمو :

— لك ما تريد يا مستر نيد لاند . .

وعندئذ أقبل إلى سطح الغواصة سبعة من البحارة في صمت وسكون
كعادتهم وقد حمل أحدهم حربة صيد مشدودة إلى حبل من النوع المستخدم
في صيد الحيتان . ورفع القارب الملحق بالغواصة من فجوته ، وأنزل إلى
الماء . . . واتخذ ستة من الرجال أماكنهم فيه ، وجلس عامل الدفة في موضعه
وجلست مع كونسایل في المؤخرة . وقد قلت للربان :

— ألا ترافقنا يا كابتن ؟

— لا يا سيدى . . ولكنى أرجو لكم كل توفيق .

وانطلق الزورق سريعاً بقوة المجاذيف نحو بقرة الماء التي كانت تسبح
على مسافة ميلين من الغواصة . حتى إذا أصبحنا على بعد بضعة عشر ياردات
منها . خففنا سرعة الزورق ، وراحت المجاذيف تشق الماء الهادى في رفق .
وانتقل نيد لاند في المقدمة ويده الحربة ، والمعروف أن حربة صيد الحيتان
تكون مشدودة بحبل طويل ينبسط مع الحيوان الحريخ وقد شد طرفه الآخر
إلى برميل صغير يطفو على سطح الماء لتحديد مكان البقرة من الأعماق .
ولم ألبث أن نهضت أرقب غريم نيد لاند فإذا هو بقرة مائة بيضاوية

الجسم ، ذات ذيل طويل تنتهى زعانفها الجانبية بما يشبه الخالب ويتسلح فكها الأعلى بصفيين من الأسنان الحادة التى تكون خطى دفاع على الجانبين .
وكانت البقرة المائية التى يهيم نيد لاند بصيدها من الحجم الكبير ، لا يقل طولها عن ثمانى ياردات ولم تكن تتحرك وكأنها نائمة على سطح الماء فى حالة تجعل صيدها سهلاً .

واقرب الزورق فى حذر حتى غدا على مسافة ثلاثين ياردة منها وتوقفت حركة المجاذيف وأمسك نيد لاند حربته بيد الصياد البارع وقد شمخ بقامته مائلاً إلى الخلف متحفزاً .

وفجأة سمعنا صوتاً كالفحيح ، وإذا بقره الماء تختفى فى اللحظة التى قذف فيها نيد لاند بالحربة فخيلى إلى أنها لم تضرب غير الماء ، بينما صاح نيد لاند مهتاجاً :

— باللشيطان لقد أخطأت الهدف .

فقلت :

— لا . لأنها جرحت . وهذه دماؤها على الماء . ولكن الحربة لم تعلق

بجسمها ٥

فصاح نيد لاند :

— حربتى ! حربتى !

واستأنف البحارة التجديف بقوة ، ووجه عامل الدفة الزورق شطر البرميل العائم ، حتى إذا استرد نيد لاند حربته ، عدنا إلى مطاردة البقرة : وكانت تصعد إلى سطح الماء بين حين وآخر للتنفس . وبدا لنا أن الجرح لم يؤثر على قوتها إذ أنها كانت تبتعد بسرعة كبيرة . وجد الزورق خلفها بفضل سواعد الملاحين القوية . واقتربنا منها مراراً ، وكلما هم نيد لاند بقذف الحربة ، كانت تروغ منه غائصة تحت سطح الماء بحيث يستحيل الوصول إليها . ولك أن تتصور مدى غضب نيد لاند ، وعنف العبارات التى انهل بها على البقرة .

واستمرت هذه المطاردة ساعة حتى بدأت أعتقد أننا لن نستطيع صيد البقرة . وفجأة بدا أن نزعة الانتقام تملكنا هذا الحيوان لسوء حظه ، فقد استدار نحو الزورق لمهاجمته بدوره .

، ولم يغفل نيد لاند عن هذه المناورة إذ قال :

– انقبوا .

فاه عامل الدفة يبضع كلمات بتلك اللغة المجهولة كان المراد منها ولاشك أن يأخذ رجاله حذرهم .

وتوقفت بقرة الماء على مسافة عشرين قدماً من الزورق للماء رثيها بالهواء عن طريق منخاريها القائمين في أعلى حيزومها . ولم تلبث أن وثبت مندفعة نحونا .

ولم يستطع الزورق اجتناب الصدمة فكاد ينقلب ، وغمره الماء كثيراً حتى أضطررنا إلى نزحه . ولكنه ما لبث أن اعتدل بفضل براعة عامل الدفة . أما نيد لاند فقد تشبث بمؤخرة الزورق وظل يطعن البقرة طعنات متوالية . وكانت قد غرست أسنانها في حافة الزورق ورفعتته إلى أعلى كما يرفع الأسد ظبياً صغيراً بين أنيابه حتى سقطنا بعضنا فوق بعض . ولا أدري على أي صورة كانت تنتهي مغامرتنا . لو لم يستطع نيد لاند الذي استبد به الغضب أن يطعننا في صميم القلب . ولم ألبث أن سمعت صرير أسنانها على حافة الزورق الحديدية ، وإذا هي تغوص في الماء آخذة الحربة معها . ولكن البرميل لم يلبث أن طفا ثانية على السطح . وبعد لحظات أخرى طفا جسم البقرة مقلوباً على الظهر فاقرب الزورق منها وشدت إليه بحبل ثم عدنا إلى الغواصة .

واضطر الربان إلى استخدام رافعة قوية لرفع البقرة المائية إلى سطح الغواصة ، إذ كان وزنها عشرة آلاف رطل . وتولوا تقطيعها أمام نيدلاند الذي أراد أن تتم العملية تحت إشرافه . وفي نفس اليوم قدم الخادم إلى في وجبة

العشاء شرائح أعدها طاهى الغواصة ببراعة ، فكانت تفوق في طيب مذاقها لحم العجول ، إن لم يكن لحم البقر .

وفي اليوم التالي ، الحادى عشر من فبراير ، أضيف إلى مخزن الغواصة مزيد من لحوم الصيد الشبيهة فقد حط عليها سرب من طيور خطاف البحر ، وهى من نوع الطيور النيلية المعروفة في مصر بمناقيرها السوداء ورءوسها الرمادية المرقطة ، وعيونها المستديرة المحاطة بنقط بيضاء ، وأجنحتها السوداء ، وذيلها الرمادية ، وبطنها وصدورها البيضاء ، وسيقانها الحمراء . كما أمكنا صيد عشرات من البط النيلي ، وهو طير برى شهي المذاق يتميز بعنق وظهر لونهما أبيض مرقط بنقط سوداء .

وكانت الغواصة تتقدم إذ ذاك بسرعة معتدلة ، وقد لاحظت أن ملوحة مياه البحر الأحمر تقل تدريجياً كلما اقتربنا من السويس .

وفي نحو الساعة الخامسة مساءً ، لحنا رأس محمد وهو الرأس الجغرافي الذى تنهى عنده حدود بلاد العرب ويقع بين خليج السويس وخليج العقبة . ثم دخلت الغواصة إلى مضيق جوبال المؤدى إلى خليج السويس . ورأيت بوضوح جبلا مرتفعاً بين الخليجين ، وهو جبل حورب في سيناء الذى كلم الله موسى عنده والذى يتخيله العقل وهو متوج دائماً بأضواء البرق .

وفي الساعة السادسة مساءً اجتازت الغواصة وهى حيناً طافية وحيناً غائصة ، جبل الطور الواقع على خليج تبدو مياهه جمراء اللون كما قال الربان نيمو . وأسدل الليل أستاره في جو يخيم عليه الصمت العميق الذى لم يكن يقطعه سوى صياح طائر البليكان وغيره من طيور الليل ، أو هدير الأمواج وهى تنكسر على الصخور ، أو أنفاس سفينة بعيدة وهى تضرب الماء في الخليج برفاصاتها الصاخبة

وظلت الغواصة من الساعة الثامنة إلى التاسعة ، وهى تحت السطح على عمق بضع ياردات . وكنا عندئذ طبقاً لتقديرأتى بالقرب من السويس . وكنت

أرى من نوافذ الصالون البللورية الصخور تضيئها أنوارنا الكهربائية ، وكان يبدو لي أن الخليج يزداد ضيقاً بالتدرج :

وفي الساعة التاسعة والربع ، صعدت الغواصة إلى السطح ، فخرجت إلى ظهرها وأنا مشوق للمرور داخل النفق المائي الذي حدثنا الربان عنه ، وبقيت على السطح لا أكاد أستقر على حال وأنا أملأ صدري بهواء الليل النقي .

وفجأة رأيت في الظلام ضوءاً شاحباً يشوبه الضباب على بعد ميل تقريباً ، وسمعت بجانب صوتا يقول :

– منارة .

فاستلرت ورأيت الربان نيمو بالقرب مني يتابع كلامه قائلاً :

– منارة السويس . ولن يطول بنا الوقت حتى نصل إلى مدخل النفق ،

– إن دخول هذا النفق لن يكون سهلاً .

– نعم ولذلك اعتدت توجيه عجلة قيادة الغواصة بنفسى . والآن لعلك تهبط إلى الداخل يامسيو أروناكس فسنغوص الآن ، ولن نصعد إلى سطح الماء حتى نجتاز النفق العربي :

وتبع الربان نيمو إلى داخل الغواصة ، وأغلقت منافذها العليا بإحكام ، وامتلات مستودعاتها بالماء فهبطت إلى عمق ثلاثين قدماً وبينما كنت أهم بدخول غرفتي استوقفني الربان قائلاً :

– أتحب يابروفوسور أن تصحبنى إلى مقصورة القيادة الزجاجية ؟

فقلت :

– نعم . ولكنى لم أجروء أن أطلب منك هذا .

– هيا بنا إذن . سوف ترى كل ما يمكن رؤيته في رحلة بحرية تحت الأرض وتحت الماء في وقت واحد .

وصحبنى الربان نيمو إلى السلم الرئيسي ففتح باباً في منتصفه وسار معي

في النصف الأعلى من الغواصة حتى وصلنا إلى مقصورة القيادة البلورية ، وهو كما يذكر القراء في أحد طرفي الغواصة .

وكانت مساحة المقصورة ستة أقدام مربعة ، تشبه أبراج القيادة الصغيرة في السفن البخارية التي تسير في خليج هدسون أو نهر المسيسيبي ، وتتوسطها عجلة رأسية متصلة بالدفة التي تجرى بطول الغواصة وكانت ثمة أربعة نوافذ من البلور مثبتة في جوانب المقصورة تهيئ لقائد الدفة الرؤية في كل اتجاه .

وكانت المقصورة نفسها مظلمة ، ولكن سرعان ما ألفت النظر في ظلامها ، فرأيت المرشد البحري ، وكان رجلا ضخماً الجسم متكئاً بيديه على قضبان عجلة القيادة . أما البحر فكان يبدو في الخارج متلألئاً بالضوء المناسب من الكشاف القائم في المقصورة الخلفية .

وقال الربان :

— ينبغي الآن أن نتحسس طريقنا في الممر .

وكان ثمة أسلاك تتصل بين مقصورة القيادة وغرفة المحركات ولهذا كان في مقدور الربان أن يسيطر على حركة الغواصة واتجاهها في وقت واحد . ولم يلبث أن ضغط على مقبض معدني فقلت سرعة الغواصة في الحال وفي صمت أخذت أرقب الجدار المرتفع الذي كنا نتحرك بمحاذاته إذ ذاك ولم يكن سوى امتداد الرمل على الشاطئ .

وقد تقدمنا هكذا نحو ساعة ونحن لا نبعد عنه أكثر من بضع ياردات ولم يكن الربان نيمو يرفع عينيه عن البوصلة البحرية المعلقة بحلقين في وسط المقصورة . وبإشارة منه كان قائد الدفة يوجه الغواصة الوجهة المطلوبة بكل دقة تامة .

وجلست أنظر من إحدى النوافذ البلورية ، فرأيت تكوينات رائعة من شعب المرجان والقشريات التي كانت تنشر مجالها الضخمة من شقوقها الغائرة في الصخور .

وفي الساعة العاشرة والرابع مساء ، أمسك الربان نيمو بعجلة القيادة ولاح لنا كهف واسع مظلم عميق ، دخلته الغواصة دون تردد . وسمعنا هديرأ غير مألوف لدى الجانبين ، ولم يكن سوى هدير مياه البحر الأحمر التي كانت تندفع باطراد داخل النفق المائل في اتجاه البحر الأبيض المتوسط . وهكذا اندفعت الغواصة مع السيل الجارف بسرعة السهم رغم أن محركاتها ذهبت تضرب الأمواج عكسياً ، كمحاولة لمقاومة الاندفاع .

ولم أكن أرى شيئاً على جدران النفق الضيق سوى الخطوط المضيئة وتجاويد الصخور التي كانت تبدو كالوهج الخاطف في ضوء كشاف الغواصة المندفعة كالسهم . وكان قلبي يخفق بعنف شديد جعلني أضغط بيدي فوقه تخفيفاً لحققانه .

وترك الربان نيمو عجلة القيادة في الساعة العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة ثم استدار إلى قائلا :

– البحر الأبيض المتوسط !

وهكذا اجتازت الغواصة برزخ السويس في أقل من عشرين دقيقة ، مندفعة مع التيار الجارف .

الفصل الثلاثون

أرخييل اليونان

في مستهل اليوم التالي ، الثاني عشر من شهر فبراير ، صعدت الغواصة إلى سطح البحر فأسرعت إلى سطحها حيث رأيت على مسافة ثلاثة أميال نحو الجنوب حدود بحيرة المترلة . حقاً لقد حملنا التيار العنيف من بحر إلى بحر ، ولكن النفق الذي هبطنا منه بسهولة ، كان الصعود فيه من المستحيلات . وحوالى الساعة السابعة انضم إلى كونساييل ونيد لاند ، وكان هذان الصاحبان المتلازمان قد ناما هائنين دون أن يلقيا بالآ إلى ما حققته الغواصة .

وقد قال نيد لاند بصوت لا يخلو من تهكم يسر :

— حسناً يا سيدى العالم الطبيعى . ماذا عن البحر الأبيض المتوسط

— إننا الآن فوق سطحه يا صديقى نيد لاند .

فهتف كونساييل قائلاً :

— ماذا ؟ فى الليلة الماضية ؟

— نعم . فى الليلة الماضية . . وفى دقائق معدودة ، اجتزنا البرزخ الذى

لم يتم حفره .

فقال نيد لاند :

— إننى لا أصدق هذا . .

فاستطردت قائلاً :

— أنت مخطئ يا نيد لاند . إن هذا الشاطئ المنخفض شبه الدائرى

الذى تراه فى الجنوب ، هو الشاطئ المصرى .

فقال الكندى بعناد :

– إننى مع ذلك أرفض أن أصدق .

فقال كونساييل :

– ولكن لا بد أن يكون هذا هو الحقيقة ، وإلا لما اخبرنا به سيدى .

فقلت :

– وفوق هذا يانيد فإن الربان نيمو اضطلع بتحقيق هذا العمل ، وكنت بجانبه فى مقصورة القيادة وهو يقود الغواصة بنفسه فى ذلك النفق المائى الضيق .

فقال كونساييل :

– هل تسمع يا نيد ؟

وأضفت قائلاً :

– وأنت يانيد يا من تتمتع بقوة النظر ، بوسعك أن ترى أرصفة ميناء بور سعيد ممتدة فى البحر .

فحدق نيد لاند فى ذلك الاتجاه ثم قال :

– نعم أنت على حق يا بروفيسور ، وربانك رجل بارع . إننا حقاً فى البحر الأبيض المتوسط . لا بأس . عظيم جداً . هلموا الآن نتبادل الحديث فى شئوننا الخاصة بحيث لا يسمعنا أحد .

وأدركت جيداً مقصد نيد لاند . ومهما يكن فقد استصوبت أن نتبادل الحديث كما يريد ، فيمنا شطر مقصورة الكشاف الكهربائى وجلسنا عن كئيب منها ، وهناك كنا أقل تعرضاً لاستراق السمع :

وبدأت الحديث بقولى :

– والآن يانيد ، نحن على استعداد لسماحك ماذا تريد أن تقول ؟

فأجاب الكندى قائلاً :

– إن ما أريد أن أقوله بسيط جداً . فنحن الآن فى أوربا ، وقبل أن

تجرنا أهواء الربان نيمو إلى أعماق البحار القطبية أو يعود بنا إلى الاقيانوس أريد أن أهجر الغواصة .

ولا بد من الاعتراف بأن الخوض مع نيد لاند في هذا الموضوع كان دائماً مثار حرجي . فأنا لا أريد أن أنال من حرية صاحبي بأية حال ، ومع ذلك فلم أكن أحب مقارعة الربان نيمو . فبفضل غواصته وأجهزته كنت كل يوم أستكمل أبحاثي تحت سطح الماء ، وكنت أعيد تدوين كتابي عن البحار في نفس مواطنها . فهل يمكن أن تتاح لي مثل هذه الغواصة مرة أخرى لدراسة عجائب المحيطات ؟ كلا بالتأكيد . ولهذا لم أستطع أن أروض نفسي على التفكير في مفارقة الغواصة قبل استكمال حلقة أبحاثي . وإذن فقد قلت :
- حدثني بصراحة يا صديقي نيد . هل تشعر بالملل هنا ؟ أتأسف لأن الأقدار ألفت بك بين يدي الربان نيمو ؟

فلزم لاند الصمت بضع دقائق . ثم عقد ذراعيه على صدره وقال :
- أقول صراحة إنني لست نادماً على هذه الرحلة تحت سطح البحار . بل إنني سعيد لقيامي بها ، ولكنني أرى بعد أن قمت بها ، أنه لا بد من نهاية لها .

- ستكون لها نهاية يا نيد .

- متى وأين ؟

- إنني لا أعرف أين ، ولا أستطيع أن أقول متى ، ولكن يمكنني القول أنها ستنتهي عند ما تكف هذه البحار عن تزويدنا بالمزيد من العلم . إن كل ما له بداية في هذا العالم ، لا بد له من نهاية .

فقال كونسابل :

- إنني أتفق في الرأي مع سيدي . ويحتمل جداً أن نجوب بحار الكرة الأرضية قبل أن يطلق الربان سراحنا .

فصاح نيد لاند :

– يطلق سراحنا ؟ لعلك تعنى أنه يطلق يديه للعدوان علينا ؟

فاستطرت أقول :

– لا داعى للتهويل يا نيد لاند . فليس هناك ما تخشاه من الربان ، ولكنى لا أوافق كونسایل أيضاً . إننا الآن نعرف سر هذه الغواصة ولا أمل عندى فى أن يرتضى صاحبها بإطلاق سراحنا حتى لا نذيع هذا السر فى أنحاء العالم .

فقال نيد لاند :

– إذن ما هو أملك ؟

– هو أن تسنح فى الستة شهور القادمة ظروف يمكن بل يتعين أن نستفيد منها ، كما نستفيد الآن .

فقال الكندى :

– ها ! وأين ستكون بالله خلال ستة أشهر يا سيدى العالم ؟

– ربما هنا وربما فى الصين . فأنت تعرف أن الغواصة سفينة سريعة . إنها تعبر المحيطات كالطيور فى الجو أو كالقطار السريع فوق اليابسة . وهى لا تخشى البحار المأهولة بالسفن . وما يدرينا إنها لن تزور سواحل فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا حيث نحاول انتهاز الفرصة ، كما نريد أن نفعل الآن ؟

فأجاب نيد لاند :

– إن حديثك يا مسيو أروناكس لا منطق فيه . فأنت تتحدث عن المستقبل فتقول إننا سنكون هنا أو سنكون هناك ، ولكنى أتحدث عن الحاضر فأقول : « نحن هنا الآن ، وينبغى أن نستغل هذه الظروف » .

وشعرت أن نيد لاند قد ضيق الحناق على بمنطقه حتى غلبت على أمرى ولم أدر ماذا أقول . أما هو فقد استطرد قائلاً :

– لنقرض جدلاً ياسيدى أن الربان نيمو منحك الحرية اليوم فهل

تقبلها ؟

– لا أدري .

– وإذا أضف إلى هذا أن ما يعرضه اليوم لن يكرره فيما بعد . فهل

تقبل ؟

لم أجب .

فقال نيد لاند :

– وما رأيك أنت يا صديقي كونسایل ؟

– ليس لدى ما أقوله وأنا غير مهتم بهذا الموضوع إطلاقاً . أنت يانيد غير متزوج . وأنا أيضاً لا زوجة لي ولا أقارب ولا أبناء ينتظرون عودتي . أنا في خدمة سيدي أفكر بتفكيره وأقول ما يقوله . وإذن فلا تعتمد على في الحصول على أغلبية . إن الموضوع متعلق باثنين فقط . أنت في جانب وسيدي في الجانب الآخر ، وما على إلا أن أسمع وأن أطيع القرار النهائي الذي سنتفقان عليه .

ولم يسعني إلا الابتسام بعد أن رأيت كونسایل يلغى شخصيته إلى هذا الحد . ولا شك أن نيد لاند ابتهج حين ألفاه لم يقف ضده ، ومن ثم قال :
– مادام كونسایل لا وجود له فليتحادث أحدنا مع الآخر ، وأنا قد تحدثت وأنت قد سمعتني . . فما هو جوابك ؟

كان جلياً إنه لا بد من أن أجاهر برأيي . ثم إنني أنفر بطبيعتي من المراوغة .

وهكذا قلت :

– هذا هو جوابي يا صديقي نيد : أنت مصيب ، وأنا مخطئ . يجدر بنا ألا نعتد على حسن نية الربان نيمو . إن أبسط أسباب الفطنة تمنعه من إطلاق سراحنا . ومن ناحية أخرى فإن العقل يحتم علينا انتهاز أول فرصة سانحة لمفارقة الخواصة .

– حسن جلدأ يا سسيو أرونا كس . . هذا كلام سديد .

– ولكن لى ملاحظة واحدة فقط ، هى أنه يجب أن نأخذ الأمور
مأخذ الجد . لا بد أن تنجح أول محاولة لنا . لأننا إذا فشلنا . فلن نتاح لنا
فرصة أخرى لإعادة الكرة كما أن الربان نيمو لن يصفح عنا .

– هذا أمر لاشك فيه . ولكن ملاحظتك تنطبق على كل محاولة للهرب
سواء كانت بعد عامين أو بعد يومين ولهذا يبقى الوضع كما هو : إذا سنحت
فرصة الهرب فيجب أن تشبث بها .

– اتفقنا ! والآن . . هل تخبرنى يا صديقى نيد ما معنى الفرصة السانحة
فى نظرك ؟

– كأن تكون الغواصة بالقرب من أحد الشواطئ الأوروبية فى ليلة
حالكة الظلام .

– عندئذ هل تحاول الهرب سباحة ؟

– نعم إذا كنا قرب الشاطئ بدرجة كافية ، وكانت الغواصة على
سطح الماء . إما إذا كنا بعيدين والغواصة فى الأعماق . .

– وماذا يكون العمل فى هذه الحالة ؟

– فى هذه الحالة أحاول الاستيلاء عليها ، فأنا أعرف كيف يسيرونها ،
ويمكاننا أن نفتح المنافذ ونصعد إلى مقصورة القيادة قبل أن يحس بنا
قائد الدفة .

– حسناً يانيد . انتظر سنوح الفرص ولا تنسى أن الفشل فيه القضاء
علينا .

– لن أنسى هذا ياسيدى .

– والآن يا نيد هل تحب أن تعرف ، أى فى مشروعك ؟

– أجل يا مسيو أروناكس .

– حسناً . وأعتقد – ولا أقول أرجو – أن مثل هذه الفرصة المواتية

لن تسنح لك •

— لماذا ؟

— لأن الربان نيمو ملرك أننا لم نفقد الأمل في استرداد حريتنا ولهذا سيضاعف رقابته علينا في البحار الأوربية .

فقال نيد لاند وهو يهز رأسه في إصرار :

— سوف نرى .

— والآن ينبغي أن تترك الأمر عند هذا الحد يا نيد لاند . لن نتبادل عنه كلمة واحدة بعد اليوم . وعند ما يتم استعدادك أخبرنا ، فتبعك ، وسأترك لك إعداد كل شيء

وهكذا انتهت هذه المحادثة التي شاء القدر أن تكون لها فيما بعد عواقب وخيمة . وينبغي أن أقول الآن إن الحقائق أثبتت بعد نظري فيما يبدو ، وهو ما أثار أشد اليأس عند نيد لاند : ترى أكان الربان يرتاب بنا ونحن في هذه البحار المطروقة ، أم أراد فقط إبعادنا عن أنظار السفن الكثيرة التابعة لمختلف الدول وهي تشق عباب البحر الأبيض المتوسط ؟ لا أدري ولكنه حرص عموماً على البقاء بالغواصة تحت السطح وبعيداً عن الشاطئ . وإذا صعدت إلى السطح لم يكن يبين منها سوى مقصورة القيادة ثم لا تلبث أن تعود إلى الأعماق ، لأن عمق البحر بين أرخبيل اليونان وشواطئ آسيا الصغرى كان يزيد على ألفي ياردة .

وقد عرفت نقطة جزيرة كارباتوس — وهي إحدى جزر سيوريد — عن طريق شطرة من شعر فيرجيل كان الربان نيمو يتمثل بها وهو يضع إصبه على مكانها من الخارطة .

« هنا .. في كارباتوس كان الإله نبتون يخمّر الأعناب .

وكيوليوس بروفيوس

وكانت الجزيرة في الواقع المقر القديم لبروفيسوس — الراعي العجوز لقطعان نبتون — فأصبحت الآن جزيرة سكاربتو . وهي كائنة بين جزيرتي رودس وكريت .

وفي اليوم التالي ، الرابع عشر من شهر فبراير ، قررت تمضية بضع ساعات في دراسة أسماك هذا الأرخبيل ، ولكن النوافذ البللورية ظلت مغلقة لسبب ما . وقد قدرت من اتجاه الغواصة أنها في طريقها إلى جزيرة كريت . وكانت هذه الجزيرة عند ما ركبت السفينة لإبراهيم لتكولن لمطاردة الغواصة قد ثارت على الحكم التركي العشوم ، ومنذ ذلك الحين لم أدر ماذا تم في هذا الأمر ، ولم يستطع الربان نيمو أن يخبرني بشيء وهو الذي قطع كل علاقة له بالعالم الخارجي . ولهذا السبب لم أعرض لهذا الحادث عند ما جلست معه على انفراد تلك الليلة في صالون الغواصة . وفوق هذا فقد بدا لي صموتاً مشغول الفكر ، ثم لم يلبث أن أمر بفتح النوافذ البللورية على غير عادته ، وأخذ يتنقل من نافذة إلى أخرى وهو يرقب عباب الماء لغرض لم أتبينه . أما أنا فقد عكفت على دراسة الأسماك التي كانت تمر أمام عيني .

ومن بين الأنواع الكثيرة التي رأيتها النوع المعروف باسم سمك التوبيون « جوبي آفيز » الذي تحدث عنه الفيلسوف اليوناني أرسطو وهو يشاهد كثيراً في المياه المالحة بالغرب من دلتا النيل وبالقرب منها رأيت أسماك الإبراميس نصف الفسفورية . وكان قدماء المصريين يضعون هذا النوع في عداد الحيوانات المقدسة . إذ كانوا يعتبرون وصوله إلى مياه النيل يشير بفيضان خصيب ، ومن ثم كانوا يقيمون الاحتفالات الدينية لمقدمه . ورأيت الأسماك السلحفاوية التي يبلغ طول كل منها تسع بوصات . وهي أسماك عظيمة ذات قشور شفافة يمتزج لونها المحتقن بالنقط الحمراء . ويعيش هذا النوع على النباتات البحرية مما يضفي على لحومها نكهة طيبة .

وكان هواة الطعام في روما القديمة يتلهفون على هذا النوع حيث كانوا يطهون أمعاهم بالأغشية الرقيقة لأسماك المرينة مع أنماخ الطاووس وألسنة طيور الدراج ويصنعون من هذا كله طبقاً شهيماً يتحلب له اللعاب . واسترعى انتباهي كذلك بين سكان هذا البحر ، كما أثار في ذهني

ذكريات تاريخية - ذلك النوع من السمك المعروف باسم «الرامور» الذي يجوب البحار متعلقاً ببطون نمور البحر. ويروى في الأساطير القديمة أن في مقدور هذا السمك الصغير إذا تعلق بقيعان السفن أن يوقف حركتها وأن واحدة منها بإعاقها سفينة مارك أنطونيو ساعدت غريمه القائد أغسطس على الفوز في موقعة أكثيوم البحرية .

ألا ما أوهى الخيوط التي تتعلق بها مصائر الأمم ، طبقاً لهذه الأساطير ، وقد لاحظت كذلك سمك الأنثا الذي ينتمي إلى فصيلة اللونجان ، وهو سمك كان الإغريق القدامى يقدسونه ويعزون إليه القدرة على طرد الوحوش البحرية من المناطق التي يقيم بها . واسم هذا السمك يعنى الزهرة وينطبق عليها بسبب تعدد ألوانه . فهو يشتمل على جميع درجات اللون الأحمر ابتداء من الوردى الخفيف إلى الياقوتى القاتم . هذا عدا الأصباغ الخفيفة التي تغشى زعانفها الوردية . ولم يكن في مقدورى أن أرفع نظرى عن عجائب هذا البحر ، عند ما فوجئت بمشهد لم أكن أتوقعه . . . فقد رأيت في الماء رجلاً يغوص متمنطقاً بحزام علق به كيساً ، وكان يسبح بقوة وهو يصعد بين فينة وأخرى إلى السطح للتنفس ، ثم لا يلبث أن يغوص من جديد عند ذلك استدرت إلى الربان وقلت له بصوت مضطرب :

- هنا رجل ، رجل ناج من سفينة غارقة . . . يجب إنقاذه بأى ثمن .
فلم يجب الربان ، بل جاء إلى النافذة واستند إليها . أما الرجل فقد اقترب من الغواصة وأدنى وجهه من زجاج النافذة وراح ينظر إلينا .
و شد ما كانت دهشتى حين رأيت الربان يشير إليه بيده ، ثم أسرع الغواص بالارتفاع إلى سطح الماء ولم يظهر مرة أخرى .
وقال الربان :

- لا تنزعج . إنه نيقولا من أهالى رأس ماتابان التي تعرف بالباسك ، وهو مشهور في كل هذه النواحي ، ، غواص جرى ، ، والماء موطنه ، ،

لأنه يعيش في البحر أكثر مما يعيش على البر ، لتنتقل من جزيرة إلى أخرى ، بل إنه بتتعد حتى جزيرة كريت .

– هل تعرفه يا كابتن ؟

– لا يامسيو أروناكس ؟

قال هذا ومضى إلى قطعة أثاث قريبة من النافذة اليسرى للصالون ، رأيت بجانبها خزانة حديدية يعلوها مقبض نحاسي نقش عليه شعار الغواصة .

وتقدم الربان دون أن يبرني أقل التفت إلى قطعة الأثاث ففتحها وإذا هي تحتوي على عدد كبير من السبائك .

وكانت سبائك من الذهب . ترى من أين جاء هذا المعدن الثمين الذي يساوي ثروة ضخمة ؟ وأين عثر الربان على هذا الذهب وماذا ينوي أن يفعل به ؟

ولم أنفك بكلمة . وجعلت أنظر إليه وهو يحمل السبائك واحدة بعد الأخرى ويرتبها في الخزانة حتى امتلات بها . وقد قدرت ما فيها من الذهب عندئذ بنحو ألفي رطل ، أي ما يساوي مائتي ألف جنيه .

وأحكم الربان إغلاق الخزانة ، ثم كتب على غطاها عنواناً بأحرف بدا لي أنها من اللغة اليونانية الحديثة .

ولما فرغ من هذا ضغط على زر متصل بمقاصير البحارة ، وسرعان ما أقبل أربعة منهم راحوا يدفعون الخزانة إلى خارج الصالون في شيء من الجهد ، ثم سمعهم يرفعونها فوق السلم الرئيسي (بالبكرات) .

وأخيراً استدار الربان نحوي قائلاً :

– هل قلت شيء يابروفوسور ؟

– لا يا كابتن .

– حسناً . إذا سمحت لي فإني أرجو لك ليلة طيبة .

وغادر الصالون على الأثر . . .

وعدت إلى غرفتي وأنا بطبيعة الحال أشد ما أكون فضولاً . وبتأ حاولت النوم فقد كنت أحاول أن أعرف العلاقة التي يمكن أن تكون بين الغواص وخزانة الذهب . ولم ألبث أن شعرت من تأرجح الغواصة واهتزازها أنها صعدت إلى السطح .

ولما سمعت وقع أقدام على ظهرها أدركت أنهم يرفعون الزورق من فوهته وينزلونه إلى البحر . وقد سمعته يصطدم بجوانب الغواصة ، ثم تلاشى الصوت .

وبعد ساعتين تكررت الحركة ، وتكرر الصوت نفسه . وكان واضحاً أن الزورق يعاد إلى فجوته . ولم تلبث الغواصة أن عادت للهبوط تحت سطح الماء .

وهكذا أدركت أن الذهب نقل إلى العنوان المبين على الخزانة . ترى إلى أى مكان في القارة كان إرساله ؟ ومن هو عميل الربان نيمو ؟ وفي اليوم التالي ذكرت لكونسايل ويند لاند ما حدث في الليلة السابقة مما أثار أشد الفضول في نفسي ولم يكن صاحباى أقل دهشة مني . وقد سألتني ويند لاند : قائلاً :

– ولكن أين عثر على كل هذا الذهب ؟

ولم يكن ثمة جواب معقول على هذا السؤال وبعد الإفطار ذهبت إلى الصالون وشرعت في العمل ولبثت في كتابة مذكراتي حتى الساعة الخامسة بعد الظهر ، وعندئذ شعرت باشتداد الحر دون سبب واضح ، فنضوت عنى ردائي المصنوع من ألياف نباتية . ولم أستطع أن أدري سر هذه الحرارة لأننا لم نكن في المنطقة الاستوائية فضلاً عن أن الحرارة لا ترتفع داخل الغواصة وهي تحت سطح الماء . ونظرت إلى مقياس الأعماق فرأيت أننا على عمق ستين قدماً وهو عمق لا يتأثر بدرجة الجو فوق سطح الماء .

واستأنفت الكتابة ولكن الحرارة أصبحت لا تطاق فقلت لنفسي :

– ترى هل شبت النار في الغواصة ؟

وبينما كنت أهم بمغادرة الصالون أقبل الربان ونظر في مقياس الحرارة والضغط ثم قال :

- اثنان وأربعون درجة مئوية .
- إننى أشعر بها يا كابتن . ولن نستطيع احتمال الحرارة إن زادت عن هذا الحد .
- إن الحرارة لن تزيد إلا إذا أردنا .
- إذن فى مقدورك أن تخففها .
- كلا . ولكننى أستطيع الابتعاد عن البوثة التى تولدها .
- إذن فهى حرارة آتية من الخارج ؟
- نعم . فإننا نسير فى ماء يغلى .
- أهذا ممكن ؟
- انظر

ورفعت الألواح عن النوافذ البللورية ، فشاهدت مياه البحر البيضاء حول الغواصة وكان ثمة دخان كبير يتبع بين الأمواج التى كانت تغلى كماء فى وعاء نحاسى على موقد . ولما وضعت يدي على زجاج النافذة وجدت الحرارة شديدة بحيث اضطرت إلى سحبها بسرعة . وأخيراً قلت :

- أين نحن ؟

- بالقرب من جزيرة سانتورين ، وعلى التحديد فى الممر المائى الذى يفصل جزيرة نياركاميني عن جزيرة بالياركاميني . وقد أردت أن أريك مشهداً غريباً من مشاهد الاضطرابات البركانية تحت الماء .
- كنت أظن أن عملية تكوين هذه الجزر الحديدية قد انتهت .
- لا يمكن أن ينتهى شئ فى المناطق البركانية . فإن الأرض تظل متفاعلة بسبب التياران المتأججة فى جوفها . وفى العام التاسع عشر بعد الميلاد تكونت جزيرة جديدة ، على ما أورده بلىنى وكاسيودور ، وهى جزيرة

فأى الجزيرة الإلهية ، وقد قامت فى نفس المكان الذى ظهرت فيه مجموعة من الجزر الصغيرة . ولكنها غاصت تحت سطح الماء ، ثم عادت للظهور عام ٦٩ ، ثم غاصت مرة أخرى . ومنذ تلك الحقبه إلى عصرنا هذا لم يجد شىء ، فلما كان اليوم الثالث من شهر فبراير عام ١٨٦٦ برزت من بين الأبحر الكبريتية جزيرة جديدة بالقرب من جزيرة نياركامينى ، سميت جزيرة جورج والتحمت بها فى اليوم السادس من نفس الشهر . وبعد سبعة أيام ، أى فى اليوم الثالث عشر من فبراير ظهرت أفروسا تاركة بينها وبين نياركارمينى ممرأ مائياً عرضه عشر ياردات . وقد كنت فى هذه المنطقة عند ما حدثت هذه الظاهرة الطبيعية مما هيا لى أن أشهد مراحلها العديدة . ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ثلاثين قدماً ، وتتكون من اللحم السوداء الممزجة ببقايا الفلزات . ثم ظهرت أخيراً فى اليوم العاشر من شهر مارس جزيرة صغيرة تسمى ريكابا بالقرب من نياركامينى أيضاً ، ومنذ ذلك الحين التحمت هذه الجزر الثلاث وصارت جزيرة واحدة .

– إذن فى أى ممر مائى نحن ؟

فقال الربان وهو يشير بأصبعه على خارطة الأرخبيل اليونانى :

– نحن هنا الآن حيث وضعت الجزر الحديدية كما ترى على الخارطة .

– ولكن هذا الممر قد ينسد يوماً ؟

– هذا جد محتمل يا مسيو أروناكس . فنذ عام ١٨٦٦ برزت ثمانى

جزر صغيرة أمام ميناء سانت نيقولا بجزيرة بالياركامينى ، ومن هذا يتضح

أن جزيرتى نياركامينى ، وبلياركامينى ستلتحمان فى وقت قريب وإذا

كانت التفتحيات – أى الدويبات المائة – هى التى تكون القارات المرجانية فى

المحيط الهادى ، فإن الاضطرابات البركانية هى التى تكونها هنا . انظر

يا سيدى إلى ما يحدث تحت هذه الأمواج .

وعدت إلى النافذة البللورية فألفت الغواصة لا تتحرك . واشتدت الحرارة

حتى أصبحت لاتطاق واستحال لون الماء الأبيض إلى الأحمر ، كان يرجع هذا التلون إلى وجود أملاح الحديد . ورغم إغلاق الصالون بإحكام فقد فيه رائحة كبريتية لا تحتمل ، كما رأيت السنة من اللهب الأحمر الذى كسف شاعت ضوء الغواصة الكهربائي .

وقلت للربان وأنا غارق في العرق محتق الأنفاس أكاد أغلى .

– لا يمكن أن نبقى أكثر من هذا في هذه المياه التي تغلى ٥

فقال الربان بهدوئه المعتاد :

– نعم ليس من الحكمة أن نبقى .

وصدر الأمر وتحركت الغواصة . ولم تلبث أن خرجت من هذا الفرن الذى لا يمكن أن تتحدها دون أن تتعرض للصخور . وبعد ساعة كنا نستنشق الهواء النقي على ظهرها .

وبدا لى إذ ذاك أنه لو اختار نيد لاند هذه المنطقة لتنفيذ خطة الهرب ،

لما خرجنا من المحاولة أحياء . –

وفي اليوم التالى السادس عشر من شهر فبراير ، غادرنا الحوض المائى الذى يقع بين الإسكندرية وجزيرة رودس ، والذى يزيد عمقه على تسعة آلاف قدم وما لبثت الغواصة وهى تمضى على مرمى البصر من جزيرة سيريجو أن خلفت وراءها أرخبيل اليونان بعد دورانها حول راس ماتابان ٥

الفصل الحادي والثلاثون

اجتياز البحر الأبيض في ثمان وأربعين ساعة

إن البحر الأبيض ذا الزرقة الصافية في نظر الفرنسيين ، وبحر الإغريق ، و«بحرنا» في زعم الرومانيين ، بحر واسع الأرجاء ، تحف به أشجار البرتقال ، ونبات الصبار وأعواد الند وأشجار الحور البحرية التي يفوح فيها عبير (الآس) ، كما تحيط به سلاسل الجبال التي يترقرق حولها الهواء النقي الشفاف بينما يتأجج باطنها بالنيران . . هذا البحر ميدان مثالي للمعارك التي لا تزال دائرة الرحي بين نيتون وبلو للسيطرة على العالم ، فيما تقول الأساطير .

- وعلى مياهه وفوق شطآنه ما زالت البشرية تتجدد - كما يقول ميكليت - في منطقة تعد من أبداع مناطق العالم جواً . ولكني رغم كل هذا الجمال . لم أستطع إلا أن ألقى نظرة سريعة على حوضه الذي يغطي مساحة مقدراتها مليونان من الكيلومترات المربعة . وحتى علم الربان نيمو الواسع قد حرّمته ، إذ أن هذا الشخص الغامض لم يظهر لنا أثناء اجتيازنا هذا البحر مسرعين . وقد قدرت المسافة التي ستقطعها الغواصة تحت سطح الماء بستائة فرسخ «أى ١٨٠٠ ميل» وقد قطعها في ثمان وأربعين ساعة إذ بدأنا الرحيل من المياه اليونانية في صباح اليوم السادس عشر من شهر فبراير واجتازنا مضيق طارق مع شروق الشمس في اليوم الثامن عشر .

وقد تبين لي بوضوح أن الربان نيمو كان شديد النفور من هذا البحر وما يحيط به من بلاد ، ويبدو أن أمواجه ونسائمه أثارت الكثير من ذكرياته ، إن لم يكن الكثير من أشجانه ، فهو هنا لم يكن يستمتع بحرية الحركة والقيادة التي تهبّأت له في المحيط الواسع . وكانت غواصته أسيرة بين الشواطئ الأوربية والإفريقية :

وكانت سرعتنا عندئذ خمسة وعشرين ميلا في الساعة ، ولست بحاجة إلى القول إن نيد لاند اضطر مكرها لتبذ فكرة الهرب . فلم يكن في مقدوره استخدام قارب كان يندفع مع الغواصة بسرعة ثلاثة عشر ياردة في الثانية . وكان الهرب من الغواصة عندئذ كالفز من قطار ينطلق بنفس السرعة ، وهي محاولة أبعد ما تكون عن الحكمة . يضاف إلى هذا أن الغواصة كانت تصعد إلى السطح للتهوية في الليل فقط ، وكان كل الاعتماد في قيادتها على البوصلة ومسجل السرعة .

ولهذا لم أر من البحر الأبيض إلا ما يراه راكب القطار السريع من المشاهد الخاطفة أمام عينيه ، أو بمعنى آخر ، الأفق البعيد ، لا المشاهد القريبة التي كانت تتعاقب في سرعة البرق . ومهما يكن فقد استطعت أنا وكونسايل أن نلاحظ في هذا البحر بعض أنواع السمك التي كانت قوة زعانفها تتيح لها الصمود لحظات أمام اندفاع الغواصة ، وكنا نرقب هذه الأسماك خلف نوافذ الصالون البلورية ، كما أن مذكراتنا عنها تهيئ لي تلوين بضعة أسطر عن علم الأسماك في هذا البحر .

لقد رأيت بعض هذه الأسماك المختلفة ، ولحت بعضها الآخر ، ولا أستطيع الحديث عن غيرها من الأنواع التي لم تتح لي سرعة الغواصة رؤيتها إطلاقاً . وقد أتيت في تصنيف هذه الأنواع السمكية طبقاً لهذه الظروف التي لم تسمح لي إلا بالملاحظة العابرة .

كانت تنساب في اللجج المائية المضاءة بالنور الكهربائي ، بعض أسماك المورينة أو الحلكاء ، وطول كل منها نحو ياردة ، وهي من الأنواع الشائعة في كل الأجواء تقريباً ، وبعض أسماك الإكسرينيش ، وهو نوع يبلغ عرضه خمسة أقدام ، أبيض البض تعلو ظهره نقط رمادية وهو يسبح في مجموعات كبيرة يحملها التيار . ومررت بنا أنواع أخرى من هذا السمك بسرعة بالغة بحيث تعذر أن أتبين إن كانت تستحق اسم « النسور » كما يسميها اليونانيون ، أو الفيران أو الضفادع أو الخفافيش كما يسميها الصيادون المعاصرون .

وكت أرى قليلا من نمور البحر «الميلاندر» التي يبلغ طول أحدها اثني عشر قدما ، والتي يفزع منها الغواصون على الأخص ، كانت تتسابق مع أسراب الاكسيريبيش أما سمك ثعالب البحر الذي يبلغ طوله ثمانية أقدام ويتمتع بحاسة شم قوية ، فكان يظهر كظلال كبيرة زرقاء . وكانت أسماك الدوريد المذهبة الرأس التي طول إحداها تسع وثلاثين بوصة تقريبا ، تلبو في أمابها الأزرق أو الفضي الموشى بخطوط لطيفة تتألق أمام ألوان زعانفها القاتمة . وثمة أسماك قيل إن ألهة الجمال فينوس كانت مولعة بها إلى حد التقديس ، وهي ذات عيون ذهبية المحاجر ، كما أنها نوع ثمين يعيش في المياه العذبة والمالحة وفي الأنهار والبحيرات والمحيطات ، وفي كل أنواع الأجواء بمحتملة كافة التقلبات الجوية ، وهي سلالة تنحدر من أصل يمتد إلى العصور الجغرافية الأولى للكرة الأرضية ، وهكذا استطاعت أن تحتفظ بكل جمالها الطبيعي الأصل . وكان سمك الحفش الفاخر الذي يبلغ طوله من عشر إلى اثنتي عشرة ياردة ، والذي يمتاز بالسرعة الفائقة ، يضرب زجاج النوافذ البللورية بذيوله القوية ، ويكشف عن ظهور مائلة للزرقة ذات نقط بنية . ويشبه هذا السمك نمور البحر ولكن لا يدانيه في القوة . وهو موجود في جميع البحار ، وفي الربيع ينتقل إلى الأنهار الكبيرة حيث يكافح تيارات الفولجا والدانوب والبو والرون واللوار والاوردر ، ويقتات بأسماك الرنجة . والسالمون والبيكالاة . ورغم أنه من الفصيلة الغضروفية فلحمه طيب المذاق وهو يؤكل طازجاً ، ومجففاً ، ومملحاً ، وكانت تزهو به مائدة الإمبراطور لوسيلوس . ولكن الأسماك التي استطعت ملاحظاتها بتفصيل واف من بين مختلف أسماك البحر الأبيض كانت نوعاً من السمك ينتمي إلى الفصيلة الثالثة والستين في ترتيب الأسماك العظمية . وذلك هو سمك التونة القاتم اللون ، والأزرق الظهر المموه البطن باللون الفضي . الذي تشع زعانفه الصدرية وميضاً كالذهب . والمشهور عن هذه الأسماك أنها تتبع السفن التماساً لظلالها في الأجواء الاستوائية . وقد رافقت الغواصة في مسيرها كما سبق أن رافقت سفن لايروز . لقد

جاهدت ساعات طويلا أن تتابع الغواصة في سيرها والواقع أنى لم أشبع من الإعجاب بهذه الأسماك التي خلق جسمها خاصة لسرعة السباحة ، فرووسها صغيرة وأجسامها مرنة مستديرة يبلغ طول بعضها ثلاث ياردات وتمتاز زعانفها الظهرية بقوة كبيرة وذيلها مفروقة . وكانت تسبح في تشكيلات مثلثة كبعض أسراب الطيور التي تتساوى معها في السرعة مما جعل القدماء يقولون :إنها على علم بالهندسة والتخطيط . ومع ذلك فإنها لا تنجو من شباك سكان الأقاليم المجاورة الذين يولعون بها مثل أهالى إيطاليا . كما تموت الآلاف من هذه الأسماك الثمينة وهي عمياء مترنحة في شباك الصيادين بمارساليا .

وإني أسجل هنا ما وعته الذاكرة من أسماك البحر الأبيض التي لمحيتها أنا وكونسائل بنظرات عابرة منها سمك (البياض العريان) الذى يمر كأنه الأبخرة ، وثعابين القنجر أو الأتكليس البحرى . والأفاعى المائية التي يتراوح طولها بين ثلاث أو أربع ياردات . وهى مزخرفة بالألوان الخضراء والزرقاء والصفراء وأسماك البكالاه التي يبلغ طولها ثلاثة أقدام وتصنع من أكبادها أطباق شهية . وسمك الكويبول – تيانيا الذى يبدو في البحر كأعشاب المائية الحميلة . وسمك التريجل الذى يسميه الشعراء سمك القيثار ويسميه البحارة السمك (الصفار) وأفواهه محلاة بمثلثين من أسنان كالنصال على هيئة معزف هوميروس القديم . وثمة فضيلة أخرى من هذا النوع اسمها سمك التريجل العصفورى لأنها تسبح بسرعة الطيور وسمك الألوز المزين بنقط سوداء ورمادية وبنية وزرقاء وصفراء وخضراء وهو يستجيب عادة إلى رنين الأجراس وسمك التربوت الفاخر المعروف باسم دجاج البحر . وهو نوع قالبى الشكل له زعانف صفراء مرقطة باللون البنى ، ثم أسراب من البورى الأحمر المعروف باسم عصفير جنة المحيط ، وكان الرومان يشترونه بأثمان باهظة لكى يشاهدوه على المائدة وهو يتحول من لون الحياة الأحمر القانى إلى لون الموت الأبيض الشاحب .

وإذ كنت لم أستطع مشاهدة أسماك أخرى كالبورى والبالستر وفرس البحر (الهوكان) والجوان وسمك البوق ، والبلينى ، والبورى الأحمر ، والراس ، والحساس ، والبورى البياح أو الذهبي ، والأنشوجة والباغورى ، والبوجى ، وأبو النقار أو أية أنواع رئيسية من التي تمثل رتبة الأسماك ذات الرؤوس المفرطحة كسمك الداب (يشبه سمك موسى) والفلز ، والسطحيات، وأنواع من سمك موسى ، وكلها من مرتبة الأسماك المستوطنة للبحر الأبيض والبحر الادرياتي وإنما يرجع هذا إلى سرعة الغواصة وهي تجتاز البحر من أقصاه إلى أقصاه .

أما عن الثدييات البحرية فأظنني رأيت في مدخل البحر الأدرياتي اثنين أو ثلاثة من القشطلوت « القياطس » (حوت العنبر) المزود بزعانف صدرية ، وبعض درافيل البحر ذات الرؤوس والظهور المقلمة بخطوط رفيعة واضحة وعشرات من الصيلات (سباع البحر) يبطنون بيضاء وشعور سوداء ، وهي تعرف باسم « الرهبان » لأنها في الواقع تشبه الرهبان اللومينكان رغم أن طول الواحدة منها ثلاثة ياردات .

أما كونساييل فقد تصور أنه شاهد سلحفاة بحرية طولها ستة أقدام مزينة بخطوط من العظام البارزة طولية الاتجاه . وقد أسفت لعدم رؤيتي هذه السلحفاة ، إذ يبدو أنها من نوع نادر ولكنى شخصياً لم أشهد سوى عدد يسير من سلاحف الكاكدان ذات الذبول العظمية الطويلة .

أما عن الزوفيت أو الحيوانات الشبيهة بالنبات . فقد أعجبت ببعضها وهي من الشعبيات التي رأيتها عالقة بالألواح الجانبية للغواصة . وكانت خويضات رقيقة طويلة مطردة التشعب ، وتنتهى بالظف ألوان مما لا يأتي بمثله الفنانون . ولم يكن في مقدورى لسوء الحظ الحصول على بعض من هذه الأنواع البديعة وكان حتماً ألا أشهد أنواعاً أخرى من الزوفيت في البحر الأبيض المتوسط لو لم تخفف الغواصة من سرعتها في ليلة السابع عشر من شهر فبراير بسبب المناسبة الآتية :

كنا عندئذ نمر بين جزيرة صقلية وشاطئ تونس، أى فى الممر المائى الضيق بين رأسى بون ومضايق ميسينا ، وفى هذه المنطقة يرتفع قاع البحر ارتفاعاً يكاد يكون رأسياً بحيث يتكون فى هذا المرشبه حاجز تعلوه المياه بارتفاع ست عشر ياردة فقط ، أما عن الجانبين فكان العمق يبلغ نحو مائة وثمانين ياردة ، ومن ثم كان على قائد الغواصة أن يمضى بها فى حذر لئلا تصطدم بالحاجز .

ولما اطلمت كونساييل على موضع الحاجز على خارطة البحر الأبيض المتوسط قال :

- إنه شبه برزخ حقيقى يصل بين أفريقيا وأوربا .
- نعم يا بنى لقد أثبتت أبحاث العالم الجغرافى سميث أن القارتين كانتا فيما مضى عند رأس بوكود ورأس نورينا .
- فقال كونساييل :
- هذا ما أعتقده أيضاً .
- ويمكننى أن أضيف إلى هذا أن هناك حاجزاً مماثلاً فى مضيق جبل طارق كان فيما مضى يفلق البحر الأبيض المتوسط كله .
- ماذا لو أن بركاناً ثار ذات يوم ورفع هذه الحواجز إلى ما فوق الماء ؟

- هذا احتمال بعيد يا كونساييل .
- ولكن إذا وقعت مثل هذه الظاهرة فلإنها ستكون من سوء حظ من يحاول حفر قناة السويس .

- نعم . . . هذا محتمل . . . ولكنى أكرر القول يا كونساييل إن هذا لن يحدث ، فإن الثورات البركانية آخذة فى التناقص ، والبراكين التى كانت متكاثرة فى عصور التاريخ الأولى تخمد الآن تدريجياً لأن الحرارة فى باطن الأرض تخف على مر العصور ، ودرجتها تهبط إلى حد كبير عصرأ بعد

عصر وفي هذا أشد الضرر لكهرتنا الأرضية التي تتوقف حياتها على هذه الحرارة الجوفية .

– ولكن الشمس . . . ؟

– إن حرارة الشمس وحدها لا تكفي يا كونسابل . . هل يمكن الشمس

أن تحيا بالحرارة جثة هامدة ؟

– لا أعتقد . .

– حسناً يا كونسابل . سوف تصبح الأرض ذات يوم كالجثة الهامدة

الباردة ، وإذ ذاك لن تكون صالحة للحياة ولن تكون مأهولة كالقمر الذي فقد حرارته الجوفية منذ أمد بعيد .

– في كم من القرون يحدث هذا ؟

– في بضعة آلاف من السنين .

– إذن سيكون لدينا الوقت الكافي لإتمام رحلتنا إذ لم يتدخل نيد لانند

في الأمر .

وبعد أن اطمأن كونسابل على هذه الصورة عاد إلى دراسة القاع البحري

المرتفع الذي كانت الغواصة تمر بجانبه في سرعة معتدلة .

وهناك على أرض القاع الرملية الصخرية كانت تعيش النباتات الحية من الاسفنجيات والنقعيات والهلاميات المزخرقة بأصباغ مائلة للحمرة تبعث منها أحياناً أضواء فسفورية والبيروز المعروف باسم خيار البحر والأحياء القنابية التي تسبح في أطياف من ضوء الشمس ويبلغ طولها نحو ياردة ، وتنساب منها أصباغ قرمزية تضيئ حمرة على الماء والأحياء المتشجرة ذات الجمال الرائع ، والأسماك القزحية ذات الزعانف الكبيرة ، وأنواع مختلفة من قنafd الماء الصالحة للأكل ، وشقائق البحر ذات الأنياب الرمادية والأقراص البنية المخفية بين مجاسها الزيتونية اللون .

وقد أكثر كونسابل من اهتمامه باللافقریات والمفصليات « ذوات المفاصل »

ورغم امتلاء جعبته بالأسماء العلمية الحافلة ، فإنى لن أهضم حقه بإغفال ملاحظاته الخاصة .

فى شعبة اللافقریات نراه يسرد عدداً كبيراً من أنواعها : الشطاني ، والأسقلوب ، وحوافر الححش التى يتراكم بعضها على بعض والدوناس المثلث ، والهياليا الثلاثية ذات الزعانف الصفراء والأصداف الشفافة والشعبيات البللورية المحفوفة باللون الأحمر ، والبويضات المرقطة باللون الأخضر ، والابليزيا المعروفة باسم أرانب البحر ، والدولابليا ، والاسيروز اللحمية ، والأمبرليا الخاصة بالبحر الأبيض ، وزوائد البحر الذى ينتج محارها أحسن أنواع عروق اللؤلؤ . ومحار الأنوم الذى يقال إن أهالى جنوب فرنسا يفضلونه على كل أنواع المحار . ومحار الكلوفر الشهى لدى أهالى مرسيليا ، والبرايرى المزدوج ، الأبيض السمين ، الذى يكثر بعض أنواعه فى شواطئ أمريكا الجنوبية ، والذى يكثر بيعه فى نيويورك . وأمشاط السمك الصمى ذات الألوان المتدرجة والمرجانيات المطمورة فى أجحارها التى استعذب مذاقها الحريف وغير هذا كثير . أما المفصليات ، فقد قسمها كونساييل فى مذكراته إلى ستة أقسام ينتمى ثلاثة منها إلى البحرىات وهى القشريات ، والليفيات ، والحلقيات . وتنقسم القشريات إلى تسعة مراتب ، وتحتوى المرتبة الأولى منها على القنصيات أى الحيوانات التى تتصل رؤوسها عادة بصلورها مباشرة ، والتى بتكون جهازها الشدق من عدة أعضاء ، كما أن لها أربعة أو خمسة أو ستة أزواج من مخالب الحركة .

وقبل أن يدون كونساييل فى مفكرته بقية الأقسام والرتب كانت الغواصة قد اجتازت المياه اللبية وابتعدت عن الحاجز القاعى ، واستأنفت سرعتها فى مياه بعيدة العمق ، ومنذ ذلك الحين لم نشهد شيئاً من اللافقرىات أو المفصليات أو الشعبيات . بل قليل من الأسماك الكبيرة التى كانت تمر كالظلال . وفى ليلة السابع عشر من الشهر دخلنا الحوض الثانى من البحر الذى يبلغ

أعمق مكان في قاعه ثلاثة آلاف ياردة . وقد راحت الغواصة تنساب بقوة محرّكاتها في هذه الأغوار العميقة .

وهناك رأيت بدلا من العجائب الطبيعية - مشاهد بالغة التأثير . كنا في الواقع نعبّر ذلك الجزء من البحر الأبيض الذي كثرت فيه الكوارث والأحداث . فكم من سفن غرقت بين شواطئ الجزائر وبين الشواطئ الأوروبية لهذه المنطقة . إن البحر الأبيض لا يعدو أن يكون بحيرة بالقياس إلى المحيط الهادئ الفسيح . ولكنه بحيرة متقلبة الأهواء ، متغيرة المزاج فهي اليوم رقيقة حانية على السفن الشراعية الصغيرة المتقلبة بين السواحل المحلية التي تبدو كأنها ساحة في جو هادئ من الماء والسماء ، وهي غداً عاصفة نائرة الرياح تحطم أقوى السفن بضربات أمواجها الساحلية الضيقة .

ما أكثر حطام السفن التي رأيتها في القاع أثناء مرور الغواصة السريع ! كان بعضها قد غلفته الشعب المرجانية بطبقة من الصدأ ، ناهيك بالمراسي الحديدية والمدافع والقذائف ، وقضبان الحديد والرفاصات وقطع الآلات ، والقزانات المحطمة وبعض أجسام عائمة في وسط الماء من سفن غارقة ، وبعضها ألقى وبعضها مقلوب .

ومن هذه الكوارث ما كان وليد اصطدام سفينة بأخرى ومنها ما كان نتيجة اصطدام السفن ببعض الصخور الجرانيتية ، وقد رأيت سفناً غاصت إلى القاع رأسياً وصواريخها لا تزال مرفوعة ، فبدت وكأنها راسية في مكان رجب لا تنتظر إلا ساعة الرحيل . وحين مرت الغواصة بالقرب منها مرسلت ضوءها الكهربائي عليها ، بدت هذه السفن ذات الأشرطة وكأنها تهم يتحيتنا . ولكن كلا . . . لم يكن ثمة إلا سكون الموت مخمياً فوق ساحة الكوارث .

ولاحظت أن نسبة حطام السفن كانت تزداد في قاع البحر الأبيض كلما اقتربت الغواصة من مضيق جبل طارق ، حيث كانت الشواطئ الأوربية والأفريقية تزداد اقتراباً فزداد نسبة الاصطدامات . وهكذا رأيت عدداً كبيراً من هياكل

السفن وحطام البواخر ، بعضها منقلب على جانبه وبعضها منتصب كحيوانات ضخمة ، وقد رأيت واحدة منها مفتوحة الجوانب مائلة المدخنة فصلت عجلة قيادتها من المقدمة وإن بقيت معلقة بسلسلة حديدية ؛ أما المقدمة المتأخرة من الصدا فكان لها مشهد رهيب . ترى كم من النفوس البشرية لقيت حتفها في هذه الكوارث . وكم من الضحايا ابتلعها هذه الأمواج .

هل عاش واحد من البحارة ليرى ما حدث في هذه الكوارث الرهيبة ، أم أقيت الأمواج على أسرارها المشثومة ! ولست أدري ما الذى أوحى إلى أن هذه السفينة لا بد أن تكون السفينة « أطلس » التى اختفت منذ عشرين عاماً ولم يسمع عنها شئ منذ ذلك الحين . آه ياله من تاريخ مستطير ترويه أعماق البحر الأبيض ! . . هذا المدفن الكبير الذى كم ضاعت فيه ثروات وكم التى من عديد الضحايا مع الموت !

وفى خلال ذلك كانت الغواصة تنطلق بين هذه الأطلال مسرعة لا تأبه لشيء ؛ حتى إذا كان اليوم الثامن عشر من فبراير أشرفت على مدخل جبل طارق فى نحو الساعة الثالثة صباحاً .

وفى هذا المضيق كان يجرى تياران بحريان . التيار العلوى المعروف منذ أمد بعيد يحمل مياه المحيط إلى حوض البحر الأبيض المتوسط ، والتيار السفلى المضاد ، الذى ثبت وجوده بالتفكير والمنطق ، السليم . ذلك أن كمية مياه البحر الأبيض التى تضطرد زيادتها من مياه المحيط والأنهار التى تصب فيه لا بد أن ترفع مستواه كل عام ، ولما كانت عوامل التبخر لا تكفى لإرجاعه إلى مستواه المنخفض فيتحمم إذن وجود تيار سفلى يدفع الماء الزائد إلى المحيط عبر مضيق جبل طارق .

وقد أثبتنا نحن هذه الحقيقة إذ استفادت الغواصة من وجود التيار المضاد ، واندفعت بسرعة خلال الممر الضيق ، وأتيح لى أن ألمح بنظرة عابرة أطلال معبد هرقل الغارق مع الجزيرة التى شيد فوقها معبداً بلىنى وأفينوس — وما هى إلا لحظات حتى كنا نطفو على سطح المحيط الأطلنطى .

الفصل الثاني والثلاثون

خليج فيجو

المحيط الأطلنطي . هذا المنبسط المائي الشاسع الذي يغطي مساحة تقدر بملايين الأميال فإن طوله تسعة ملايين ميل وإن عرضه محدود لا يزيد عن ألفين وسبعمائة ميل . إنه محيط كبير الأهمية رغم أن القدماء لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً إلا سكان قرطاجه . أولئك الملاحون القدامى الذين كانوا يتبعون في رحلاتهم التجارية الشواطئ الغربية لأوروبا أو أفريقيا . إنه محيط تحتضن شواطئه المتوازية الملتوية حوضاً هائلاً تصب فيه أكبر أنهار العالم . سانت لورنس ، والميسيسيبي ، والأمازون ، ولابلاتا ، وأدينوكو ، والنيجر ، والسنگال ، والألب ، واللوار ، والراين ، وهي أنهار تجلب المياه من أرقى الأمم حضارة كما تجلبها من أشدها تخلفاً . إنه سهل رائع تشقه السفن من كل الأمم بلا انقطاع ، تظللها أعلام كافة الدول ، وينتهي في موضعين نحيفين يجزع منهما كل ملاح ، رأس هورن ، ورأس تمبست .

وكانت الغواصة تضرب الماء بمقدمها المدب بعد أن قطعت نحو عشرة آلاف فرسخ في ثلاثة أشهر ونصف شهر ، وهي مسافة أكبر من مدار الكرة الأرضية . ترى إلى أين نحن الآن ذاهبون ؟ وماذا نجني لنا المستقبل ؟ لقد صعدت الغواصة إلى السطح عقب خروجها من مضيق جبل طارق ، وهكذا عدنا إلى نزهتنا اليومية فوق ظهرها .

لقد بادرت بالصعود إلى سطحها مع كونسایل ونيد لاند حيث رأينا رأس فنسنت يبدو غائماً على مسافة اثني عشر ميلاً ، وهو يكون الطرف الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة الإسبانية . وكانت الرياح تهب في عنف يقرب

من العاصفة ، والبحر مهتاجاً مما جعل الغواصة تتأرجح بقوة ، حتى كاد يستحيل البقاء على سطحها الذي كانت الأمواج تكتسحه بين حين وآخر ، فلم يسعنا إلا العودة إلى داخلها بعد أن ظفرنا بقدر من الهواء النقي .

وعدت إلى غرفتي ، ومضى كونساييل إلى قمرته ، ولكن نيد لاند تبغني وهو يبدو مشغول البال أذ كان اجتيازنا السريع في البحر الأبيض قد حال دون تنفيذ مشروعه للهرب ، ولم يحاول كتمان استيائه لهذا السبب .

ولما أغلقت باب غرفتي جلس ينظر إلى في صمت . فقلت له :

— يا صديقي نيد لاند إنني أعرف ما يدور بنفسك ، ولكن ليس هناك ما تلام عليه . فقد كان من الجنون أن يحاول الإنسان الهرب من الغواصة وهي تنطلق بمثل هذه السرعة .

فلم يجب نيد لاند بشيء ، ولكن نمت شفتاه المطبقتان وجبينه المقطب عن مبلغ سيطرة هذه الفكرة على نفسه . وعدت أقول له :

— حسنا ليس ثمة موجب لليأس بعد . إننا نسير الآن تجاه شاطئ البرتغال وإن فرنسا وإنجلترا على مسافة بعيدة حيث يمكننا أن نلتمس الملاذ . ولو أن الغواصة مضت بعد خروجها من جبل طارق إلى تلك المناطق البعيدة عن اليابسة لشاطرتك الإحساس بالقلق . ولكننا نعرف الآن أن الربان نيمو لا يتجنب المناطق المتحضرة ، وإذن في مقدورنا بعد أيام قليلة أن ننفذ مشروعنا في شيء من الأمان .

وحدق نيد لاند إلى برهة ، وأخيراً انفرجت شفتاه قائلاً :

— سيكون التنفيذ الليلة .

انفضت في مكاني . وأعترف أنني لم أكن مستعداً لهذا النبأ وقد أردت أن أجيب ولكن الألفاظ أبت أن تخرج من شفتي . فعاد يقول :

— لقد اتفقنا على انتظار الفرصة السانحة . وها هي الفرصة قد سنحت .

فستكون الليلة على بعد أميال قليلة من الشاطئ الأسباني . وسيكون الظلام كثيفاً . وإني معتمد عليك يا مسيو أورناكس بعد أن وعدتني .

ولما بقيت صامتاً ، نهض واقترب مني قائلاً :

– في الساعة التاسعة من هذه الليلة . لقد أخبرت كونسایل بالأمر . وفي مثل هذا الوقت سيكون الربان نيمو . في غرفته ، وربما في سريره . ولن يستطيع المهندسون أو البحارة أن يشاهدونا . وسأذهب مع كونسایل إلى السلم الرئيسي ، وستبقى أنت يا مسيو أروناكس في غرفة المكتبة ، وهي غير بعيدة ، حيث تنتظر إشارتنا . وزوق الغواصة مزود بالمجاديف والصارى والشراع ، بل إنى استطعت تهريب بعض الزاد إليه وقد حصلت على « مفتاح انجليزى » لنزع الروابط الحديدية التى تشده إلى الغواصة . وهكذا تم إعداد كل شىء لهذه الليلة .

– ولكن البحر مضطرب .

– أنا مسلم بهذا ، ولكن لا بد من المخاطرة ، إن الحرية جديرة بأن يضحى الإنسان من أجلها . وفوق هذا فإن القارب متين ، والإبحار بضعة أميال مع ريح مواتية ليس بالأمر العسير ، فمن يدرينا أننا لن نكون غداً على مسافة ثلاثمائة ميل من الشاطئ إذا بقينا هنا ، أما إذا ساعدتنا الظروف ، فسنبلغ اليابسة أحياء أو أمواتاً فيما بين العاشرة والحادية عشرة صباح غد ، فليكن موعدنا الليلة على بركة الله .

ثم انسحب نيدلاند على الأثر وتركنى مشدوهاً . فقد كنت أتصور أنى أستطيع عند ما أتحين الفرصة أن أناقش خطة الهرب . ولكن صاحبي العنيد لم يسمح لى بهذه الفرصة . وعلى أى حال ماذا كان يمكن أن أقول له . إن نيدلاند على حق . فهى فرصة سانحة ، وقد استغلها . فهل كنت أستطيع أن أسترده كلمتى وأزعم – لمصلحتى الخاصة – أنى أعمل لمستقبل صاحبي ؟ وقد لا يبعد أن يمضى الربان نيمو بنا غداً إلى جهات نائية عن اليابسة . وفى تلك اللحظة سمعت صوت فحيح قوى أدركت منه أن مستودعات الماء تمتلئ ، وما لبثت الغواصة أن هبطت إلى جوف المحيط الأطلنطى .

وبقيت في غرفتي : وتمنيت أن أتجنب الربان حتى أخفي عن نظراته الانفعالات التي تضطرم في نفسي وإنه ليوم حزين هذا الذي أمضيته بين الرغبة في استرداد حريتي وبين الأسف على مغادرتي لهذه الغواصة الرائعة والتخلي عن أبحاثي البحرية قبل استكمالها . كيف أترك محيطي الاطلنطي هذا كما أحب أن أسميه ، قبل أن أدرس أعماقه أو أعرف منه تلك الأسرار التي عرفها في بحار الهند والمحيط الهادي . لقد ضاعت قصة المغامرة من يدي وأنا لازلت في أول مجلداتها . . لقد انقطع جبل أحلامي في أهبى موضع منه . إنها ساعات تاعسة أمضيتها هكذا وأنا أرى نفسي حيناً في أمان بالزورق مع صاحبي وحيناً آخر أتمنى لو أن ظروفًا مفاجئة طرأت وحالت دون تنفيذ خطة نيد لاند .

وذهبت إلى الصالون مرتين لأنظر إلى البوصلة وأرى هل تقترب الغواصة من الشاطئ أو تبتعد عنه . فتبينت أنها لا تزال تسير في المياه البرتغالية متجهة شمالاً بحذاء شواطئ المحيط .

ولم يسعني إذاً إلا أن أحزم رأبي وأتأهب للهرب . ولم تكن حقيقتي ثقيلة إذ لم يكن بها سوى مذكراتي . ورحت أتساءل عما سيشر به الربان نيمو بعد فرارنا وعن القلق الذي سيسببه له هذا الفرار أو الضرر الذي قد يصيبه ، وما قد يفعله إذا اكتشفت الخطة قبل أن يكتب لها النجاح . واناوقع أني لم أجد أي مأخذ علي الربان بل على العكس لم يسبغ أحد من الكرم مثلاً أسبغ علينا . ولكن لا يمكن أن أتهم بالاحجود إذا أنا تركته لأننا لم نرتبط معه بقسم ، وكان يعتمد على قوة الظروف وحدها في استبقائنا معه إلى الأبد ، لا على وعد أكيد منا . بل إن ما صارحنا به من نية الإبقاء علينا أسرى إلى الأبد في غواصته يبرر قيامنا بهذه المحاولة .

ولم أكن رأيت الربان منذ زيارتنا لجزيرة سانتورين . فهل يقدر لي لقاءه قبل الرحيل . لقد تمنيت هذا وخفته في آن واحد . وأرهفت سمعي

عسى أن أسمعه يتمشى في الغرفة المجاورة فلم يصل إلى أذني صوت وأدركت أنه لا يمكن أن يكون بالغرفة أحد .
ثم جعلت أتساءل عما إذا كان هذا الرجل العجيب موجوداً في الغواصة على الإطلاق !

كانت أحواله قد تغيرت قليلاً منذ ذهب زورق الغواصة في تلك المهمة الغامضة . كما أدركت رغم كل أقواله إنه لا بد على نوع من الاتصال باليابسة . أم تراه لا يغادر الغواصة قط . لقد انصرفت أسابيع كاملة دون أن أراه . فإذا كان يفعل طوال هذه المدة . ألا يحتمل وأنا أحسبه مريضاً بداء النفور من الناس أن يكون منهمكاً في تحقيق أهداف سرية لم أستطع بعد أن أعرف طبيعتها ؟

كانت هذه الخواطر وكثير غيرها تهاجمني في وقت واحد . وإن مجال التخيل يكون بلا حدود في مثل هذه الظروف الشاذة . وهكذا ساورني قلق لا يحتمل . وبدا يوم الانتظار هذا بلا نهاية حتى خيل إلى من فرط القلق أن الساعة تدور ببطء

وقدم إلى طعام الغذاء في غرفتي كالمعتاد فأكلت قليلاً بسبب انشغال ذهني ، ونهضت عن المائدة في الساعة السابعة وكان ثمة مائة وعشرون دقيقة لا تزال تفصلني عن موعد انضمامي إلى نيد لاند . وازداد انفعالي واشتدت ضربات قلبي ولم أستطع أن ألزم السكون فأخذت أتمشى لعل بالحركة أهدئ من اضطراب ذهني . وكانت فكرة فشل محاولتنا الحريثة أقل ما يؤلني . ولكن التفكير في افتضاح مشروعنا قبل مغادرتنا الغواصة ثم وقوفنا أمام الربان نيمو وهو ساخط أو محزون لفراق في أسوأ الظنون كان يضاعف من خفقان قلبي .

وأردت أن أرى الصالون للمرة الأخيرة . فذهبت عن طريق وسط الغواصة . ودخلت المتحف الذي طالما أمضيت فيه ساعات جميلة . ونظرت

إلى تلك الكنوز وكأني رجل يوشك أن ينفي نفياً أبدياً أو يذهب إلى غير رجعة . هذه العجائب الطبيعية ، وهذه الروائع الفنية التي قضيت بينها كثيراً من أيام حياتي ، كنت على وشك مفارقتها إلى الأبد . وتاقت نفسي إلى النظر من النوافذ البللورية إلى مياه الأطلنطي . ولكن النوافذ كانت مغلقة بإحكام . وكانت الألواح الحديدية تفصلني عن المحيط الذي لم أعرف عته الكثير بعد .

ووصلت وأنا أسير في الصالون إلى الباب المؤدي إلى الدهليز الموصل إلى غرفة الربان . وشد ما كانت دهشتي حين رأيته موارباً فتراجعت برغمي ، إذ لو كان الربان في غرفته لرآني . ولما لم أسمع صوتاً زدت اقتراباً ، فوجدت الغرفة خالية ، ففتحت الباب ودخلت فوجدتها كالعهد بها أشبه بصومعة ناسك .

واسترعى نظري إذ ذاك صور لم أرها من قبل في الغرفة معلقة على الجدران : صور رجال من عظماء التاريخ الذين كرسوا حياتهم في سبيل المثل الإنسانية العليا . كوشيسكو البطل الذي خر صريعاً وهو يهتف « انتهيت يا بولنيا » وبوتزاري بطل اليونان الحديثة ، وأوكينل المدافع عن إيرلندا ، وواشنطن منشي ، الاتحاد الأمريكي ، ومانيني البطل الإيطالي ، ولنكولن الذي راح ضحية سفاك من ملاك العبيد ، وأخيراً جون براون ضحية تحرير الجنس الأسود ، وهو معلق في المشنقة كما صورته قلم فكتور هيغو .

ترى أي وشائج تربط هؤلاء الأبطال بالربان نيمو ؟ هل تؤدي اجتماع هذه الصور إلى إماعة اللثام أخيراً عن سره الغامض ؟ أهو بطل في وطن مضطهد أو قائد حركة لتحرير العبيد ؟ أهو إحدى الشخصيات الكبيرة ذات الأثر البالغ في الحركات السياسية والاجتماعية المعاصرة ؟ أهو أحد أبطال الحرب الأهلية الأمريكية الرهيبة . هذه الحرب التي يؤسف لها وإن كانت مجيدة رائعة .

وفجأة أعلنت الساعة الثانية مساء . وكانت دقتها الأولى قد أعادتني إلى

عالم الحقيقة فإذا أنا ارتعد كأن ثمة عينا خفية تستطيع أن تنفذ إلى أعماق تفكيري . واندفعت إلى خارج الغرفة .

ولما نظرت إلى البوصلة وجدت أن الغواصة لا تزال متجهة نحو الشمال ، ودل المقياس على أنها تسير بسرعة معتدلة . أما مقياس العمق فقد بدا منه أننا على عمق ستين قدماً . وهكذا كانت الظروف مواتية لمشروع نيد لاند . وعدت إلى غرفتي وارتديت حذائي البحري السميك ، وقبعتي المصنوعة من فراء الفقمة (سبع البحر) وصديرتي المنسوجة من ألياف البحر والمطرزة بفراء الفقمة أيضاً . وهكذا كنت مستعداً . وجعلت أنتظر . وكان رنين الرفاص وحده يقطع السكون العميق السائد في الغواصة . وأرهفت السمع مشفقاً أن أسمع صيحة تنبيء لتوها ان نيد لاند قبض عليه وهو يحاول الهرب . وهكذا استبد بي رعب ذريع وعبئاً حاولت أن أسترد رباطة جأشي .

وقبل التاسعة بدقائق وضعت أذني على باب غرفة الربان فلما لم أسمع صوتاً غادرت غرفتي وعدت إلى الصالون الذي كان خالياً قليل الضوء وفتحت الباب المؤدى إلى المكتبة ، فإذا نفس الضوء القليل ونفس الوحشة . فدخلت ووقفت بالقرب من الباب المؤدى إلى رحبة السلم الرئيسي أنتظر إشارة نيد لاند .

وفي هذه اللحظة سمعت صوت الرفاص يخفت تدريجياً ثم يتلاشي تماماً . فما سبب هذا التغيير في عملية قيادة الغواصة . لم أستطع أن أقرر إن كان هذا التوقف في صالح نيد لاند أم لا .

ولم يكن يقطع السكون المخيم إلا ضربات قلبي . وفجأة شعرت بهزة خفيفة فأدركت أن الغواصة استقرت في قاع المحيط واشتد قلبي إذ لم أتلق إشارة نيد لاند وتمنيت لو ذهبت إليه ورجوته أن يرجئ محاولته . فقد أحسست أن تغيراً حدث في عملية القيادة العادية .

وفي تلك اللحظة فتح باب الصالون وأقبل الربان ولما لمحني قال بغير مقدمات وفي صوت عذب :

– آه يا بروفيسور ، كنت أبحث عنك : هل تعرف تاريخ أسبانيا ؟
 إن كل من يحفظ تاريخ بلاده لا يستطيع . وهو في حالة من القلق
 والاضطراب أن يذكر منه كلمة واحدة :
 خطر لي ذلك بينما استطرد الربان قائلاً :

– حسناً . لقد سمعت سؤالاً : هل تعرف تاريخ أسبانيا ؟

– معرفة يسيرة .

– هكذا شأن العلماء . لا يعرفون شيئاً خارج حدود اختصاصهم .
 حسناً ! اجلس . سأذكر لك حقيقة عجيبة عن ذلك التاريخ .
 وتمدد الربان على أريكة وثيرة ، فجلست بجانبه آلياً وظهري إلى الضوء
 بينما قال :

– أعرفني كل اهتمامك يا بروفيسور ، فإن هذا التاريخ سيعينك بصورة ما
 لأنه سيجلو مسألة لا ريب أنك لم تستطع فهمها من قبل .

فقلت وأنا لا أدري ماذا يهدف الربان من وراء هذا الحديث ، وما إذا
 كانت له صلة بمشروع هربنا :

– إني منصت يا كابتن .

فاستطرد الربان قائلاً :

– سأعود بك يا بروفيسور إلى عام ١٧٠٢ إذا لم يكن لديك مانع :
 لقد تصور ملككم لويس الرابع عشر كما تعلم أن إشارة من الحاكم القوي
 نكثي لإزالة جبال البرانس من بين فرنسا واسبانيا ، وهكذا فرض على
 الأسبانيين حفيده دوق انجو ولكن هذا الأمير الذي اتخذ اسم فيليب الخامس
 واختلفت الآراء في حكمه ، واجه معارضة قوية خارج البلاد ، فقد حدث
 في العام السابق ، أن وقعت الأسرة المالكة في هولندا والنمسا وانجلترا معاهدة
 تحالف في مدينة لاهاي كان الغرض منها نزع تاج أسبانيا عن فيليب الخامس
 ووضعه على رأس أرشيدوق أسبغوا عليه لقب تشارلس الثالث .

وكان على أسبانيا أن تقاوم هذا التحالف ، ولكنها كانت تعاني نقصاً في المحارِبين برأً وبحراً ، وإن لم يعوزها المال بشرط أن تستطيع سفنها المحملة بالذهب والفضة من أمريكا دخول الموانئ الأسبانية :

والواقع أن أسبانيا في نهاية عام ١٧٠٢ كانت تنتظر قافلة بحرية محملة بالذهب تحرسها ثلاث وعشرون سفينة من الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال شاتو - رينو لحمايتها ضد أساطيل الدولة المتحالفة التي كانت تجوب المحيط الاطلنطي وقتذاك .

وكان المقرر رسو هذه القافلة البحرية في ميناء قادش . ولكن عند ما علم الأميرال أن الأسطول الإنجليزي يتحرك عن كذب قرر الاتجاه إلى ميناء فرنسي ، فقابل ربابنة السفن الأسبانية هذا القرار بالاعتراض - ورأوا أنه إذا لم يتيسر الوصول إلى ميناء قادش ، فمن الممكن الاتجاه إلى خليج فيجو الواقع في القسم الجنوبي الغربي للساحل الأسباني لخلوه من الحصار الإنجليزي .

وكان الأميرال شاتو - رينو ضعيف الإرادة فقبل هذا الاقتراح وهكذا دخلت القافلة إلى خليج « فيجو » .

ولكن هذا الخليج لسوء الحظ كان طريقاً مفتوحاً يتعذر الدفاع عنه فكان على رجال القافلة أن يسرعوا بتفريغ حمولة السفن قبل وصول أسطول الدول المتحالفة ، ، وفعلاً كان أمامهم متسع من الوقت لإتمام هذه المهمة ، لولا أن برزت فجأة مشكلة مؤلمة سببها المنافسات .

وكف الربان فجأة عن كلامه وسألني :

— هل أنت تتبع تسلسل هذا الحديث ؟

فقلت وأنا لا أدري لماذا يلقي على درس التاريخ هذا :

— تماماً .

— إذن سأستمر . وإليك ما حدث بعد ذلك . فقد كان لتجار مدينة قادش

امتياز شراء جميع البضائع الآتية من جزائر الهند الشرقية ، وكان تفريغ حمولة

الذهب في ميناء فيجو انتهاكاً لامتيازاتهم . ومن ثم تقدموا باحتجاجاتهم إلى مدريد ، وظفروا من الملك الضعيف فيليب الخامس بأمر ينص على بقاء حمولة الذهب في القافلة دون تفريغ في ميناء خليج نيمو حتى تبتعد أساطيل الأعداء عن المنطقة . .

ولكن حدث في اليوم الثاني والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٧٠٢ بينما كان هذا القرار قيد المداولة أن وصلت الأساطيل إلى خليج فيجو ، فتصدى لها الأميرال شاتو – رينو وهاجمها ببسالة رغم ضعف قواته . فلما رأى كنوز القافلة ، تو شك أن تقع في أيدي الأعداء ، أحرق السفائن وأغرقها إلى القاع بما فيها من ثروات ضخمة .

وأمسك الربان نيمو مرة أخرى عن الحديث . وأعترف أني لم أستطع حتى هذه اللحظة معرفة الهدف من حديثه فقلت :
– حسناً .

– حسناً يامسيو أروناكس . نحن الآن في خليج فيجو . ولك أن تقرر إن كنت تحب أن تنفذ إلى أسراره .

ونهض الربان وطلب مني أن أتبعه ، واستطعت في خلال ذلك أن أسترده رباطة جأشي فأطعته وانتقلت معه إلى الصالون الذي كان مظلماً . ولكني استطعت أن أتبين مياه البحر تبرق خلف النوافذ البللورية . فحدقت النظر .

بدت لي المياه في محيط نصف ميل حول الغواصة ، كأنما يغمرها ضوء كهربائي وهكذا كنت أرى القاع الرملي بوضوح وقد تبينت بعض بحارة الغواصة في ملابس الغوص يفرغون صناديق نصف معطوبة وبراميل مفككة بين الحطام الأسود المتخلف من السفن الغارقة . فكانت تنهال منها قضبان الذهب والفضة وكميات كبيرة من النقود والمجوهرات حتى غطت رمال القاع وكان البحارة يحملون هذه الغنائم إلى الغواصة حيث يفرغونها ثم يعودون إلى حمل غيرها وهكذا .

وأدركت كل شيء . كانت هذه ساحة معركة ٢٢ أكتوبر عام ١٧٠٢ البحرية . في هذه البقعة غرقت السفن الأسبانية المحملة بالذهب . وإليها كان الربان نيمو يجيء كلما شاء ليحصل على الملايين التي يحفظها في الغواصة . فن أجله ، ومن أجله فقط ، سلمت أمريكا معدنها الثمين ، إنه الوارث الأول الوحيد ، الذي لا ينازعه أحد ، لهذه الكنوز المنتزعة من قبائل الأنكاس وشعب فردناند كورتيز المهزم .

وسألني الربان باسمها :

- هل كنت تعرف يا بروفيسور أن البحر يحتوي على هذه الكنوز ؟
- أعرف أن الفضة الغارقة في البحار تقدر بمليوني طن .
- بلا ريب لكن تكاليف استخراج الفضة من الأعماق تربي على الثمن المقدر لها . أما هنا بالعكس ، ما على إلا أن ألتقط ما فقدته غيري ، لا في خليج فيجو فحسب بل في آلاف المناطق التي كانت مسرحاً لغرق السفن ، والتي حددتها بالعلامات في خرائطي البحرية . فهل تعرف الآن لماذا أنا من كبار أصحاب الملايين ؟
- نعم يا كابتن . ولكن اسمح لي أن أقول لك إن عمك في خليج فيجو قد سبقت إليه شركة منافسة .
- أية شركة هذه بالله ؟ !
- شركة نالت من الحكومة الأسبانية حق البحث عن سفن الذهب الغارقة ، وقد أغرت الأرباح الطائلة حملة الأسهم بعد أن قدروا الكنوز الغارقة بخمسمائة مليون فرنك ذهباً .
- خمسمائة مليون فرنك ذهباً ؟ كانت الكنوز تساوي هذه القيمة من قبل ، ولكنها الآن لم تعد كذلك .
- نعم . هو ذاك وإن تحذير حملة الأسهم يعتبر من الأعمال الخيرية . ولكن من يدرى أنهم يتلقون التحذير بقبول حسن . إن أصحاب الآمال

عادة لا يأسفون على ضياع المال أكثر من أسفهم على تحطيم آمالهم الجنونية ٥
 على كل حال فلاني أرثي لهم أقبل مما أرثي لآلاف البؤساء الذين كان يمكن أن
 تفيدهم هذه الكنوز لو وزعت عليهم بالعدل وبدلا من ضياعها منهم إلى الأبد ٥
 وما كدت أعبر عن رأبي هذا حتى أحسست أني آلت مشاعر الربان
 نيمو الذي قال بشيء من الانفعال :

– ضياعها منهم ! هل تعتقد إذن أن هذه الثروة ضائعة لأنني أنا الذي
 يستحوذ عليها ؟ هل تعتقد أني أتعب في جمع هذه الثروة لأحتفظ بها لنفسي ؟
 من قال إنني لا أحسن استغلالها ؟ هل تعتقد أني أتجاهل آلام غيري من
 البشر ؟ آلام الأجناس المضطهدة في هذا العالم . أو المخلوقات البائسة المحتاجة
 إلى المواساة والضحايا المحتاجين إلى من ينتصر لهم . ألا تترك . . .
 وأمسك الربان وكأنما ندم على أن قال كل هذا . ولكني أدركت الحقيقة !
 أدركت أنه أيا كانت البواعث التي أرغمته على التماس حرته في أعماق البحار ،
 فهو لا يزال من البشر . . لا يزال قلبه يخفق لآلام البشرية وأن مجال بره العظيم
 يشمل الشعوب المضطهدة كما يشمل البؤساء من الناس ٥
 وعلى ضوء هذا فهمت لمن أرسل الربان نيمو تلك الملايين أثناء سير
 الغواصة في مياه جزيرة كريت الثائرة . . .

الفصل الثالث والثلاثون

القارة المفقودة

في صباح اليوم التالي التاسع عشر من شهر فبراير ، رأيت نيد لاند يدخل غرفتي ، وكنت أتوقع هذه الزيارة ، وكانت تلوح عليه دلائل خيبة الأمل .
وقال لي :

- حسناً ياسيدي .
- حسناً يانيد . كان الحظ ضدنا أمس .
- نعم فقد شاء الربان أن يجلس معك في نفس الوقت الذي حددناه للهرب من الغواصة .
- أجل يانيد . . كان لديه عمل مع مدير مصرفه .
- مدير مصرفه ؟
- نعم ! أو على الأصح مع مصرفه المالي ، وأعنى به المحيط الذي يأمنه على كنوزه أكثر مما يأمن عليها في خزائن الحكومة .
- ثم ذكرت لنيد لاند ما حدث في الليلة الماضية وقد راودني ألم دفين في أن أجعله يكره الافتراق عن الربان ، ولكن نتيجة حديثي كانت تعبيراً عنيفاً عن ندم نيد لاند وأسفه لأنه لم يستطع السير بمفرده في ساحة معركة فيجو

وأخيراً قال :

- ولكن كل شيء لم ينته بعد . إنها مجرد حربة قذفت بها ولم تصب الهدف . ولكننا سننجح في المرة التالية هذه الليلة بالذات ، وإذا لزم
- فقلت :

- في أي اتجاه تسير الغواصة الآن ؟

فأجاب نيد :

— لا أعرف .

— حسناً سنعرف مكاننا في الظهيرة .

وعاد نيد لاند إلى كونساييل ، وما كدت أرتدى ملائيمي حتى انتقلت إلى الصالون ، وهناك رأيت مؤشر البوصلة في غير صالحنا ، فقد دل على أن الغواصة تتجه نحو الجنوب بجنوب غربي ، أي أننا كنا نولى ظهورنا إلى أوربا ، وانتظرت بصبر نافذ نتيجة رصد الموضع . وفي الساعة الحادية عشر والنصف أطلقت المياه من خزانات الغواصة فأخذت تطفو إلى سطح المحيط ، وعندئذ هرعت إلى ظهرها حيث لقيت نيد لاند وقد سبقني إلى هناك ، ولم يكن ثمة أرض على مرمى البصر . . لا شيء غير المحيط الشاسع فقط ولحقت عند الأفق سفناً شراعية قليلة كانت لاشك تبحث عن الريح المواتية لتستطيع اجتياز رأس الرجاء الصالح . أما الجوف فكان ملبداً بالسحب وينذر بهبوب عاصفة عاتية .

وحاول نيد لاند في ثورة غضبه ، أن ينفذ بنظراته في الأفق المغلف بالضباب وهو يعلل النفس بوجود الأرض التي يهفو إليها وراء الغيوم . وظهرت الشمس عند الظهر ، وانتهز الضابط الأول هذه الفرصة لتحديد موضع الغواصة ثم ازداد البحر هياجاً ، فهبطنا إلى داخل الغواصة وأغلقت منافذها .

ولما نظرت في الخريطة بعد ساعة ، رأيت أن الغواصة تسير بين خط طول ١٧ — ١٦ درجة وخط عرض ٢٢ — ٣٣ درجة ، على مسافة ٤٥٠ ميلاً من أقرب شاطئ ، وهكذا لم يكن ثمة فائدة من التفكير في الهرب الآن ، وإني أترك للقارئ أن يتصور غضب نيد لاند عند ما أخبرته بالموقف .

أما أنا فلم يكتنفي حزن شديد . لقد تخففت من العبء الذي كان يثقل على نفسي وصار بوسعي أن أعود إلى أداء عملي المعتاد بهدوء .

وحوالى الساعة الحادية عشر من تلك الليلة فوجئت بزيارة الربان نيمولي :

وقد سألتى متلطفاً عما إذا كنت متعباً بعد أن سهرت طويلاً في الليلة الماضية ؟ ،
فلما أجبته بالنفي قال :

– إذن أقترح عليك القيام برحلة عجيبة يا مسيو أروناكس :

– ما هي هذه الرحلة يا كابتن .

– لقد شاهدت قيعان البحار حتى الآن في أضواء النهار. أفلا تريد أن

تراها مرة في ظلام الليل .

– كم أود هذا .

– اعلم أنها ستكون رحلة شاقة . فإن عليك أن تمضي بعيداً ، وأن تصعد

جبلًا كما أن الطرق ليست نمهدة كما ينبغي .

– إن ما تقوله يضاعف من فضولى وأنا على استعداد لمتابعتك .

– إذن هلم يا بروفيسور . وسنذهب لارتداء ملابس الغوص .

وفي مخزن الملابس لم أر صاحبي ، وكان مقرراً ألا يصاحبني أى بحار

في هذه الرحلة . بل إن الريان لم يسألني أن أصطحب كونسائل أو نيد لاند .

وارتدينا أجهزة الغوص في دقائق ثم وضعت على ظهورنا مستودعات

الهواء ولكن المصابيح الكهربائية لم تكن معدة فلما سألت الريان في هذا قال :

– إنها لن تكون ذات فائدة لنا .

وخيل إلى أنى لم أسمعها كما ينبغي ، ولكنى لم أستطع أن أكرر ملاحظتى ،

لأن رأس الريان اختفى داخل الخوذة المعدنية وبعد أن فرغت من ارتداء

ملابسى وضعت في يدي عصا حديدية مشعبة الطرف وما هي إلا دقائق قليلة ،

بعد إتمام الإجراءات المعتادة ، حتى كنا نطأ قاع المحيط على عمق ثلاثمائة

ياردة •

وكان الليل يوشك أن ينتصف ، ومياه البحر في ظلام دامس ، ولكن

الريان نيمو أشار إلى نقطة ماثلة للحمرة على بعد أشبه بضوء يتألق على مسافة

ميلين من الغواصة. فأى نار هذه وبأى وقود تضرم ؟ ثم كيف ولماذا تتأجج

في وسط هذه اللجج المائية ؟ ذلك ما لم أعرفه . ومهما يكن فقد أضاعت لنا الطريق ، في غير وضوح حقاً ولكن سرعان ما ألفت هذه المتعة ، وأدركت عندئذ عدم جلوى مصابيح رومكورف .

وسرت مع الريان نيمو جنباً إلى جنب نحو الضوء مباشرة . وكانت الأرض المستوية ترتفع تدرجياً ومضينا بخطوات واسعة مستعينين بالعصاوين ولكننا كنا رغم هذا نتقدم ببطء ، لأن أقدامنا كثيراً ما غاصت في نوع من الطين المغطى بأعشاب البحر والحجارة المستوية .

وسمعت ونحن نتقدم صوتاً أشبه بالنقر مؤقتاً ، وكان الصوت يزداد أحياناً كشيء ينهمر . وسرعان ما أدركت السبب . إنها الأمطار تهطل بغرارة على سطح الماء . وداخلني إحساس غريزي بأني سأعرض للبلل بالماء داخل الماء . ولم أتمالك من الضحك لهذه الفكرة . ولكن الحقيقة هي أن الإنسان لا يشعر بالبلل داخل ملابس الغوص بل يحس كأنه في جو أشد كثافة من جو الأرض . . هذا هو كل شيء •

وبعد مسيرة نصف ساعة ، أمست الأرض صخرية وعرة . وكانت الدوبيات والقشريات الميكروسكوبية والنباتات الرشيقة تضيء لنا الطريق إلى حد ما بأشعتها الفسفورية . ولحقت كومة من الصخور مكسوة بملايين الدوبيات المحارية وأعشاب البحار المتكاثفة . وكثيراً ما انزلت قدماي على هذا البساط اللزج من النباتات البحرية ، ولولا عصاى الحديدية لسقطت أكثر من مرة • ولما التفت ورائي لاحظت أن ضوء الغواصة ما زال يبرق على البعد •

وكانت أكوام الحجارة التي تحدثت عنها متراكمة في قاع المحيط في شيء من الانتظام لم أستطع تفسيره . كما لاحظت وجود أحاديذ طويلة تغيب نهايتها في جوف الظلام البعيد ، واستحال على تقدير أبعادها • وكان ثمة ظواهر عجيبة تبدو لي دون أن أعرف سرها . وكان يخيل لي أن حذائي الغليظ يسحق طبقة من العظام كانت تنقصف تحت وطء قدمي • ترى ما هي طبيعة هذا

السهل الشاسع الذي كنت أسير فيه ؟ وددت لو استطعت سؤال الربان نيمو ، ولكن لغة الإشارة التي كان يتحدث بها مع زملائه في رحلاته تحت الماء كانت غامضة على مداركي .

وفي خلال هذا كان الضوء الأحمر الذي يقودنا يزداد سطوعاً وتوهجاً . والحق أن وجود هذه النار في أعماق البحر قد أثار أشد الفضول في نفسي . ترى أهي ظاهرة كهربائية ؟ أتراني أتقدم إلى ظاهرة طبيعية لا تزال غامضة في أذهان علماء الأرض ؟ ثم خطر لي أن يد الإنسان قد يكون لها أثر في هذا التوهج . فهل ثمة إنسان أشعل هذه النيران ؟ هل كنت في طريقى وأنا أسير في هذه الأعماق البحرية إلى ملاقاته زملاء وأصدقاء للربان نيمو ، يعيشون عيشته العجيبة هذه ، ولهذا فهو ماض لزيارتهم ؟ كانت هذه الأفكار الشاذة البلهاء تدور بذهني ، وتذكر دهشتي المستمرة إزاء سلسلة الغرائب التي تمر أمام عيني ، ولهذا لن يدهشني كثيراً أن أبصر في قاع هذا المحيط لإحدى المدن البحرية التي كان الربان نيمو يحلم بها .

وازداد طريقنا ضياءً ، ورأيت الضوء الأبيض ينبعث من قمة جبل يبلغ ارتفاعه نحو ثمانمائة قدم ، ولكن ما حسبه ضوءاً لم يكن غير انعكاس لألاء الماء . أما النار ، مصدر الضوء الغريب ، فقد كانت في الجانب الآخر من الجبل .

وكان الربان نيمو يتقدم بثبات في وسط الممرات الصخرية التي تشق قاع المحيط ، وكأنه يعرف الطريق المظلم جداً بعد أن سلكه من قبل مراراً ، فلن يضل فيه ، وقد رحت أتبعه في ثقة تامة . وكان يبدو وهو يسير أمامي كإحدى الحنيات البحرية ، وكان يبعث شديداً إعجابي بقامته الطويلة وكأنه ظل أسود على صفحة أفق مضيء .

وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حين بلغنا أولى سفوح الجبل ، ولكن الطريق إليه كان يمتد في ممرات وعرة بين أدغال كثيفة .

نعم . . أدغال من أشجار جافة ، بلا أوراق ولا عصارة ، تمعدنت بفعل مياه البحر ، وتراكت فوقها هنا وهناك أشجار الصنوبر الضخمة . كان المشهد يبدو كسلسلة من الأشجار المتفحمة ظلت قائمة على جذورها بعد زوال التربة من حولها . وبقيت أغصانها كرسوم سوداء مقصوفة بعناية ، صاعدة في شموخ إلى السقف المائي ، وللقارئ أن يتصور غابة من الأشجار على سفح جبال هرقل مثلاً . فإذا هي تغوص مع الجبال إلى قاع المحيط . وكانت الممرات مزدحمة بالشوكيات ونباتات البحر التي اكتظت بالقشريات : وجعلت أرتقى الصخور ، وأخطو فوق الجذوع الملقاة ، وأشق المتسلقات البحرية التي تمتد من شجرة إلى أخرى كأنها الأسماك الطائرة من غصن إلى غصن ، دون أن يعتريني أدنى تعب ، إذ كنت أتبع مرشداً لا يعرف للتعب معنى .

وياله من مشهد وقعت عليه عيناي كيف أستطيع تصويره بالقلم . كيف أصف مشاهد الصخور والغابات في هذا العالم المائي ، حيث تبدو أجزاءها السفلى قائمة موحشة ، وأطرافها العليا محفوفة بأطياف حمراء تزيد لألاء الماء دائماً في حرمتها ... وكنا نتسلق صخور لا تلبث أن تنهوى متفنتة في أثرنا كأنها الانهيار الجبلي . وكان عن اليمين وعن اليسار كهوف عميقة مظلمة يتوه فيها البصر . ثم شاهدت ساحات واسعة من صينع البشر . حتى لقد سألت نفسي : ألا يجوز أن يبرز لنا فجأة بعض سكان هذه الأعماق المائية ؟ ولكن الربان نيمو تابع صعوده ، ولم أشأ أن أتخلف عنه : وكانت عصاى ذات عون كبير لى ، فإن أية خطوة في غير موضعها تنطوى على خطر كبير في هذه الممرات الضيقة المحفورة في جوانب المرتفع . ولكنى مضيت بخطوات ثابتة دون أن أحس مشقة ، وكنت أحياناً أثب فوق هاويات عميقة لو أنها كانت في سفوح الجبال الأرضية لتراجعت عنها ذعراً وكنت أحياناً أخرى أغامر بالسير فوق جذوع الأشجار الملقاة بين هاوية وأخرى

دون أن أنظر إلى ما تحت قدمي بل كنت أشخص معجباً إلى المشاهد الرائعة في هذه المنطقة . وكنت أرى صخوراً موقوفة كالنصب واستقرت على حوافي الهاويات وكأنها تتحدى كل قوانين التوازن . وبين هذه الصخور كانت تبرز أشجار كأنها نافورات مائية تندفع تحت ضغط شديد ، وكلاهما يدعم الآخر . وأعقب هذا أبراج طبيعية وكأنها كتل ضخمة قادت طولياً كواجهة قلعة . ومائلة بزواوية ما كانت تسمح بها الجاذبية الأرضية لو كانت هذه الأبراج الصخرية على سطح الأرض .

بل إنني قد شعرت بما هناك من فارق كان مرجعه إلى شدة كثافة الماء وأنا أتسلق هذه المرتفعات الوعرة في خفة الغزال رغم ملابسى الثقيلة وخوذتى النحاسية ونعالى المعدنية .

إنني أشعر بأن حديثي عن هذه الرحلة تحت سطح الماء غير معقول ولا محتمل ، فأنا أدرج أحداثاً تبدو مستحيلة الوقوع . ورغم ذلك فهى حقيقة لا نزاع فيها . . . إنني لا أحلم . . بل أبصر وأحس .

وبعد ساعتين من مغادرتنا للغواصة ، اجتزنا منطقة الأشجار ، وعلى ارتفاع مائة قدم فوق رؤوسنا لاحت قمة الجبل التى كان بروزها يُلقي ظله على السفح الآخر المتألق إشعاعاً . وكان ثمة شجيرات متجردة تناثرت هنا وهناك في متعرجات عجيبة . وكانت الأسماك تبرز من تحت أقدامنا أسراباً كطيور نافرة بين أعشاب فارعة . وكانت هذه الكتلة الصخرية تفتح عن أقبية أو كهوف بقيعان تصدر عنها أصوات مدوية رهيبة . وكان الدم يجمد في عروقي كلما أبصرت حيواناً بحرياً من الزواحف يعترض طريقى أو بعض الخلييات وهى تختفى في الكهوف . وبدت في الظلام آلاف من النقاط المضيئة هى عيون القشربات الضخمة ، وسرطانات البحر الهائلة التى كانت وهى تحرك محالبها في صليل معدنى أشبه بحراس مدرعين ، هذا إلى الكابوريا الضخمة التى بدت بزعانفها وأذرعها كوكر للأفاعى .

ترى : . ما هذا العالم العجيب الذى لم أتعرف عليه بعد ؟ وإلى أى نوع تنتمى هذه الأحياء البحرية التى تحيطها الصخور بدروع إضافية ؟ وأين ظفرت الطبيعة بسر وجودها ، وكم مضى عليها من القرون وهى ثابتة فى أعماق المحيط ؟

ولكننى لم أستطع التوقف . أما الربان نيمو فلم يحفل بهذه الحيوانات الرهيبة لاعتياده عليها . ثم وصلنا إلى الهضبة الأولى حيث كانت مفاجآت أخرى فى انتظارنا ، فقد رأيت أطلالا وخرائب تدل بوضوح على أثر ليد الإنسان ، فقد كانت أكواما ضخمة من الأحجار على هيئة قلاع . ومعابد مكسوة من الحسيمات المرجانية المزهرة ، وقد علاها بدلا من اللبلاب رداء من الطحالب والأعشاب البحرية .

ولكن أى منطقة هذه من العالم ابتلعها الأمواج بفعل الزلازل والظوفانات ؟ من ذا وضع هذه الصخور والأحجار كأنها نصب تذكارية عن أزمان ما قبل التاريخ ؟ وأين أنا ؟ وإلى أين جاءت بي أهواء الربان نيمو ؟ واشتقت إلى سؤاله . وإذ لم يكن هذا ممكناً ، فقد أوقفته وأمسكت بذراعه ، ولكنه هز رأسه مشيراً إلى فوق كأنما يقول لى :
- لنصعد إلى أعلا فأعلا .

فاستجمعت قواى وتبعته ، وبعد لحظات قليلة وصلت إلى القمة التى كانت تعلو بنحو ثلاثين قدماً كل ما حولها من أكوام الصخور . ونظرت إلى الجانب الذى ارتقىناه ، ولم يكن ارتفاع الجبل فوق الهضبة يجاوز ثمانمائة قدم أما من الجانب الآخر ، فكان يبلغ ضعف هذا الارتفاع عن قاع المحيط .

وامتد بصرى إلى مساحة يضيئها وهج شديد ، فأدركت عندئذ أن هذا الجبل بركان نائر إذ رأيت على مسافة خمسين قدماً أسفل القمة ، وبين وابل من الصخور والشوائب فوهته الواسعة وهى تقذف سيلا من اللابا

المنصهرة التي كانت تنهمر كشلالات من النيران في قلب اللجج المائية . وهكذا كان البركان في موضعه هذا كشعلة هائلة تضيء السهل الخفيض إلى نهاية الأفق .

لقد ذكرت أن فوهة البركان الغاطس تقذف باللابا المنصهرة . وليس بالنار . ذلك أن أوكسيجين الهواء ، الضروري لإشعال اللهب ، كان غير موجود في الماء . ولكن سيول اللابا المنصهرة كانت تتغلب في زحفها على العناصر المائية وتحولها بالاحتكاك إلى بخار ، وكانت التيارات السريعة تحمل الخليط الغازي بعيداً ، بينما تنزلق سيول اللابا إلى سفح الجبل كأنها ثورات بركان فيزوف بإيطاليا .

وهناك . . . أمام عيني . . . رأيت أطلال مدينة مخربة ، مدمرة ، منقلبة رأساً على عقب ، منارة الأسقف متداعية المعابد ، مفككة العقود ، رقدت على الأرض أعمدتها البادية عليها طراز الهندسة التوساكانية ، وعلى مسافة أخرى رأيت بقايا قناة مائية كبيرة ، وأساس معبده لاوكروبولس ، وبقايا ملعب كالبارثيون وأثار أرصفة ميناء بحري كان يوئى سفنا بخارية وقضعا بحرية حربية ، وفيما وراء هذا رأيت خطوطاً طويلة من الجدران المخربة ، وشوارع واسعة مهجورة . وصفوة القول رأيت مدينة بومبي أخرى مدفونة تحت الماء رفعها لعيني من مرقدتها الربان نيمو . .

أين أنا . . . أين أنا ؟ . هذا ما وددت أن أعرفه بأى ثمن ، وشعرت أنه لا بد لي من الكلام فحاولت رفع الخوذة المحيطة برأسي ووجهي . ولكن الربان نيمو أسرع إلى وأوقفني بإشارة . ثم تناول قطعة حجر طباشيري ومضى إلى صخرة البازلت الأسود وخط هذه الكلمة الوحيدة :

« اطلانتيس »

ما أسرع المعرفة الذي ومض في ذهني عندئذ . الإطلانتيس . جنة فيوبومبي القديمة . اطلانتيس أفلاطون . القارة التي أنكرو وجودها أوريميم ،

وجامبليكو ، ودانفيل ، ومالتبرون ، وهامبولد ، أولئك الذين وضعوا قصة اختفائها بين قصص الأساطير والخرافات ، القارة التي آمن بوجودها بوسيدنيوس وبطليموس ، وأميانوس ، ومارسيلنوس ، وتزتليان ، وانجل ، وشيرر ، وتونفورت ، وبانون ، ودافيزال ، هذه القارة ماثلة أمام عيني الآن ، تحمل الأدلة الناطقة على كارثتها ، هذه هي المنطقة الغارقة التي كانت تقع فيما وراء أوروبا وآسيا والصحراء الليبية ، وفيما وراء أعمدة هرقل ، حيث عاش البطل اتلانتيديس الذي شنت عليه حروب الإغريق الأولى .

إن المؤرخ الذي دون الأحداث العظيمة في تلك الأزمنة البطولية كان أفلاطون نفسه ، وإن حوار هبلسان فيموتوس وكريتياس إنما سطرت بإيجاز من صولون الشاعر المشرع .

فقد حدث ذات يوم أن كان صولون يتحدث إلى جماعة من حكماء مدينة سايس وهي مدينة كان عمرها عندئذ ثمانمائة عام كما يشهد بذلك التقييم السنوي المحفور على جدران معابدها المقدسة . وقد سرد أحد هؤلاء الحكماء تاريخ مدينة أخرى أقدم ألف سنة من الأولى . هذه المدينة الإغريقية التي كانت منذ تسعمائة قرن ، قد تعرضت للغزو والدمار على أيدي الاطلانتيسيين . وذكر الرجل أن أولئك الاطلانتيسيين كانوا يعيشون في قارة ضخمة أكبر من أفريقيا وآسيا معاً ، وتقع فيما بين خطي العرض الثاني عشر والرابع عشر شمالي خط الاستواء . وكان سلطانها يمتد حتى حدود البلاد المصرية وقد أراد سكانها أن يسيطروا نفوذهم على بلاد الإغريق ، ولكنهم اضطروا إلى التراجع أمام المقاومة الهيلينية العنيفة ، وانصرفت القرون ، وحدث انشقاق في الكرة الأرضية مصحوباً بالزلازل والطوفانات ، واختفت هذه القارة في يوم وليلة ، حتى لم يبق من مرتفعاتها غير جزائر ماديراس ، وآزور ، وكناريا ورأس فيرد .

تلك هي الذكريات التي ابتعثها الربان نيمو في ذهنه بكلمته المكتوبة ،

وعلى هذه الصورة ساقنتى تصارييف القندر العجيبة إلى السير فوق جبل من جبال هذه القارة . لقد لمست بيدي أطلال هذه القارة التي ثبت وجودها ومعاصرتها للأحقاب الجيولوجية . وها أنا أسير حيث سار معاصرو الإنسان الأول في هذه الدنيا . وها أنا أسحق بنعل حذائي الثقيل عظام حيوانات العهود الأسطورية التي كانت هذه الأشجار المتحجرة الآن تضيئ عليها ظلالها .

ألا ليت الوقت كان متسعاً أمامي . كم تمنيت لو أني هبطت هذه السقوح المنحذرة في الجانب الآخر من هذا الجبل . ثم تجولت في أرجاء هذه القارة الضخمة التي كانت تربط ولا شك بين أفريقيا وأمريكا . وزرت مدنها التي قامت قبل التاريخ . ربما كانت تمتد أمام نظري الآن ، ميادين كينوس الحربية ومعابد أيسيبوس حيث كان سكانها العالقة يعيشون قروناً كاملة ، وهم الذين استطاعوا بقوتهم الخارقة تشييد هذه المباني والقلاع التي صمدت لتأثير المياه طوال تلك الأحقاب . وليس بمستبعد أن ترفع بعض الظواهر البركانية الثائرة ذات يوم هذه المناطق إلى سطح البحر ! وكنت في خلال ذلك أسمع دويًا ينبئ عن معركة العناصر الطبيعية الهائلة .

كما شاهدت الشوائب البركانية تطفو على سطح الماء مما يدل على أن كل هذه الأرض الغارقة الممتدة حتى خط الاستواء لا تزال مسرحاً للقوى الطبيعية الثائرة تحت الأرض . ومن يدري فربما جاء يوم تبرز فيه قمم هذه الجبال الغارقة إلى مافوق سطح الماء بفعل الثورات البركانية وتراكم مواد اللابا بعضها فوق بعض .

وبينما كنت غارقاً في أحلامي تلك محاولاً أن أنقش كل دقائق هذا المشهد الرائع في ذهني ، وقف الربان نيمو متكئاً بذراعه على طلل مكسو بطحالب البحر ، في سكون تام كأنه تمثال للتأمل الصامت . ترى هل كان يحلم بالعصور السحيقة ويسأها عن مصائر البشرية وأسرارها عن هذه البقاع

أكان يلجأ هذا الرجل العجيب إلى موطن الذكريات التاريخية ليعيش في جو هذا العالم القديم . وهو الرجل الذى لا يربطه شىء بعصرنا هذا . إننى ما كنت أتردد فى التضحية بكل شىء لكى أعرف ما يدور بذهنه من أفكار ، ولكى أشاركه إياها وأفهم كنهها .

ولبثنا فى هذه البقعة ساعة كاملة ، نتأمل ذلك السهل الشاسع فى ضوء اللابا التى كانت تتكاتف أحياناً إلى حد عجيب . وكان الفوران الداخلى يهز جوانب الجبل فى اختلاجات سريعة ، أما الأصوات العميقة التى تنتقل بوضوح فى هذا الوسط المائى فكان لها أصداء مضاعفة رائعة .

وفى تلك اللحظة لاح القمر برهة خلال اللجج وأرسل أشعته الشاحبة على القارة الغارقة . ولم تكن إلا ومضة سريعة ، ولكن كان لها تأثير بالغ فقد انتصب الربان وألقى نظرة أخيرة على السهل العظيم ثم أشار إلى بيده لكى أتبعه .

وهبطنا الجبل مسرعين وبعد أن اجتزنا الغابة المتعدنة مرة أخرى لاح لنا كشاف الغواصة يتألق كنجم . وسار الربان إلى الغواصة قدماً ، فوصلنا إليها وتباشير الفجر تلون سطح المحيط .

الفصل الرابع والثلاثون

منجم الفحم في أعماق البحر

في اليوم التالي ، العشرين من شهر فبراير ، استيقظت في ساعة متأخرة . ذلك أن إجهاد الليلة السابقة قد أطال نومي حتى الحادية عشرة صباحاً . وارتديت ملابسى على الفور إذ كنت متلهفاً لمعرفة اتجاه الغواصة . وأنبأنى الآلات أننا نمر جنوباً بسرعة عشرين ميلاً في الساعة وعلى عمق مائة ياردة . وأقبل كونساييل ، فأخبرته بتفاصيل رحلة أمس ، وقد تيسر له من خلال نوافذ الصالون البللورية المفتوحة أن يرى لمحات من القارة الغارقة . والواقع أن الغواصة كانت تسير على ارتفاع عشر ياردات فقط من سفح قارة الاطلانتيس . كانت تطير كأنها بالون تدفعه الريح فوق سطح الأرض ، ولكن الأصح أن نقول إننا كنا في الصالون أشبه بركاب في مقصورة قطار سريع . وكنا نرى أمامنا صخوراً عجيبة الشكل ، وغابات تحولت من مملكة النبات إلى مملكة المعادن وكانت هياكلها الثابتة تبدو تحت الأمواج . هذا إلى أكوام من الصخور مدفونة تحت أبسطة من الطحالب وشقائق النعمان في أشكال تتخيلها أذرع راسية من النباتات المائية ، وكتل من اللابا الملثوية في أشكال عجيبة تشهد بما في باطن الأرض من فوران وثورة . وبينما كانت هذه المشاهد تتألق في ضوء كشاف الغواصة الكهربائي ، جعلت أحدث كونساييل عن تاريخ قارة الاطلانتيس التي ألهمت بايلي بصفحات عديدة رائعة من الخيال الرائق . ثم حدثته عن حروب سكانها الأبطال . وناقشت معه موضوع هذه القارة بلهجة إنسان لم يبق لديه شك في وجودها . ولكن كونساييل لم يحفل كثيراً بهذا الدرس التاريخي ، وسرعان ما أدركت السبب .

كانت أفواج عديدة من الأسماك قد أثارت انتباهه ، وعندما تراءى
الأسماك لعيني كونساييل فإنه يستغرق استغراقاً كاملاً في عملية تصنيفها ناسياً
العالم المحيط به . فلم يسعنى في هذه الحالة إلا أن أحذو حذوه وأشاركه دراسته
علم الأحياء المائية .

ولكن أسماك الاطلانطى لم تكن تختلف كثيراً عن تلك التى رأيناها في
مناطق أخرى . كانت من نوع الراى أو الشفنين . ضخمة الحجم . طول كل
منها خمس ياردات ، وذات قوة عضلية هائلة تتيح لها القفز إلى ما فوق سطح
البحر ، ونمور بحر من مختلف الأنواع ، بينها النوع الأغبر الذى يبلغ طوله
خمس عشرة قدماً ، والذى يمتاز بأنياب مثثة حادة ، ولقشرته شفافية تجعله
لا يكاد يبين في داخل الماء . وسماك الساجريا البنى والهيومانتين المنشورى
الشكل لمكسو بجلد درقى ، وسماك الحنش الذى يشبه سمك القنجر في
البحر الأبيض ، والسماك الأتون ، وطول الواحدة نحو قدم ونصف قدم ،
لونها أصفر قاتم ؛ وزعانفها رمادية وهى بلا أسنان ولا لسان . ولكنها
ناعمة ولينة كالثعابين .

ولاحظ كونساييل بين الأسماك العظمية سمك الماكرياس المسود اللون ،
وطول كل سمكة ثلاث ياردات ، مسلح فكها الأعلى بنصل نافذ . وسمك
الزباء الزاهى اللون ، المعروف في عهد أرسطو باسم « تين البحر » والذى
يصعب الإمساك به لصغر حجم زعانفه الصدرية . وسمك الدوريد الحميل
« الليوناركزوستون » أى سمك الزمرد الفضى المزود بأقراص سماوية الظلال
إذا سطعت عليها أشعة الشمس ، بدت كنقاط الفضة . وأخيراً سمك الكوسح .
أو سمك السيف- وطول السمكة ثمانى ياردات ، وهو يسبح في أفواج
كبيرة ، بزعانف صفراء منجلية الشكل ونصال طولها ستة أقدام ، وهى
حيوانات مائية جريئة أميل إلى أكل النبات منها إلى أكل اللحوم .
ولكنى لم أغفل وأنا أنفحص الأنواع المختلفة من الحيوانات والأحياء

المائة عن مراقبة سهول قارة الاطلانتيس في الوقت نفسه ، وكانت طبيعة الأرض المتعرجة صعوداً أو هبوطاً ترغم الغواصة على تخفيف سرعتها وهي تناسب براءة الحيتان في الممرات الضيقة بين التلال . فإذا لم يكن ثمة منفذ في الممر ارتفعت الغواصة كالبالون ، حتى إذا اجتازت العقبة استأنفت سرعتها على بعد ياردات من القاع . وكانت براءة قيادتها تذكرني بحركات بالون هوائى في إحدى رحلاته ، مع فارق مهم ، هو أن الغواصة تخضع في سيرها لتوجيه قائدها .

وفي نحو الرابعة بعد الظهر أخذت الطبقة الأرضية المكونة عموماً من الطين السميك ومن الأغصان المتعدنة تتغير تدرجياً ، فأمت أكثر صخرية ، وبدأت كأنها مغطاة بكتل من أحجار البازلت وقطع من اللابا والزجاج البركاني الكبيرتي ، ولذلك خطر لى أن سلسلة من الجبال سوف تعقب هذه السهول الطويلة . وقد تحقق هذا فقد رأيت أثناء سير الغواصة الأفق الجنوبي مسدوداً بجدار صخرى لا منفذ فيه ويبدو أن قمته كانت ترتفع فوق سطح البحر وقد يكون هذا الجدار الصخرى جبلاً يحدد قارة أو تتكون من قمته جزيرة على الأقل . فإذا كانت الأخيرة فهي إما أن تكون جزيرة كنارى أو إحدى جزر رأس فيرد . ونظراً لأن مكاننا لم يحدد بعد ، وربما كان ذلك عمداً فإنى لم أستطع أن أعرف أين نحن ، وعلى أى حال بدا لى هذا الجدار الصخرى حداً تنهى عنده قارة الاطلانتيس التى لم نشهد منها غير القليل .

ولم تتوقف رؤيتى للأشياء بحلول الليل . وكان كونساييل قد أوى لى إلى غرفته ، وراحت الغواصة التى أبطأت فى سيرها قليلاً تنساب فوق أكوام الصخور . تكاد تلمسها أحياناً كأنما توشك أن تستقر فوقها ، وأحياناً أخرى ترتفع إلى سطح الماء .

ولم يطل بى الوقت حتى لمحت بعض الأجرام السماوية المنيرة تبدو من خلال المياه الشفافة أو على التحديد رأيت خمسة أو ستة من هذه النجوم البرجية الدائرة فى فلك كوكب الجوزاء .

وكان بودى أن أطيل المكث أمام هذه النافذة البلورية لأمتع بصرى
بجمال الماء والسماء لولا أنها أغلقت ، وكانت الغواصة عندئذ جد قريبة
من الجدار الصخرى ، فلم أعرف ماذا يكون بعد هذا ، ومن ثم لم ألبث أن
عدت إلى غرفتى ، وبدا لى أن الغواصة لا تتحرك . فقصدت إلى الفراش
وفى نيتى أن أستيقظ بعد ساعات قليلة من النوم .

ولكن الساعة كانت الثامنة من صباح الغد عند ما ذهبت إلى الصالون
ونظرت إلى جهاز العمق فعلمت أن الغواصة تطفو على سطح الماء ، وترامى
إلى سمعى وقع أقدام على سطحها ، ومع ذلك لم تكن الغواصة تهتز كما يحدث
وهى بين الأمواج العليا .

وقد ذهبت إلى المنفذ المؤدى إلى السطح فكان مفتوحاً ولكن بدلا من
ضوء النهار الذى كنت أنشده صافحنى ظلام كثيف . ترى أين نحن ؟ هل
أخطأت التقدير ، أم لازلنا فى الليل ؟ لا . . . لم يكن ثمة نجم يتألق ، ولا
يكون الليل يمثل هذه الظلمة .

وفما كنت حائراً إذ سمعت صوتاً يقول لى :

— أهذا أنت يا بروفيسور ؟

— آه . . . كابتن نيمو . . . أين نحن الآن ؟

— تحت الأرض يا بروفيسور .

فهتفت قائلاً :

— تحت الأرض ، والغواصة لاتزال طافية ؟

— نعم . لا تزال طافية .

— ولكننى لا أفهم .

— انتظر قليلا . فسوف يضاء كشافنا الكهربائى ، وإذا أردت أن تعرف

حقيقة الأمر فسيكون لك ما تريد .

وصعدت إلى السطح وجعلت أنتظر . وكان الظلام حالكأ بحيث لم

أستطع رؤية الربان نيمو. ولكن حين نظرت إلى أعلى خيل إلى أنى أرى ضوءاً باهتاً ، أشبه بالشفق يبدو من فتحة مستديرة وفي تلك اللحظة أضيء الكشاف فجأة فإذا بريقه يؤدي إلى اختفاء ذلك الضوء الباهت .

وأغمضت عيني برهة مبهوراً بالضوء الكهربائي ولما فتحتها شاهدت الغواصة راسية إلى شاطئ كرسيف ميناء ، وكان البحرالذى استقرت فوقه مجرد بحيرة محاطة بجدران دائرية ، قطرها ميلان ومحيطها ستة أميال . وكان مستوى مائها – كما دل مقياس العمق – كمستوى الماء الخارجى إذ كان ولا شك ثمة اتصال بين مائها وماء المحيط الخارجى . وكانت الجدران الصخرية العالية المنحدرة عند القاعدة ، دائرية كالقبة مكونة مايشبه الكهف المقلوب ، ويبلغ ارتفاعها ١٢٠٠ قدم ، وفي نهايتها فتحة مستديرة كانت مصدر الضوء الباهت الذى لمحته وكان ولا شك ضوء النهار .

وقبل أن أفحص الجوانب الداخلية لهذا الكهف الهائل ، وقبل أن أتساءل ما إذا كان من صنع الإنسان أم الطبيعة ، قلت للربان نيمو :

– أين نحن ؟

– فى قلب بركان خامد . . بركان اقتحمت مياه البحر داخله بعد إحدى الهزات الأرضية العنيفة . وبينما كنت نائماً يابروفوسور ، نفذت الغواصة إلى هذه البحيرة بواسطة قناة طبيعية مفتوحة على عمق عشر ياردات تحت سطح المحيط وهذا مرفأ آمن صالح ، خفى مصون من كل الرياح ... نعم لا يمكن أن تدلنى فى كل شواطئ عالمك الأرضى وجزره على مرفأ يضارع هذا فى الاحتماء من أعنف الزوابع .

– أنت فى أمان هنا يا كابتن حقاً . فمن ذا يجروء على الوصول إليك فى قلب بركان كهذا ؟ ولكن . . . ألم تلاحظ وجود فتحة فى القمة ؟

– نعم . إن القمة هى فوهة البركان التى كانت يوماً تقذف بالحجم والالابا والدخان ولكنها الآن منفذ للهواء اللازم للتنفس .

– ولكن أى جبل بركانى هذا ؟

– إنه إحدى الجزيرات الكثيرة المتناثرة فى هذا البحر . : إنه مجرد صخرة ضخمة لدى السفن ولكنه لنا بمثابة مأوى ضخم ، لقد اكتشفته مصادفة ، وطالما أسدت إلى المصادفات أجل الخدمات .

– ولكن ألا يمكن أن يهبط أحد بواسطة الفتحة المكونة لفوهة البركان ؟

– لا . . هذا مستحيل استحالة صعودى أنا عن طريقها . ذلك لأن الصعود ممكن إلى مدى أربعائة قدم من قاعدة الجبل . . أما بعد ذلك فمن المستحيل تسلق الجدران .

– آه . . فهت يا كابتن أن الطبيعة عون لك دائماً فى كل مكان : أنت آمن فى هذه الجزيرة ولا يستطيع أحد سواك أن يزور مياهها : ولكن ماذا تبغى من هذا الملاذ ؟ إن الغواصة فى غير حاجة إلى مرفأ .

– صدقت يا بروفيسور ولكنها فى حاجة إلى كهرباء . . إلى العناصر المولدة للكهرباء ، وإلى الصوديوم الذى يغذى هذه العناصر وإلى الفحم الذى يصنع الصوديوم وإلى مناجم الفحم لاستخراجه منها : وتصادف أن البحر هنا يغطى غابات كاملة دفنت فى الأحقاب الجيولوجية ، وأصبحت الآن متعددة وتحولت إلى مناجم فحم لا ينضب معينها .

– إذن فإن رجالك هنا يؤدون أعمال المعدنير . ؟

– تماما . إن هذه المناجم ممتدة تحت الماء كمناجم الفحم فى نيوكاسل . وهنا يعمل رجالى وهم بملابس الغوص معهم الحارث والمعاول على استخراج الفحم الذى لا يمكن الحصول عليه من مناجم الأرض . وعند حرق هذا الفحم لاستخراج الصوديوم فإن الدخان المتصاعد من فوهة البركان يكسبه مظهر البركان الحى . . .

– هل سترى رجالك أثناء العمل ؟

– لن يكون ذلك فى هذه المرة على الأقل ، لأنى متعجل لمواصلة

رحلتنا حول العالم المائى . ولهذا سأكتفى بأخذ كمية من الصوديوم المختزن الذى أمتلكه هنا . ويكفى يوم واحد لشحنها إلى الغواصة ثم نستأنف رحلتنا ه فإن كنت تحب تفقد هذا الكهف والقيام بجولة فى البحيرة فانتبهز فرصة هذا اليوم يا مسيو أرونالكس ه

فشكرت الربان نيمو وذهبت للبحث عن صاحبي الذين لم يغادرا مقصورتهم بعد . وقد طلبت إليهما أن يتبعانى دون إبلاغهما أين هما ه وصعدا معى إلى سطح الغواصة . ولم يستغرب كونسايل الذى لا يدهشه شىء ، أن يستيقظ ليجد نفسه تحت جبل بعد أن نام وهو تحت البحر . أما نيد لاند فكان تفكيره منحصرأ فى التماس مخرج آخر لهذا الكهف . وبعد طعام الإفطار ، فى نحو العاشرة صباحاً ، هبطنا إلى شاطئ البحيرة حيث قال كونسايل :

– هانحن أولاء مرة أخرى على الأرض .

فقال نيد لاند :

– إننى لا أسمى هذا المكان أرضاً وفضلاً عن هذا فلنأنا فوق الأرض بل تحتها ...

وكان ثمة شاطئ رملى يمتد بين قاعدة الجبل المنحدرة وبين حافة مياه البحيرة يبلغ اتساعه فى أعرض موضع منه خمسمائة قدم ، وكان من السهل القيام برحلة حول البحيرة على هذا الشاطئ ، ولكن قاعدة الجبل المنحدرة كانت من تربة غير ممهدة تستقر فوقها كتل بركانية وقطع ضخمة من حجارة الخفاف فى أشكال عجيبة ، كسها النيران الجوفية بالميناء المصقولة مما جعلها تتألق فى ضوء الكشاف الكهربائى . وكان الغبار البركاني يثور على الشاطئ تحت أقدامنا كسحب من الشرر .

وكانت الأرض ترتفع تدريجياً بعد حافة الماء ، وسرعان ما وصلنا إلى منحدرات طويلة معروقة مدرجة مما أتاح لنا أن نرتقيها على مراحل ه ولكن

كان علينا أن نسير في حذر بين هذه الكتل المتخلخلة التي خلت من أسمنت يشد بعضها إلى بعض . وكانت أقدامنا تنزلق على الصخور البركانية الملساء المكونة من الزجاج والحجارة المعدنية والكوارتز .

والحق أن الطبيعة البركانية في ذلك الكهف الواسع كانت واضحة في كل ناحية منه وقد عبرت عن رأيي هذا لصاحبي قائلاً :

– هل يمكن أن أنتصوّر كيف كان هذا الكهف الضخم يبدو وهو ممتلئاً باللابا الفائرة المتصاعدة إلى فتحة الجبل وهي تسيل على جوانبه كما يسيل المعدن المصهور على جوانب الأتون ؟ .

فقال كونساييل :

– إنني أستطيع أن أتصوّر تماماً . ولكن هل يستطيع سيدي أن يخبرنا لماذا توقف هذا البركان الكبير عن الفوران ، وكيف تحول أتون الحمم إلى مياه بحيرة هادئة .

– من المحتمل يا كونساييل أن الهزات الأرضية تسببت في حدوث تصدع تحت سطح المحيط الذي نفذت منه الغواصة ونتيجة لذلك تدفقت مياه الاطنطى إلى جوف هذا الجبل . لا تنس أن هناك معركة بين عنصرى الماء واليابسة . وهي معركة كانت لصالح الماء . ولكن أحقاباً عديدة انصرفت منذ ذلك الحين ، ومالبث البركان الثائر أن استحال إلى هذا الكهف الهادئ .

فقال نيد لاند :

– حسناً جداً . . لقد قبلت هذا التفسير ، ولكن مما يؤسف له – إذا نظرنا إلى جانب المصلحة – إن هذا الشق لم يحدث في جبل فوق مستوى ماء البحر .

فقال كونساييل :

– ولكن . . لو لم يكن هذا المر تحت سطح البحر ، لما استطاعت الغواصة أن تنفذ منه .

فقلت :

– ويمكنني أن أضيف إلى هذا أن الماء ما كان ليندفع من الشق تحت البركان وكان البركان يظل ثائراً حتى الآن . وإذن فلا جلوى من المناقشة .
وتابعنا الصعود والجوانب تزداد انحداراً وضيقاً . وكانت بعض الكتل البركانية تعترض سبيلنا أحياناً فنضطر إلى عبورها ، وكان علينا أن نتجنب الاصطدام بالكتل المعلقة . وكنا نزحف على أيدينا وركبنا ثم استطعنا أخيراً بفضل براعة كونسایل وقوة نيد لاند أن نجتاز كل العقبات .

وعلى ارتفاع عشرة أقدام تغيرت طبيعة الأرض ، فبدلاً من الصخور المصقولة والأحجار البركانية وجدنا صخور البازلت الأسود ممتدة في طبقة زاخرة بالحصى ، بعضها على شكل المنشورات المتساوية الأضلاع ، موضوعة في هيئة أعمدة تتركز عليها جوانب الكهف الضخم ، وتكون في مجموعها لوناً رائعاً من هندسة الطبيعة . ومن هذه الصخور البازلتية امتدت جداول متعرجة مكونة من اللابا الباردة المقلمة بخطوط قارية ، وكانت تتسع أحياناً فتبدو كأبسطة كبريتية حية . وكان ثمة ضوء قوى ينساب من الفوهة العليا ويرسل وميضاً غائماً فوق المنخفضات البركانية المدفونة إلى الأبد في قلب هذا الجبل الهامد .

ومهما يكن فإن صعودنا لم يلبث أن توقف على ارتفاع مائتي وخمسين قدماً بسبب عوائق لا سبيل إلى اجتيازها . وكان فوقنا سقف مقبوع لا يمكن الصعود إليه ، واستحال طريقنا إلى جدران دائرية وهنا بدأت مملكة النبات كفاحها ضد مملكة المعادن . فقد رأيت بضع شجيرات بل بعض أشجار تمتد من شقوق الجوانب ، وقد تعرفت منها على نبات العنجد بعصارتها الحارقة تسيل على جوانبه وشجر اليمام « الهليوتروب » الذي يلور مع الشمس أينما تدور ، ولكنه كف هنا عن التطلع للشمس لأن أشعتها لا تصل إليه قط . ولذلك كانت أوراقه تتدلى في تحاذل ، وكانت ألوانها شاحبة ، ورائحتها زائلة .

وكانت أزهار الكريزنتيوم تنمو على استحياء عند أقدام أعواد الئد وقد سقمت أوراقها الطويلة . وقد لاحظت بين خطوط اللابا وجود أزهار بنفسج كانت لها رائحة عطرية خفيفة . وأعترف أنى شممت رائحتها فى ابتهاج فإن العطور هى روح الزهور ، أما أزهار البحر - الهيدرونيت البديعة - فإنها بلا روح .

وكنا قد وصلنا عند القاعدة إلى مجموعة من أشجار التنين القوية اللى دفعت الصخور جانباً بقوة جذورها وهنا هتف نيد لاند قائلاً :

- عجباً . . هذه خلية نحل .

فقلت فى لهجة تم عن دهشة صادقة :

- خلية نحل ! . .

- نعم النحل يطن حولها . . .

ولم يسعنى حين اقتربت إلا الاعتراف بالأمر الواقع . فقد رأيت فى مدخل فجوة بجذع شجرة التنين بضعة آلاف من هذه الحشرات العاملة المعروفة فى جميع جزر الكناريا واللى يقدر الجميع إنتاجها كل تقدير .

وقد أراد نيد لاند طبعاً أن يظفر بكىمة من الشهد ، ولم يكن من الكياسة أن أنفس عليه هذه الرغبة وسرعان ما قدح الزناد وأشعل النيران فى بعض الأوراق الجافة المزوجة بالمواد الكبريتية ؛ ومالبث اللدخان أن طرد من الخلية النحل . فإذا الطنين ينحف تدريجياً وإذا نحن نظفر من الخلية ببضعة أرطال من العسل وضعها نيد لاند فى جعبته وهو يقول :

- عند ما أمزج هذا العسل بعجينة من دقبق العظام ، فسأقدم لكما

كعكة شبية .

فقال كونسائل :

- ستكون طيبة المذاق كقطيرة الزنجبيل و

فقلت :

– لتكن إذن فطيرة الزنجبيل ، ولكن هيا نتابع رحلتنا الممتعة .

وفى بعض المنعطفات التى اجتزناها بدت البحيرة على أتم سعتها وكان الكشاف الكهربائى يضىء سطحها الساجى الهادى الذى لا أثر للموج فيه . وكانت الغواصة مستقرة فى موضعها وكان بحارتها فوق السطح على رصيف المرفأ يبدون كظلال سوداء مرسومة بوضوح فى الضوء .

وكنا فى تلك اللحظة ندور حول أعلى قسم من طبقات الصخور التى يرتكز عليها السقف ، وقد رأيت عندئذ أن النحل لم يكن الممثل الوحيد للمملكة الحيوانية فى داخل هذا البركان ، إذ شاهدت طيوراً برية تحلق وتلور هنا وهناك فى الظلام . تنفر من أوكارها المستقرة على أطراف الصخور . وكان ثمة بواشق بصلمورها البيضاء وأفراخها الزائطة ، وعلى مهابط المنحدرات كانت طيور الحبارى السمينة تتواهب بكل ما فى سيقانها الطويلة من سرعة ، وللقارئ أن يتصور نيد لاند وهو يبدى لهفته إلى هذا الصيد الدسم ويأسف لخلو يديه من البندقية . وقد حاول أن يستبدل الحجارة بالرصاص وبعد عدة محاولات فاشلة استطاع أن يصيب طائراً بديعاً . والواقع أنه غامر بحياته عشرين مرة قبل أن ينجح فى إصابته ، ولكنه استطاع أخيراً أن يضمه إلى كمية العسل فى الجعبة .

وصار لزاماً علينا أن نهبط نحو الشاطئ بعد أن استحال الاستمرار فى الصعود . وكانت فوهة البركان المفتوحة تبدو كفتحة البئر . ومن مكاننا يتبين لنا أن نرى السماء بوضوح . وقد شاهدت السحب المضطربة تلمس أطراف الجبل بأجنحتها الرطبية وهى تندفع أمام الرياح الغربية . وكان ذلك دليلاً على أنها سحب منخفضة لأن البركان لم يكن يرتفع أكثر من ثمانمائة قدم فوق سطح البحر .

وبعد نصف ساعة من مغامرة نيد لاند مع الطائر ، وصلنا إلى الشاطئ الداخلى ، وهنا رأينا المملكة النباتية ممثلة فى أبسطة كبيرة من البلورات

البحرية . وهي نوع يُمن النباتات الطحلبية ، ذات قدرة كبيرة على البقاء ، كما تحمل أسماء مختلفة منها « السمار » وقد جمع كونسایل حزما منها . أما المملكة الحيوانية فيمكن إحصاء آلاف القشريات من كل نوع ، والسرطانات البحرية ، والجنبرى ، والكابوريا ، وأنواع من الحرباءات وكميات كبيرة من المحار ، والركنيش ، « أنواع من السمك » والبطلينوسات وهو نوع من الأسماك الصدفية .

وفى ذلك المكان وجدنا مغارة صغيرة رائعة ، وشد ما كانت بهجتى وصاحبى عند ما رقدنا على رمالها الناعمة وكانت النيران قد صقلت جدرانها اللامعة المكسوة بالميناء الموهبة بالمليكا . ونقر نيسد لاند على الجدران ليعرف مبلغ سمكها ، فلم أتمالك عندئذ من الابتسام ، ثم تطرق الحديث إلى مشروعات الهرب الخالدة ، وبدا لى أن أمد له فى حبل الأمل بقونى إن الربان نيمو لم يأت إلى هذه المنطقة الجنوبية إلا ليحصل على حاجته من الصوديوم ، وهكذا كان يخامرنى الأمل فى عودته بعد هذا إلى الشواطئ الأوربية أو الأمريكية مما يتيح لنيد لاند أن يكرر محاولته الأولى بنجاح .

واستلقينا نحو ساعة فى تلك المغارة الحميلة ، وسرى الفتور إلى حديثنا بعد أن كان حامياً ، وشعرنا بميل إلى النوم ، وإذا لم أجد ما يمنعنى من تحقيق هذه الرغبة فقد استغرقت فى سبات عميق وقد حلمت والإنسان لا يختار أحلامه أننى قد تحولت إلى دويبة لا فقرية دقيقة وأن هذه المغارة هى المحارة التى تنطبق على ، وفجأة استيقظت على صوت كونسایل وهو يصيح قائلاً ...

– أنظروا . .

فسألته وأنا أرفع رأسى

– ماذا حدث ؟ .

– إن المياه آتية إلينا . .

فنهضت ورأيت المياه تندفع نحونا كالسيل الجارف وما دمنا لم نكن دويبات لا فقرية حقاً فقد اضطررنا إلى الفرار وإن هي إلا لحظات حتى كنا بآمن في أعلا المغارة .

وسألني كونسایل قائلاً :

— ما هذا . . . أمى ظاهرة طبيعية جديدة ...

فأجبت قائلاً :

— لا يا صاحبي . إنه المد ! المد الذى أوشك أن يغرقنا كما فعل مع بطل وولتر سكوت . لقد ارتفعت مياه المحيط فى الخارج ، وبحكم قانون التوازن الطبيعى ارتفع معها سطح البحيرة . لقد نجونا بعد حمام بارد هلموا بنا إلى الغواصة لإبدال ملابسنا .

وبعد ثلاثة أرباع ساعة أتمنا دورتنا حول جدران الكهف ثم عدنا إلى الغواصة حيث كان بحارتها قد أوشكوا على الفراغ من شحن الصوديوم إليها ، وأمست مستعدة للإبحار فوراً .

ولكن الربان نيمو لم يصلر أمراً ، ولعله قرر الانتظار حتى الليل ثم الخروج سراً من المر المائى .

وأيا كان الأمر فإنه لم يحل اليوم التالى حتى تركت الغواصة مرساها فى تلك البحيرة وأخذت تمخر الماء بعيداً عن كل يابسة ، وعلى عمق بضع ياردات من سطح المحيط .

الفصل الخامس والثلاثون

بحر سارجاسو

لم تتغير وجهة الغواصة وهكذا كان علينا أن نفقد كل أمل في العودة إلى البحار الأوربية في الوقت الحالى فقد تابع الربان نيمو اتجاهه إلى الجنوب . ترى إلى أين يذهب بنا . ذلك ما لم أجسر على التفكير فيه .

وفي ذلك اليوم اجتازت الغواصة منطقة فريدة في المحيط ، وكل إنسان يعرف أمر ذلك التيار الكبير الدافئ المياها المعروف باسم تيار الخليج وبعد مغادرة هذا التيار خليج فلوريدا يتجه نحو ستزبرجن ، ولكنه ينقسم إلى فرعين بعد خليج المكسيك بمسافة ، أى في الدرجة الرابعة والأربعين من خط العرض الشمالى وعلى الفرع الرئيسى إلى شواطئ ليرلنده والنرويج ، بينما ينحرف الثانى إلى الجنوب في جوار جزائر الآزور ، ثم يقوم بدورة بيضاوية بعد اصطدامه بالشواطئ الافريقية ، فيعود إلى جزر الانتيل . وهذا الفرع الثانى يحيط بنطاق مياهه الدافئة ذلك الجانب البارد الهادئ من المحيط المسمى بحر سارجاسو . إنه بحيرة كاملة في قلب المحيط وتحتاج مياه التيار الكبير إلى ثلاثة أعوام لكي تتم دورتها حوله .

وبحر سارجاسو إن أردنا الدقة في التعبير يغطى كل مساحة قارة أطلانتيس الغارقة ، وقد قرر بعض العلماء أن الأعشاب الكثيرة التي تطفو على سطحه ، منتزعة من برارى تلك القارة القديمة . ولكن الاحتمال الأرجح على كل حال هو أن هذه الأعشاب والنباتات البحرية والطحالب يحملها تيار الخليج الدافئ من الشواطئ الأوربية والأمريكية إلى هذه المنطقة . وكان ذلك هو أحد الأسباب التي جعلت كولمبوس يؤمن بوجود الدنيا الجديدة . فعندما وصلت سفن ذلك الملاح الباسل إلى بحر سارجاسو ، أخذت تشق طريقها بصعوبة بين

أكوام الأعشاب والنباتات البحرية التي اعترضتها مما أثار الفزع في قلوب البحارة ، وضيع منهم ثلاثة أسابيع كاملة في اجتيازها .

تلك هي المنطقة التي ألت بها الغواصة ، برارى مائة ممتدة ، أو بساط واسع سميك من الأعشاب والطحالب البحرية والثمار الاستوائية التي يبلغ من كثافتها وتراكمها أن مقدم أية سفينة لا تكاد تشق طريقها بينها . وقد حرص الربان نيمو على السير تحت سطح الماء بوضع ياردات حتى لا يدع هذه الأخشاب تلتف حول رفاصها .

واسم « سارجاسو » مشتق من الكلمة الأسبانية « سارجازيو » ومعناها « قش البحر » وهو نوع من النبات التوتى الثمار تتكون منه معظم أعشاب هذه المنطقة . والتفسير الذى علل به العالم مورى مؤلف « الجغرافيا الطبيعية للبحار » وجود هذه النباتات البحرية في هذه المنطقة الهادئة من المحيط هو كما يلي : « يبدو لى أن التفسير الذى يمكن أن نقدمه هو نتيجة تجربة معروفة للجميع فإذا وضعنا قطعاً من الفلين أو من أية مادة طافية في وعاء به ماء وأحدثنا فيه حركة دوارة ، رأينا القطع المتناثرة تتجمع في قلب السطح المائى أو بعبارة أصح ، في المكان الذى يقل فيه الاضطراب والحركة عن غيره . وهكذا يمكن تعليل هذه الظاهرة إذا تصورنا أن وعاء الماء هو المحيط الاطلنطى وأن تيار الخليج هو الحركة الدوارة فيه ، وأن بحر ساجاسو هو أقل الأمكنة فيه اضطراباً ، وهو المكان الذى تتجمع فيه الأجسام الطافية .. » .

وأنا أتفق في هذا الرأى مع مورى ، وقد أمكننى أن أدرس هذه الظاهرة في نفس البحر الذى قلما تغامر السفن بالمرور فيه . . فقد كانت تطفو فوق رؤوسنا مواد من كافة الأصناف . وكانت تتشابك بين هذه الأعشاب المائلة إلى اللون البنى جذوع أشجار من جبال روكى أو الأندز حملتها تيارات نهر الأمازون أو نهر المسيسيبي . مع الكثير من الصوارى وبقايا هياكل وألواح السفن ، وقد بلغ تراكم المحار والقواقع فوقها أنها لم تستطع الارتفاع إلى سطح

الماء وسيغرز الزمن يوماً ما آراء مورى في أن هذه المواد المتراكمة منذ أحقاب عديدة سوف تتعدن بفعل المياه . وأنها ستصبح معيناً لا ينضب من مناجم الفحم ، وهو احتياطي ضخيم تعده الطبيعة البعيدة النظر حين يستنفذ الإنسان مناجم الفحم في اليابسة .

وقد لاحظت بين أكداس النباتات والأعشاب بعض أسماك الثريا القرمزية الحميلة ، والاكتيا بمجساتها الطوال والميديموز الحمراء والخضراء والزرقاء ولاسيما أسماك الريوستروم بمظلاتها الزرقاء ذات الحواف البنفسجية . وانقضى يوم الثاني والعشرين من شهر فبراير كله في بحر سارجاسو ذى الأسماك الكثيرة التى تقتات بالنباتات البحرية والقشرية وهى الغذاء الموفور ، أما فى اليوم التالى فقد بدا المحيط فى امتداده الرحيب .

ومنذ ذلك اليوم وطوال تسعة عشر يوماً . أى من الثالث والعشرين من فبراير إلى الثانى عشر من مارس ظلت الغواصة فى عرض الاطلنطى ، منطلقة بسرعة منتظمة قدرها ثلاثمائة ميل كل أربع وعشرين ساعة . وقد بدا جلياً أن الربان نيمو اعترم استكمال برنامجه البحرى وأنه بعد الطواف حول رأس هورن سيمضى إلى المنطقة الجنوبية من المحيط الهادى .

وكان نيد لاند إذ ذاك محقاً فى شعوره بالخوف إذ لم يكن الهرب من الغواصة ممكناً فى تلك البحار الواسعة الحالية تقريباً من الجزر ، ثم إنه لم يكن ثمة وسيلة لمعارضة رغبات الربان نيمو كما لم يكن أمامنا إلا الخضوع . ولكنى كنت أرى أن الهدف الذى لا يمكن بلوغه بالقوة أو بالحيلة ، قد يتحقق بالحجة والإقناع . فهلا يضى الربان نيمو فى نهاية الرحلة أن يطلق سراحنا إذا أقسمنا بكمثال سره مدى الحياة - قسم بالشرف يوجب علينا أن نبر به . ولكنه موضوع دقيق ينبغى مناقشته مع الربان . فهل ترى مستقبل هذا الرجاء لإطلاق سراحنا بروح طيبة . ألم يعلن لنا من أول الأمر ، وبأسلوب حاسم أن سره الكبير يوجب بقاءنا سجناء فى الغواصة إلى ما شاء الله . ألا يبدو له

صمتي خلال الأشهر الأربعة قبولا ماكرأ للأمر الواقع . ألايحتمل أن تثير العودة إلى مناقشة هذا الموضوع شكوكه وهي تعوق محاولتنا للهرب إذا سنحت لنا الفرصة المناسبة لتكرارها . لقد رحت أستعرض هذه الاحتمالات جميعاً وأفحصها في ذهني ثم عرضتها على كونسایل الذي لم يكن أقل حيرة وارتباكاً – رغم أني لا أركن إلى اليأس بسهولة . فقد أدركت أن الفرص الساححة لروية أهلي وعشيرتي في اليابسة كانت تتضاءل يوماً بعد يوم وفوق هذا كله ذهب الربان نيمو يندفع بالغواصة إلى جنوبي المحيط الاطلنطي في كل جراحة .

ولم يقع خلال هذه الأيام التسعة عشر شيء يستحق الذكر ، ولم أكن أرى الربان نيمو إلا لماماً ، إذ كان دائم المشاغل . وكثيراً ما كنت أرى في المكتبة كتباً تركها مفتوحة ، ولاسيما كتب التاريخ الطبيعي . وكان مؤلني عن أعماق البحار مملوء الهوامش بتعليقاته وآرائه التي كانت تتعارض أحياناً مع آرائي ونظرياتي ولكنه لم يحاول أن يتجاوز هذا الحد في معارضته وقلما كان يناقشني في هذا المقام . وكنت أحياناً أخرى أسمع النغمات الشجية وهو يعزف على الأزرغ بتلك الروح المعبرة ، ولكن هذا لم يكن إلا ليلاً وفي أبعد الأماكن عن البشر ، أي عند ما ترقد الغواصة في فيافي المحيط .

وكنا في خلال هذه الرحلة نقضي أياماً كاملة على سطح البحر الخالي تماماً لإلا من بعض السفن التي كانت في طريقها إلى جزر الهند عن طريق رأس هورن . وفي ذات يوم طاردنا زورق لصيد الحيتان وهو يحسبنا بطبيعة الحال جوتاً عظيماً . ولكن الربان نيمو أبي أن يضيع وقت بحارة الزورق البواسل وجهدهم ، فأنهى المضاردة بالغوص تحت سطح الماء . ويبدو أن هذا الحادث أثار في نفس نيد لاند أشد الاهتمام . ولست أشك في أنه كان يتمنى لو أن أولئك الصيادين استطاعوا تحطيم ألواح الغواصة الحديدية بحراهم . وكانت الأسماك التي شاهدتها مع كونسایل في خلال الفترة لا تختلف

إلا قليلا عما سبق أن شاهدناه في نحوظ العرض الأخرى . وكان أهمها أنواعاً من مرتبة الغضروفيات الرهيبية التي تنقسم إلى ثلاث مجموعات فرعية . وهذه بدورها تنقسم إلى ما لا يقل عن اثنين وثلاثين نوعاً . منها سمك الكلب من « فصيلة القرش المخطط » الذي يبلغ طوله خمس ياردات ، وهو برءوس مفرطحة أعرض من جسمها ، وزعانف ذنبية مستديرة وسبعة خطوط طويلة سوداء كبيرة متوازية على ظهره . وسمك الكلب ذو اللون الرمادي والخيشوم ذو الفتحات السبعة . وزعنفه الصدر الوحيدة القائمة في منتصف جسمه .

ثم نمور البحر المعروفة باسم « كلاب البحر » وهي من أشرس وأعنف أنواع الأسماك . وقد يرتاب الإنسان فيما يرويه الصيادون عنها . ولكنهم يقولون إنه عثر ذات يوم في بطن واحد منها على رأس بقرة وجسم عجل كامل ، وفي بطن آخر على سمكتين كبيرتين وبحار بملابسه الكاملة ، وفي بطن ثالث على جندي بسيفه ، وأخيراً على حصان وراكبه . وهذا كله ولا شك نوع من المبالغات . وكل ما أستطيع أن أذكره هو أن الغواصة لم تظفر قط بواحدة من هذه الوحوش البحرية . وهذا لم أستطع الجزم بشراستها .

وكانت ترافقنا لمدة أيام عديدة مجموعات من الدرافيل الرشيقه اللعوب ، تتألف كل مجموعة من خمسة أو ستة تنطلق معاً للصيد كالذئاب . وهي بطبيعتها لا تقل وحشية عن كلاب البحر إذا صدقنا العالم الدانمركي الذي استخرج من معدة إحداها ثلاث عشرة ترسة ، وخمس عشرة فقمة . وينتمي الدر فيل إلى أكبر أنواع الغرامبوس « الحيتان الدر فيلية » ويزيد طوله . أحياناً عن أربعة وعشرين قدماً وتضم أسرة الدر فيل ستة مراتب والنوع الذي رأيته ينتمي إلى مرتبة (الدلفينورينكس) المشهورة بأفواهها الضويلة الضيقة جداً والتي يبلغ طولها أربعة أمثال حجمه الرأس . أما أجسامها البالغ طولها ثلاث ياردات فهي سوداء الظهور ، بيضون بيضاء وقرهزية . بنقط قليلة نادرة .

ويمكن أن أذكر أيضاً مما رأيته في هذه البحار أنواعاً عجيبة من السمك من مرتبة الأكانتوبترنجيان التابعة لأسرة الأسقين . ويزعم بعض المؤلفين من كبار الشعراء لا العلماء أن هذه الأسماك تغنى غناء عذباً ، وأن أصواتها المجتمعة تفوق في عذوبتها أي « كورس » من البشر . ولست أقول إن هذا لم يقع ولكننا لم نستمع مع الأسف أثناء مرورنا إلى هذه المعزوفات .

وصفوة القول لقد استطاع كونسایل أن يصنف كثيراً من السمك الطائر ، ولم يكن هناك ما هو أعجب من مشهد الدرافيل أثناء مطاردتها المحكمة لهذه الأسماك . فهما حلقت الأسماك ، ومهما حاولت انخرّب كانت تجد في انتظارها دائماً شديق مفتوح لاستقبالها . وكانت هذه الأسماك من نوع الغرنار الطائر ذات أفواه مشعة تبدو في الليل وهي تشق الجو بخطوط نارية ثم تغطس في ظلمات الماء كنجوم مهاوية

واستمرت رحلتنا في هذه الظروف حتى اليوم الثالث عشر من شهر مارس ، وفي ذلك اليوم شغلت الغواصة بعمليات قياس للأعماق مما أثار اهتمامي إلى حد كبير .

كنا عند ذاك قطعنا نحو ١٣ ألف فرسخ منذ رحيلنا من أعلى البحار في المحيط الاضادى . وكان جهاز تحديد الموقع يشير إلى أننا في جنوبي خط العرض ٣٧ : ٤٥ درجة وغربي خط الطول ٥٣ : ٣٧ درجة وهو نفس الموضع الذي أرسل فيه الربان دنهام . قائد السفينة هيرالدا - حبالاً معدنية لقياس عمق المحيط طولها ١٤ ألف ياردة دون أن تصل إلى القاع . وهنا أيضاً لم يستطع اللفتانت باركر ربان السفينة الأمريكية كونجرس - أن يصل إلى قاع المحيط بحبال معدنية طولها ١٤٤٠٠ ياردة .

ولكن الربان نيمو اعتزم الوصول إلى قاع هذه المنطقة بالغواصة . وقد تأهبت لتدوين ملاحظاتي في أثناء عمليات قياس العمق فيها وبقيت نوافذ الصالون البللورية مفتوحة عند ما بدأت العمليات .

ويمكن بطبيعة الحال أن نتصور أن امتلاء خزانات الغواصة بالماء لا يكفي للهبوط بها إلى القاع . فمن المحتمل أن تقل الخزانات لا يكفي للهبوط بالغواصة إلى أى عمق . فضلا عن هذا فإن العودة إلى السطح مرة أخرى تستوجب التخلص من الماء الزائد ، والمرجح أن مضخات التفريغ ليست لها القوة الكافية لمقاومة الضغط الخارجى .

ولكن الربان نيمو قرر الهبوط إلى الأعماق بواسطة الألواح الجانبية المثبتة فى جوانب الغواصة بانحدار تبلغ زاويته ٤٥ درجة بالنسبة لمستوى الماء . وسرعان ما أخذ الرفاص يدور بكل قوته ، وإذا ألواح الرباعية تضرب الماء بعنف كبير . وجعل هيكل الغواصة المهتز بتأثير ضربات الرفاص يهبط تدريجياً إلى أعماق الماء . وجلست مع الربان فى الصالون نرقب مؤشر الغوص وهو يتحرك بسرعة ، وسرعان ما اجتزنا حدود المناطق المأهولة بالأسماك ، فهناك أنواع لا تستطيع الحياة إلا قريباً من أسطح الأنهار والبحار ، بينما تعيش الأقلية فيما هو أكثر عمقاً . وبين هذه الأنواع رأيت قرش الهكسان - وهو من فصيلة كلاب البحر - وله ستة خياشيم وعيناه كبيرتان فى قوة التلسكوب وجلد الملامر مات وعنق رمادى وزعانف جانبية سوداء تحمى عظام صدره ، ثم سمك الغرباء الذى يعيش فى عمق ١٢٠٠ ياردة ويتحمل ضغطاً مائياً يساوى مائة وعشرين ضغطاً جويماً .

وسألت الربان نيمو إن كان رأى من قبل سمكاً يعيش فى مثل هذا العمق

فقال :

- نادراً . ولكن إذا تحدثنا بلغة العلم ، فماذا يعرف العلماء ؟

- يعرفون أننا كلما أمعنا فى الغوص اختفت الحياة النباتية قبل الحيوانية ويعرفون أيضاً أنه حيث لا تزال توجد الحياة الحيوانية فى الأعماق . قد لا يوجد عود واحد من النبات البحرى . ويعرفون أيضاً أن المحار والتليرين

تعيش على عمق ألى ياردة وأن ماكلينتوش بطل البحار القطبية اصطاد سمكة من نوع نجم البحر من عمق خمسة آلاف ياردة ويعرفون أن بحارة السفينة الحربية بلودوج اصطادوا سمكة من نوع نجم البحر أيضاً من عمق ٦٢٤٠ ياردة ولكن لعلك تقول يا كابتن إنهم لا يعرفون شيئاً .

— لا يا بروفيسور لن أكون فظاً إلى هذا الحد . . ولكني أسألك فقط كيف تفسر قدرة الحيوان على الحياة في مثل هذا العمق .

— هناك تعليان : الأول لأن التيارات الرأسية الناشئة من اختلاف ملوحة وكثافة المياه تتيح حركة كافية تحفظ العناصر الأولية لحياة النجميات البحرية .
— صدقت .

— وأيضاً لأنه إذا كان الأوكسجين هو عماد الحياة فالمعروف أن كميات الأوكسجين المتحللة في مياه البحر تزيد بدلا من أن تقل كلما هبطنا إلى الأعماق . وإن الضغط المتزايد يؤدي إلى ضغط كميات الاكسجين به .
فقال الربان نيمو في صوت يرم عن الدهشة :

— آه .. أتعرفون هذه الحقيقة ؟ حسنا يا بروفيسور : جميل منكم أن تعرفوا هذا لأنه لا يعدو الحقيقة . ويمكنني أن أضيف أن المئات الهوائية في الأسماك التي تصاد فوق سطح الماء تحتوى على أزوت أكثر من الأوكسجين وعلى أكسجين أكثر من الأزوت إذا صيدت في أغوار أعمق . وهذه الحقيقة تطابق نظريتكم . ولكن هيا نتابع ملاحظتنا

ونظرت إلى جهاز تسجيل العمق فألفيته يشير إلى عمق ستة آلاف ياردة . وكانت الغواصة قد استغرقت ساعة في الهبوط كما استمرت في الغوص مناسبة بألواحها الجانبية المائلة ، وكانت المياه العميقة رائعة الشفافية إلى حد يجل عن الوصف . وبعد ساعة أخرى كنا في عمق ثلاثة عشر ألف ياردة ، ومع ذلك لم يكن ثمة أثر للقاع .

وأخيراً لحت على عمق أربعة عشر ألف ياردة قمماً سوداء بين الماء .
ولكن قد تكون قمم جبال مرتفعة كالهملايا أو مونت بلانك ، بل ربما
أكثر ارتفاعاً ، ومعنى هذا أن القاع في تلك الأغوار مازال مجهولاً .
وظلت الغواصة ممعنة في الهبوط رغم الضغط الغنيف الذي كانت تتحملة .
وأحسست بالألواح الجانبية المائلة تهتز ، وبمرباطها وبالقضبان تنحني ، وبالفاصل
تئن وبيبلور النوافذ يكاد يتقوس تحت الضغط المائي الشديد . وقد يمكن أن
تسحق الغواصة سحقاً لولا أنها كانت متماسكة ككتلة الصخر كما قال الربان .
وكنت ونحن نهبط متحاشين هذه الصخور الضائعة في الأعماق أرى
بعض الأصداف والقواقع وهي لا تزال حية ، وبعض أنواع من النجميات
البحرية .

ولكن سرعان ما اختفت هذه الأنواع الأخيرة التي تمثل مملكة
الحيوان ؛ وبعد عمق عشرة أميال تجاوزت الغواصة حدود الحياة تحت الماء
كما يتجاوز البالون طبقات الجو الصالحة للتنفس . ولم نلبث أن وصلنا إلى
عمق ستة عشر ألف ياردة ، أي أن جوانب الغواصة كانت تحتل ضغطاً
مائياً يوازي ١٦٠٠ ضغط جوى أو ٣٢٠٠ رطل على كل سنتيمتر مربع من سطحها .
وهتفت قائلاً :

— ياله من موقف عجيب ! لقد اجتزنا مناطق لم يسبق لإنسان أن وصل
إليها . . انظر يا كابتن . . انظر إلى هذه الصخور الرائعة . إلى هذه الكهوف
الموحشة . . إلى هذه المعالم الأخيرة من الكرة الأرضية حيث تستحيل الحياة !
أية مجاهل هذه ؟ وكيف نعود منها بالذكريات فقط ؟

— هل تريد أن تعود بما هو أفضل من الذكريات .

— ماذا تعني ؟

— أعني أنه ليس ثمة أسهل من أن نلتقط صوراً فوتوغرافية لهذه المناطق

العجيبة .

وقبل أن أعرب عن دهشتي لهذا الاقتراح الحديد أصدر الربان نيمو أمراً حضرت على أثره آلة تصوير إلى الصالون . وكانت اللجج المائية تبدو وراء النوافذ البلورية الواسعة شديدة الوضوح في الضوء الكهربائي المناسب من الغواصة . وما كان يمكن أن تمدنا أشعة الشمس نفسها بأسطع من هذا الضوء القوى . واستطاعت الغواصة بفضل حركة رفاصها وخضوعها للألواح الجانبية أن تبقى ثابتة مكانها . وصوبت آلة التصوير إلى هذه المشاهد في قاع المحيط وما هي إلا لحظات حتى ظفرنا بصور سلبية كانت غاية في الوضوح .

أما الصور الإيجابية فقد أوضحت لنا أشكال الصخور البدائية التي لم تشهد قط ضوء السماء ، وهي صخور الجرانيت السفلى التي تكون الأساس القوى للكرة الأرضية . والكهوف الهائلة المحفورة في الكتل الصخرية الضخمة ، كلها مصورة بخطوط واضحة وكأنما رسمتها ريشات بعض الفنانين الفلمنكيين . ومن وراء المناظر الأمامية ظهرت سلاسل الجبال الرائعة التي كانت بمثابة الإطار الخلفي لها . ولا أستطيع وصف شعوري وأنا أرى صور هذه الصخور السوداء الناعمة المصقولة الخالية من الطحلب ومن البقع والتي كانت تبدو في أشكال عجيبة وهي مستقرة فوق بساط من الرمال المتألقة في الضوء الكهربائي .

ومهما يكن فقد قال لي الربان نيمو بعد أن فرغ من عمليات جس الأعماق .

— ينبغي أن نصعد الآن يا بروفيسور . فلا يصح أن نعرض الغواصة لهذا الضغط فترة طويلة .

فهمت قائلاً :

— نصعد إلى السطح ؟

— تمالك نفسك .

وقبل أن أفهم المراد من تحذير الربان لى على هذه الصورة ألفتنى مُلّقى فوق سجادة الصالون .

فقد أمر الربان بتوقف الرفاص ؛ وتحركت الألواح الجانبية رأسياً ؛ وإذا الغواصة ترتفع بسرعة مذهلة كالبالون فى الهواء . كانت تشق الماء فى صعودها بصوت رنان ، بحيث لم يكن فى مقلورنا أن نرى شيئاً . وفى أربع دقائق قطعنا الأميال الثلاثة عشر التى كانت تفصلنا عن سطح المحيط . وبعد أن برزت الغواصة كالمسكة الطائرة عادت فاستقرت فوقه بحركة جعلت الأمواج تتلاطم عالياً .

**** معرفتى ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامه

الفصل السادس والثلاثون

حيتان وقياطس

تابعت الغواصة طريقها جنوباً ليلة الرابع عشر من شهر مارس . وقد خطر لى أننا سنتجه غرباً بعد الوصول إلى رأس هورن ، أى شطر المحيط الهادى ، وبذلك تم رحلتنا حول العالم . ولكن لم يحدث شىء من هذا القبيل على كل حال ، واستمرت الغواصة فى طريقها صوب البقاع الجنوبية فإذا كانت وجهتها ، إلى القطب الجنوبي ؟ إن هذا هو الجنون . لقد بدأت أعتقد أن مخاوف نيد لاند لها ما يبررها إزاء تهور الربان نيمو .

وكان نيد لاند قد أمسك حيناً عن مفاتحى فى مشروعات الهرب فأصبح قليل الكلام ، بل كان أقرب إلى الصمت التام . وكنت أعرف ما يعانى بسبب هذا الأسر الطويل ، وأحسست أن غضبه يتراكم فى أعماق نفسه حتى كان إذا التقى بالربان تألقت عيناه بنيران دفينية . وكنت أخشى فى كل حين أن يدفعه عنفه الطبيعى إلى عمل لا تحمد عقباه .

وفى ذلك اليوم الرابع عشر من شهر مارس أقبل مع كونسایل إلى غرفتى ولما سألتها عن سبب هذه الزيارة قال نيد لاند .

- لدى سؤال يسير لك يا سيدى .
- تكلم يا نيد .
- كم رجلا تضمهم الغواصة فى رأيك .
- لا أدرى يا صديقى .
- يبدو لى أنها فى غير حاجة إلى عدد كبير من البحارة لقيادتها .
- نعم . وفى مثل ظروفنا هذه يكفي عشرة رجال للعمل بها .
- حسناً ، فلماذا إذن تضم أكثر من هذا العدد ؟

– لماذا ؟

وحدقت في وجه نيد لاند الذي كان من السهل معرفة نواياه ثم استطردت
قائلا :

– لأن الغواصة . إذا صح ظني وصدق حدسي عن موقف الربان نيمو ،
ليست مجرد ملاذ يأوى إليه وإنما هي مكان يحتمى به أولئك الذين قطعوا
كل صلة لهم بالأرض كالربان .
فقال كونساييل :

– ربما . ولكن الغواصة مع هذا لا يمكن أن تضم سوى عدد معين
من الرجال يستطيع سيدي أن يقدر عددهم .
– وكيف ذلك يا كونساييل ؟

– بالحساب . إن سيدي يعرف الآن حجم هذه الغواصة . وبالتالي
يستطيع أن يعرف كمية الهواء بها . كما يعرف مقدار حاجة كل فرد إلى
الهواء ، ويضاف إلى هذه النتائج اضطراب الغواصة للصعود فوق سطح الماء
كل أربع وعشرين ساعة . .

ولم يتم كونساييل عبارته . ولكني أدركت مراده فقلت :
– إنني أفهمك يا كونساييل . . ولكن هذه التقديرات رغم بساطتها
لا يمكن أن تؤدي بنا إلى نتائج محدّدة .
فقال نيد لاند في إصرار :

– هذا لا يهم .

– حسنا . هذه هي التقديرات . . إن الرجل الواحد يتنفس في الساعة
الواحدة كمية من الأكسجين الموجودة في مائة لتر من الهواء . أي أنه يتنفس
في أربع وعشرين ساعة الأكسجين الموجود في ٢٤٠٠ لتر هواء ، ولهذا
يجب أن نعرف كم لتر من الهواء تتسع لها الغواصة في أربع وعشرين ساعة .
فقال كونساييل :

– تماماً . . .

— إن سعة الغواصة هي ١٥٠٠ طن والطن ألف لتر . أى أن سعتها مليون ونصف مليون لتر من الهواء إذا قسمناها على حاجة الرجل الواحد في الأربع وعشرين ساعة أى على ٢٤٠٠ لتر

وبسرعة سطرت العملية الحسابية بالقلم الرصاص وأردفت قائلاً :

— كانت النتيجة ٦٢٥ أى أن الغواصة بهذه العملية الحسابية بها من الهواء ما يكفي ٦٢٥ رجلاً في الأربع والعشرين ساعة .

فقال نيد لاند :

— ٦٢٥ رجلاً . . !

— ولكنى أؤكد أن كل من في الغوصة ركاباً وبحارة ومهندسين وخدم لا يتجاوزون عشر هذا العدد . .

أى نحو ٦٢ رجلاً . .

فغمغم كونسایل قائلاً :

— إنه عدد كبير بالنسبة لنا نحن الثلاثة .

— ولهذا لا يسعنى يا صديقى المسكين نيد لاند إلا أن أنصحك بالصبر .

فقال كونسایل :

— وربما ما هو أكثر من الصبر أيضاً . . بالاستسلام .

لقد عبر كونسایل بهذه الكلمة عن الحقيقة ، ثم استطرد يقول :

— ومع هذا . فلن يستطيع الربان نيمو السير إلى الجنوب دوماً . لا مندوحة له من التوقف في مكان ما ، ولو على شاطئ جليدى ، وبعد ذلك لن يسعه سوى العودة إلى البحار المتحضرة ، وإذ ذاك يمكننا استئناف الحديث عن الهرب .

فهز نيد لاند رأسه ، ومسح بيده على جبينه ، ثم انصرف من الغرفة

دون جواب . .

وقال كونسایل :

— هلا أذن لى سيدى بإيداء ملاحظة واحدة؟ إن نيد لاند المسكين يفكر فى كل شىء لا يستطيع أن يحصل عليه . إن كل شىء فى حياته الماضية يرتد إلى ذهنه . وكل ما هو محرم علينا بأسف له ويهفو إليه . إن ذكرياته القديمة تثقل على ذهنه ونملاً قلبه بالحنين . هذا شىء يسهل إدراكه . ماذا فى وسعه أن يفعل هنا؟ لا شىء ، إنه ليس عالماً كسيدى؟ ولم يوث الإحساس بتذوق جمال البحث مثلنا : إنه لا يتردد فى المجازفة بكل شىء فى سبيل دخول إحدى حانات موطنه مرة أخرى .

حقاً إن الحياة الرتيبة فى الغواصة لا يطيقها رجل مثل نيد لاند ألف حياة كلها الحركة والحرية ، ولم تكن الأحداث التى يمكنه الاشتراك فيها إلا قليلة نادرة . ومع ذلك فى ذلك اليوم وقع حادث أعاد إلى نيد لاند ذكريات أيامه الباهرة .

فى الساعة الحادية عشر صباحاً التقت الغواصة وهى على سطح المحيط بفوج من الحيتان . وهو لقاء لم يدهشنى إذ كنت أعلم أن هذه الحيوانات البحرية التى يتعقبها الصيادون فى غير هوادة ، قد اتخذت من البحار النائية ملاذاً لها .

وإن الدور الذى لعبه الحوت فى عالم البحار وتأثيره فى الاكتشافات الجغرافية هو دور كبير . فالحوت هو الذى استدرج فى أعقابه أوائل الصيادين من أبناء الباسك . ومن بعدهم النمسيين والإنجليز والهولنديين ، وأثار فيهم الجراءة لمواجهة أخطار المحيط ، وقادهم من أقصى العالم إلى أقصاه . وتميل الحيتان إلى الحياة فى المناطق الشمالية والجنوبية من المحيطات . وحتى الأساطير القديمة زعمت أن الحيتان استدرجت الصيادين إلى مدى عشرين ميلاً من القطب الشمالى . فإن كان هذا حديث خرافة ، فإنه واقع يوماً ، ولهذا يحتمل أن يصل الناس فى مطاردتهم الحيتان فى الأصقاع المتجمدة إلى المنطقة القطبية التى ظلت حتى الآن مجهولة للإنسان .

وكان شهر أكتوبر في تلك المناطق قد أضنى علينا جواً أفريقياً جميلاً . وكان نيد لاند الذى لا يخطئ في مثل هذه الظروف هو الذى أشار إلى وجود حوت فى الأفق الشرقى . فلما دققنا النظر شاهدنا ظهره الأسود يرتفع ويهبط فوق الأمواج على بعد خمسة أميال من الغواصة ، وعندئذ صاح نيد لاند :

— آه لو كنت الآن فى زورق لصيد الحيتان ، لملأ هذا المشهد صدرى ، بهجة ، إنه حوت ضخيم . انظر كيف يدفع أعمدة الماء الهواء والبخار من منخاريه بقوة ! تباً لهذا . لماذا قيدت إلى قطعة الحديد هذه .
فقلت له :

— ما هذا يا نيد ، ألم تنس بعد حبك للصيد ؟
— هل يستطيع صياد حيتان أن ينسى مهنته ياسيدى ؟ هل يمكن أن يسأم الانفعال الذى تثيره فى نفسه مطاردة الحوت ؟
— هل سبق لك الصيد فى هذه البحار يا نيد ؟
— كلا يا سيدى بتاتاً فى بحار القطب الشمالى ، وأحياناً فى مضائق بهرنج ودافيز .

— إذن فلا يزال حوت المناطق الجنوبية مجهولاً لك ، لقد اعتدت حتى الآن صيد حيتان جرينلاند لأنها لا تستطيع المجازفة باختراق المياه الدافئة فى منطقة خط الاستواء .

فهمت نيد لاند فى صوت نيم عن الدهشة والاستنكار :

— آه يا بروفوسور . . ما هذا الذى تقوله ؟

— أقول ما هو واقع حقاً

— حسناً . لكنى أعرف ما حدث لى شخصياً عام ١٨٦٥ ، أى منذ عامين ونصف عام . فقد اصطدت بالقرب من جرينلاند حوتاً وجدت فى جنبه حربة صياد من مضيق بهرنج . فخبرنى ياسيدى كيف تمكن هذا الحوت

الذى أصيب في شاطئ أمريكا الغربي أن يصل إلى الشاطئ الشرقي حيث
لتي حتفه ، ما لم يكن قد دار حول رأس هورن أو رأس الرجاء الصالح ،
مجتازاً أقاليم المياه الدافئة في خط الاستواء .

فقال كونساييل :

— إني أشاطر نيد رأيه وأنا في انتظار إجابة سيدي ؟

فقلت :

— إن جواي يا كونساييل هو أن الحيتان تتأقلم تبعاً لأنواعها في بحار
معينة لا تبرحها ، فإذا كانت هذه المخلوقات تنتقل من مضيق بهرنج أودافيز ،
فإن السبب ببساطة يرجع إلى وجود بحر من بحر إلى آخر إما على شواطئ
أمريكا أو آسيا .

فغمز نيد لاند بعينه قائلاً :

— هل يتحتم أن أصدقك يا سيدي ؟

فأجاب كونساييل قائلاً :

— يجب أن تصدق .

— في هذه الحالة لا أعرف أنواع الحيتان التي تجوب هذه المناطق

لأنني لم أصدف فيها من قبل .

— هذا ما قاته لك يانيد .

فقال كونساييل :

— وهذا ادعى لأن تتعرف بها .

فهتف نيد لاند قائلاً :

— انظروا . انظروا . إنه يقترب . إنه آت إلينا . إنه يتحدثاني ، إنه

يعرف أي سأقف أمامه عاجزاً .

وضرب سطح الغواصة بقدمه وارتعدت يده وهو يهز بها رجاً وهمياً .

ثم سألتني قائلاً :

- هل توجد حيتان بهذا الحجم في البحار الشمالية .
- تقريباً يا نيد . . .
- لأنى رأيت حيتاناً ضخمة ياسيدى . . . حيتاناً يبلغ طول الواحد منها مائة قدم بل لقد قيل لى إن حيتان الهولاموك والامجاليك فى مياه جزر الوشيان ، يبلغ طول الواحد منها أحياناً مائة وخمسين قدماً .
- ينخيل إلى أن فى هذا مبالغة . فإن هذه الأحياء المائة التى تتحدث عنها هى حيتان من نوع القياطس ولها زعانف صدرية ، أصغر حجماً من الحيتان العادية .
- وهتف نيد لاند دون أن تفارق عيناه سطح المحيط .
- آه . . . إنه يزداد قريباً . . . إنه ينتقل إلى المياه المحيطة بالغواصة .
- ثم استأنف حديثه الأول قائلاً :
- إنك تتحدث عن حوت القياطس كأنه مخلوق صغير ولكنى سمعت حديثاً عن حيتان هائلة من هذا النوع وهى حيوانات بحرية ذكية يقال إنها تغطى أجسامها بالطحالب والأعشاب البحرية حتى حسبها الناس جزراً صغيرة ، فهبطوا فوقها وأقاموا الخيام وأشعلوا النار . . .
- فقاطعه كونساييل قائلاً :
- وأقاموا المنازل !
- نعم أيها الهازل . ثم إذا الحوت يغطس دون سابق إنذار ويجر معه السكان إلى قاع البحر .
- فقلت ضاحكاً
- كما حدث فى رحلة السندباد البحرى . . . آه يا نيد . . . يبدو أنك من عشاق القمص الخرافية ، ما حجم القياطس التى تتحدث عنها ، وأرجو ألا تكون مصدقاً لما قيل لك فى صدها .
- فأجاب نيد لاند بلهجة جادة :

- يا سيدى العالم الطبيعى كل شىء عن الحيتان ممكن تصديقه . .
يا لسرعة هذا الحوت ! لقد قيل إن هذه المخلوقات يمكنها الطواف حول
العالم فى أسبوعين .
- لن أناقض هذا الرأى .
- ولكن ما قد لا تعرفه يامسيو أرونالكس هو أن الحيتان فى بدء الخليقة
كانت تطوف الكرة الأرضية بأسرع من هذا .
- أحقاً يانيد ؟ كيف هذا ؟
- كانت ذيوها فى تلك الأحقاب كذبول السمك . . أى أنها وهى
مضغوطة رأسياً كانت تضرب الماء من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين
ولكن الخالق وقد رأى أنها أسرع مما ينبغى أزال ذيوها فأصبحت تضرب الماء
من أعلى إلى أسفل فقلت سرعتها .
- فقلت متحدياً أسلوبه :
- حسناً يانيد . . هل يتحتم أن أصدقك ؟ . . .
- إلى حد ما . كما لو قلت لك إنه توجد حيتان طول الواحد منها
ثلاثمائة قدم وزنته مائة ألف رطل .
- هذا تهويل ولا ريب . ومع ذلك فيجب الاعتراف بوجود حيتان
بالغة الضخامة منذ أمكن استخراج مائة وعشرين طناً من الزيت منها .
- فقال نيد لاند :
- هذا شىء رأيتة يحدث .
- إنى أصدق هذا يا نيد لاند كما أصدق أن من الحيتان ما يبلغ حجمه
مائة فيل . فهل تتصور أثر هذه الكتلة الهائلة حين تندفع بكل سرعتها ؟
- فقال كونساييل :
- هل يمكن للحوت أن يغرق سفينة ؟
- لا أظن . ومع ذلك قيل إن حوتاً فى هذه المناطق الجنوبية ألقى بجسمه
على السفينة اسكس وقذف بها إلى الوراء بسرعة ١٤ قدماً فى الثانية فاندفعت
المياه إليها وغرقت فوراً .

فنظر نيد لاند إلى بعين هازلة وقال :

— أما أنا فقد أصبت بضربة من ذيل حوت . . أعنى زورقي طبعاً .
وقد ألفت الضربة بي وبزملائي مسافة عشرين قدماً . ولكن حوتى هذا يعتبر
رضيعاً بالنسبة لحوتك ٥

فقال كونسایل :

— هل تعيش هذه الحيتان طويلاً :

فقال نيد لاند بلا تردد :

— ألف عام ٥

— كيف عرفت هذا يا نيد لاند ؟

— هكذا يقولون . .

— ولكن ما الذى جعلهم يقولون هذا ؟

— لأنهم يعرفون ما يقولون :

فقلت :

— لا يا نيد . . إنهم لا يعرفون يقيناً . ولكنهم يظنون ، وإليك البيان :
كانت هذه الحيتان منذ أن بدأ الصيادون مطاردتها لأول مرة ، أى منذ
أربعمائة عام ، أكبر حجماً مما هى الآن ، ولهذا السبب ظن الناس من الوجهة
المنطقية أن صغر حجم الحيتان نسبياً راجع إلى أنها لم تبلغ سن الاكتمال .
وهذا ما جعل العالم بانون يقول إنه من الممكن أن تعيش الحيتان ألف سنة . .
فهل فهمت ؟ ٥

ولكن نيد لاند لم يكن منصتاً إلى . فقد كان الحوت يزداد اقتراباً وهو
يلتهمه بنظراته وإذا به يصيح قائلاً :

— إنه ليس حوتاً واحداً بل عشرة . . عشرون ، ، فوج كامل . . .

كل هذا وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً . . مقيد اليدين والقدمين . .

فقال كونسایل ٥

— ولكن لماذا لا نلتمس يا صديقي الإذن من الربان نيمو لمطاردتها .
وما كاد كونساييل يتم عبارته حتى هبط نيد لاند إلى داخل الغواصة باحثاً
عن الربان . وبعد فترة وجيزة عاد الإثنين إلى السطح .
ونظر الربان إلى فوج الحيتان التي كانت تلهو على بعد ميل من الغواصة :
ثم قال :
— إنها حيتان جنوبية .. إنها ثروة لأسطول كامل من زوارق الصيادين :
فقال نيد لاند :
— حسناً يا سيدى . . هل تأذن لي بمطاردتها حتى لا أنسى مهنتي كصياد
حيتان .

— وما فائدة صيدها ؟ لسنا في حاجة إلى زيت الحوت في الغواصة :
فاستطرد نيد لاند قائلاً :
— ولكنك يا سيدى أذنت لنا بصيد بقرة البحر في البحر الأحمر :
— ذلك لكى نحصل على لحم طازج للبحارة . أما الآن ، فإن صيدك لهذه
الحيتان لن يكون إلا إرضاء لشهوة القتل . أنا أعرف أن هذه الشهوة إحدى
الغرائز البشرية ولكنى لا أقر مجاراتها . إن الصيادين أمثالك يا نيد لا يرتكبون
خطأ فادحاً بقتلهم هذه الحيتان المسالمة ، جنوبية أو عادية وهذا هو السبب في
استعمارهم لخليج بافن بأجمعه . إنهم سيقضون على هذه الحيوانات النافعة
ولهذا أحب أن تدع هذه الحيوانات البحرية البائسة وشأنها . وحسبها ما تعانيه
من أعدائها الطبيعيين كالقياطس ، وسمك السيف ، وسمك المنشار دون
تدخل منكم .

وإني أترك القارئ يتصور وجه نيد لاند أثناء هذه المحاضرة الأخلاقية .
كان من العجيب أن نحاول بمثل هذه الحجج إقناع صياد . فقد تطلع نيد لاند
إلى الربان وبدا بوضوح أنه لم يفهم شيئاً . ولكن الربان كان على حق
لأن جشع الصيادين وضرورتهم سيؤديان يوماً إلى انقراض آخر حوت
في المحيط .

وصفر نيد لاند بشفتيه لحناً أمريكياً ثم أولانا ظهره . أما الربان نيمو فقد اتجه بنظره إلى فوج الحيتان ، ثم خاطبني قائلاً :

– كنت على حق ياسيدى فى قولى إن للحيتان أعداء طبيعيين بما فيه الكفاية . ويبدو أن الحيتان ستضطر قبل فترة طويلة إلى الدفاع عن نفسها ، هل ترى يا مسيو أروناكس هذه النقط السوداء المتحركة على بعد نحو ثمانية أميال .

– نعم يا كابتن ...

– إنها حيتان القياطس . وهى حيوانات بحرية وحشية رهيبة . إنها أحياناً تسبح فى مجموعات قد يصل عدد كل منها إلى مائتين أو ثلاثمائة . وعندى أن من الحكمة القضاء على هذه الوحوش القاسية الشريرة .

والتفت نيد لاند إلينا بسرعة حين سمع هذه العبارة الأخيرة ، بينما قلت .

– حسناً يا كابتن . . لا يزال أمامنا وقت لإنقاذ الحيتان المسالمة .

– لاجدوى من تعريض أنفسنا للخطر . ويكفى أن نفرق هذه القياطس إن الغواصة مزودة بمهازم من الصلب تماثل فى رأى حراب السيد نيد لاند .

ولم يتمالك نيد لاند أن هز كتفيه وكأنما يقول لنفسه : « من سمع من قبل عن مهاجمة الحيتان الوحشية بنتوءات سفينة » . . . أما الربان فقد أردف قائلاً :

– مهلاً يا مسيو أروناكس . . ستشهد لونا من الصيد لم يسبق أن شهدت

مثله . إني لا أشفق على هذه الحيتان الوحشية . . فإنها عبارة عن أشداق

وأسنان . أشداق وأسنان . . هذا أصدق وصف للقياطس . أو « حوت العنبر »

فهو يتجاوز فى النطول أحياناً خمسة وسبعين قدماً . ويحتل رأسه انضخم ثلث

جسمه . وهو أقوى سلاحاً من الحوت العادى الذى لا يضم فى فكه الأعلى

سوى عظام حوتية أما القبيض فإن فى فكه الأعلى خمسة وعشرين ناباً طول كل

منها نحو ثلاث بوصات مخروطية الشكل حادة الأطراف ويزن الناب الواحد

نحو رطلين ويوجد فى هذا الجزء العلوى من الرأس انضخم وفى كهوف

كبيرة مقسمة إلى خياشيم ، نحو ثمانمائة رطل من زيت الحوت الثمين أو زيت (الأيل) ، والقيطس وحش بحرى رهيب . وهو أقرب إلى الجنس الضفدعى منه إلى الأسماك ، على حد وصف فريدول . وهو مشوه التركيب إذ أن جانبه الأيسر كله يوصف بأنه ناقص التكوين وهو لا يبصر إلا بعينه اليمنى فقط .
وفي هذه الأثناء كان فوج القياطس الهائلة يزداد اقتراباً بعد أن رأت الحيتان واستعدت لمهاجمتها ، وبوسع المرء أن يتنبأ سلفاً أن الانتصار سيكون للقياطس لا لأنها أقوى سلاحاً في الهجوم على أعدائها المسالمة فحسب ، بل ولأنها أقدر على البقاء فترات أطول تحت سطح الماء .

وأسرعت الغواصة إلى نجدة الحيتان قبل فوات الوقت ، فغاصت تحت السطح ، واتخذت مع كونساييل ونيد لاند أماكننا وراء النافذة البلورية في الصالون وانضم الربان نيمو إلى عامل الدفة في المقصورة البلورية ليقود الغواصة بوصفها آلة للدمار . وسرعان ما شعرت بازدياد حركة الرفاص ، وازدادت سرعة الغواصة على الأثر .

وكانت المعركة بين الحيتان والقياطس قد بدأت عند ما وصلت الغواصة إلى ميدانها . وتوخى الربان في توجيهها تشتيت شمل القياطس التي لم تفرع أول الأمر من هذا الوحش الذى اشترك في المعركة ولكنها لم تلبث أن بدأت تتلقى ضرباتها .

يا لها من معركة ! إن نيد لاند نفسه لم يتمالك لفرط حماسه من أن يصفق طرباً . وكانت الغواصة إذ ذاك بمثابة حربة هائلة مشرعة في يد الربان ، فهي تندفع إلى الكتل الحيوانية وتشققها من طرف إلى طرف تاركة وراءها أنصافاً من جثث تحتلج بالموت ، ولم تكن بدورها تحس بالضربات الهائلة الموجهة إليها من ذيول القياطس ولا بالهزات الناتجة من اندفاعها إليها . وكانت إذا فرغت من القضاء على قيطس اندفعت إلى آخر ، لتقضى عليه في موضعه قبل أن يهرب . وهى خلال هذا تندفع أماماً وخلفاً ، طيبة لربانها ، وتغضس

في أثر الوحوش حين تغطس ثم تندفع صاعدة إلى السطح ضاربة هذا الوحش أو ذاك بجوانبها المهمازية ، ممزقة أجساد كل ما يعترض سبيلها ، مخترقة بمقدمتها الحادة ما يقع أمامها .

يا لها من مذبحه . . ويا له من دوى واصطخاب فوق سطح الماء ويا له من فحيح ونخير يصدران من هذه الحيوانات الوحشية حين يدركها الفزع . أما ذيوها فكانت في هذه المياه الهادئة بمثابة المنافيخ تحرك ساكنها .

ودامت هذه المذبحة الهوميرية ساعة دون أن يتاح للقياطس فرصة الهرب . وقد حاول نحو عشرة منها بضع مرات تحطيم الغواصة بتكنلها . وكنا نرى من النوافذ البللورية أشداقها الهائلة المرصوفة بالأنياب ، وعيونها الضخمة . ولم يتالك نيد لاند أن راح يصب عليها سيول غضبه وتهديداته وكنا نشعر بها وقد تشبثت بالغواصة ككلاب الصيد وهي تطارد خنزيراً وحشياً في أحمة . ولكن الغواصة كانت بقوة رفاصها المتزايدة تحملها هنا وهناك ، أو ترفعها إلى ما فوق الأمواج رغم ثقلها الهائل وعنف تشبثها .

وأخيراً تشتت شمل الكتلة الوحشية وساد الهدوء مرة أخرى سطح البحر . وشعرت بالغواصة ترتفع إلى سطح المحيط . وما أن فتحت المنافذ حتى اندفعنا إلى ظهرها .

إن البحر مغطى بالحثث الممزقة . . وما كان في مقدور انفجار عنيف أن يشتت أو يمزق هذه الكتل اللحمية كما فعلت الغواصة . فقد كنا نطفو بين جثث هائلة ظهورها مائلة للزرقة ، وبطنونها مبيضة وقد علتها كتل بارزة من اللحم المتورم . وكانت بقية القياتس المدعورة تنطلق هاربة إلى الأفق البعيد . كما اصطبغت الأمواج باللون الأحمر مدى أميال حول الغواصة حتى لكأنما هي تطفو في بحر من الدماء .

وانضم الربان نيمو إلينا قائلاً :

- حسناً يا مستر نيد لاند .
 فقال نيد لاند الذى هدأت حماسه :
- حسناً يا سيدى . . كان مشهداً رهيباً حقاً . ولكننى لست قصاباً بل صياداً . إن ما حدث ليس إلا مجزرة .
- إمتها مجزرة وحوش شريرة وليست الغواصة إلا سكين قصاب .
- إننى أفضل عايتها حرية الصيد .
- فقال الربان نيمو وهو يحدج نيد لاند بنظراته :
- كل إنسان يفضل سلاحه الخاص .
- وخشيت أن يبلى من نيد لاند عمل عنيف تكون له نتائج يؤسف لها :
- ولكنه شغل عن غضبه بمشهد حوت كانت الغواصة قد اقتربت منه .
- كان حوتاً لم يكتب له النجاة من أنياب القياطس ، وقد عرفت أنه من حيتان البحار الجنوبية برأسه المقرطح الأسود . وكان يختلف – من الوجهة التشريحية – عن الحوت الأبيض أو حوت الثلوج بسبع فقرات مخروطية ملتحمة ، وبزيادة ضلعين عن بقية جنسه . وكان الحوت المسكين مقلوباً على جانبه جثة هامدة وبطنه ملىء بالجروح الناشئة عن عض الأنياب . وكان ثمة حوت رضيع تعلق بزعنفته المشوهة ، ولم يستطع هذا الصغير أيضاً أن ينجو من المذبحة . وكان فمه مفتوحاً تجرى فيه المياه داخلةً خارجةً . مرسله خلال عظامه خريراً كخريير أمواج تتكسر على الشاطئ .
- واقرب الربان نيمو بالغواصة من جثة الحوت ، وهبط اثنان من البحارة فوقه . ودهشت إذ رأيتهما يحلبان من أئدائه كل ما فيها من لبن أى ما يراوح بين طنين وثلاثة أطنان .
- وقدم الربان إلى قدحاً من هذا اللبن الذى ما زال محتفظاً بدفته . ولم يسعنى

سوى إبداء نفورى من هذا الشراب ، ولكنه أكد لى عنوبته وعدم اختلافه
عن لبن البقر .
ولما تذوقته وجدته كما وصفه . وأدركت أنه سيكون طعاماً احتياطياً
مفيداً لنا ، فهو على صورة زبد أو جبن سيغدو تغييراً طيباً فى طعامنا اليومى .
ومنذ ذلك اليوم كنت الأخط والقلق يساورنى ازدياد كراهية نيد لاند
للربان ولهذا قررت أن أراقب تصرفاته وحركاته بعناية واهتمام .

الفصل السابع والثلاثون

شاطئ الجليد

استأنفت الغواصة سيرها جنوباً متبعة المدار الخمسين بسرعة بالغة : ترى هل ينوى ربانها أن يمضى بنا إلى القطب . لا أظن هذا . لأن كل محاولة بذلت حتى ذلك الحين للوصول إلى القطب الجنوبي كان مآلها الفشل . وفضلاً عن هذا فقد فات موسم الوصول إلى هذا القطب . لأن الثالث عشر من شهر مارس في المناطق القطبية الجنوبية . يعادل الثالث عشر من شهر سبتمبر في المناطق القطبية الشمالية . وهو بدء الفترة التي يتساوى فيها الليل والنهار . وفي اليوم الرابع عشر رأيت في خط عرض ٥٥ درجة كتلة جليدية طافية وكانت صخرة ثلجية يتراوح طولها بين عشرين وخمسة وعشرين قدماً مكونة حواجز تنكسر عليها الأمواج . وتابعت الغواصة مسيرها على سطح المحيط . وكان نيد لاند الذي سبق له الصيد في هذه المياه القطبية الشمالية معتاداً على رؤية جبال الجليد الطافية . أما أنا وكونسایل فقد كنا نستمتع بمشاهدتها لأول مرة .

وكان يمتد نحو الأفق الجنوبي شاطئ أبيض براق يطلق عليه صيادو الحيتان الإنجليزي اسم الشعاع الثلجي لأن السحب مهما تراكت لا تستطيع أن تحجبه كما كان يعلن دائماً عن وجود تراكم ثلجي أو شاطئ .

وفي الواقع سرعان ما ظهرت كتل أضخم وأضخم . كان بريقتها يختلف تبعاً لحالة الضباب . وكان بعض هذه الكتل يكشف عن عروق خضراء بداخلها . وكأنما رسمت هذه الخطوط الطوال المتموجة بسلفات النحاس . وكان بعضها - كالجشمت الهائل - يهبي للضوء أن يتألق داخلها . وكان غيرها

يعكس أشعة الشمس من آلاف الجوانب البلورية . وكان ثمة غير هذه وتلك كتل مظلمة بطبقات كلسية مصقولة تكفي لإنشاء مدينة هائلة كاملة من الرخام . وكانت هذه الجزر العائمة تزداد عدداً وحجماً كلما أمعنت الغواصة في سيرها نحو الجنوب . وقد رأيت الطيور القطبية تحط عليها بالآلاف . وكانت أطياف النورس ، والدانارد والناصوح تكاد تصم آذاننا بصيحاتها . وقد ظن بعضها أن الغواصة ظهر حوت . فأقبلت تحط عليها وتنقر ألواحها الرنانة بمناقيرها .

وكان الربان نيمو حريصاً على البقاء في مقصورة القيادة أثناء سيرها بين كتل الجليد . وكان يرقب هذه المناطق الموحشة باهتمام . وكنت أرى ملاحه الهادئة تضيئها أحياناً سمات الحيوية والانتعاش .

ترى هل يقول لنفسه إنه في هذه البحار القطبية النائية عن البشر ، كأنما هو في بيته ووطنه ، وسيد لهذا الفضاء غير المحدود؟ ربما . ولكنه لم يتحدث بما في نفسه . بل كان يظل بلا حراك لا يفوق إلا حين تنتابه غريزة الشعور بالخطر أثناء القيادة . فإذا هويقود الغواصة ببراعة . متحاشياً الاصطدام بهذه الجبال العائمة التي كان طول بعضها يبلغ بضعة أميال . وارتفاعها نحو مائتي أو ثلاثمائة قدم وكان الأفق يبدو أحياناً مسدوداً تماماً . وفعلاً اختفت جميع الممرات المائية في نهاية الدرجة الستين من خط العرض وكان الربان نيمو قد استطاع بالبحث الدقيق أن يهتدى إلى فجوة نفذ منها ببراعة وهو يعرف تماماً أنها ستلتحم وراءه.

على هذا النحو كانت الغواصة تنقاد لهذه اليد البارة . وتغوص بين كتل الجليد التي كانت مصنفة طبقاً لحجمها وتكوينها تصنيفاً دقيقاً يهيج قلب كونسايل . فهي جبال الجليد . وحقول الجليد والرزم عند ما تكون دائرية والجدران عند ما تتكون من قطع مستطيلة .

وكان الجو بارداً وكان مقياس الحرارة المعرض للهواء الخارجى يدل

على أن حرارة الجو تبلغ درجتين أو ثلاثا تحت الصفر . ولكننا كنا ننعم بالدفء بفضل ملابسنا المصنوعة من فراء الفقمة أو الدببة القطبية . أما داخل الغواصة المزودة بأجهزة الدفء الكهربائية ، فكان يتحدى أعنف الأجواء الباردة . وفضلا عن هذا كان يمكن أن تهبط الغواصة بضع ياردات تحت سطح الماء حيث الجو الحراري محتمل . ولو أننا وصلنا قبل شهرين ، لوجدنا النهار دائماً في هذه المناطق ! أما الآن فقد كان الليل يستمر ثلاث ساعات أو أربعاً تظل تزداد حتى تمتد فترة الليل في هذه المنطقة من الدائرة القطبية ستة أشهر .

وفي اليوم الخامس عشر من شهر مارس اجتزنا خطوط عرض جزائر نيو جتلاند ونيو أوركني وقد أخبرني الربان أن جماعات كثيرة من حيوان الفقمة كانت تستوطن هذه المناطق من قبل . ولكن صيادي الحيتان الانجليز والأمريكيين الذين استبدت بهم شهوة القتل أبادوا تجمعات هذا الحيوان المسلم عن آخرها . ولم يرحموا حتى الإناث والرضع وخلفوا وراءهم سكون الموت بعد أن كان ديبب الحياة والنشاط يملأ الجو .

وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم السادس عشر . اجتازت الغواصة وهي تتبع المدار الخامس والخمسين ، حدود الدائرة القطبية الجنوبية ، حيث أحاطت بنا الثلوج من جميع الجهات وسدت في وجوهنا الأفق ، ورغم ذلك ظل الربان يتنقل من ممر إلى آخر ملتزماً بالاتجاه الجنوبي .

وفي هذا قلت :

— ترى ما هي وجهته ؟

فقال كونساييل :

— إنه يتجه إلى حيث يشاء . . وعلى أي حال سيضطر إلى التوقف

عند ما يعجز عن المضي .

— هذا رأي غير مؤكد .

-

ولكنى أعترف ، مع هذا ، أننى لم أكن ساخطاً على هذه الرحلة المتسمة بروح المغامرة . ولا أستطيع أن أصور دهشتى لمظاهر الجبال فى تلك المناطق الحديدية . فقد كان الجليد يتخذ أبهى الأشكال . فهنا مثلاً كانت الكتل المتجمعة تبدو كمدينة شرقية بمساجدها ومآذنها العديدة . وهناك مدينة مقلوبة تبدو كأنها ملقاة على الأرض . بفعل زلزال عنيف . وكانت المشاهد تتغير باستمرار فى ضوء الشمس . أو تختفى وراء غلاثل الضباب . بين الزوابع الثلجية . وكان دوى سقوط الكتل الجليدية يسمع فى جميع الجهات . وكانت الكتل الثلجية العارمة تغير المشاهد كأنها معالم صور متحركة .

وعند ما كانت الغواصة تهبط إلى الأعماق فى لحظة اضطراب هذه الكتل المائية كان الصوت ينفذ إلى الماء فى هدير بالغ مروع ؛ وكان سقوط الكتل يثير دوامات تصل إلى أعماق المحيط حتى كانت الغواصة تضطرب وتمايل كسفينة فى براثن ثورة العناصر الطبيعية .

وكنت أعتقد كلما سدت الطرق أمامنا أننا أصبحنا أسرى هذه الكتل الرهيبة . ولكن الربان نيمو كان يتقدم بوحى غريزته ، وكان يسترشد بأقل علامة لتحديد ممرات جديدة للغواصة . والحق أنه لم يكن يخطئ فى التقاط خيوط الماء الزرقاء التى تتخلل حقول الجليد . ولهذا لم يخالجنى الشك فى أنه قاد الغواصة قبل هذه المرة فى البحار المتجمدة الجنوبية .

ولكن هذه الحقول الجليدية لم تلبث أن سدت الطريق تماماً فى اليوم السادس عشر من شهر مارس . ولم يكن هذا شاطئ الجليد بعد . بل كان حقولاً ثلجية جمدها البرد حتى صارت كالأسمنت ؛ ولكن هذه العقبة لم توقف الربان نيمو ، فقد اندفع بالغواصة فى عنف مخيف فإذا هى تنساب فى الكتل المتجمدة تشقها كالنصل فى صوت قاصف رهيب . كانت كالمدق المستعمل فى العصور القديمة وهو يندفع بقوة هائلة . وكانت قطع الثلج المتطايرة فى الهواء تتساقط حولنا كالطرر . واستطاعت الغواصة بقوتها الذاتية الدافعة أن تشق

لنفسها ممراً مائياً : وهي أحياناً كانت تحط بكل قوتها على ركام الجليد فتحطمها بثقلها . وأحياناً أخرى كانت تلتحم بمقدمتها مع الثلوج فتشقها بحركة بارعة . وتفتح فيها ممراً واسعاً .

وفي تلك الأيام كانت الأمطار الغزيرة تنهمر علينا بلا انقطاع . ولم يكن بوسعنا إذا تكاثف الضباب أن نرى أول الغواصة ونحن في آخرها . وكانت الرياح تعصف حولنا في كل اتجاه . وكانت الثلوج تهطل وتتراكم في أكوام صلبة كنا نحطمها بالمعاول . وكانت درجة الحرارة البالغة ٥٠ درجة تحت الصفر قد علت جوانب الغواصة الخارجية بطبقة من الجليد . وما كان لسفينة شراعية أن تشق طريقها في مثل هذه المنطقة . لأن الجبال تتجمد على (البكر) من فرط البرد . ولكن السفينة التي تدار بالكهرباء لا بالفحم ، هي التي تستطيع وحدها السير في هذه المنطقة النائية . وكان « البارومتر » في هذه الظروف يتم دائماً عن الهبوط الشديد . ولم يكن بوسعنا الاعتماد على تقديرات البوصلة البحرية . فقد كان مؤشرها يدل على اتجاهات مضادة ونحن نقرب من القطب المغناطيسي الجنوبي الذي لا يجب الخلط بينه وبين جنوب الكرة الأرضية . فإن هذا القطب المغناطيسي يقع طبقاً لنظرية هانستين بالقرب من خط العرض ٧٠ درجة وخط الطول ١٣٠ درجة . وطبقاً لنظرية دوپيرى يقع في خط الطول ١٣٠ درجة وخط العرض ٣٠ : ٧٠ درجة وكان علينا أن ندون مختلف الملاحظات على البوصلة بعد وضعها في عدة أماكن بالغواصة لتقدير المعدل . وما كان علينا إلا أن نراجع هذه التقديرات بين وقت وآخر لتحديد مواقعنا وهي طريقة غير مرضية بين ممرات ضيقة تتغير معالمها باستمرار .

وأخيراً في الثامن عشر من شهر مارس . وبعد محاولات عنيفة فاشلة توقفت الغواصة توقفاً تاماً . وهي لم تتوقف أمام جداول ثلجية أو حقول جليدية بل أمام حاجز راسخ مكون من كتل جليدية ملتحمة :

وقال نيد لاند :

— هذا شاطئ الحليد :

وقد أدركت أن هذا الشاطئ عقبه كوؤد لا منفذ منها في نظر نيد لاند أو غيره من الملاحين الذين سبقونا إليه . وكان الربان قد انتهز فرصة شروق الشمس لحظة واحدة عند الظهر . فأسرع بتحديد موضعنا ، فإذا نحن في نقطة تقع بين خط الطول ٣٠ : ٥١ درجة وجنوبي خط العرض ٣٩ : ٦٧ درجة وهي نقطة سحيقة في هذه المناطق الحليدية .

ولم يكن ثمة دليل على وجود بحار أو مسطحات مائية أمام نواظرنا وإنما امتد من مقدمة الغواصة سهل شاسع مغطى بكتل مبعثرة يبلو كسطح نهر قبل تكسر الثلوج فوقه . ولكن بصورة مضاعفة إذ كانت القمم والأطراف الثلجية الدقيقة ترتفع هنا وهناك إلى مائتي قدم . وعلى مسافة منها سلسلة من التلال الثلجية منحدرة الجوانب وعرة ، كسيت بطبقة لامعة رمادية وكأنها مرايا هائلة تعكس بعض أشعة الشمس نصف الغارقة في غلائل الضباب . وكان السكون الرهيب ينجم بصرامة فوق هذا المشهد الموحش . فلا يقطعه بين حين وآخر سوى خفق أجنحة طيور النورس أو الفاصوح . وعلى الحملة كان كل شيء متجمداً . . حتى الصوت . .

وهكذا اضطرت الغواصة إلى التوقف في سيرها المحفوف بالمخاطر بين

حقول الحليد :

وذات يوم قال نيد لاند :

— سيدى . . إذا حاول ربانك أن يمضى إلى أبعد من هذا . .

— حسناً ؟

— سيكون رجلاً بارعاً حقاً . .

— لماذا يا نيد .

— لأن أحداً لم يستطع قط اجتياز شاطئ الحليد : إن ربانك هذا رجل

قوى . . ولكنه برغم هذا لن يكون أقوى من الطبيعة : وعليه أن يتوقف
 - شاء أو لم يشأ - حيث أرادت له الوقوف .
 لا شك في هذا يانيد لاند . ومع ذلك بودى أن أعرف ماذا وراء
 هذا الشاطئ الجليدى . أهو جدار أم ماذا ؟ إن هذا يضايقنى إلى
 حد كبير . . .

فقال كونسايل

- إن سيدى على حق . . إن الجدران لم تبتكر إلا لمضايقة العلماء .
 لا ينبغي أن تكون أمامهم جدران في أى مكان ،
 فقال نيد لاند :

- حسنا . . إن ما وراء شاطئ الجليد معروف تماماً . .

- ما هو ؟ . .

- جليد . . وجليد . . ولا شئ غير الجليد .

- هل أنت واثق من هذه الحقيقة يانيد . أنا شخصياً غير واثق . ولهذا
 أريد أن أمضى لكى عرف .

- حسنا يا سيدى البروفسور . : عليك أن تتخلى عن هذه الفكرة .
 لقد وصلت إلى شاطئ الجليد . وفى هذا الكفاية . ولن نستطيع أن نمضى
 إلى أبعد منه . لا أنت ولا الربان ولا الغواصة . علينا أن نعود نحو الشمال
 مرة أخرى أراد أو لم يرد . . إلى بلاد الحضارة ،

وكان على أن أوافق نيد لاند على رأيه . فإنه حتى لو صنعت السفن التى
 تستطيع السير على حقول الجليد ، فإنها ستضطر للوقوف أمام شاطئ
 الثلوج .

والواقع أنه برغم جهود الغواصة . وبرغم القوى المزودة بها لتحطيم
 الثلوج وقفت بلا حركة أمام هذا الشاطئ الجليدى ، والمعروف كقاعدة
 أنك إذا لم تستطع أن تتقدم إلى الأمام : كان عليك أن تعود إلى الوراء . ولكن

العودة إلى الوراثة هنا أمسك مستحيلة تماماً كالقادم إلى الأمام ، ذلك لأن الممرات التي تقدمنا منها لم تلبث أن أغلقت وراءنا . وبعد أن أطالت الغواصة المكث هنا فستصبح محاصرة من جميع النواحي . وهذا ما حدث في الساعة الثانية بعد الظهر . فقد أهدقت بها الثلوج وبسرعة مذهلة ، ولم يسعني إلا الاعتراف بأن تصرف الربان نيمو كان مجرداً من أسباب الحكمة ، وكنت عندئذ على سطح الغواصة . وظل هو يرقب الموقف بضع دقائق ثم قال لي :

حسناً يا بروفيسور . ما رأيك في هذا ؟

– أعتقد أننا وقعنا في الفخ يا كابتن .

– وقعنا في الفخ . ماذا تعني ؟

– أعني أننا لن نستطيع أن نتراجع أو نتقدم في أي اتجاه . ومعنى هذا

في رأيي أننا وقعنا في الفخ أو على الأقل في قارة غير مأهولة .

– كأنك لا تعتقد يا مسيو أرونالكس أن في مقدور الغواصة الخروج

من هذا المأزق .

– ليس بالسهولة التي تتصورها يا كابتن . لأن موسم ذوبان الثلوج

لا يزال بعيداً جداً ...

قال بتهكم :

– آه . . أنت دائماً هكذا . . لا ترى غير العقبات والمصاعب . ولكني

أؤكد لك أن الغواصة لن تخرج من هذا الفخ وحسب بل وستمضي قدماً . .

وقلت وأنا أهدق في وجهه .

– نحو الجنوب .

– نعم يا سيدي . . ستمضي إلى مدار القطب . .

فهتفت قائلاً ولم أتمالك من رفع يدي لفرط الدهشة :

– إلى القطب ؟ . .

فأجاب الربان ببرود :

– نعم . . إلى قطب المنطقة الجنوبية . . إلى النقطة المجهولة التي نلتقي

عندها كل مدارات الكرة الأرضية : وأنت تعرف أنى أفعل بالغواصة ما أريد .

– أجل كنت أعرف هذا . أعرف أن الإنسان قد يندفع في تهوذه إلى أقصى حد . ولكن هذه المغامرة تتسم بالجنون التام . وليس سوى عقلية مجنون تتصور إمكان الوصول إلى طرف القطب الجنوبي .

ثم خطر لي أن أسأل الربان إن كان قد اكتشف هذا القطب الذى لم تطأه قدم مخلوق بشرى فقال :

– لا يا بروفيسور . . سنكتشف هذا القطب معاً . . هناك حيث فشل الكثيرون . . لن أفضل . إننى لم أتقدم بالغواصة قط إلى هذا الحد جنوباً : ولكننى أكرر لك أننا سنمضى قدماً . .

فقلت في تهكم يسير :

– أتمنى لو أصدقك يا كابتن . . ولكنى أصدقك . . نعم . . ليس أمامنا عقبات ! سنحطم شاطئ الخليد . . فإذا قاومنا . . فسزود الغواصة بالأجنحة لكي نعبه .

فقال الربان نيمو بهدوء :

– نعبه . لن نعبه . ولكننا سنجتازه من أسفل .

– من أسفل ؟

وومضت في ذهني فجأة بعض مشروعات الربان ، لقد أدركت كل شىء . . أدركت أن مميزات الغواصة العجيبة ستخدمنا في هذه المغامرة الحارقة .

وقال الربان في شبه ابتسام :

– أرى أننا بدأنا نتفاهم يا بروفيسور . لقد أدركت فعلاً بعض الإمكانيات . أعزبى إمكانيات النجاح التى تنتظر هذه المحاولة . . إن المستحيل أمام سفينة عادية هو الممكن أمام الغواصة . إن كان ثمة بقارة عند القطب الجنوبي ،

قوية ، وأنه في مقدورنا أن ندفع بها ، رأسياً إلى طبقة الجليد فتشق فوراً من أثر الاصطدام .

— آه . . إن أفكارك نيرة اليوم يا بروفيسور .

فقلت وأنا أزداد حماسة :

— فضلا عن هذا فلماذا لا نجد بحراً مفتوحاً في القطب الجنوبي كما هو الشأن في القطب الشمالي . إن قطبي الجليد وقطبي الأرض ، ليست كلهما متماثلة . الحالات في الشمال وفي الجنوب . وحتى يكون لدينا الدليل المحقق على العكس ، لنا أن نعتقد بوجود إما قارة أو محيط غير متجمد في كلا القطبين .

— وهذا ما أراه أيضا يا مسيو أروناكس . وكل ما أقوله هو أنك بعد أن كنت تكثر من معارضة رأيي ، أصبحت الآن تنهال عليّ بالآراء المؤيدة له .

ولم يتجاوز الربان نيمو الحقيقة . فقد رحلت أنافسه في الجراءة والإقدام . وكنت أنا الذي أحاول أن أدفعه إلى القطب . . لقد سبقته بخيالي . . ولكن . . لا . . يا لبلاهتي . . إن الربان نيمو يعرف ما لهذه المغامرة وما عليها . وكل ما هنالك أنه كان يتمتع نفسه بروئيتي مندفعاً في التحمس لأحلام مستحيلة التحقيق .

وفي خلال ذلك لم يضيع الربان وقته . . فبإشارة منه أقبل الضابط الأول وتبادل الإثنان حديثاً بلغتهما غير المفهومة . وسواء كان الضابط على علم بأمر هذه الرحلة من قبل . أو أنه فوجئ بها ووجدتها ممكنة فلم يبد أدنى دهشة .

وكان ذلك شأن كونسابل الذي لم يدهش وأنا أخبره بعزمنا على الوصول إلى القطب الجنوبي . وقد قنعت منه بعبارته التقليدية التي يجيب بها في مثل هذه الظروف « كما يريد سيدي » أما نيد لاند فقد هز كتفيه قائلاً :

— إنني آسف لك ولربانك يا بروفيسور .

– ولكننا سنذهب إلى القطب يا نيد .

– جاتر . ولكنكم لن تعودوا . . .

وبدأت الاستعدادات لهذه الرحلة الجريئة ، فأخذت مضخات الغواصة القوية في ملء المستودعات بالهواء وحفظه تحت ضغط مرتفع . حتى إذا كانت الساعة الرابعة بعد الظهر ، أخبرني الربان بأن منافذ الغواصة ستغلق . فألقيت نظرة على شاطئ الجليد المتراكم الذي سنمضي تحته . وكان الجو صافياً . والهواء نقياً . والبرد قابساً . ودرجة الحرارة ١٢ تحت الصفر . ولكن الريح كانت ساكنة . مما جعل هذه البرودة محتملة .

ووقف نحو عشرة رجال حول الغواصة بالمعاول يحطمون الثلوج عن جوانبها وسرعان ما تحررت لأن طبقة الثلوج التي تراكت حولها كانت يسيرة وانتقلنا جميعاً إلى الداخل . وامتلات الخزانات كالمعتاد بالماء المتخلف من عملية إزالة الثلج . وسرعان ما هبطت الغواصة إلى ما تحت السطح .

واتخذت مكاني بجانب كونساييل في الصالون . ومن خلال النوافذ البللورية كنت أرى درجات الأعماق المختلفة في المحيط الجنوبي . وبدأ مقياس الحرارة يرتفع .

وعلى عمق تسعمائة قدم كما توقع الربان كنا نطفو تحت الشاطئ المتجمد ولكن الغواصة استمرت في الهبوط حتى وصلت إلى عمق ثمانمائة ياردة . ولكن درجة الحرارة التي كانت ١٢ درجة تحت الصفر فوق السطح . أصبحت في هذا العمق ١٠ درجات تحت الصفر . أي أننا اكتسبنا درجتين . وكانت عمليات الغوص تتم بإحكام تام .

وقال لي كونساييل . . .

– سنجتاز هذه المياه الجنوبية حتماً ، إذا سمح لي سيدي أن أقول هذا . فقلت بصوت كله اليقين .

— هذا ما أقدره .

ومضت الغواصة في أعماق البحر إلى الطريق المؤدى إلى القطب رأساً على المدار الثاني والخمسين وكانت الدرجات الباقية من ٣٠ : ٦٧ إلى ٩٠ درجة نحو اثنتين وعشرين درجة ونصف درجة . ولكي نجتازها كان علينا أن نقطع نحو ألف وخمسين ميلاً . وكانت الغواصة تنطلق بسرعة معدلها ٢٦ ميلاً في الساعة أى بسرعة قطار فرنسي سريع ، فإذا استمرت تسير بهذا المعدل أربعين ساعة ، فإن هذا الوقت يكفي لوصولها إلى القطب .

وكانت جودة المناظر قد ربطتنا إلى نوافذ الصالون البللورية طوال الليل . ذلك أن المياه كانت مضاءة بنور الكشاف الكهربائي . ولم تكن الأسماك تعيش في هذه المياه المغلقة . وإنما كانت تستخدمها للمرور من المحيط المتجمد الجنوبي إلى البحار القطبية المفتوحة . . وكانت الغواصة تسير بسرعة تجلت لنا من اهتزازات هيكلها الصليبي المستطيل .

وفي نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل ذهبت لنيل قسط من الراحة مدى ساعات . وحذا كونساييل حدوى . ولم ألتق بالريان وأنا في الطريق إلى غرفتي وبدأ لي أنه في مقصورة القيادة .

وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التاسع عشر من شهر مارس . عدت إلى مكاني من النافذة بغرفة الصالون ، وكان جهاز السرعة يدل على اعتدال سرعة الغواصة . فقد كانت في طريقها إلى السطح . وكانت ترتفع متهادية . وهي تفرغ الخزانات ببطء .

وشعرت بقلبي يخفق بسرعة . ترى هل كنا في الطريق إلى جو القطب الطليق . . لا . . لقد أدركت من صدمة الغواصة أنها ارتطمت بقاع الشاطئ الجليدي الذي عرفت من رنين الارتطام المكتوم أنه لا يزال كثيفاً سميكاً . لقد اصطدمنا بقاع سمكه ألف قدم . تعلوه طبقة جليدية سمكها ألفا قدم ؛

منها ألف قدم بارزة فوق سطح الماء . ومعنى هذا أن سمك الشاطئ الجليدى هنا أشد منه عند حدوده الأولى وهي حقيقة غير مشجعة .

وكررت الغواصة هذه التجربة بضع مرات طوال ذلك اليوم . وفي كل مرة كانت تصطدم بجدار سميك كأنه السقف . وفي بعض الأحيان كانت تلتقى بهذا السقف على عمق ثلاثة آلاف قدم .

وكنت أسجل بدقة مختلف درجات العمق، وهكذا أتيج لى الحصول على صورة تقريرية لهذه السلسلة .

وفي المساء لم يحدث أى تغيير فى الموقف . وكانت الثلوج لاتزال على عمق يتراوح بين ألف ومائتى قدم وألف وثمانمائة قدم وهو سمك دل على أن الطبقة الثلجية بدأت تخف تدريجياً . ولكن أية طبقات ثلجية لا تزال مع هذا بيننا وبين سطح الماء ؟ وبلغت الساعة الثامنة مساء وطبقاً للقاعدة اليومية كان على الغواصة أن تصعد إلى السطح لتجدد الهواء قبل ذلك بأربع ساعات . ولكنى لم أعان كثيراً من عدم تجديد الهواء رغم أن الريان نيمو لم يكن قد لجأ إلى الهواء الاحتياطى .

وكان نومي مضطرباً تلك الليلة بعد أن هاجمنى الأمل والخوف متعاقبين حتى استيقظت بضع مرات . ذلك وما برحت الغواصة ماضية فى طريقها . وفى نحو الثالثة صباحاً وجدت أن الجزء الغاطس من الجليد صار على عمق مائة وخمسين قدماً فقط . ومعنى هذا أنه لم يبق بيننا وبين سطح الماء غير هذه المائة والخمسين قدماً . لقد تحول شاطئ الجليد تدريجياً إلى حقل جليدى وغدت الجبال الثلجية سهولا . .

ولم يفارق نظرى جهاز تسجيل الأعماق . واستمرت الغواصة فى طريقها صعوداً مقتضية أثر السطح اللامع الذى كان يتألق بتأثير الكشاف الكهربائى .

وأخذ الشاطئ الجليدي ينخفض من أعلى ومن أسفل ممتداً في منحدرات
طويلة . وكان سمكه يقل تدريجياً ميلاً بعد ميل .
وأخيراً وفي الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم المشهود . التاسع عشر
من شهر مارس فتح باب الصالون . وأقبل الربان نيمو قائلاً :
- البحر المفتوح . .

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الثامن والثلاثون

القطب الجنوبي

واندفعت مسرعاً إلى السطح . نعم . رأيت البحر ممتداً حيث كان ثمة قطع من الجليد والكتل الثلجية العائمة متناثرة هنا وهناك . وكانت المياه تمتد إلى غاية البصر . وكان ثمة عالم من الطيور في الجو وجموع لاحصر لها من السمك في الماء الذي كان لونه يختلف طبقاً للعمق متراوحاً بين الأزرق القاتم والأخضر الزيتوني . ودل مقياس الحرارة على أن حرارة الجو ثلاث درجات فوق الصفر وهو جو يبدو - نسيباً - كالربيع الكامن وراء ذلك الشاطئ الجليدي الذي كانت تلاله الثلجية البعيدة تبدو في الأفق الشمالي .

وسألت الربان بقلب خافق :

- هل نحن الآن عند القطب ؟

- لا أعرف حتى الآن ، سنحدد موقعنا في ساعة الظهيرة :

فقلت متطلعاً إلى السماء الملبدة :

- ولكن هل تبرز الشمس من خلال هذه السحب ؟

- إن أقل ضوء منها فيه الكفاية .

وعلى بعد نحو عشرة أميال من جنوبي الغواصة كان ثمة جزيرة معزولة ترتفع نحو ستمائة قدم في الهواء فاتجهنا إليها في حذر خشية أن يكون البحر ممتلئاً بالحواجز الصخرية .

وبعد ساعة وصلنا إلى الجزيرة . . وبعد ساعتين أتممنا الدورة حولها . وكان محيطها يتراوح بين أربعة وخمسة أميال ، وتفصل قناة ضيقة بينها وبين أرض شاسعة .. وربما كانت هذه الأرض جزءاً من قارة لم يكن بوسعنا أن

نبر حدودها . وأعتقد أن وجودها يؤيد نظرية موري . فإن هذا العبقرى الأمريكى قد ذكر فى الواقع أن البحر فيما بين القطب الجنوبى وبين خط العرض ٦٠ درجة مغطى بجبال جليدية ذات حجم هائل لا يوجد لها مثيل فى شمال الاطلنطى .

ونخلص من هذه الحقيقة إلى أن الدائرة القطبية الجنوبية عبارة عن مساحات ضخمة من الأرض ، لأن جبال الجليد الهائلة لا تتكون فى عرض المحيط . بل بالقرب من الشواطئ . وبناء على تقديراته فإن كتلة الجبال الجليدية المحيطة بالقطب الجنوبى تكون رأساً جغرافية هائلة يبلغ اتساعها ثلاثمائة ميل .

وتوقفت الغواصة على بعد ستين متراً من الشاطئ الصخرى خوفاً من أن يغوص قاعها فى الرمال . وبعد أن أنزل الزورق إلى الماء هبطت فيه مع كونساييل والربان نيمو واثنين من الرجال يحملان الأجهزة . وكانت الساعة العاشرة صباحاً . ولم أبصر نيد لاند الذى أبى ولا شك أن يعترف بخطأه عقب وصولنا إلى القطب الجنوبى .

وبعد تجديف قصير الأمد وصلنا بالزورق إلى رمال الشاطئ حيث رسونا . وفيما كان كونساييل يهم بالهبوط . أوقفته وقلت للربان :
— كابتن نيمو . . من حقلك أن يكون لك شرف أول من يضع قدمه على هذه الأرض . .

— نعم يا بروفيسور . . وأنا لا أتردد أن أفعل هذا لأنه لم يسبق لمخلوق بشرى أن وضع قدميه عليها .

قال هذا ووثب بخفة إلى الرمال . ولا شك أن الانفعال الشديد جعل قلبه يخفق بقوة . ومالبت أن تسلق صخرة بارزة تشبه الهضبة . ووقف فوقها عاقداً ذراعيه جامداً صامتاً . وبدا كأنه يستحوذ بنظراته الملهوفة على كل هذه المناطق الجنوبية . وبعد استطراد عنيف فى هذه التأملات الصامتة دام خمس دقائق التفت إلينا قائلاً :

– هل أنت مستعد يا بروفيسور ؟

فهبّطت يتبعني كونسابل . تاركاً البحارين في الزورق . وبعد مسافة يسيرة وجدت التربة مكونة من التون المحمّر « حجر رملي زي مسام » وكأنها من آجر مسحوق وكانت مكسوة بمداول اللابا الباردة . وحجارة الخفاف الشفافة « المعروف أصلها البركاني . وفي بعض الأماكن كانت سحب الدخان الحقيقية تشهد بأن النيران الجوفية لا تزال محتفظة بقواها ومع ذلك لم أشهد حين تسلقت مرتفعاً صخرياً على الشاطئ أي بركان على مدى أميال عديدة في كل ما حولى . والمعروف أن الرحالة جيمس روس وجد في المناطق الجنوبية بركاني أبرميوس وتيمورور عند خط العرض ٣٢ : ٧٧ درجة وخط الطول ١٦٧ درجة في عنفوان ثورتها .

وكانت نباتات هذه القارة النائية تبدو محدودة جداً . فقد كانت بعض الأعشاب المعروفة باسم « الآشنة » أو حزار الصخر . منتشرة على الصخور السوداء وبعض النباتات الفطرية . والنباتات البدائية المزدوجة الفلقة وهو نوع من الخلايا موضوعة بين صدفين من الكوارتز . وبعض الطحالب الفوسفية الطويلة الحمراء والقرمزية موضوعة فوق المئات السبحية التي يلتقي بها المد إلى الشاطئ . كانت هذه هي كل الأنواع القليلة التي تتكون منها المملكة النباتية في تلك الأصقاع .

وكان الشاطئ تتناثر فيه المحارات والقواقع . والأصداف واليكاردات القلبية الشكل . ولاسيما القليوزات ذات الأجسام الغشائية والروؤوس التي تتكون من فلتين مستديرتين . كما رأيت أيضاً آلاف مؤلفة من القليوزات الجنوبية « أسماك صغيرة » طولها نحو خمسة سنتيمترات كانت الحيتان تلتهمها بالملايين وكانت بعض أنواع الفراشات البحرية تشبع الحياة في الماء القريب من الشاطئ .

وفي الأماكن الضحلة من الشاطئ رأيت بين العناصر المرجانية بعض الأحياء

المرجانية المتحجرة التي تعيش ، طبقاً لنظرية جيمس روس - على عمق ألف ياردة من المنطقة الجنوبية . وأسماك المازور ، من النوع الصغير - وكميات كبيرة من سمك الاضطرياد المعروف في هذه الأجواء أما سمك نجم البحر فكان يرصع القاع الضحل .

ولكن الفضاء كان حاشداً بعدد لا يحصى من الطيور . كانت الآلاف ترفرف من مكان إلى آخر وهي تصم آذاننا بصيحاتها . وتجمعت آلاف أخرى فوق الصخور تشخص إلينا دون خوف ونحن نمر بجانبها ، وتتجمع مستأنسة عند أقدامنا . وكان ثمة طيور البنجوين التي تبدو رشيقة في الماء ولكنها فوق اليابسة ثقيلة شوهاء ومنها كانت تنبعث أصوات خشنة وكانت تشكل في مجموعات قليلة الحركة ولكنها كثيرة الصخب والضجيج .

وقد رأيت بين أنواع الطيور . طائر القيونيز الطويل الهيقان . الذي يناهز حجم الحمام وهو أبيض اللون . قصير المنقار ، تحيط بكل عين منه دائرة حمراء . وقد اصطاد كونساييل كثيرا منها لأن لحومها - إذا أتقن طهوها - طيبة المذاق . وكانت طيور الفطرس - أو الصخابة - تحلق في الجو . وهي تسمى بحق غربان المحيط . ويبلغ طول جناحها أثناء التحليق أربع ياردات ونصف كما رأيت طيور النورس الضخم وطيور القبرق ذات الأجنحة المقوسة . وهي مشغوفة بأكل لحوم الفقمة . وطيور الدامير - وهي نوع من البط الصغير . يتلون أعلى جسمه بالأبيض والأسود . وأخيراً مجموعات مختلفة من طيور النورس العادية ، بعضها مائل إلى البياض وله أجنحة يحف بها اللون البني . وبعضها أزرق . وهي تنتمي إلى المناطق المتجمدة الجنوبية . أي أنها ممتلئة بالشحم وقد قلت لكونساييل في هذه المناسبة « إن سكان جزر فارد يكتفون بوضع فتيل في أجسام هذه الطيور - بعد قتلها - ثم إشعال الفتيل فإذا هي تضيء لهم » .

فقال كونساييل :

- إنها لا تضيء فحسب . بل تعدو مصابيح حقيقية . ولم لم تزودها الطبيعية بالفتائل أيضاً .

وعلى بعد نصف ميل آخر رأيت التربة زاخرة بأوكار طير الران . وبدت الأرض كأنها منطقة تفريخ . يبرز منها عدد كبير من الأفراخ . وأمر الربان نيموبقتل مئآت منها لأن لحومها الرمادية طيبة المذاق . وكانت لها أصوات كنهيق الحمير . وحجم الواحدة منها كحجم الأوزة . وهي اردوازية اللون من أعلى . بيضاء من أسفل تحيط بأعناقها خطوط صفراء كأنها العناقات « ربطات العنق » . وكانت هذه الطيور تستسلم للموت ضرباً بالحجارة دون أن تحاول الهرب .

وفي خلال هذا لم تنقشع السحب . ولم تظهر الشمس حتى الحادية عشر فشعرت بالقلق لهذا السبب . فبغير الشمس لا نستطيع تسجيل شيء . فكيف إذن نستطيع أن نتأكد من وصولنا إلى القطب .

ولما انضممت إلى الربان نيمو وجدته مستنداً إلى الصخرة يتطلع إلى السماء . ويبدو متبرماً متضجراً . ولكن لم يكن له حيلة في هذا . فإن هذا الرجل القوى الحسور لا قبل له بالسيطرة على الشمس كما هو شأنه مع البحر .

وحلت الساعة الثانية عشر دون أن تظهر الشمس برهة واحدة . بل لم يكن في مقدورنا أن نستشف مكانها وراء أستار السحب التي سرعان ما تحللت وراحت تمطر ثلجاً .

وقال الربان ببساطة ونحن في طريق العودة إلى الغواصة تحت المطر الثلجي .

— لا مندوحة لنا من الانتظار حتى غد .

وفي فترة غيابنا ألغيت شباك الصيد في الماء ، فجعلت أتفحص الأسماك التي وقعت فيها باهتمام كبير . كانت البحار في المنطقة المتجمدة الجنوبية ملاذاً لمقادير هائلة من السمك المهاجر الهارب من عواصف البحار في المناطق العالية ليقع بين أشداق الفقمة وخنازير البحر . وقد رأيت كثيراً من سمك

القد الذي يبلغ طول الواحدة منه ثلاث بوصات . وأنواعاً أخرى من أسماك غضروفية مائلة للبياض بخطوط عرضية شاحبة . وهي مزودة بالسهم العظمية وأسماك الحميرة القطبية التي يبلغ طول الواحدة منها ثلاثة أقدام . وهي مستطيلة الجسم كثيراً . بيضاء الجلد . فضية ناعمة . برأس مستدير . وظهر مزود بثلاث زعانف . وبحيزوم ينتهي بخطوم صغير ينثنى إلى الخلف نحو الفم . وقد تذوقت هذا النوع من السمك ، فوجدته غير سائغ رغم أن كونساييل استطابه كثيراً .

واستمرت الأمطار الثلجية إلى اليوم التالي . فاستحال علينا البقاء على سطح الغواصة . فضيت إلى غرفة الصالون حيث جلست لتدوين مذكراتي عن رحلتنا هذه إلى القطب الجنوبي . وكنت أسمع صياح طيور النورس الصخاب وهي تمرح إبان الزوبعة الثلجية . ولم تبق الغواصة في مكانها بلا حراك بل راحت تجوب شواطئ القارة فتقدمت عشرة أميال نحو الجنوب . في ظل الشفق المتخلف عن الشمس وهي تقرب من أفق المغيب .

وفي اليوم التالي: العشرين من شهر مارس ، توقف سقوط الثلج وكان الجو أميل إلى البرودة إذا كانت درجة الحرارة ٢ تحت الصفر . وارتفع الضباب . حتى رجوت أن نتمكن من تحديد موضعنا في هذا اليوم .

ولما لم يخرج إلينا الربان ركبت الزورق مع كونساييل إلى الشاطئ وكانت طبيعة التربة بركانية ففي كل مكان كنت أرى آثار اللابا . والحمم والبازلت . ولكن دون أثر لفوهة البركان الذي أخرجت منه . وكان ثمة أسراب عديدة من الطير تستوطن القارة القطبية في كل مكان ولكنها كانت تقتسم هذه الامبراطورية مع الأسراب الكثيرة من الثدييات البحرية التي كانت تحدد إلينا بنظرات رقيقة . . كانت فقمات من كل نوع بعضها راقدة على الأرض وبعضها فوق قطع من الجليد الطافي وكثيراً منها يخرج من الماء أو يقفز إليه . وعند

اقترابنا منها لم تحاول الهرب فهي لم تشهد رجلا من قبل . وجعلت أحصى من أعدادها ما يكفي مؤونة بضعة مئات من السفن .

وقال كونساييل . . .

— حمداً لله أن نيد لاند لم يصحبنا في هذه الجولة . .

— لماذا يا كونساييل ؟

— لأن هذا الصياد المتهور ما كان ليتردد في قتل هذه الفقمة .

— ليس من المعقول أن يقتلها كلها . ولكن أعتقد أننا ما كنا نستطيع منعه من قتل بعض هذه الثدييات البحرية البديعة وهذا مما يثير غضب الربان نيمو الذي لا يحب إهراق دماء المخلوقات المسالمة .

— إنه على حق .

— بالتأكيد يا كونساييل . ولكن . . ألم تصنف بعد بعض أنواع هذه الحيوانات البحرية .

— إن سيدي يعرف تماماً أنني لست بارعاً في التصنيف العملي . إذا ذكر لي سيدي أسماء هذه الحيوانات فإني

— إنها الفقمة (١) والأفطاز (٢) .

— هما نوعان ينتميان إلى أسرة الزعنفيات وينتهيان إلى فصيلة الدرغليات من الثدييات البحرية أي نوع الفقريات .

— أحسنت يا كونساييل . . ولكن هذين النوعين ينقسمان أيضاً إلى أنواع أخرى كثيرة . وما لم أكن مخطئاً فستتاح لنا فرصة رؤيتها هنا . . هيا بنا . .

وكانت الساعة الثامنة صباحاً . . أي كان أمامنا أربع ساعات يمكن

(١) الفقمة هي الحيوان البحري المعروف باسم سبع البحر .

(٢) والأفطاز هو فرس البحر .

استغلالها قبل أن نستفيد من ظهور الشمس . وهكذا تقدمت شطر الخليج
الواسع المحجوف في مرتفعات الشاطئ الصخرية .

يرسعى أن أقول إن الأرض والصخور والثلوج كانت على امتداد
البصر محجوبة بالثدييات البحرية حتى لم أتمالك أن اتلفت حولي بحركة
غريزية مفتقداً بروتيوس أو الراعى الأسطوري الذى يشرف على هذه
القطعان الضخمة . التى يمتلكها «الإله نبتون» وكانت الفقمة أكثر من أى شئ
آخر اجتمعت أفواجاً ذكوراً وإناثاً منها الوالد الذى يراعى شئون أسرته ،
والأم التى ترضع صغارها . وكان بعض الصغار قد اشتد عودها فجعلت
تتحرك بضع خطوات . وإذا أرادت هذه الفقمة الانتقال من مكان إلى
آخر مضت في وثبات قليلة تقوم بها عن طريق تقلصات عضلات جسمها .
مستعينة بزعنفتها الوحيدة . الشوواء التى تكون مع العظم اللامنى ذراعاً كاملاً .
وينبغى أن أقول إن هذه الحيوانات حين تصل إلى الماء تسبح ببراعة
فائقة بسلسلتها الفقرية . وإذا هى استراحت على الأرض ، اتخذت أجمل
الأوضاع ولهذا السبب فطن القدماء إلى نظراتها الآسرة المعبرة التى تفوق
أية نظرة يمكن أن ترسلها امرأة جميلة وعيونها الصافية الحذابة وأوضاعها
الفاتنة . فاتخذوا منها صوراً شعرية حتى جعلوا من الذكور آلهة البحر ومن
الإناث حوريات الماء .

وقد لفت نظر كونساييل إلى كبر حجم فلقات المخ في هذه الحيوانات
الطريفة . فليس بين الثدييات عدا الاتساق - هذا الحجم الكبير للمخ . ولهذا
كانت الفقمة قادرة على استيعاب قدر معين من التعليم . ويسهل استئناسها ،
وأعتقد مع غيري من العلماء الطبيعيين أنه يمكن بالتدريب الجيد استخدامها
ككلاب لصيد السمك .

وكان سواد هذه الفقمة يرقد على الصخور أو على الزمال . وقد
لاحظت بين هذه الفقمة التى ليس لها آذان خارجية مما يجعلها تختلف عن

القناوس « ثعالب الماء » ذات الآذان الظاهرة – أنواعاً مختلفة من فقمة
الأسْتُونوريتشى وطولها نحو تسعة أقدام ولها رأس البولنج وهي مسلحة
بعشرة أسنان في كل فك . فيها أربعة قواطع في أعلى وأخرى في أسفل .
ونابان كبيران على هيئة الزنابق . وبين هذا النوع كانت تنساب الفيلة البحرية
وهي نوع من الفقمة ذات خراطيم صغيرة متحركة « وهي مقصورة على
النوع الضخم فقط » ولم تحاول أن تتعد ونحن نقرب منها حتى قال
كونسايل :

– أهي حيوانات خطيرة ؟

– كلا ما لم يهاجمها أحد . فإن غضب الفقمة رهيب وهي تدافع عن
صغارها . ولا يستبين أن تحطم زوارق الصيد في سورة غضبها .

– إن حقها في هذا مقرر .

-- وأنا لم أنكر هذا الحق .

وتوقفنا بعد ميلين أمام مرتفع يحمي الخليج من رياح الجنوب . وكان
شديد الانحدار إلى البحر يغضيه زبد الأمواج . ومن ورائه سمعنا خواراً هائلاً
كالذى يصدر عن قطع من الثيران .

حسناً . . ترى هل سنشاهد حفلة ثيران موسيقية .

– لا . . بل حفلة موسيقية لأفراس البحر .

– أهي تتصارع

– إما أنها تتصارع أو تتلاعب . .

– يجب أن نراها إذن يا سيدى .

– يجب يا كونساييل .

وعبرنا المرتفع الصخري بين منزلقات غير ظاهرة للعيان . وفوق صخور
جعلها الثلج منزلقة حتى زلت قدمي أكثر من مرة وأصبت برضوض ولكن
كونسايل الذى كان أثبت وأكثر حنراً وأقل تعترأ راح يساعدنى وهو يقول :

— لو تفضل سيدى وجعل ساقيه أكثر انفراجاً لاستطاع الاحتفاظ بتوازنه . . .

ولما بلغنا قمة المرتفع رأيت سهلاً واسعاً مكسواً بالثلوج ، حجته أفراس البحر ، وكانت تلعب وتتصايح بهجة لا غضباً .

وكانت أفراس البحر تشبه الفقعات جسماً في وضع الأطراف ، ولكن فكاكها السفلى خالية من القواطع والأنياب . أما أنياب الفك الأعلى فهي أسلحة دفاع طول كل منها نحو ياردة . وهذه الأنياب العاجية أصلب من أنياب الفيلة وغير معرضة للاصفرار . وهي مناط إقبال كثير ، ولهذا السبب يتهافتون على صيدها . ولا يتورع الصيادون عن قتلها وقتل أنثائها وصغارها حتى يبلغ عدد القتلى في كل عام أكثر من أربعة آلاف .

وقد أتيت لي الوقت الكافي لملاحظة هذه الحيوانات العجيبة بإمعان وأنا أمر بقربها . لأنها لم تكترث لنا . كانت جلودها سميكة مجمدة لها لون الظباء مع ميل إلى الاحمرار وشعرها قصير متناثر وطول بعضها نحو اثني عشر قدماً . وهي أهدأ وأقل حذراً من زميلاتها في الشمال ؛ بمعنى أنها لاتضع الحراس للتحذير ممن يقرب من مواطنها .

وبعد أن تم لي فحص مدينة أفراس البحر هذه . : رأيت أن أعود أدراجي إلى الغواصة ، وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة . فإذا بدا للربان نيمو أن تحديد المكان ليسور إذ ذاك ، كنت معه أثناء قيامه بهذه العملية . ولكن الأمل على كل حال كان ضعيفاً في ظهور الشمس هذا اليوم ، فقد كانت السحب المترامية في الأفق تحجبها عنا وكأنما كان هذا الكوكب الغيور يأتي على البشر أن يكتشفوا قطب الأرض .

ومهما يكن فقد قررت العودة إلى الغواصة . فسرنا في ممر ضيق كان صاعداً إلى قمة المرتفع الصخري على الشاطئ ، ووصلنا إلى المكان الذي هبطنا فيه من الزورق في الحادية عشرة والنصف وكان الزورق قد جاء أثناء غيابنا

بالربان الذى رأته واقفاً فوق كتلة من البازلت وآلات الرصد فى يده وعيناه
محدقتان فى الأفق الذى كانت الشمس ترسم عليه قوساً مستطيلاً .

ووقفت بجانبه صامتاً . وحلت الساعة الثانية عشرة دون أن تظهر الشمس
كما حدث فى اليوم السابق :

وبدا الأمر كالكارثة ، فقد كان علينا أن نرصد موضعنا . فإن لم يتيسر
هذا فى اليوم التالى ضاع كل أمل فى تحديد مكاننا .

ذلك أننا كنا فى اليوم العشرين من شهر مارس . واليوم التالى كان الواحد
والعشرين . وهو يوم الاستواء فى تلك المناطق فإن لم نحدد مكاننا فيه ، فإن
الشمس ستختفى وراء الأفق مدى نصف عام ، ومع اختفائها يبدأ الليل القطبي
الطويل . ويظل هذا الليل حتى يوم الاستواء فى سبتمبر حيث تبدو أول
أشعة الشمس فى الأفق . وتظل ترتفع رويداً رويداً يوماً بعد يوم . حتى
اليوم الواحد والعشرين من شهر ديسمبر حين يبدأ فصل الصيف فى هذه المناطق
الجنوبية . وقد مالت الشمس فى المغيب وغداً سوف ترسل آخر أشعتها
ثم تختفى ستة أشهر .

ولما ذكرت للربان نيمو رأى مخاوفى فى هذا الشأن قال :

— إنك على حق يا مسيو أرونالكس إذا لم أستطع أن أظفر غداً بسمت
الشمس فلن أستطيع أن أرصد موضعنا هذا لمدة ستة أشهر . ولكن ما دامت
الأقدار قد جاءت بى إلى هذه المناطق فى اليوم الواحد والعشرين من شهر
مارس فستيسر لى غداً أن أرصد هذا المكان إذا ظهرت الشمس وقت
الظهيرة .

— لماذا يا كابتن .

— لأنه ما دامت الشمس ترسم هذه الأقواس المستطيلة . فسوف يصعب
تحديد ارتفاعها بصدق فوق الأفق ومن المحتمل جداً أن نخطئ التقدير
بالآلات .

— إذن ماذا أنت فاعل ؟

— سأستخدم الكرونومتر فقط . فإذا ظهر قرص الشمس غداً أى فى ظهر اليوم الواحد والعشرين من شهر مارس مقسوماً تماماً عند النصف بخط الأفق الجنوبي فسأعرف أننا فى القطب الجنوبي . .
 — هذا صحيح . . ولكن المعادلات الرياضية لا تعترف بمثل هذا التقدير . لأنه ليس من المحتم أن يبدأ يوم الاستواء هنا فى الثانية عشر تماماً .
 — بلا شك يا بروفيسور . . ولكن الخطأ الذى قد يحدث لن يتجاوز مسافة مائة ياردة وهذا كل ما نحتاج إليه . إلى الغد إذن .

وعاد الربان نيمو إلى الغواصة . وبقيت مع كونساييل حتى الساعة الخامسة مساءً ونحن نجوب الشاطئ نلاحظ ، وندرس . ولم أجد ما يثير الغرابة غير بيضة بنجوين ذات حجم كبير لا يتردد أى هاو فى شرائها بأربعين جنياً وكان لونها البرتقالى وما يغطيها من خطوط وعلامات بدت كالأحرف الهيروغليفية قد جعلها كإحدى العجائب . وعهدت بحفظها إلى كونساييل الذى استطاع بثباته وحذره وهو يمسكها كأنها قطعة خبز ثمين ، أن يعود بها سالماً إلى الغواصة . وفى الغواصة وضعت البيضة النادرة فى خزانة زجاجية بالمتحف . وتناولت عشائى بشهية من شرائح كبدة الفقمعة وكان مذاقها كلحم الخنزير . ثم أويت إلى فراشى مطمئن البال .

وفى اليوم التالى الواحد والعشرين من شهر مارس صعدت إلى سطح الغواصة فى الخامسة صباحاً فوجدت الربان نيمو هناك . وإذا هو يقول لى :
 — إن الجو يصحو قليلاً وأملى فيه كبير . سنهبط بعد طعام الإفطار إلى الشاطئ فتتخذ لأنفسنا موضعاً للرصد .

وبدأ أن تم الاتفاق على هذا ذهبت إلى نيد لاند وحاولت إقناعه لمصاحبتنا ولكن الصياد العنيد أبى وقد تبينت أن نفرتة — كغضبه تزداد يوماً بعد يوم . ومع ذلك لم آسف على رفضه صحبتنا فى تلك الظروف فقد كان ثمة مجموعة كبيرة من الفقمعة على الشاطئ ولا ينبغي أن نضع مثل هذا الإغراء أمام صياد متهور . . .

وهبطت إلى الشاطئ بعد الفراغ من طعام الإفطار . وكانت الغواصة قد تقدمت أثناء الليل مسافة أخرى مقدارها أربعون ميلاً نحو الجنوب . . وقد توقفت على بعد ثلاثة أميال من الشاطئ الذي كان مرتفعاً إلى علو ١٦٠٠ قدم . وكان الزورق يقل الربان نيمو ، واثنين من البحارة وآلات الرصد وهي الكرونومتر والمنظار المقرب والبارومتر .

وفي الطريق رأيت كثيراً من الحيتان المنتمية إلى البحار الجنوبية منها « الحوت الأيمن » الذي بلا زعنفة في ظهره والحوت الطائر ببطنه الموثوقة وزعانفه الضخمة البيضاء لم تصل إلى حد الأجنحة رغم تسميته تلك والحوت الأصفر البني ، ذو الزعانف الظهرية وهو أنشط أنواع الوحوش البحرية . إن هذا الحيوان البحري يستطيع إسماع صوته إلى مسافات بعيدة حين يدفع الماء والبخار من منخاريه في الهواء فتبدو عندئذ كأعمدة من الدخان . كانت هذه الثدييات البحرية المختلفة تجعل من نفسها جماعات في هذه البحار الهادئة . وقد أدركت أن هذا الحوض من القطب الجنوبي قد أصبح ملاذاً تلجأ إليه هذه الوحوش البحرية التي يطاردها الصيادون بالحاج .

ورأيت صفوفاً طويلة من الساليا . ومجموعات من اللاقريات الصيرنانية ومن قناديل البحر الكبيرة التي كانت تتراقص مع حركات الموج .

وهبطنا إلى الشاطئ في الساعة التاسعة صباحاً . وكانت السماء تزداد صحواً . والسحب تطير نحو الجنوب . والضباب يرتفع عن سطح البحر البارد . وسار الربان نيمو إلى قمة المرتفع الذي اعترزم ولا شك أن يتخذه مكاناً للرصد . وكان الصعود إليه شاقاً عسيراً بسبب اللابا المسنونة . والحجارة الزجاجية . وفي جو تنساب منه أحياناً الروائح الكبريتية المنبثقة من الشقوق ، ورغم أن الربان لم يعتد الحياة فوق اليابسة . فقد راح يتسلق المرتفع بخفة ومرونة لم أستطع أن أجاريه فيهما حتى ليحسده صياد الغزلان عليهما .

واستغرقنا ساعتين في الوصول إلى القمة التي كان بعضها من صخور

البروفير ، وبعضها من صخور البازلت . ومن فوقها رأينا البحر الواسع الممتد إلى حدود الأفق الجنوبي . أما عند أقدامنا فقد امتدت حقول الثلج الناصعة البياض وفوق رؤوسنا كانت السماء الشاحبة الزرقة خالية من الضباب وعند الجنوب كان قرص الشمس ككرة من النار ، يوشك أن ينحدر وراء الأفق . أما البحر فكانت تنبثق منه مئات من النوافير المتألقة . بينما كانت الغواصة تبدو من بعيد كوحش بحري نائم . ومن ورائنا امتدت الصخور والكتل الثلجية الطافية إلى مدى البصر .

ولما وصل الربان نيمو إلى قمة المرتفع . قاس ارتفاعه بدقة بواسطة البارومتر لإدخاله في تقديراته عند الرصد .

وفي الساعة الثانية عشر إلا ربعاً بدت الشمس عن بعد كأنها قرص من الذهب يسكب أشعته فوق أرض وبحار لم تطأها أقدام رجال غيرنا من قبل .

وراح الربان نيمو وهو مزود بعدسة شبكية تستطيع بمعونة مرآة أن تصحح انكسار الضوء ، يرقب الشمس وهي تختفي تدريجياً وراء الأفق راسمة قوساً مستطيلاً . وأمسكت أنا بالكرونومتر وشعرت بقلبي يخفق بعنف ، فإذا توافق اختفاء نصف قرص الشمس مع موعد الظهيرة في الكرونومتر فقد ثبت أننا في سمت القطب الجنوبي نفسه .

وصحت قائلاً :

— الثانية عشرة ظهراً .

القطب الجنوبي ...

قالها الربان بصوت رصين وهو يسلمني العدسة التي أظهرت قرص الشمس عند انتصافه تماماً على خط الأفق .

ونظرت إلى أشعة الشمس وهي تتوج القمة . وإلى الظلال الصاعدة إليها ببطء ، ولم يلبث الربان في تلك اللحظة أن وضع يده على كتفي قائلاً :

– بروفيسور . . في عام ١٦٠٠ دفعت التيارات والعواصف الريان الهولندي نمريك إلى خط العرض ٦٤ درجة جنوباً حيث اكتشف جزر چتلانده . وفي اليوم السابع عشر من شهر فبراير عام ١٧٧٣ وصل الرحالة الباسل كوك في إبحاره على خط الطول ٣٨ درجة إلى خط العرض ٣٠-٦٧ درجة وفي الثلاثين من شهر يناير عام ١٧٧٤ وعلى خط الطول ١٠٩ وصل نفس الرحالة إلى خط العرض ١٥-٧١ درجة . وفي عام ١٨١٩ وصل الرحالة الروسي بلنجهوزن إلى خطي الطول والعرض ٦٩ . ووصل في عام ١٨٢١ إلى خط العرض ٧٦ وخط الطول ١١١ غرباً . وفي عام ١٨٢٠ توقف الرحالة الإنجليزي برنسفيلد عند خط العرض ٦٥ . وفي نفس العام اكتشف الرحالة الأمريكي موريل – الذي لا يوثق بتقريره تماماً – بحراً مفتوحاً على خط العرض ١٤ – ٧٠ متبعاً خط الطول ٦٢ وفي نفس العام وصل صياد فقمه إنجليزي الجنسية يدعى ويديل إلى خط العرض ١٤-٧٢ على خط الطول ٣٥ . ثم خط العرض ١٥ – ٧٤ على خط الطول ٣٦ . وفي عام ١٨٢٩ استولى الريان الإنجليزي فورستر قائد السفينة شانيلر على القارة المتجمدة الجنوبية على خط العرض ٢٠ – ٦٣ وخط الطول ٢٦ – ٦٦ . وفي ٢١ فبراير عام ١٨٣١ اكتشفت الرحالة الإنجليزي بيسكو منطقة اندرباي لاند في خط العرض ٥٠ – ٦٨ . وفي فبراير عام ١٨٣١ اكتشف منطقة أديليد لاند على خط العرض ٤٥ – ٦٤ . وفي عام ١٨٣٨ توقف الرحالة الفرنسي دومونت دورفيل عند شاطئ الحليدي على خط العرض ٥٧ – ٦٢ وقد سجل بالرويا أرض لويس – فيليب . وقد شاهد بعد عامين ومن نقطة جديدة في الجنوب منطقة أديليد لاند في ٢١ يناير على خط العرض ٣٠-٦٦ واكتشف بعد ثمانية أيام شاطئ كلير على خط العرض ٤٠-٦٤ درجة . وفي عام ١٨٣٨ وصل الإنجليزي ويلكز إلى خط العرض ٦٩ درجة على خط الطول ١٠٠ درجة . وفي عام ١٨٣٩ اكتشف الإنجليزي باليني منطقة سابرينا

على حدود الدائرة القطبية . وأخيراً في ١٢ يناير عام ١٨٤٢ اكتشف الإنجليزى جيمس روث قائد السفينتين إيروبيوس وتيرور منطقة فكتوريا لاند على خط العرض ٥٦ - ٧٦ شرقى خط الطول ٧-١٧١ وفى نفس الشهر وصل إلى خط ٧٤ درجة عرضاً وهى أعلى نقطة وصل إليها أحد حتى ذلك الحين وفى السابع والعشرين من الشهر نفسه وصل إلى خط العرض ٨-٧٦ درجة وفى اليوم الثامن والعشرين وصل إلى خط العرض ٣٢-٧٧ درجة وفى اليوم الثانى من شهر فبراير وصل إلى خط العرض ٤-٧٨ وفى عام ١٨٤٢ عاد إلى خط العرض ٧١ درجة ولم يستطع تجاوزه أما أنا الربان نيمو . فقد وصلت فى اليوم الواحد والعشرين من شهر مارس عام ١٨٦٨ إلى القطب الجنوبي نفسه على خط العرض ٩٠ درجة وإنى لأضع يدي على هذا الجزء من الكرة الأرضية وهو يوازي سدس مساحتها المعروفة .

– لحساب من تستولى على هذه المنطقة يا كابتن ؟ .

– لحسابى ياسيدى .

قال هذا وبسط علماً أسود توسطه حرف (ن) مكتوباً بالذهب . ثم استدار نحو الشمس التى كانت أشعتها الأخيرة تلامس أفق البحر وقال :
– وداعاً أيها الشمس . واختف أيها الكوكب المنير . ارقداً طليقاً تحت البحر ودع ليالى ستة أشهر تبسط ظلامها على هذه المملكة الجديدة :

الفصل التاسع والثلاثون

أحادثة أم حدث ؟

بدأت استعدادات الرحيل في اليوم التالي الثاني والعشرين من شهر مارس وكانت آخر ومضات الشفق تذوب في سواد الليل . وكان البرد قارساً مشتدأ . ونجوم السماء تلمع في وضوح عجيب . وفي سمت الرأس كان ذلك النجم الرائع يتألق باهراً وأعنى به النجم القطبي في تلك المناطق المتجمدة الجنوبية .

وكانت حرارة الجو ١٢ درجة تحت الصفر . والرياح كلما هبت تلعس كالسياط وجبال الثلج تزداد على سطح البحر . والبحر يبدو كأنه تجمد كله ولاحت على سطحه رقاع كثيرة قائمة تنبئ عن تجمعات جديدة للثلج الوليد . والواضح أن هذه البحار الجنوبية تغدو مقفلة تماماً أثناء تجمدها ستة أشهر في العام . فإذا تفعل الحيتان خلال هذه الفترة ؟ لاشك أنها تلتمس من تحت الثلوج بحاراً أخرى تلوذ بها . أما الفقمة وأفراس البحر التي تعتاد الحياة في مختلف الأجواء فلإنها لا تبرح هذه المناطق المتجمدة . إن لهذه الحيوانات غرائز تدفعها إلى حفر فجوات في حقول الجليد وتركها مفتوحة دائماً . وهي تخرج من فجواتها تحت الثلوج للتنفس . وتهرب الطيور من البرد مهاجرة إلى الشمال . ولا يسيطر في القارة القطبية في هذه الفترة سوى الثدييات البحرية .

وامتلأت خزانات الغواصة بالماء في الوقت المناسب . وشرعت تهبط في بطن . حتى توقفت على عمق ألف قدم . ثم أخذت تضرب الماء برفاصها منطلقة إلى الشمال بسرعة خمسة عشر ميلاً في الساعة ، وعند المساء كانت تسبح تحت الحاجز الهائل للشاطئ الجليدي .

وأغلقت نوافذ الصالون على سبيل الحيلة والحذر ، تحاشياً لاصطدام الغواصة بصخرة غائصة تحطم زجاجها . وأمضيت يوماً في كتابة مذكراتي . ثم استغرقت في التفكير في القطب الجنوبي . لقد وصلنا إلى هذا القطب الثاني عن البشر دون مشقة ولا استهداف للخطر وكأنما كانت مركبتنا السابحة تنساب على قضبان سكة حديدية . وهامى ذى العودة قد بدأت فعلاً . فهل تدخر لنا مفاجآت جديدة . لقد خطر لى أن هذا قد يحدث فإن غرائب الأعماق لا ينضب لها معين . ففي الأشهر الخمسة والنصف التي أقمنها في هذه الغواصة منذ أن دفعت بنا الأقدار إليها ، قطعنا ^{أربعة عشر} أربعين ألف فرسخ . وفي خلال هذه المسافة التي تزيد عن محيط الكرة الأرضية . رأينا من الأحداث كل عجيب خطير . الصيد في غابات كريسبو تحت سطح الماء والجنوح في مضائق توريز . ومقابر المرجان . ومصايد اللؤلؤ في سيلان . ونفق العرب تحت برزخ السويس . ونيران سانتورين . وكنوز خليج فيجو . وقارة الأطلانتيس ثم القطب الجنوبي . لقد أخذت هذه الذكريات كلها تمر بذهني فلا تدع لى الفرصة للاستغراق في النوم .

واستيقظت في الساعة الثالثة صباحاً ، على صدمة عنيفة ، فانتفضت جالساً في فراشي وأرهفت السمع في ظلام الغرفة ، فما شعرت إلا وأنا ألقى بعنف على الأرض ويبدو أن الغواصة ارتدت بقوة بعد الاصطدام .

ولم ألبث أن جعلت أتلمس طريقي على الحاجز إلى وسط الغواصة ثم إلى الصالون الذي كان مضاء من خلال سقفه المشع . وكان الأثاث كله مقلوباً . ولكن مصاريع النوافذ كانت لحسن الحظ محكمة فلم تتخلخل . وكانت الصور المعلقة على الجانب الأيمن – بعد أن أمست الغواصة شديدة الميل – معلقة على الأرض . بينما كانت الصور في الجانب الآخر معلقة على ارتفاع قدم من أطرافها السفلى .. لقد مالت الغواصة على جانبها الأيمن واستقرت دون حراك . وسمعت من الداخل وقع أقدام ولغظ أصوات . ولكن الربان نيمو

لم يظهر في الصالون . وبينما كنت أهم بالانصراف أقبل كونساييل ونيد لاند .
فقلت لهما :

– ماذا حدث ؟

فهتف نيد لاند قائلاً :

– بالشيطان ! . . إننى أعرف تماماً ماذا حدث . . . لقد اصطدمت
الغواصة . وإذا نظرنا إلى كيفية جنوحها أدركنا أنه لن يسهل تعويمها كما حدث
في مضايق توريز .

فقلت :

– ولكن . . أليست على الأقل فوق سطح الماء ؟

فقال كونساييل :

– إننا لا نعرف . .

فقلت :

– من السهل أن نعرف هذا .

ونظرت إلى جهاز تسجيل الأعماق فوجدت لدهشنى أننا على عمق
ثلاثمائة وستين ياردة . . فقلت متعجباً :

– ما معنى هذا ؟

فقال كونساييل :

– يجب أن نسأل الربان نيمو .

وقال نيد لاند :

– وأين نجده ؟

فقلت لهما :

– اتبعانى . .

وغادرنا الصالون إلى غرفة المكتبة فلم نجد بها أحداً . كما لم نجد أحداً
في السلم المركزى أو في غرفة الملابس . وخطر لى أن الربان نيمو لا بد موجود

في مقصورة القيادة ، وهكذا لم يكن أمامنا سوى الانتظار . فعدنا إلى الصالون .

ولن أذكر بالتفصيل حالة نيد لاند في تلك اللحظة . . فقد وجد الآن سبباً آخر لإطلاق غضبه فركته يتهادى في ثورته دون أن أبادره برد .
وبقينا هكذا عشرين دقيقة ونحن نرهف السمع لكل صوت داخل الغواصة . وما لبث الربان نيمو أن جاء وقد بدا عليه أنه لم يبصرنا . وكان وجهه الهادئ عادة ينم عن أشد القلق وبعد أن نظر إلى البوصلة ثم إلى المانومتر ، وضع أصبعه على نقطة في الخريطة البارزة التي تمثل البحار الجنوبية .

ولم أشأ أن أقطع عليه تفكيره وعمله ولكنه التفت إلى بعد برهة فقلت له مردداً عبارته التي قالها في مضائق توريز :

— أهو حدث عارض يا كابتن ؟

— لا يا بروفيسور . . بل هو حادث هذه المرة .

— حادث خطير ؟

— ربما . .

— أهنالك خطر قريب . .

— لا . .

— هل اصطدمت الغواصة بشيء ؟

— نعم .

— كيف ذلك ؟

— بسبب عارض طبيعي . لالخطأ من جانبنا . فلم يكن ثمة أخطاء في قيادتنا للغواصة . وليس في مقدور أحد أن يمنع الطبيعة من السير في مجراها . وإذا كان يمكن مقاومة قوانين البشر فلا يمكن مقاومة قوانين الطبيعة .
لقد اختار الربان نيمو لحظة فريدة للتعبير عن هذه التأملات الفلسفية ولكن إجابته في عمومها لم توضح لي شيئاً . فقلت له :

- هل يمكن يا سيدي أن أعرف سبب هذه الحادثة ؟
- لقد انقلبت كتلة ضخمة من الثلج بل جبل كامل رأساً على عقب .
- فجبال الجليد التي تغوم في مياه دافئة أو تتعرض لصدمات مفاجئة . يرتفع فيها مركز التوازن فإذا هي تنقلب بأكملها . وهذا ما حدث ، فقد انقلبت إحدى هذه الكتل وصدمت الغواصة في سيرها تحت سطح الماء . ثم انزلت تحت هيكلها . ودفعتها بقوة عارمة إلى مياه أقل كثافة . فألقت بها على أحد جانبيها .
- ألا يمكن الاستعانة بخزانات الماء لكي تسترد الغواصة توازنها
- هذا ما يفعله البحارة الآن يا سيدي . ويمكنك أن تسمع صوت المضخات وهي تعمل . انظر إلى مؤشر جهاز تسجيل العمق . إنه يدل على أن الغواصة ترتفع ، ولكن كتلة الجليد ترتفع معها .
- فإذا لم يوقف ارتفاعها معنا فلن يتغير شيء من موقفنا .
- وظلت الغواصة على حالها . ولم يكن ثمة شك في أنها ستسترد توازنها عند ما تتوقف كتلة الجليد عن الارتفاع معها . ولكن من يدرينا أننا لن نصطدم إذ ذاك بقاع شاطئ الجليد فنعصر عصرأ شنيعاً بين سطحين متجمدين .
- وفجأة أحسنا بحركة خفيفة في هيكل الغواصة . . وبدا لنا أنها تتوازن إلى حد ما وكانت الأشياء المقلوبة في الصالون تعود إلى حالتها الأولى شيئاً فشيئاً . وأصبحت الحواجز أكثر استقامة . ولم يلفظ أحد بكلمة . وإنما أخذنا نرقب الغواصة وهي تسترد توازنها بانفعال متزايد وعادت الأرض تحت أقدامنا في وضع أفقي . ومرت عشر دقائق هتفت بعدها قائلاً :
- أخيراً توازنت الغواصة .
- فقال الربان وهو يتجه إلى باب الصالون :
- نعم . . .
- هل ستطفو بنا مرة أخرى ؟
- بالتأكيد . فإزالت الخزانات ممتلئة . فإن الغواصة ستصعد إلى السطح عند إفريغها .

وعلى إثر ذهاب الريان لاحظت أن الغواصة كفت عن الصعود بأمر منه . ولو أنها استمرت في صعودها لاصطدمت بقاع الشاطئ الجليدي ولذلك كان من الأفضل بقاؤها في الماء .

وقال كونسایل :

– لقد نجونا بمعجزة .

نعم : كان يمكن أن نسحق بين كتلتين من الجليد . أو على الأقل نبقى محصورين بينهما وإذا عجزنا عن تجديد الهواء ، فإن . . . نعم . . . لقد نجونا بمعجزة حقاً .

فغمغم نيد لاند قائلاً . . .

– ليت الأمر اقتصر على . . .

ولم أشأ أن أدخل مع نيد لاند في جدل عقيم وهكذا لم أرد عليه . وفضلاً عن هذا فقد رُفعت الألواح عن النوافذ البلورية في تلك اللحظة فانساب من خلالها ضوء الكشاف الكهربائي .

وكنا بين أحضان الماء كما قلت . ولكني رأيت على مسافة ثلاثين قدماً من جانبي الغواصة جداراً من الثلج الناصع . وكان هذا الجدار يبدو من أعلى ومن أسفل . من أعلى لأن قاع شاطئ الجليد يكون سقفاً هائلاً . ومن أسفل لأن كتلة الجليد التي كانت تنزلق تدريجياً ، وجدت حاجزين هابطين من سقف الشاطئ الجليدي فاستندت إليهما وبقيت مكانها . وهكذا غدت الغواصة حبيسة في نفق طولى من الجليد . يبلغ عرضه ستين قدماً . ممتلئاً بالماء الساكن . ولهذا كان من السهل أن نمضي إلى الأمام ؛ أو إلى الوراء ، أو أن نجد – إذا غاصت بضع مئات من الأقدام – طريقاً مائياً مفتوحاً تحت شاطئ الجليد .

ورغم انطفاء ضوء الصالون فقد ظل النور فيه باهراً . وذلك لانعكاس الضوء الكهربائي على جدران الجليد الناصعة بقوة مضاعفة وليس في مقدوري أن أصف تلاعب أشعة الضوء الكهربائي فوق هذه الكتل ذات الأشكال

العجيبة فقد كانت كل زاوية وكل طرف وكل سطح يعكس ضوءاً يختلف باختلاف لون عروق الحديد . كانت بمثابة منجم مجوهرات رائع فيه الزمرد الذى تتقاطع إشعاعاته الزرقاء مع بريق الزبرجد الأخضر . وكانت الظلال السماوية اللون تجرى هنا وهناك بين مختلف أطراف الزوايا كأنها مجموعة من اللآلئ التى يخطف بريقها الأنظار . وكانت قوة ضوء الكشاف قد تضاعفت مئات المرات بسبب هذه الانعكاسات وكأنها مصباح قوى يرسل أشعته بواسطة عدسات منارة ضخمة .

وهتف كونسایل قائلاً :

— آه . . . ما أجمل هذا . . . ما أجمله . . .

— نعم إنه مشهد رائع . . . أليس كذلك يا نيد ؟

— نعم . سحراً لكل شيء إنه مشهد رائع حقاً وإن اعترافى بهذه الحقيقة يزيدنى غضباً على غضب فإن أحداً لم يشهد قط مثل هذا المنظر . ولكننا قد ندفع ثمن هذه المتعة غالباً . أعتقد أننا نرى هنا أشياء ما كان مقلراً فى عالم الغيب أن يراها أحد .

وكان نيد لاند على حق . فإن المشهد كان أجمل مما يتصوره البصر وفجأة بدرت من كونسایل صيحة جعلتنى أستدير إليه قائلاً :

— ماذا حدث ؟

— أرجو من سيدى أن يغمض عينيه ويكف عن النظر .

قال هذا وهو يرفع يديه بسرعة ويخفى بهما عينيه . فقلت :

— ولكن ماذا حدث يا بنى ؟

— لقد بهرت عينى . . . أصبت بالعمى .

فاستدارت عينى برغمى إلى النافذة ولكنى لم أستطع احتمال الوهج النارى الذى سلط عليهما ولم ألبث أن أدركت ما حدث . فإن الغواصة قد انطلقت بكل سرعتها وإذا ذاك استحالت الأضواء الساطعة المنعكسة فى سكون إلى

ومضات باهرة كخطف البرق . لقد تجمعت أضواء كتل الماس هذه واتحدت في وميض واحد .

ثم أغلقت نوافذ الصالون. ووضعنا أيدينا فوق أعيننا التي بهرتها الأضواء الساطعة المتحركة كما تنبهر العيون من أشعة الشمس في سمت الظهرية واستغرق زوال الألم برهة غير وجيزة قال كونساييل بعدها وهو يرفع يديه :

— يا إلهي ما كنت لأصدق هذا أبداً !

وقال نيد لاند :

— وأنا لا أكاد أصدق ما رأيت عيناى .

وأردف كونساييل قائلاً :

— عند ما نعود إلى الأرض مثقلين بمثل هذه العجائب ماذا يكون شعورنا حيال القارات التافهة وآثار صنع الإنسان الهزيلة . كلا إن العالم المأهول لم يعد يليق لنا بعد الذى رأيناه .

كانت مثل هذه الكلمات التي فاه بها كونساييل الهادئ عادة تدل على مدى ما وصلت إليه انفعالاتنا النفسية . ولكن نيد لاند لم يعجز كعادته عن سكب بعض الماء البارد عليها فقال وهو يهز رأسه :

— العالم المأهول . لا تنزعج يا صديقي كونساييل . لن نرى قط العالم المأهول مرة أخرى .

وكانت الساعة الخامسة صباحاً إذ ذاك وفي تلك اللحظة أحسنا بهزة في الجزء الأمامي من الغواصة . فأدركت أن مقدمتها صدمت بكتلة من الجليد . وقد خطر لى عندئذ أن ما حدث هو خطأ في القيادة . لأن النفق المائى المحفوف بالكتل الجليدية ليس طريقاً تسهل الملاحه فيه ولهذا السبب تصورت أن الربان نيمو قد يدور حول هذه الكتل أو يستمر في اجتياز هذا النفق الضيق . ذلك لأن طريقنا لم يكن على كل حال مغلقاً تماماً ولكن الغواصة بعكس ما توقعنا . أخذت في التراجع بما جعل كونساييل يقول :

- إنها تسير إلى الخلف .
- نعم لا شك أنه ليس للنفق مخرج في هذه الناحية .
- وماذا سيحدث بعد ذلك ؟
- الأمر جد بسيط .. فسوف نعود أدراجنا لنخرج من الطرف الآخر .
- هذا هو كل شيء .
- وكنت أحس بقولى هذا أنى أبدو واثقاً من نفسى أكثر من الواقع :
- وكان تراجع الغواصة خلال ذلك يزداد معدله . وكانت تحملنا برفاصها العكسى فى سرعة بالغة . .
- وقال نيد لاند :
- سيكون هذا عاملاً من عوامل التأخير .
- وما قيمة بضع ساعات ما دمنا نخرج سالمين .
- نعم . . ما دمنا نخرج سالمين .
- وأخذت أروح وأغلدو برهة فيما بين الصالون وغرفة المكتبة . ولزم صاحبى الصمت : وأخيراً تهالكت فوق الأريكة وتناولت كتاباً جعلت أحرق فيه بنظرات آليه . وبعد ربع ساعة أقبل كونساييل نحوى قائلاً :
- هل يقرأ سيدى شيئاً شائقاً ؟
- جداً . .
- هذا ما خطرلى ، لأن سيدى يقرأ كتاباً من مؤلفاته .
- مؤلفاتى ! ؟
- وتبينت حقاً أنى ممسك بكتابى « أعماق البحار » دون أن أدرى . فطويته واستأنفت مسيرى جيئة وذهاباً . وأخيراً نهض نيد لاند وكونساييل للانصراف . . .
- فقلت لهما
- انتظرا . . لنبق هنا معاً حتى تخرج الغواصة من النفق .
- فقال كونساييل :

— كما يشاء سيدي . .

وانصرفت ساعات وكنت أرفع بصري بين حين وآخر إلى الآلات المعلقة على جدران الصالون فرأيت من مقياس الأعماق أن الغواصة على عمق ثابت مقدارها تسعمائة قدم ، وأن البوصلة تشير إلى أننا نتجه جنوباً وجهاز السرعة يدل على أننا ننطلق بسرعة عشرين ميلاً في الساعة ، وهي سرعة بالغة في مثل هذا الحيز الضيق . ولكن الربان نيمو كان يعرف أنه لا يستطيع أن يمضي بأسرع من هذا رغم أن الدقائق عندئذ كانت كالأجيال .

وفي الدقيقة الخامسة والعشرين بعد الساعة الثامنة ، شعرنا بصدمة أخرى في المؤخرة هذه المرة فامتقع وجهي ، وأسرع صاحباي إلى جانبي ، فأمسكت بيد كونسابل و أخذ كل منا يسأل الآخر بعينه في نظرات أبلغ من كل حديث . وفي تلك اللحظة أقبل الربان إلى الصالون . فذهبت إليه قائلاً :

— هل الطريق مسدود من الجنوب .

— نعم . . إن انقلاب كتلة الجليد سد جميع المخارج .

— هل أصبحنا إذن محاصرين ؟

— نعم .

الفصل الأربعون

الحاجة إلى الهواء

وهكذا أحيطت الغواصة من فوقها ومن تحتها بجداران من الحديد لا منفذ منهما . وصرنا محصورين في شاطئ الحديد . وضرب نيد لاند المائدة بجمع يده في عنف . ولم يلفظ كونساييل بكلمة . ونظرت إلى الربان فإذا وجهه يسترد سكونه المعتاد ولم يلبث أن عقد ذراعيه على صدره كما يفعل حين يستغرق في تأملاته ، وكانت الغواصة ثابتة لا تريم .

وأخيراً تكلم الربان بصوته الهادئ فقال :

— أيها السادة . . هناك وسيلتان للموت في ظروفنا الحالية . .

والحق أن هذا الرجل العجيب بدا كأنه أستاذ للرياضيات يشرح مسألة لتلاميذه وقد استطرده يقول :

— أن نموت سحقا بين كتل الحديد . والثانية أن نموت اختناقاً . ولن أتحدث عن احتمال موتنا جوعاً لأن مخازن الغواصة فيها حقاً ما يكفي ويزيد .
فقلت :

— لا يمكن أن نموت اختناقاً يا كابتن . لأن مستودعات الهواء مملوءة .
— صحيح . ولكنها لن تنفج بحاجتنا من الهواء إلا مدة يومين وقد مضى علينا الآن ٣٦ ساعة تحت الماء وجو الغواصة الثقيل يحتاج منذ الآن إلى تغيير الهواء . أي أن الاحتياطي منه سينفذ بعد ثمان وأربعين ساعة .

— حسناً يا كابتن : يجب إذاً أن نخرج من هذا المأزق قبل ثمان وأربعين ساعة .

ساعة .

– سنحاول بكل وسيلة أن نجد منفذاً بين هذه الأسوار الجليدية المحدقة بنا .

– في أي جانب سنبدأ المحاولة :

– سأستعين بالمجسات . وستهبط الغواصة إلى الجانب السفلى ويرتدى رجالى ملابس الغوص لتحطيم أضعف جانب من هذا الجدار الثلجى .

– هل يمكن أن ترفع الألواح عن نوافذ الصالون ؟

– بالتأكيد . . إننا لا نتحرك الآن .

وخرج الربان نيمو . وانبعث فحيح فهمت منه أن الخزانات تمتلئ بالماء وأخذت الغواصة فى الهبوط حتى استقرت فوق قاع من الثلج على عمق ثلاثمائة وخمسين ياردة وقد قلت :

– يا صاحبى ! إن الموقف خطير ولكنى أعتد على شجاعتكما ونشاطكما .

فقال نيد لاند :

– ليس هذا هو الوقت المناسب لإزعاجك بالتذمر والشكوى ؟ إنى مستعد للقيام بأى عمل لصالح الجميع ؟

فقلت وأنا أصافحه :

– عظيم جداً يا نيد .

– إننى بارع فى استخدام المعول براعتى فى الصيد بالحربة ؟ فإذا كنت ذا فائدة للربان فيمكنه الاعتماد على .

– إنه لن يرفض خدماتك يا نيد . . هلم إليه ؟

وقصدت مع نيد لاند إلى الغرفة التى كان رجال الغواصة يرتدون فيها ملابس الغوص وهناك أخبرت الربان باستعداد نيد للمعاونة . فرحب به . وارتدى صاحبي ملابس الغوص واستعد مع زملائه وحمل كل منهم على ظهره جهاز « روكوابرول » الملىء بالهواء النقي وهو ما أنقص قلداً كبيراً من احتياطى

الهواء في الغواصة أما مصباح رومكروف فلم تكن له فائدة في مياه يسطح فيها الضوء الكهربائي .

ولما فرغ نيد لاند من ارتداء ملابس الغوص عُدت إلى الصالون حيث رأيت الألواح مرفوعة عن النوافذ البللورية فأخذت مكاني بجانب كونسابل ورحت أتفحص بنظري المرقد الجليدي الذي استقرت الغواصة فوقه . وبعد لحظات رأينا نحو اثني عشر رجلا من البحارة يخرجون إلى الجليد وكان بينهم نيد لاند الذي عرفته بطول قامته وكذلك الربان نيمو .

وقبل ابتداء الحفر في الجدران استخدم الربان المحسات ضمناً لسلامة العمل . ونفذت المحسات الطويلة المدببة في الجدران الجانبية . ولكنها لم تلبث أن توقفت بعد أن نفذت مسافة ٤٥ قدماً عند جدران جليدية شديدة الكثافة والسماك ولم يكن ثمة فائدة من جس السقف الجليدي لأنه يكون قاع شاطئ الجليد الذي لا يقل سمكه عن ألف ومائتي قدم ، وشرع الربان نيمو يجس الجانب السفلي من طبقة الثلج التي تفصلنا عن الماء فوجد أن سمكها لا يزيد عن ثلاثين قدماً . وهكذا كان يتحتم علينا أن نستخرج من الجليد نحو سبعة آلاف ياردة مكعبة لنحفر فجوة تنفذ منها الغواصة إلى طبقة الماء السفلى .

وبدأ العمل فوراً في نشاط بالغ ، وقد رأى الربان بدلا من الحفر حول الغواصة - وهي عملية شاقة - أن يأمر بحفر خندق ضخم على مسافة ثمانى ياردات من مقدمتها وفي وقت واحد شرع الرجال في الحفر في نقط مختلفة على حدود الخندق وسرعان ما بدأوا في إخراج القطع الجليدية من أماكنها ، وكانت هذه القطع بحكم قانون الجاذبية العجيب تظير لأنها أخف وزنا من الماء إلى سقف النفق حيث تلتصق به وتزيد من سمكه . بينما يزداد قاعه رقة .

وبعد ساعتين من العمل المتواصل عاد نيد لاند وزملاؤه إلى الغواصة مجاهدين ، وخلفهم في العمل عدد آخر من البحارة انضمت أنا وكونسابل

لإيهم وكان رئيسنا في هذه المرة ضابط الغواصة الأول .
 وكان الماء شديد البرودة ، ولكني لم ألبث أن استدفنت وأنا أضرب بالمعول .
 - وكنت أشعر بخفة في حركاتي رغم أننا كنا نعمل في ضغط يساوي
 ثلاثين ضغطاً جويًا .

ولما عدت إلى الغواصة بعد ساعتين من العمل لتناول الطعام والراحة ،
 شعرت بفارق كبير بين الهواء الذي كان يزودني به المستودع وبين الهواء
 في جو الغواصة الذي أصبح مثقلاً بثاني أكسيد الكربون ، ذلك أن هواءها
 لم يجدد في الثماني والأربعين ساعة الأخيرة ، ففقد الكثير من عناصره المانحة
 للحياة . ومهما يكن فقد استطعنا في اثني عشر ساعة أن نستخرج من الحديد
 ما يبلغ حجمه ستمائة ياردة مكعبة . ولكن حتى لو استطعنا العمل دائماً بهذا
 المعدل فسنحتاج إلى خمس ليال وأربعة أيام لنفرغ من هذه المهمة .

- وقلت لصاحبي : خمس ليال وأربعة أيام وكل ما لدينا من هواء
 احتياطي لا يكفي أكثر من يومين
 فقال نيد لاند :

- حتى يغير هذا التقدير لو خرجنا من هذا السجن للعين فسنبقى
 محصورين تحت شاطئ الحديد وقتاً آخر دون أن نجد الهواء النقي المطلوب .
 وكانت تلك هي الحقيقة . فنذا يستطيع تحديد أقل مدة كافية لخلاصنا ؟
 ألا يحتمل أن نموت اختناقاً قبل أن تصل الغواصة إلى سطح الماء ؟ أترى هل
 قدر لها أن تدفن بمن فيها داخل هذا القبر الثلجي . لقد كان الموقف رهيباً .
 ولكن كلا منا أخذ يواجهه بشجاعة معزماً أن يؤدي واجبه إلى النهاية .

وتم أثناء الليل كما توقعنا استخراج ستمائة ياردة مكعبة أخرى من الحديد
 ولكن عند ما جاء الصباح وارتديت ملابس الغوص وذهبت إلى الماء
 وجدت الحرارة هبطت من ست إلى سبع درجات تحت الصفر . ولاحظت
 أن الجدران الجانبية تقترب بعضها من بعض تدريجياً . وكانت المياه المستخرجة

من الخندق دون أن تسخن بتأثير حركة العمال والمعاول . تميل إلى التجمد مرة أخرى . فأية فرصة للنجاة إزاء هذا الخطر الحديد المحدق . وكيف نستطيع أن نمنع تجمد مياه النفق الضيق فإنها لو تجمدت لحطمت جوانب الغواصة كما يتحطم الزجاج .

ولم أشأ أن أفضى إلى صاحبي بأمر هذا الخطر الجديد ، ولم أغامر بتثبيط همهم وهم يؤدون العمل الشاق ولكني فاتحت الربان نيمو في الأمر عند عودتي إلى داخل الغواصة ، فقال بصوته الهادئ الذي لا تنال منه الأحداث مهما اشتدت خطورتها :

– إنني أعرف هذا ، إنه مجرد خطر جديد لا سبيل إلى اجتنابه . إن الفرصة الوحيدة للنجاة هي أن نعمل بأسرع من تجمد الماء : المسألة الآن سباق بيننا وبين الطبيعة . .

فقلت وكان على أن أعتاد هذا اللون من الحديث :

– نعم يجب أن نكون السابقين .

وفي ذلك اليوم أخذت أعمل بقوة ساعات عديدة . وكان العمل يذكي همتي ، وفضلا عن ذلك كان معنى هذا العمل التنفس من مستودع الهواء النقي المتصل بجهاز الغوص . والبعد عن جو الغواصة الفاسد .

وقرب المساء كنا قد حفرنا ستمائة ياردة مكعبة أخرى في الخندق . فلما عدت إلى الغواصة كدت أختنق بثاني أكسيد الكربون الذي ملأ جوها إذ لم يكن لدينا المعدات الكيميائية التي تطرد هذا الغاز الخائق وإن كان عندنا الأكسيجين بوفرة ، لأن الماء يحتوي على قدر كبير منه وبوسعنا أن نحفظ بكميات كبيرة من هذا الماء السائل . لقد فكرت في هذا ولكن ما الفائدة ما دام ثاني أكسيد الكربون الناشئ عن تنفسنا قد غزا كل أجزاء الغواصة . فلو أردنا امتصاصه لوجب علينا استخدام أملاح البوتاس الكاوية في أوعية مع هزها باستمرار . ولكن هذه المادة لم تكن موجودة في الغواصة وليس ثمة مادة أخرى تحل محلها .

وفي ذلك المساء ، اضطر الربان نيمو إلى فتح صمامات مستودعات الهواء الاحتياطي وإطلاق كمية نقيه منه داخل الغواصة . ولولا هذا لما استيقظنا أبداً من النوم .

وفي اليوم التالي ، السادس والعشرون من شهر مارس ، استأنفت عملي في حفر الخندق لرفع مسطح الياردة الخامسة من طبقة الحليد البالغ سمكها ثلاثين قدماً أو عشر يارهاات . وكانت الجدران الحانبيية وسقف شاطي الحليد تزداد كثافة وسمكاً باستمرار . وكان الواضح أنها ستطبق بعضها على بعض قبل أن تخرج الغواصة من مأزقها . واستبد الياس بي برهة . وكاد المعول يسقط من يدي . فقد خطر لي أنه لم يعد ثمة جدوى من العمل مادمت سأموت مختنقاً ومنسحقاً تحت الماء المتحول إلى جمده ، وإنها لميته لا تخطر ببال أشد الهمج وحشية . لقد خيل لي إلى أني بين أشداق وحش هائل توشك أن تنطبق على بلا أمل في النجاة .

وفي تلك اللحظة مر بي الربان نيمو الذي كان يعمل ويشرف على العمل ، فلمست ذراعه وأشرت إلى جدران سجننا التي اقتربت حتى صارت على قيد أربع ياردات من الغواصة .
وأدرك الربان ما أعني . وأشار إلى أن أتبعه . فلما عدنا إلى الغواصة ونزعنا ملابس الغوص . تبعته إلى الصالون حيث قال .

— لا بد يا مسيو أروناكس أن نقوم بعمل بطولي وإلا قضى علينا في سجن قوامه الماء المتجمد كالأسمنت

فقلت :

— نعم . وماذا يمكن أن نفعل ؟

فهتف قائلاً :

— آه لو كان يتسنى للغواصة احتمال الضغط دون أن تهشم .

فقلت وأنا لا أفهم ما ذا يعني :

– ثم ماذا بعد ؟

– ألا تعرف أن تجمد الماء هذا سيساعدنا ؟ ألا ترى أنه في تجمده سيحطم جدران سجننا كما يحطم في ظروف مماثلة صخوراً أقوى من الحديد . ألا ترى أن تجمد هذا الماء سيكون سبباً لخلاصنا بدلاً من أن يكون وسيلة للقضاء علينا .
– بلى يا كابتن : هذا ممكن ولكن أيا كانت مقدرة الغواصة على احتمال الضغط فلن تستطيع المقاومة في هذه الحالة . وستسحق سحقاً وتصبح مثل لوح من الصلب المضغوط .

– أعرف ياسيدى ، ولهذا لا ينبغي أن نعتمد على الطبيعة في نجاتنا بل على أنفسنا . أى يجب أن نمنع تجمد الماء . فإن الجدران الجانبية لا تنطبق علينا فحسب . بل إنه لم يتبق أكثر من عشرة أقدام من الماء أمام الغواصة أو خلفها فإن الماء متجمد في كل مكان حولنا .

– إلى متى يكفيننا الهواء للتنفس داخل الغواصة ؟

فحدق الربان في وجهى ثم قال :

– إلى ما بعد الغد . . وعندئذ لا يبقى في المستودعات ذرة هواء احتياطي .

وتفصد العرق البارد على جبينى . ولكن . . هل كان ينبغي أن أدهش من هذا الرد ؟ لقد هبطت الغواصة تحت سطح الماء في سمت القطب الجنوبي في اليوم الثانى والعشرين من شهر مارس . ونحن الآن في اليوم السادس والعشرين أى أننا عشنا خمسة أيام نتنفس احتياطي الهواء في الغواصة وما تبقى منه يجب أن يخصص للمشتغلين في حفر الخندق . ولا آمالك ، حين أستعيد تلك الذكرى الأليمة وأنا أدون هذا ، من الشعور بالفزع يستبد بكيانى حتى ليخيل إلى أنى أوشك على الاختناق .

وكان الربان نيمو في خلال هذا يفكر في صمت وسكون . وبدأ لى

بوضوح أن فكرة ما طرأت على ذهنه . وأنه يحاول طردها عنه وهو يرد على نفسه بالنفي وأخيراً بدرت منه هذه العبارة :

– الماء المغلى . .

فهمت قائلًا :

– الماء المغلى ؟ ؟

– نعم ياسيدى ... إننا محصورون في مكان مغلق نسبيًا ؟ أفلا يؤدي الماء المغلى المرسل باستمرار من مضخات الغواصة إلى رفع درجة الحرارة قليلاً وإعاقة عملية التجميد .

فقلت في إصرار :

– لا بد أن نقوم بهذه المحاولة

– سنقوم بها يا بروفيسور ...

وكانت الحرارة الجوية عندئذ سبع درجات تحت الصفر . فمضى بي الربان إلى المطبخ حيث يوجد جهاز الترشيح الذي يزودنا بماء الشرب بعد تحويل ماء البحر إلى بخار . وكانت مستودعات الجهاز مملوءة بالماء فسلط التيار الكهربائي المولد للحرارة على الأنابيب الغارقة في الماء . وسرعان ما وصلت المياه إلى درجة الغليان . فأرسلت إلى المضخات بينما حلت كمية أخرى من الماء محلها وهكذا . وبلغ من شدة الحرارة أن ماء البحر البارد كان لا يصل إلى الجهاز حتى يبلغ في المضخات درجة الغليان .

وبعد ثلاث ساعات من بدء العملية . ارتفعت حرارة الجو إلى ستة درجات تحت الصفر . لقد ظفرنا بدرجة واحدة . وبعد ساعتين كان الترمومتر يشير إلى أربع درجات . وعندئذ قلت بعد أن تبعت مراحل هذه العملية .

– إننا سننجح يا كابتن ...

– أعتقد أننا سننجح . . إننا لن نسحق . ولم يبق ما نخافه الآن سوى

خطر الموت اختناقاً .

وأثناء الليل ارتفعت حرارة الماء إلى الدرجة الواحدة تحت الصفر ولم يستطع الجهاز أن يرفعها أكثر من هذا القدر . ولكن لما كانت مياه البحر لا تتجمد إلا في درجة حرارة لا تقل عن ٢ تحت الصفر . فقد اطمأنت أخيراً لزوال خطر التجمد .

وفي اليوم التالي السابع والعشرين من شهر مارس . كنا قد رفعنا من الحندق ثمانية عشر قدماً من طبقة الحليد . أى أنه لم يبق أماننا سوى اثني عشر قدماً تحتاج إلى جهد ثمان وأربعين ساعة . لم يعد في الإمكان تجديد الهواء داخل الغواصة . وفي ذلك اليوم سارت الأمور من سيء إلى أسوأ .

لقد أحسست بثقل شديد يجثم علىّ . في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر بلغ شعوري بالألم حداً كبيراً . وشعرت بفكّي يكادان ينخلعان من طول ما فغرت فمى ، وهشت زنتاى وهما تتلمسان الأوكسيجين اللازم للحياة . والذي أخذ يقل تدريجياً . وانتابني خلر . فتمددت مسلوب الحركة . أكاد أفقد كل وعى . وجلس كونسابل الباسل المخلص بجانب فراشى رغم إحساسه بنفس الأعراض ونفس الآلام ممسكاً بيدي يشجعني وقد سمعته يغمغم قائلاً :

— آه لو كان في مقدورى ألا أتنفس لأوفر لسيدى المزيد من الهواء .

فلم أكد أسمع هذه الكلمات حتى طفرت الدموع من عيني .

وبسبب هذا الجو غير المحتمل داخل الغواصة . كنا نشرع في ارتداء ملابس الغوص إذا حل دورنا للعمل ونحن نشعر بالبهجة واللهفة . وكانت المعاول ترن على السطح المتجمد . ولم نكن نحفل بكلل سواعدنا أو بتسلخ أيدينا . إذ ما قيمة التعب أو الجروح ما دامت رئاتنا تنعم بالهواء الضرورى . . . لقد كنا نتنفس . . . نعم كنا نتنفس . . .

ومع ذلك لم يكن أحدنا يحاول أن يطيل فترة العمل تحت سطح الماء ، فإذا فرغ من العمل وضع على ظهر زميله اللاهث مستودع الهواء النقي الذى

يسكب الحياة في جسمه . وكان الربان نيمو يضرب لنا المثل ويُخضع نفسه لهذا النظام الدقيق . فإذا جاء دوره سلّم المعول والجهاز إلى غيره . وعاد إلى داخل الغواصة ذات الجو الثقيل . هادئاً دائماً . لا يشكو ولا يتذمر .

وفي ذلك اليوم تم العمل كالمعتاد بنشاط متزايد . ولم يبق أمامنا غير طبقة من الثلج سمكها ستة أقدام . . ستة أقدام كانت تفصلنا عن أعماق البحر المفتوحة . . ولكن مستودعات الهواء الاحتياطي كانت أوشكت على النفاذ . وكان علينا أن ندخر القليل الباقي للعمل في الخندق فلا نطلق ذرة منه داخل الغواصة .

ولما عدت إليها غدوتُ نصف مختنق . وبألم من ليلة أمضيها . إن الآلام التي عانيتُها تند على الوصف . وفي اليوم التالي ضاقت أنفاسي ، ومع الصداع الذي كنت أعاني منه ، شعرت بهذا الحذر الثقيل الذي جعل مني رجلاً كالسكير . وكان زملائي يحسون بهذه الأعراض نفسها وقد شعر بعض البحارة بصلصلة في حلوقهم .

وفي ذلك اليوم السادس من فترة حصارنا رأى الربان نيمو أن العمل بالمعول يسير ببطء شديد . فقرر اقتحام الطبقة الباقية من الثلوج التي تفصلنا عن الماء الجارى . وظل هذا الرجل محتفظاً بهدوئه ونشاطه ، مغالباً الألم الجثمانى بقوة الروح حتى استطاع أن يفكر ويدبر ويعمل .

وأصدر أمره بتخفيف الغواصة . أى برفعها عن الثلج بواسطة التغيير في الحاذبية الفرعية ، فلما طفت سيطرت في الخندق الكبير الذى حفر ليتسع لها ثم ملئت خزاناتها بالماء . فشرعت تهبط ...

وفي تلك اللحظة كان البحارة جميعاً قد دخلوها . وأغلقت جميع فتحاتها . ثم استقرت الغواصة عندئذ على طبقة من الثلج لا يزيد سمكها على ثلاثة أقدام . كما أثبتت المحسات في عشر مواضع .

وفتحت صمامات الخزانات كلها جملة واحدة . فاندفع إليها من الماء

ما يقدر بمائة ياردة مكعبة مما أضاف إلى وزن الغواصة نحو مائتي ألف رطل .
ولبثنا ننتظر ونرهف السمع ناسين آلامنا ، تداعبنا الآمال بعد أن
استنفدنا جميع المحاولات .

ورغم الطنين الذي كان يملأ رأسي شعرت برنين الرفاص في هيكل
الغواصة وبازدياد هبوطها وسمعت صوت تكسر الثلوج المعروف كخرفشة
الورق الخفاف وهو يتمزق .. وازداد هبوط الغواصة .
وهمس كونساييل في أذني قائلا :

– لقد نفذنا ..

ولم أستطع أن أجيب وإنما أمسكت بيده وضغطت عليها بحركات تشنجية .
أما الغواصة فقد هبطت بقوة في الماء الجارى كأنها قذيفة مدفع أو كأنها تهوى
في قاع هاوية ليس لها قرار .

ثم سلطت القوى الكهربائية كلها على المضخات التي أخذت تطرد الماء
من المستودعات . وتوقف هبوطنا بعد لحظات . وبعد برهة بدأنا في الصعود
وكان الرفاص يلور بقوة جعلت الهيكل الحديدى يهتز بكافة أجزائه وهو
يندفع شمالا

ولكن إلى متى يستمر سيرنا تحت شاطئ الجليد قبل أن نصل إلى البحر
المفتوح . يوم آخر ! إننى أفضل الموت على احتمال هذا اليوم .

وازداد الشعور بالاختناق وأنا شبه راقد على الأريكة في غرفة المكتبة .
وشاعت الزرقة في وجهى وشفقى وتسلسل الخلد إلى حواسى فلم أعد أبصر
أو أسمع شيئاً . وتلاشت من ذهني كل فكرة عن الوقت ولم يعد في مقدورى
أن أحرك عضلاتى .

ولم أدرك كم دامت هذه الحالة ... ولكنى شعرت أن آلام الموت قد
بدأت . أدركت أنى أحتضر . وفجأة أفقت لنفسي حين أحسست بأنفاس قليلة
من الهواء النقي تصل إلى رثتى المعدبتين . ترى هل بلغنا سطح الماء ؟ هل اجتزنا
منطقة الشاطئ الجليدى ؟

كلا . . كان نيد لاند وكونساييل – صاحبى الباسلان – يضحيان
بنفسهما من أجلي . فقد بقى قدر يسير من الهواء النقى فى قاع الجهاز . .
وبدلا من أن يستفيدا منه راحا وهما يخبثقان يستقبران هذا القليل فى رثى
وقد حاولت أن أبعد الجهاز عنى . ولكنهما أمسكا بيدي فلم يسعني إلا أن
أتنفس فى نهم .

ووقعت نظراتى على الساعة . فإذا هى الحادية عشرة . ولاشك أن اليوم
كان الثامن والعشرين من مارس . وكانت الغواصة تنطلق بسرعة هائلة
مقدارها أربعون ميلا فى الساعة .

أين الربان نيمو ؟ هل قضى نجه . وهل مات البحارة معه .
وفى تلك اللحظة رأيت بواسطة جهاز الأعماق أننا على عمق خمسة وعشرين
قدماً فقط . من سطح الماء . أى أنه كان يفصلنا عن السطح ، حقل بسيط من
الجليد فقط . أفلا يمكننا اقتحامه ؟

ربما . ومهما يكن فقد بدا أن الغواصة تقوم بهذه المحاولة ؛ إذ شعرت
أنها تتخذ وضعاً رأسياً بخفض مؤخرتها ورفع مقدمتها . ثم إذا رفاصها يدور
بكل قوته وإذا هى تندفع إلى سقف حقل الثلج بقوة القذيفة الحديدية .
وإذا هى تتوقف قليلا . ثم تراجع لتندفع مرة أخرى بكل سرعتها ؛
وإذا حقل الثلج يتحطم . وإذا الغواصة – بمجهود أخير رائع – تقفز إلى
السطح المتجمد الذى تهشم تحتها . .

وفتحت منافذها . . بل كادت المنافذ تنزع انتراعاً . . واندفع الهواء
النقى إلى كل مكان بداخلها . .

فصل الحادي والأربعون

من رأس هورن إلى الأمازون

لم أدر على وجه التحديد كيف وصلت إلى سطح الغواصة . ربما حلتني السيد نيد لاند : ولكنني كنت أتنفس .. أستنشق الهواء المنعش .. هواء البحر وكان صاحباى بجانبى ينتشيان بجزئيات الهواء الطلق ، إن البؤساء الذين حرّموا الطعام طويلا لا يستطيعون أن يلتهموا أول طعام يقدم إليهم مرة واحدة .. أما نحن فلم يكن ثمة ما يجعلنا نملك أنفسنا فانطلقنا تملأ رئاتنا بذرات هذا الهواء وكانت نسائم البحر نفسها هي التي تسكب الحياة في أجسادنا وقال كونساييل :

— آه .. ما أجمل الأوكسيجين .. لا تخف يا سيدى من التنفس بحرية ، فإن في هذا الهواء ما يكفي الجميع .

ولم يقل نيد لاند شيئا وإنما كان يفتح فكيه الواسعين إلى حد يفزع نمر البحر . كان يتنفس بقوة عجيبة وكأنه وهو يسحب الهواء منفاخ أتون في ذروة الحركة . وسرعان ما استرددنا قوانا ، ولما تلفت حولي رأيت أننا على سطح الغواصة وحدنا . فلم يكن أحد البحارة معنا ولا الربان نيمو . لقد اكتفى هؤلاء البحارة المدهشون بتنفس الهواء الجارى داخل الغواصة دون أن يحاول أحدهم أن يستمتع بالهواء الطلق .

وكانت أول كلمات فهمت بها تدير عن شكرى واعترافى بالجميل لصاحبي . فقد أطل نيد لاند وكونساييل بقائى خلال الساعات الأخيرة من هذه المحنة . وإن كل إحساس يعرفان الجحيل ليس بالكثير على مثل هذه التضحية بالنفس .

وقد رد نيد لاند على حديثى بقوله :

- إن مافعلناه لا يستحق التنويه ياسيدى . أى فضل لنا فيما فعلنا ؟ لا شيء !
 إن الأمر كله لا يعلو أن يكون مسألة حسائية . : فإن حياتك تساوى أكثر
 من حياتنا . ولهذا وجب العمل على الاحتفاظ بها :
- لا يانيد لاند . إن حياتى ليست بأفضل منكما : إن الرجل الطيب
 الكريم لا يعلو عليه أحد . وأنت هذا الرجل . وأنت يا كونسایل الباسل . .
 لقد تعذبت كثيراً .
- لم أتعذب كثيراً إذا شاء سيدى الحقيقة . كنت حقاً فى حاجة إلى بعض
 أنفاس من الهواء ولكنى كنت أعتقد أنى سأعتاد تلك الحالة . ثم إنى نظرت إلى
 سيدى وهو يحتضر وفقدت بلورى كل رغبة فى الحياة ، وقد أوقف هذا
 تنفسى كما يقولون .
- واعتراه الارتباك بعد أن فاه بعبارته تلك . فلما توقف قلت لنيد لاند .
 – إننا الآن يا صديقاى مرتبطون معاً إلى الأبد . وأنا على استعداد
 لتنفيذ كل رغبة لكما .
 فقال نيد لاند .
- وأنا على استعداد لاستغلال هذه الفرصة :
- فهتف كونسایل قائلاً :
- ماذا ؟
- فاستطرد نيد لاند قائلاً :
- نعم . وذلك بأن أحسبكما معى حين أغادر هذه الغواصة اللعينة .
 فقال كونسایل :
- لقد ذكرتنى . . . هل نحن سائرون الآن فى الطريق السوى ؟
 فأجبت قائلاً :
- نعم . . لأننا نتجه نحو الشمس . . والشمس الآن فى الشمال .
 فقال نيد لاند :
- لا شك فى هذا .

ولكن بقي علينا أن نعرف هل نحن في الطريق إلى المحيط الهادى أو إلى الاطلنطى أو بمعنى آخر إلى البحار المطروقة أو المنعزلة .

ولم أستطع أن أجزم بشيء ولكنى خشيت أن يمضى بنا الربان إلى المحيط المتراعى الذى يغسل شواطئ آسيا وأمريكا . أعنى المحيط الهادى ، وبهذا يكون قد أتم طوافه حول العالم تحت سطح الماء ثم عاد إلى البحار التى تتمتع فيها الغواصة بالحرية التامة . . ولكن إذا حدث هذا وطرقنا المحيط الهادى الشاسع البعيد عن المناطق المأهولة فإذا يكون من أمر المشروع الذى يعده نيد لاند للهرب ؟

ولم نلبث أن أتاحت لنا الفرصة لمعرفة هذه الحقيقة الهامة . فقد كانت الغواصة تنطلق بسرعة بالغة وسرعان ما تجاوزنا الدائرة القطبية في طريقنا إلى رأس هورن ثم أصبحنا تجاه هذا الطرف الأمريكى في الساعة السابعة من صباح اليوم الواحد والثلاثين من شهر مارس .

وعندئذ نسينا كل آلامنا السابقة . وبدأت ذكريات حصارنا تحت الثلج تتلاشى من أذهاننا وأصبحنا لا نفكر إلا في المستقبل فقط . ولم يعد الربان نيمو يظهر في الصالون أو على سطح الغواصة وكانت عملية الرصد التى تجرى كل يوم ويسجلها الضابط الأول على الحارطة تدلنى على الاتجاه المحدد الذى تسير فيه الغواصة . وشد ما كان سرورى في ذلك المساء حين علمت أننا مبحرون شمالا في طريق المحيط الاطلنطى .

وقد ذكرت نتيجة ملاحظاتي لكونسايل ونيد لاند الذى قال :

— هذه أخبار طيبة . . ولكن . . إلى أين تذهب بنا الغواصة ؟

— لا أعرف يا نيد . .

— ترى هل يحاول ربانها أن يمضى إلى القطب الشمالى بعد الجنوبى .

ثم يعود أدراجه إلى المحيط الهادى بطريق الممر الشمالى الغربى المشهور .

فقال كونسايل

- لا سبيل إلى معارضته إذا أراد هذا . أليس كذلك ؟
فرد الكندي قائلاً :
- حسناً . سنفترق عنه قبل هذا على أى حال .
فأردف كونسایل :
- مهما يكن فإن الربان نيمو رجل عظيم : ولن نأسف على
تعارفنا به .
فقال نيد لاند :
- لا سيما عند ما نفترق عنه .
- وفى اليوم التالى : الأول من شهر لابريل . وعند ما كانت الغواصة تصعد
إلى سطح البحر قبيل الظهر ، رأينا الشاطئ الغربى المعروف باسم « تيراديل
فيوجو » وهو الاسم الذى أطلقه عليه الملاحون القدامى لكثرة الدخان المتصاعد
من أكواخ الأهالى ومعناه « أرض الدخان » .
- وتكوّن « تيراديل فيوجو » سلسلة كبيرة من الجزائر تمتد مساحتها بطول
تسعين ميلاً وعرض مائتين وأربعين ميلاً . وتقع بين خطى العرض ٥٣،٥٦
درجة . وخطى الطول ٥٠ : ٦٧ — ١٥ : ٧٧ غرباً . وكان الشاطئ يبدو
أمامى واطناً ولكن جبلاً عالية كانت ترتفع فى الأفق البعيد؛ بل تصورت أنى
رأيت لمحات من جبل سارينتو الذى يبلغ ارتفاعه ٦٥٠٠ قدماً فوق سطح
البحر وهو كتلة هرمية من صخور الشست المعدنية، ذات قمة مدببة قال عنها
نيد لاند :
- إن ظهور القمة أو اختفاءها فى غلاثل الضباب إعلان عن صفاء
الجو أو رداءته .
- إنها مقياس جوى مشهور يا صديقى .
- نعم يا سيدى . . إنها بارومتر طبيعى لم يخدعنى قط حين كنت أبحر
بين ممرات مضيق مجلان .

وفي تلك اللحظة كانت القمة واضحة شاحخة في السماء . أى كانت دليلاً على صفاء الجو وهذا ما تحققنا منه فعلاً . .

واقتربت الغواصة وهي تسير تحت سطح الماء من الشاطئ على مسافة أميال قليلة . ومن نوافذ الصالون كنت أرى أعشاب البحر الطويلة ونبات الفوقس الهائل . وتلك المثانيات من أعشاب الحماق « جدرى الماء » التي كان البحر في القطب الجنوبي يحتوي على أنواع قليلة منها وكانت بأوراقها النحيلة المصقولة تمتد نحو تسعمائة قدم . وهي تبدو كأنسجة متينة وثيقة في سمك الأبهام . وكانت شديدة المقاومة ولذلك كانت تستخدم في شد ألواح السفن . وثمة أعشاب أخرى تعرف باسم « قَلْب » طول أوراقها أربعة أقدام ، تعلوها المتحجرات المرجانية وكانت تكسو قاع البحر . وتستخدم هذه الأعشاب كأوكار وغذاء للملايين القشريات واللافقريات وسرطانات البحر والحباريات « نوع من السمك » وتنعم الفقمة وبعض الحيوانات البحرية بطعام شهى من هذا العشب المؤلف من الأسماك والنباتات البحرية على الطريقة الانجليزية . وانطلقت الغواصة بسرعة بالغة في هذه الأعماق اللدسة الغنية . واقتربت في المساء من أرخبيل جزائر فوكلاندي التي استطعت في اليوم التالي أن أتعرف على مرتفعاتها الشديدة الانحدار . وكان البحر قليل العمق في هذه المنطقة . ومن ثم خطر لي بحق أن هاتين الجزيرتين وما يحيط بهما من جزيرات صغيرة . . كانت فيما مضى شطراً من أراضي مجلان .

ومن المرجح أن يكون مكتشف جزائر فوكلاندي هو الرحالة المشهور جون دافيز الذي أطلق عليها اسم « دافيز الجنوبية » . وقد سماها ريتشارد هوكنز فيما بعد جزائر « ميدن » العذراء ثم سميت بعد ذلك جزائر « مالوينز » وهو الاسم الذي أطلقه عليها بعض صيادي السمك في « سانت مالو » في مستهل القرن الثامن عشر وأخيراً سماها الإنجليز (جزائر فوكلاندي) بعد استيلائهم عليها .

وقد جاءتنا شبك الصيد من هذه المنطقة بأنواع بديعة من أعشاب البحر لاسيما الفوقس الذى تكسو جنوره أفضل أنواع المحار المعروفة في العالم . وكانت أسراب الأوز البحرى والبط تحط على سطح الغواصة بالعشرات ، ثم سرعان ما تنتقل لأيدينا إلى المطابخ . أما عن الأسماك فقد لاحظت بصفة خاصة أصنافاً عظيمة من سمك القوبيون وبخاصة أسماك البوليرت التى يبلغ طول الواحدة منها ستة بوصات وكلها مكسوة بنقط بيضاء وصفراء وقد أعجبت كذلك بكثير من قناديل البحر وبأجمل أنواع الأحياء المرجانية المعروفة باسم الكريزورا التى اشتهرت بها جزائر فوكلاند، وهى تكون أحياناً أشكالاً نصف كروية كمظلة مقلمة بخطوط حمراء بنية وتنتهى باثنتى عشرة باقة منتظمة وتبدو أحياناً أخرى كسلة مقلوبة تتفرع منها أوراق كبيرة وعسالج طويلة حمراء . وكانت هذه الأحياء المرجانية تسيح بأذرعها التى تشبه أوراق الشجر تاركة شواربها الأمامية طافية وراءها وقد تمنيت لو احتفظت بأنواع من هذه البحرديات الدقيقة ولكنها كانت تبدو كقطع من السحب أو الظلال التى لا تلبث أن تبخر وتختفى من موطنها الأصلي .

وبعد أن غابت آخر مرتفعات أرخبيل فوكلاند وراء الأفق هبطت الغواصة إلى عمق يتراوح بين عشرين وثلاثين ياردة وأخذت تسير تجاه الشاطئ الأمريكى وفى خلال ذلك لم يخرج إلينا الربان نيمو .

وبقينا حتى اليوم الثالث من شهر إبريل فى مناطق بتاجونيا تحت سطح الماء أحياناً ، وأحياناً أخرى فوقه . واجتازت الغواصة مصب نهر لابلاتا الواسع ؛ وفى الرابع من إبريل كنا تجاه اراجواى ولكن على بعد خمسين ميلاً من شواطئها . وظل اتجاه الغواصة نحو الشمال متبعة سواحل أمريكا الجنوبية الطويلة المتعرجة - وكنا عندئذ قد قطعنا ستة آلاف فرسخ منذ رحيلنا فى بحار اليابان .

واجتزنا فى الساعة الحادية عشرة منطقة كابريكون الاستوائية على خط

الطول ٣٧ درجة . ثم أصبحنا تجاه رأس فريو . ولكن الربان - لسوء حظ نيدلاند - لم يكن مولعاً بسواحل البرازيل المأهولة لأنه تجاوزها بسرعة بالغة . وما كان في مقدور سمكة أوطائر أن يلحق بنا ، وهكذا فاتتنا متعة النظر إلى عجائب الطبيعة في بحار هذه المناطق .

واستمر معدل السرعة هكذا بضعة أيام ، حتى إذا كان مساء اليوم التاسع من شهر إبريل رأينا أقصى الطرف الشرقى لأمريكا الجنوبية ، أى الطرف الذى يكون رأس سان روك . ولكن الغواصة تابعت سيرها السريع وهى تغوص إلى أعماق بعيدة فى المحيط حيث يقع الوادى البحرى بين هذا الرأس وبين إقليم سيراليون فى أفريقيا . إن هذا الوادى البحرى يبدأ من مرتفعات جزر الانتيل ، وينتهى شمالاً إلى أعماق ضخمة تبلغ ألف ياردة . وفى هذه المنطقة يتكون الحوض الجيولوجى للمحيط . عند جزائر الأنتيل الصغرى من سلسلة مرتفعات يبلغ ارتفاعها ثلاثة أميال ونصف ميل ، شديدة الانحدار تقابلها عند جزائر رأس فيرد مرتفعات لا تقل امتداداً وارتفاعاً وبين هذه وتلك تقع قارة الاطلانطيس الغارقة وتتناثر فى قاع هذا الوادى البحرى جبال تضى على طابعاً خاصاً . وإني أصف هذا الحوض مستعيناً بخرائط بحرية كانت فى مكتبة الغواصة ، وهى خرائط يبدو بوضوح أنها من أعمال الربان نيمو ، وأنه رسمها عن مشاهدات شخصية .

ولبثنا يومين بين هذه الأعماق الغائرة ذات السهول والمنحدرات التى كانت الغواصة تبخر فيها بطريقة لولبية جعلتها تعلقو وتهبط بين سائر المنحدرات والمرتفعات . وفى اليوم الحادى عشر من شهر إبريل ، صعدت الغواصة فجأة إلى السطح ، وإذا نحن نرى الأرض عند مصب نهر الأمازون . . وهو مصب ضخم تنساب فيه كميات هائلة من ماء النهر إلى البحر فتجعلها أقل ملوحة إلى مسافة أميال عديدة .

وكنا عندئذ قد عبرنا خط الاستواء وعلى مسافة عشرين ميلاً نحو الغرب

رأينا أرض غانا الفرنسية التي كان يمكن أن نجد فيها ملاذاً سهلاً. ولكن الريح كانت تهب كالإعصار ، والأمواج الثائرة ، ما كانت لتسمح لزورق صغير أن يطفو فوقها ولا شك أن نيد لاند قد أدرك هذه الحقيقة ، لأنه لم يتحدث إلى بشيء ، أما من ناحيتي فإني لم أعرض لمشروع هربه ، لأنني لم أرد إغراءه للقيام بمحاولة تنتهي بالفشل حتماً .

وشغلت نفسي عن موضوع الهرب بالاستغراق في دراساتي الممتعة .
ففي خلال يومي ١١ و ١٢ إبريل لم تترك الغواصة سطح البحر ؛ وقد جاءت تلة شباك الصيد بكميات هائلة من الأحياء المرجانية وأسماك الزواحف المائية .

وكانت بعض الأحياء المرجانية قد أخرجت من البحر معلقة في سلاسل الشباك وكان معظمها من أنواع العشبيات المنتمية إلى أسرة الإشعاعيات . وكان بين الأنواع الأخرى الخمائر العشبية التي تستوطن هذه المنطقة من المحيط ، وهي عبارة عن جذوع اسطوانية محلاة بخطوط رأسية ، ومرقطة بنقط حمراء تتوج أذرعها التي تبدو في ازدهار الورد البديع . أما اللاقريات فهي تتكون من أنواع سبق لي ذكرها . ثم البراجيات (حيوانات بحرية أرجلها في رأسها وتسمى الرسجالية « والذورفوريات الزينونية ذات الخطوط المنتظمة المتشابكة والنقط الحمراء التي تبدو بوضوح على مسطح من اللحم . والسرخسيات الحية العجيبة التي تبدو كالعقارب المتحجرة . وأسماك الشفافيات والأرجونات والحباريات ذات الطعم اللذيذ وبعض أنواع خاصة من أسماك الكالم التي يضعها بعض علماء عجائب الطبيعة بين أنواع السمك الطائر ، وهي تستخدم في معظم الأحوال طعاماً لصيد سمك البكلاه .

أما أسماك هذه المنطقة التي لم تتح فرصة دراستها ، فقد شهدت أنواعاً عجيبة منها فن الأسماك الغضروفية رأيت التيرونيرون - بريكيا . وهي من أنواع ثعابين البحر طولها خمسة عشر بوصة ، برءوس مخضرة ، وزعانف بنفسجية ، وظهور رمادية مائلة للزرقة ، وبطن فضية ، ومكسوة بنقط

لامعة ، وتحيط بإنسانات عيونها حلقات ذهبية . وهي أسماك بحرية عجيبة لا شك أن تيارات نهر الأمازون هي التي تأتي بها إلى البحر لأنها عادة تستوطن المياه العذبة . وأسماك الاسكانا اللدرفية بجيازيمها المدببة وذيلها الطويلة المعقوفة والمسلحة بمشار طويل . ونمور البحر الصغيرة التي لا يزيد طولها عن ياردة ، مجلود رمادية في بياض ، وصفوف عديدة من الأسنان المعقوفة إلى الخلف ويسمى العامة «البابوج» والوسيرطليات (الخفافيش البحرية) وهي نوع من الأسماك كالمثلث المتساوي الضلعين طولها قدمان ، مائلة للحمرة تتصل زعانفها الصدرية بزوائد غشائية تجعلها تبدو كالخفافيش. ولكن الزوائد العظمية القريبة من خياشيمها جعلت العلماء يسمونها (وحيدة القرن البحرية) وأخيراً بعض أنواع السمك الفراز ذى الجوانب المرقطة التي تلمع بلون ذهبي . وأسماك القبريص ذات اللون البنفسجي الفاتح والظلال المتدرجة كأعناق الحمام .

وإني هنا أختتم هذه القائمة الحافلة نوعاً بأسماء سلسلة من الأسماك العظمية التي رأيتها في هذه المنطقة . فقد رأيت سمك الباسان المنتمى إلى فصيلة المعاريات بجيازيم بيضاء كالثلج شديدة الانفراج ، وأجسام سوداء ناعمة مزودة بزناط طويل معقوف وأسنان شائكة . وأسماك السردين التي يبلغ طولها تسع بوصات وتتألق بلون فضي . وأنواع ممن سمك الاسكوبر المزودة بزعانف شرجية وسمك النمر – سنترنت ذى الأطراف السوداء الذى يصاد بالمشاعل – وطول السمكة منه ستة أقدام ولحمها أبيض متماسك، له – وهو طازج – مذاق لحم ثعابين البحر ولكن وهو جاف كالرنجة . وسمك الشناف الأحمر الذى تتركز قشوره فقط في أطراف زعانفه الظهرية والشرجية . والسمك العقيقى الذى يتألق بالألوان الذهبية والفضية المموهة ببريق الياقوت الأحمر والأصفر . وسمك الأسبار الذهبى الذيل الذى يمتاز بطيب مذاق لحمه والذي تكشفه في الماء خصائصه الفسفورية وسمك الحفار ذى الألسنة

الرقيقة والأطراف البرتقالية وسمك الظليل بزعانف الذيل الذهبية – والذبول الشوكية الفاتحة وسمك أناييب سوريتام . الخ .

ولكن « الخ » هذه لا تدعى أنسى سمكة لن يستطيع كونساييل أن ينساها أمدأ طويلا .

فقد جاءتنا إحدى الشباك بسمكة من نوع الاسكانه شديدة الفرطحة ، بحيث إذا قطع ذيلها أصبحت كالقرص المستدير وكانت تزن أربعين رطلا . بيضاء البطن ، محمرة الظهر ، ذات نقط كبيرة مستديرة زرقاء تحط بها دوائر سوداء ، وجلد ناعم ينتهي بزعنة مشطورية . ولما وضعناها على سطح الغواصة جعلت تكافح وتحاول بحركات تشنجية أن تنقلب على بطنها . وقد بذلت محاولات عدة حتى انتهى الأمر في وثبتها الأخيرة باندفاعها نحو الماء ، ولكن كونساييل الذي كان حريصاً على الاحتفاظ بها اندفع إليها وأمسكها بكلتا يديه قبل أن أستطيع منعه .

وسرعان ما سقط على الأرض وساقاه في الهواء ، ونصف جسمه مشلول ، وهو يصيح :

– سيدى .. سيدى .. أدركنى ؟

وكانت تلك أول مرة يناديني فيها صاحبي المسكين بصيغة المخاطب بدلا من صيغة الغائب . .

وأدركته أنا ونيد لاند ، وشرعنا ندلكه بقوة ، حتى إذا استرد صوابه راح يتمم في صوت مضضع بسلسلة من التغيرات لهذه السمكة قائلا :

– مرتبة الغضروفيات فصيلة الاسكانه ، أسرة الراى ، نوع

الطوربيد و . . .

– نعم يا صديقى . إنها سمكة من نوع الراى المكهرب الذى فعل بك كل هذا . . .

– آه .. أرجو من سيدى أن يصدقنى إذا قلت إننى سأنتقم من هذه الملعونة .

– كيف ؟

– ساكلها . .

وهذا ما فعله في المساء . . أكلها بدافع الانتقام فقط . لأن لحمها شديد الحشونة . .

كان كونسايل المسكين أمسك بيديه نوعاً من سمك (الرعاش) وهو من أخطر أنواع السمك . إن هذا السمك العجيب يرسل شحنات كهربائية في الماء – وهو موصل جيد للكهرباء – فيصعق الأسماك الأخرى إلى مسافة ياردات عديدة . وإن نطاقه المكهرب لشديد القوة بحيث لا تقل مسافته السطحية عن سبعة وعشرين قدماً مربعاً .

وفي اليوم التالي ٢١ من شهر إبريل اقتربت الغواصة أثناء النهار من الساحل بالقرب من مصب نهر ماروني . وهناك رأيت قطعاناً كثيرة من أبقار البحر ترعى معاً . وهي من نوع المناطق التي تنتمي – كالأطوم والنجميات – إلى مرتبة الخيلينيات « حيوانات بحرية ثديية » . وبلغ طول هذه الحيوانات البديعة الهادئة المسالمة من ثمانية عشر إلى واحد وعشرين قدماً وتزن الواحدة نحو ثمانمائة رطل . وقد ذكرت ليند لاند وكونسايل أن الطبيعة البعيدة النظر قد عهدت إلى هذه الحيوانات بمهمة كبيرة ، لأنها كالفقمات ، تعيش على أعشاب المراعي البحرية وهي لذلك تقضي على تكاثر الأعشاب التي تسد مصبات الأنهر الاستوائية ، وقد أضفت إلى حديثي قائلاً :

– وهل يعرف أحدكم النتائج التي ترتبت على وشك انقراض هذه الحيوانات المفيدة ، إن تكاثر الأعشاب وتعطنها يسمم الهواء . والهواء المسمم هو سبب إلحمى الصفراء التي جعلت هذه المناطق الحميلة خالية من السكان . لقد تكاثرت النباتات المتعفنة تحت سطوح البحار الاستوائية مما أدى إلى انتشار الأوبئة والأمراض ابتداءً من مصب نهر رويودي لابلاتا حتى شواطئ فلوريدا .

وإذا صحت نظرية العالم تاوسينل في هذا الشأن ، فإن الأجيال التالية من البشر سوف تعاني الكثير من الحميات والأوبئة عند ما تخلو البحار من الحيتان والفقعات والثدييات آكلة العشب . ذلك لأن البحار ستصبح موبوءة بالهلاميات وقناديل البحر والحباريات ، ومرتعاً ضخماً للأوبئة ما دامت المياه تخلو من هذه البطون الواسعة التي خلقها الله لتطهير البحار . ومهما يكن فإن بحارة الغواصة رغم هذه النظرية أمسكوا بست من هذه الأبقار البحرية لتزويد مخازنها باللحم الطيب . ولم تحاول هذه الأبقار أن تقاوم عمليات صيدها بالحرايب . وهكذا أضيفت إلى مخازن الغواصة بضعة آلاف رطل من اللحم الذي تقرر تجفيفه .

وفي ذلك اليوم جاءتنا إحدى الشباك بمزيد من اللحم صالح للحفظ . إذ حملت إلينا كمية من الأسماك تنهى رؤوسها بصحاف بيضاوية ذات أطراف لحمية . إنها من الشوكيات التي تنتمي إلى الأسرة الثالثة من اللعنفيات البحرية « اللعنفيات أى اللينة الزعانف من القشريات » وكانت أقراصها المفرطحة تتكون من عظام غضروفية معقوفة متخالفة تمكن هذه الأسماك من إحداث خلخلة فراغية تجعلها تلتصق بأى جسم كالقدح المفرغ .

وينتمي سمك الرامور « سمك له عضو امتصاص في ظهره يلتصق به في غيره » الذى شاهدته في البحر الأبيض إلى هذا النوع إلا أن النوع المعروف في هذه البحار من نوع الشوكيات البحرية وقد عمد بحارة الغواصة إلى وضع هذه الأسماك بعد نقلها من الشبكة في دلاء مملوءة بالماء

وبعد انتهاء الصيد اقتربت الغواصة من الشاطئ فقد رأينا في تلك المنطقة عدداً من السلاحف المائية نائمة على سطح الماء ولم يكن من السهل اصطياد هذه السلاحف ، لأن أقل حدث كان يكتفى لإيقاظها ، كما أن دروعها القرنية تحميها من ضربها بالحربة . ولكن أسماك الرامور كانت كفيلة باصطيادها حقاً . ذلك أن هذه الأسماك هى في الواقع خطاطيف حية يسعد بها صياد السمك ويثرى .

فقد ربط بحارة الغواصة حلقات في ذيول هذه الأسماك وكانت حلقات واسعة لا تعوق حركتها وشدوا في الحلقات حبالاً طويلاً مثبتة إلى جانب من الغواصة من الناحية الأخرى .

وما أن أُلقيت أسماك الرامور في البحر حتى بدأت عملها فوراً ، فقد التصقت بدروع السلاحف وكانت شدة الالتصاق تبلغ حداً يجعل الأسماك تفضل أن تمزق إرباً على أن تفصل من دروع السلاحف .

وهكذا رفعت إلى سطح الغواصة ومعها الصيد الثمين الملتصق بها . وبهذه الطريقة ظفرنا بعدد كبير من السلاحف يبلغ عرض كل منها نحو ياردة ووزنها نحو أربعمئة رطل . وكانت دروعها المكسوة بصحائف قرنية كبيرة رقيقة شفافة بنية بنقط بيضاء وصفراء ترفع أثمانها في سوق البيع والشراء . ثم لأنها من ناحية المذاق تشبه السلاحف « الترسمة » العادية ذات النكهة اللذيذة .

ووضع لصيدنا في هذا اليوم حد لقربنا من شواطئ نهر الأمازون . وما أن حل المساء حتى كانت الغواصة قد ابتعدت إلى عرض المحيط .

الفصل الثاني والرَّبْعون

الأخطبوطات

استمرت الغواصة بضعة أيام مبحرة بعيداً عن الشاطئ الأمريكي وقد وضح أن الربان لا يريد أن يجوب مياه خليج المكسيك أو بحار جزر الأنتيل ، نعم إن المياه في هذه المناطق جد موفورة ، لأن معدل عمق هذه البحار هو ألف وثمانمائة ياردة ولكن ربما كانت كثرة الجزيرات فيها والسفن التي تمخر عبابها ، من الأسباب التي جعلت الربان نيمو يجتنبها .

وفي اليوم السادس عشر من شهر إبريل شاهدنا جزائر المارتنيك وجواديلوب على مسافة ثلاثين ميلا وقد رأيت لمحات من قممها المرتفعة .

وكان نيد لاند قد أعد مشروع الهرب لينفذه في خليج المكسيك إما بالوصول إلى الشاطئ أو الاستعانة بإحدى السفن المتقلة من جزيرة إلى أخرى . ولهذا اشتد حنقه لضياح هذه الفرصة . لقد كان الهرب عندئذ ممكناً لو استطاع نيد لاند الاستيلاء على زورق الغواصة دون علم الربان ولكن الاستيلاء على الزورق في عرض المحيط يصبح بلا فائدة .

ومرة أخرى تبادلت مع كونسابل ونيد لاند حديثاً طويلاً في هذا الموضوع فقد مضى على أسرنا في الغواصة ستة أشهر وقطعنا ١٧ ألف فرسخ دون أن يتضح لنا كيف تكون نهاية هذا كله كما قال نيد لاند، ولذلك اقترح على شيئاً لم أكن أتوقعه وهو أن أسأل الربان مرة أخرى وأخيرة هل ينوى استبقاءنا في غواصته حتى نهاية أعمارنا .

وكنت أشعر بنفور شديد من القيام بهذه المهمة لاعتقادي في عدم جدواها فإن من العبث أن نتوقع شيئاً كهذا ، من الربان نيمو . إذ كان علينا أن نعتمد على أنفسنا فقط . وفوق هذا فقد بدا الربان في الفترة الأخيرة

أميل إلى الكتابة والعزلة وأبعد عن المخالطة بل بدا لي أنه يحاول أن يتحاشاني ولذلك لم أكن ألتقي به إلا في فترات نادرة وقد كان من قبل يشعر بشيء من البهجة وهو يشرح لي عجائب الغواصة . أما الآن فكان يتركني لدراستي ولا يغشى الصالون إطلاقاً .

فأى تغيير طرأ عليه؟ إنني أشعر أني غير مسئول عن هذا التغيير . ربما كان وجودي في الغواصة عبئاً ثقيلاً عليه . ولكن مهما يكن من شيء ، فلا أعتقد أنه الرجل الذي يرضى بإطلاق سراحنا .

ولهذا كله رجوت نيد لاندا أن يترىث ويفكر ملياً قبل أن يفعل شيئاً . فإنه إذا لم ينجح في محاولته فسوف يثير الشك ويضعف من حرج موقفنا ويمكن أن أزيد على ما تقدم أنه لم يكن ثمة مدعاة للشكوى من الناحية الصحية . ففيما عدا المحنة التي ألمت بنا أثناء احتباسنا تحت الشاطئ الحليدي فإن حالتنا الصحية تعد من جميع الوجوه على ما يرام . فالطعام طهي والحوثي والمعيشة المنتظمة والحياة المعتدلة كل أولئك وقانا عوادي الأمراض . وبوسعي أن أدرك عوامل الرضى والارتياح التي يشعر الربان الكاره للحياة على الأرض في الانتقال بغواصته إلى حيث يشاء بوسائل خفية على غيره ميسورة له ، مما يتيح له المضي رأساً إلى حيث يريد . أما نحن فلم نقطع علاقتنا بإخواننا في البشرية . ثم إنى لا أحب أن تدفن معي دراساتي الفريدة المبتكرة . وقد صار من حتى الآن تدبيج مؤلف صادق عن البحار ، وبودى أن يظهر هذا المؤلف عاجلاً أو آجلاً .

ومرة أخرى . . يا لهذه العجائب البحرية التي كان على أن أسجلها في مذكراتي ونحن في مياه جزر الأنتيل على عمق عشر ياردات! .. لقد كان من بين ما رأيت من أنواع الدويبات النباتية تلك الحيتان المعروفة باسم «فيزالى بيلاجيكا» وهي نوع من أنواع المثانيات كبيرة بيضاوية الشكل بأطراف من عرق اللؤلؤ رافعة أغشيتها في اتجاه الريح تاركة مجساتها الزرقاء، تظفرو وراءها

كخيوط الحرير. وقناديل البحر الحميلة مشهدا ، المنفرة مملساً، المفرزة سوائل مهيجة للجلد . كما رأيت بين المفصليات « ذوات المفاصل » أنواعاً من الحلقيات اللودية طولها خمسة أقدام . مسلحة بنخرطوم قرمزي ، ومزودة بألف وسبعائة عضو حركي تدور تحت الماء وترسل عند مرورها كل ألوان الطيف الشمسي .

أما في محيط الأسماك فقد رأيت أنواعاً من راي المالباب . وهي أسماك غضروفية ضخمة طول الواحدة عشرة أقدام ووزنها ستمائة رطل . ولكل منهما زعنفة ظهر مثلثة الشكل ويرتفع وسط ظهرها قليلاً كالسنام وتقع عيناها في أقصى طرفي وجهها خلف الرأس . وكانت تسبح كأشرعة السفن وتحجب نوافذ الصالون البلورية كأنها مصاريع خشبية . ومما رأيت بعض الحيتان الأمريكية كستها الطبيعة باللونين الأبيض والأسود فقط . وسمك القوبيون الطويل المكتنز ، بزعانفه الصفراء وأشداقه البارزة وسمك المقريل الذي طول الواحدة منه خمسة أقدام مكسوة بقشور صغيرة وها أسنان قصيرة مدببة وهي تنتمي إلى نوع سمك البياض . ثم رأيت سمك البوري يسبح جماعات وهو مكسو بخطوط ذهبية تمتد من الرأس إلى الذيل . وكان هذا السمك يدير زعانفه اللامعة ، فتبدو وكأنها قطع من الجواهر النادرة . وكان للرومان شغف بهذا النوع من السمك الملون الذي ورد عنه في الأمثال : « إن الذي يظفر به لا يأ كله » وأخيراً السمك التفاحي الذهبي المزين بحلقات زمردية والمكسو بالمخمل والحرير الذي كان يمر أمام نواظرنا كموكب من أشرف فيرونا ، وكذلك رأيت أسماكاً مهمازية تسبح بعيداً بزعانفها الظهرية السريعة . والصابوغيات التي يبلغ طول الواحدة منها خمسة عشر بوصة يحيط بها لألاء فسفوري ، والبوري الذي يضرب الماء بذبوله السمينة العريضة . وسمك القريجوس الذي يقطع الماء بزعانفه المنجلية الشكل . واغلايات الحديرة باسمها – التي كانت تطفو إلى أفق الماء الفضية كمجموعة أقمار .

وكان يمكن أن أرى غير هذا كله كثير من العجائب والألوان، لو لم تهبط الغواصة إلى أعماق أبعد . فقد غاصت بها ألواحها المائلة إلى عمق أثنى ياردة ثم أربعة آلاف . وفي مثل هذا العمق كانت المملكة الحيوانية ممثلة في أنواع من الأسكرفيات ، ونجيمات البحر، والحماسيات والبنكارينات الفاتنة برووسها التي تشبه رووس قناديل البحر ، والتي تحمل سويقاتها ما يشبه الأقداح الصغيرة ثم اللافقریات الساحلية ذات الحجم الكبير . وفي اليوم العشرين من إبريل صعدنا إلى عمق معدله ألف وأربعمائة ياردة . وكانت أقرب نقطة لليابسة إلينا عندئذ هي أرخبيل باهما الذي تتناثر جزائره على سطح الماء كأكوام من الصخور، وكنا نرى في الأعماق مرتفعات صخرية وجدراناً مستقيمة من الكتل المتآكلة، وبينها فجوات عميقة سوداء لم يكن ضوء الغواصة الكهربائي يصل إلى نهايتها .

كانت هذه الصخور مكسوة بأعشاب كبيرة ، وطحالب ضخمة ودروع هائلة ونباتات مائية جديدة بمملكة البحر حقاً .

وتطرق بثلاثتنا الحديث عن هذه النباتات الهائلة إلى ذكر حيوانات البحر الضخمة التي قدر على بعضها أن يكون طعاماً لغيرها ومهما يكن فإنني لم أر من نوافذ الغواصة التي كانت أقرب إلى الوقوف ، من هذه النباتات الطويلة الأوراق سوى النباتات المفصليّة المتفرعة من أقسام السويقات الخاصة ببحار جزر الأنتيل .

وكانت الساعة نحو الحادية عشر عندما لفت نيد لاند نظري إلى تجمعات ضخمة بين الأدغال العشبية ، فقلت له :

— حسناً . . هذه كهوف خفية للأخطبوطات ؟ : ولن يدهشني أن أرى بعض هذه الوحوش .

فهتف كونسابل قائلاً :

ماذا ؟ . . أهي حيوان الكالاماري البحري من مرتبة الرسجليات ؟ ؟

– لا . إنها أخطبوطات من الحجم الكبير . . ولكن لا شك أن الصديق نيد لاند قد أخطأ النظر فإني لا أرى شيئاً .

قال كونساييل :

– يوسفى هذا . فقد كان بودى أن أرى الأخطبوطات التى سمعت عنها الكثير . والتى يقال إن فى مقدورها جذب السفن إلى قاع البحر . فقال نيد لاند :

– لا شىء يجعلنى أصدق بوجود مثل هذه الحيوانات .
– لماذا ؟ لقد صدقنا جميعاً وجود الكركدن البحرى الذى حدثنا عنه سيدى .

– لقد كنا مخطئين يا كونساييل .

– بالتأكيد . ولكن هناك كثيرين ممن يعتقدون بوجودها .
– هذا محتمل يا كونساييل . أما أنا فلا يمكن أن أسلم بوجود هذه الوحوش ما لم ألمس إحداها بيدي .

– إذاً فإن سيدى لا يؤمن بوجود الأخطبوطات الهائلة .
فهتف نيد لاند قائلاً :

– ومن ذا يصدق بوجودها ؟

– كثيرون يا صديق نيد .

– ليس بينهم صيادون ، ربما آمن العلماء بوجودها .

– معذرة يا نيد ! يستوى فى هذا العلماء والصيادون .

وعندئذ قال كونساييل بلهجة جادة :

– أما أنا فأذكر أنى رأيت سفينة كبيرة يجرها إلى أعماق البحر رسحبلى « أخطبوط » ضخمة بأذرعها الثمانية .

فسأله نيد لاند قائلاً :

– رأيت هذا حقاً؟

– نعم يا نيد .

– رأيتته رأى العين :

– نعم ؟

– وأين كان هذا بالله ؟

فقال كونساييل بهدوء :

– فى سانت مالو ...

فقال نيد لاند متهاكماً :

– فى الميناء ؟

– لا . . فى الكنيسة .

فنهتف نيد لاند قائلاً فى دهشة :

– فى الكنيسة ؟

– نعم يا صديقى نيد لاند .. رأيت صورة تمثل الرسحجلبى « الأخطبوط »

الذى نتحدث عنه .

فضحك نيد لاند قائلاً :

– لا بأس أن كونساييل يحاول أن يسخر منى .

فقلت : إنه يقول الحقيقة . لقد سمعت عن هذه الصورة ، ولكن

الموضوع يمثل مشهداً من أسطورة وأنت تعرف طبعاً قيمة الأساطير إذا

اتصلت بالتاريخ الطبيعى . وفضلاً عن هذا فإن الخيال يشط عادة إذا تناول

موضوع الوحوش ألم يقولوا فقط إن فى مقدور هذه الرسحجلبيات « الأخطبوطات »

أن تجر سفينة إلى القاع بل قيل إن شخصاً يدعى أوليوس مانوس تحدث

عن رسحجلبى « أخطبوط » طوله ميل وكان يبدو أقرب إلى جزيرة منه إلى حيوان .

ومما قيل فى هذا الصدد أيضاً أن أسقف مدينة نيودروس أقام قداساً على

صخرة كبيرة . فلما انتهى القداس عادت الصخرة إلى البحر وقيل إنها لم تكن

سوى رسحجلبى « أخطبوط » ضخمة

فقال نيد لاند :

– أهذا كل شيء ؟

– لا . . . إن أسقفاً آخر هو راعي كنيسة برجيم تحدث عن « أخطبوط » رسجلى استطاعت كتيبة من الفرسان أن تقوم بمناورتها فوقه .
– يبدو أن الأساقفة كانوا جد خياليين في تلك الأيام .

وأخيراً يصف علماء التاريخ الطبيعي القدماء هذه الوحوش بأن لها أفواهاً كالخيلجاء وأنها أكبر حجماً من أن تمر في مضيق جبل طارق .

فقال الكندي :

– ما أبدع هذا الخيال :

فقال كونساييل :

– ولكن ما هي الحقيقة في كل هذه الحكايات ؟

فقلت :

– لا أثر فيها للحقيقة يا صديقي نيد . لا شيء إلا إذا تجاوزنا حد الاحتمال ودخلنا في نطاق الأساطير والخرافات فلا شك أن هناك عوامل أذكت خيال رواة الأساطير . فلا يمكن إنكار وجود هذه الوحوش الأسطورية في العصور السابقة ، ولكن في أحجام أقل من أحجام الحيتان الضخمة . فقد ذكر أرسطو أن طول الأخطبوط نحو عشرة أقدام وفي متاحف تريستا ومونبلييه هياكل لهذه الوحوش طولها ستة أقدام وطبقاً لتقديرات علماء التاريخ الطبيعي فإن الوحش من هذا النوع الذي يبلغ طوله ستة أقدام له زعانف كالأذرع طولها سبعة وعشرون قدماً وهذا ما يجعل منه وحشاً رهيباً .

فقال نيد لاند :

– وهل يمكن صيدها الآن ؟

– إذا لم يمكن صيدها فإن البحارة يرونها . فكثيراً ما أكد لي أحد أصدقائي وهو الربان بول بوز من الهافر ، أنه رأى أحد هذه الوحوش الهائلة

في بحار الهند . ولكن الحادث المدهش الذي يثبت بصفة قاطعة وجود هذه الوحوش ، وقع منذ أعوام قلائل . . أى في عام ١٨٦١ .
 - ما هو هذا الحادث ؟

- في عام ١٨٦١ وفي الشمال الشرقى من تيناريت . أى في نفس خط العرض الذى نحن فيه الآن شاهد بحارة سفينة البريد (اليكتون) أخطبوطاً هائلاً يسبح في مياه قريبة واقرب الربان بوجير بالسفينة من الوحش وهاجمه بالخراب وبالمدافع بلا جدوى ، إذ كانت الخراب وقنابل المدفع تنزلت على جسمه الطرى الهلامى القوام . وبعد عدة محاولات فاشلة استطاع البحارة أن يلقوا أنشودة من الخبال حول جسمه اللاقوى ولكن الأنشودة انزلت إلى زعانفه الذنبية واستقرت عندها وقد حاولوا رفع الوحش إلى سطح السفينة . ولكن ثقل وزنه جعل الحبل يفصل ذيله عن جسمه وما لبث الوحش بعد أن حرم من الذيل أن اختفى في الماء .

وعندئذ قال نيد لاند :

ت أهذه حقيقة راهنة ؟

- نعم حقيقة لا جدال . وقد اقترح بعضهم تسمية هذا الوحش الهلامى باسم أخطبوط بوجير .
 فقال نيد لاند :

- كم كان طول هذا الوحش ؟

فقال كونسایل الذى كان ينظر من النافذة البلورية إلى كهوف الحدار

الصخرى :

- ألم يقدر طوله بثمانية عشر قدماً ..

فقلت :

- تماماً .

- ألم تكن عيناه بارزتين أو كبيرتين جداً ؟

– أجل يا كونساييل . .
 – ألم يكن فيه كمنقار البيغاء تماماً . . ولكنه منقار ضخيم .
 – نعم يا كونساييل .
 – نحسنا إذن . . إذا تفضل سيدي بالحضور إلى هذه النافذة فسوف يرى . . . أعني إذ لم ير وحش بوجير فسيري على الأقل -أخاً له . .
 فنظرت إلى كونساييل بينما اندفع نيد لاند إلى النافذة فإذا هو يهتف قائلاً :

– الوحش الرهيب . .
 فنظرتُ بدوري ولم أتمالك من الشعور بالتقزز . فقد رأيت أمام عيني وحشاً جديراً بأن يتصدر عالم الأساطير والخرافات .
 كان أخطبوطاً هائل الحجم لا يقل طوله عن اثنين وثلاثين قدماً ، وكان يسبح بحركات عكسية بسرعة مخيفة نحو الغواصة وكان يحرق فينا بعينه الخضراوين الهائلتين . وكانت أذرعه الثماني أو أعلى الأصح سيقانه الثمانية تبدأ من رأسه . ولهذا سمي رَسْحَبَلِي «رأس حبلي» وكان طول كل منها ضعف طول جسمه ، ملتفة كالشعر المنفوش ولاحت لنا بوضوح المسام المائتين والخمسين في الجوانب الداخلية من أذرعه وهي على هيئة كبسولات شبه كروية وكانت هذه المسام تلتصق ببلور النوافذ بطريقة الكووس المفرغة الهواء . أما فم الوحش وهو منقار قرني على هيئة منقار البيغاء فكان يفتح ويقفل رأسياً ، وكان لسانه وهو مادة قرنية مزودة بصفوف عديدة من الأسنان الحادة يخرج منتفضاً من منقاريه الحادين كالنصال . وكان في حملته إحدى خوارق الطبيعة الساحرة ، إذ كان له في جسم هلامي لافقرى منقار عظمي – وكان جسمه المنتفخ والمنبجج من الوسط عبارة عن كتلة لحمية تراوح وزنها بين أربعين ألف طن وخمسين ألفاً . أما لونه المتقلب الذي كان يتغير بسرعة

بالغة تبعاً لاهتياج الوحش ، فهو يتدرج بين الرمادى القائم إلى البنى المحمر . . .

ترى ما الذى أثار هذا الوحش الهلامى . لا شك أنها الغواصة التى هى أكبر منه وأقوى ، والتي تعجز مسامه الماصة عن الالتصاق بها . ومع ذلك فما أشد وحشية هذه الأخطبوطات وبما أعظم الحيوية التى أودعها الخالق فيها . وما أوفر القوة التى تبعثها قلوبها المثلثة فى حركاتها .

لقد جاءت بنا المصادفة وحدها إلى هذا المكان لنشاهد هذا الوحش العجيب ؛ وما كنت لأضيع فرصة كهذه لدراسة هذا النوع من الأخطبوطات بعناية . وهكذا تغلبت على الفزع الذى اعترانى لدى رؤيته وتناولت قلماً وشرعت أرسم معاملة .

وقال كونسایل :

— لعله نفس الوحش الذى حاول بحارة السفينة (اليكتون) اصطياده .

فقال نيد لاند :

— لا إن لهذا الوحش ذيل . أما الآخر فقد فقد ذيله .

فقلت :

— ليس هذا هو التعليل . فإن ذبول هذه الوحوش وأذرعها تنمو مرة أخرى بطريقة التجديد ؛ وإن مضى سبعة أعوام على حادث السفينة اليكتون تتيح لأخطبوط بوجير أن يجدد ذيله .

فقال نيد لاند :

— وفضلاً عن ذلك فإذا لم يكن هو فقد يكون واحداً من هذه . . .

والواقع أنى رأيت أخطبوطات أخرى أحصيت منها سبعة كانت تتبع الغواصة فى شبه موكب وكنت أسمع صوت احتكاك مناقيرها بالهيكل الحديدى . وهكذا توافر أمامنا عد كبير نختار منه ما نريد دراسته . وتابعت مهمتى وبقيت هذه الوحوش فى مستوى الغواصة حتى بدت كأنها لا تتحرك .

وكان في مقدورى أن أرسم معالمها على زجاج النوافذ . ثم إن الغواصة كانت تسير بسرعة معتدلة .

وما لبثت الغواصة أن توقفت بصورة مفاجئة جعلتها تهتز بعنف .

فقلت :

– ترى هل جنحت الغواصة ؟

فأجاب نيد لاند قائلاً :

– مهما يكن فلا بد أن تستمر ثانية لأننا نطفو فى الماء .

وكانت الغواصة طافية فعلاً ولكنها لم تكن تتحرك إلى الأمام ، لأن ألواح الرصاص كفت عن ضرب الماء . ومرت دقيقة ثم أقبل الربان نيمو إلى الصالون يتبعه ضابطه الأول .

ولم أكن رأيت الربان منذ فترة طويلة وقد بدا لى هذه المرة شديد الوجوم وهو يقصد إلى النوافذ البلورية دون أن يتحدث إلينا أو يختصنا بنظرة واحدة ، ثم شرع ينظر إلى الوحوش الهلامية . وبعد أن تحدث قليلاً إلى ضابطه الأول انصرف هذا من الصالون وسرعان ما أسدلت الألواح على النوافذ وأضيئت أنوار الغرفة . فاقتربت من الربان وقلت له بغير اكتراث وكأنى متفرج أمام زجاج معرض بحرى . .

– إنها مجموعة عجيبة من الأخطبوطات . .

– نعم يا بروفيسور . . وسنشتبك معها فى معركة سافرة . . وجهاً لوجه .

فنظرت إليه كمن أخطأ السمع ثم كررت كلماته الأخيرة قائلاً :

– وجهاً لوجه ؟

– نعم يا سيدى . . لقد توقف الرصاص . وأعتقد أن منقار أخطبوط

منها قد اشتبك بأحد ألواحه وهذا ما يعوقنا عن التقدم .

وماذا تنوى أن تفعل ؟

– سنخرج إلى الماء ونذبح هذه الوحوش كلها .
 – إنها مهمة عسيرة .
 – نعم هي كما تقول فإن الرصاص الكهربائي لا يجدى مع هذا النوع
 من الأجسام لأنها لن تجد فيها المقاومة التي تجعلها تنفجر ولكننا سنهاجمها
 بالمعاول .

فقال نيد لاند . . .

– وبالحراب . إذا لم ترفضوا مساعدتي لكم .
 فقال الربان :

– إنني أتقبلها يا مسر نيد لاند .

فقلت وأنا أتبع الربان إلى السلم المركزي مع صاحبي :

– سنصحبكم نحن الثلاثة .

وألفينا عشرة رجال مسلحين بالفؤوس الحادة واقفين على أهبة
 الاستعداد . وتناولت فأساً حادة وكذلك فعل كونسابل فأما نيد لاند فأمسك
 بحربة صيد الحيتان

وكانت الغواصة عندئذ فوق سطح الماء . وكان أحد البحارة على درجات
 السلم السفلى يفك مغاليق المنفذ الخارجي . ولكنه ما كاد يفرغ حتى انفتح
 الغطاء بعنف أيقنا منه أن ماصات أخطبوط قد جذبته بقوة .

وسرعان ما انسابت إلينا أحد هذه الأذرع الأفعوانية، بينما كانت عشرون
 ذراعاً أخرى تستعد لاقتحام المنفذ إلينا ؛ ولكن الربان نيمو استطاع بضربة
 قوية من فأسه الحادة قطع الذراع الرهينة فانزلت على السلم وهي تنتفض
 بشدة .

وفي تلك اللحظة جعلنا نتزاحم للصعود إلى سطح الغواصة، وفجأة امتدت
 ذراعان إلى بحار واقف أمام الربان نيمو وجذبتاه بقوة غلابة ؛ وعندئذ أرسل
 الربان صيحة عالية . واندفع في أثر البحار ونحن نتبعه .

ويا له من مشهد !

كان البحار المسكين بين برائن الذراعين ملتصقاً بالمسام الماصة معلقاً في الهواء تبعاً لنزوات الوحش الهائل. وكان صوته مختنقاً وهو يصيح مستنجداً بلغة فرنسية جعلتني أحمده في مكاني برهة من فرط الدهشة . إذن فإن هذا البحار فرنسي مثلي . . ومن يدري ، فلعل بين البحارة غيره من أهل الوطن : الحق أني لم أنس ما عشت رنين هذه الصيحة الممزقة للقلوب .

كان ذلك الرجل البائس مقضياً عليه لامحالة . فن ذا الذي يستطيع إنقاذه من برائن ذلك الوحش ؟ ولكن الربان نيمو ألقى بنفسه على الأخطبوط وفصل بفأسه ذراعاً أخرى . وكان الضابط الأول يصارع في غضب وحشا آخر كان يحاول التسلق إلى الغواصة واشتبك البحارة في المعركة بفتوسهم .

وكنت وكونسايل ونيد لاند نعوص بفتوسنا طعناً في لحم الوحوش . وغمرت الجورائحة نفاذة عنيفة كان لها تأثير شنيع .

وأيقنت برهة أن البحار المسكين الواقع بين برائن الوحش ستجذبه الماصات القوية وتذهب به . لقد قطعت سبعة من أذرعه ولم يبق غير الثامن ممسكاً بالرجل كالريشة المتأرجحة في الهواء ، ولكن ما أن اندفع الربان نيمو والضابط الأول نحو الوحش حتى أطلق عموداً من سائل أسود كان مخزناً في كيس داخل معدته ، ففقدنا الرؤيا في الحال حتى إذا تلاشت هذه الغشاوة كان الوحش قد اختفى مع مواطني المسكين .

واندفعنا في غضب شديد إلى قتال هذه الوحوش التي غزا عشرة أو اثنا عشر منها سطح الغواصة وجوانبها ، وكنا نتدحرج بلا انتظام بين هذه الخراطيم الأفعوانية التي كانت تتلوى على السطح في بحيرات من الدماء والمداد الأسود . وبدا لنا كأن هذه الأذرع تثبثق متجددة كرووس الغدار « ثعبان خرافي له تسعة رؤوس » وكانت حربة نيد لاند تصيب في كل ضربة عين أحد الوحوش ولكن صاحبي الباسل ما لبث أن سقط فجأة بضربة ذراع لم يستطع تفاديها .

آه ... شد ما خفق قلبي انفعالا ورعباً . فقد انفتح منقار الوحش الرهيب فوق رأس نيد لاند وأوشك المسكين أن يشطر إلى نصفين فأسرعت إلى نجدته . ولكن الربان نيمو كان أسرع مني . وإذا فأسه تغوص في فم الوحش بضربة أنقذت نيد لاند بأعجوبة . وسرعان ما نهض ودفع حربته إلى قلب الوحش بضربة قاضية .

وقال الربان نيمو لنيد لاند :

— لقد سددت ديني لك .

فأحنى نيد لاند رأسه دون أن يجيب .

واستمرت المعركة ربع ساعة انسحبت الوحوش بعدها من سطح الغواصة جريحة ممزقة واختفت في أعماق الماء .

ووقف الربان نيمو بغير حراك قرب مقصورة الكشاف وهو مغطى بالدماء وراح ينظر إلى البحر الذي ابتلع واحداً من رفاقه والدموع تنحدر من عينيه .

الفصل الثالث والأربعون

تيار الخليج

لن ينسى أحد منا ذلك المشهـب الرهيب الذي كان يوم ٢٠ إبريل : لقد كتبت وصف ذلك المشهد متأثراً بأشد الانفعال . ولما راجعته بعد ذلك وقرأته على نيد لاند وكونساييل وجدناه مطابقاً للواقع ، ولكن تعوزه قوة التأثير . والواقع أن تصوير مشهد كهذا لا ينهض به سوى قلم أعظم شعرائنا ... فيكتور هيجو ...

قلت إن الربان نيمو بكى وهو ينظر إلى البحر . فقد كان حزنه بالغاً . ذلك لأن البحار كان ثاني رفيق فقدته منذ ركوبنا الغواصة . ويالها من ميتة . . إن هذا الرفيق الذي تحطم واختنق تحت ذراع الوحش الرهيب بل طحن طحناً في قبضته الفولاذية ، لم تتح له فرصة الرقاد في سلام مع زملائه الثاوين في المدافن المرجانية تحت سطح الماء .

لقد مزقت قلبي صيحة اليأس التي أطلقها ذلك البائس أثناء المعركة . إن هذا الفرنسي المسكين قد نسي لغته الموقوتة ، واستغاث في لحظته الأخيرة بلغة بلاده ، ومعنى هذا أنه كان لي مواطن فرنسي بين بحارة الغواصة .. مواطن منضم بجسمه وروحه إلى الربان نيمو ، مجتنب مثله كل علاقة بالبشر . ترى أكان هذا هو الفرنسي الوحيد في هذه المنظمة الخفية المكونة كما يبدو من أعضاء مختلفي الجنسية . ذلك لغز جديد من ألغاز هذه الغواصة التي لا تبرح تتوارد في ذهني ، وعاد الربان نيمو إلى غرفته ولم أره بعد ذلك فترة طويلة . ولكن لشد ما كان حزيناً بائساً متردداً ، فقد أدركت ذلك من أسلوب مسير الغواصة التي هو روحها والتي تتأثر بكل ما يطرأ عليه . ومن ثم لاحظت

أن نيمو يقودها على غير هدى حين وجدتها تروح وتجيء طافية فوق سطح الماء كأنها شيء لاجياة فيه . لقد تحرر رفاصها مرة أخرى . ولكنه لم يستخدم إلا قليلا هـ وذهبت الغواصة تضرب حينما اتفق . ولكنها لم تستطع أن تنزع نفسها من مسرح المعركة الأخيرة . . من البحر الذى التهم وأحداً من أبنائها . . .

ومرت عشرة أيام على هذه الحال . ولم تتخذ الغواصة طريقاً مرسوماً نحو الشمال إلا فى أول شهر مايو بعد أن لمخنا جزائر باهاما عند مدخل قناة باهاما . وكنا عندئذ نسير مع تيار أكبر الأنهار البحرية الذى له شاطئاه الخاصان وأسماه وحرارته . وهو الذى أسميته « تيار الخليج » .

إنه فى الواقع نهر ينساب طليقاً وسط المحيط الاطلنطى دون أن تختلط مياهه بمياه المحيط — إنه بحر مالح ، أشد ملوحة من المياه المحيطة به ، ويبلغ معدل عمقه ثلاثة آلاف قدم ومعدل اتساعه ستين ميلا . وينساب تياره فى بعض أجزائه بسرعة تتجاوز الثلاثة أميال فى الساعة ؛ أما كثافة مياهه النوعية فهى أشد تركيزاً من مياه جميع أنهار العالم .

وينبع تيار الخليج — الذى اكتشفه الربان مورى فى خليج بسكاى فهناك تبدأ مياهه — الخفيفة فى الحرارة واللون — فى التكوين وهو ينحدر نحو الجنوب ويمر بشاطئ أفريقيا الاستوائية حيث تُدْفِقُ مياهه أشعة الشمس الحامية ، ثم يعبر المحيط الاطلنطى ، ويصل إلى رأس سان روك على الشاطئ البرازيلى ثم يتشعب إلى فرعين أحدهما يغمر بحار جزر الأنتيل بجزئياته الدافئة ثم يبدأ عندئذ تيار الخليج الذى تنحصر رسالته فى موازنته لمختلف درجات الحرارة أى خلط المياه الاستوائية بالمياه الشمالية . وعند ما ترتفع درجة حرارة مياهه إلى الذروة فى خليج المكسيك ، فإنه يصعد إلى الشمال بمحاذاة الشواطئ الأمريكية حتى جزر نيوفونند لاند . وهناك يندفع تحت التيار البارد الآتى من مضائق دافيز ، ثم يتخذ طريق المحيط متتبّعاً إحدى الانحناءات للكورة

الأرضية ثم ينقسم عند الخط ٤٣ درجة تقريباً إلى ذراعين يعود أحدهما إلى خليج فرساي وجزر أزور بمساعدة الرياح التجارية الآتية من الشمال الشرقي ويتجه الثاني بعد تدفئة شواطئ إيرلنده والنرويج إلى ما وراء ميناء بنزبرجن حيث يكون بعد هبوط حرارته أربع درجات البحر المفتوح في القطب الشمالي .

كانت الغواصة تبحر في تيار هذا النهر إذن . وبعد أن خرجت من قناة جزر باهاما حيث كان اتساع تيار الخليج عندئذ ثمانية وأربعين ميلاً وعمقه ١٠٠ ياردة وسرعته ٥ أميال في الساعة ، وكانت هذه السرعة تقل بانتظام كلما تقدمنا نحو الشمال . وفي الواقع كان المطلوب أن يبقى هذا الانتظام دائماً لأنه إذا تغيرت سرعة التيار واتجاهه ، فإن الأجواء الأوربية تتعرض لاضطرابات خطيرة لا تقدر عواقبها .

وحوالي الظهر كنت مع كونسابل على سطح الغواصة أحدثه عن الخصائص المختلفة لتيار الخليج فلما فرغت من الشرح طلبت منه أن يغرق يديه في التيار .

ولما أطاعني دهش إذ لم يشعر بأي إحساس للبرودة أو الدفء

فقلت له :

– يرجع هذا إلى أن حرارة تيار الخليج عند خروجه من خليج المكسيك تساوى حرارة الدماء ، إن تيار الخليج هذا ما هو إلا موقد تدفئة ضخمة يمنح الحضرة الدائمة للشواطئ الأوربية . وإذا صححت أقوال مورى فإن الحرارة الكامنة في هذا الخليج يمكنها بالتركيز أن تطلق سعراً حزارياً يكفي لإبقاء نهر من الحديد المنصهر سائلاً ولو كان هذا النهر في حجم نهر الأمازون أو نهر ميسورى .

وكانت سرعة التيار عندئذ خمسة أقدام في الثانية . وكان مجراه واضحاً مميّزاً عما حوله من مياه البحر ، لأن مياهه المضغوطة المركزة كانت مرتفعة قليلاً عن مياه المحيط . ولما كانت مياهه موفورة الملح . فقد كان لونها أزرق

قاتماً ، بينما كانت مياه المحيط حوله خضراء. وكان الخط الفاصل بينهما واضحاً إلى حد أن الغواصة كانت وهي تحاذى جزر كارولينا ، تقطع بمقدمتها مياه تيار الخليج ، بينما يضرب رفاصها مياه المحيط .

ويحمل هذا التيار عالماً من الأحياء المائية ، وكانت أسماك الأرجونوت المعروفة في البحر الأبيض المتوسط تسبح معه في مجموعات كبيرة . وكان من أهم أنواع الأسماك الغضروفية ، سمك الراى الذى يكون ذيله المعقوف ثلث جسمه ، والذي يبلغ طوله - كأسماك اللوزنج الكبيرة - نحو خمسة وعشرين قدماً . ثم سمك الكلب وطول الواحدة ثلاثة أقدام برأس كبير وحيزوم قصير مستدير وأسنان مدببة في صفوف عديدة وجسم يبلو مكسواً بالقشور والحراشيف .

أما عن الأسماك العظمية فقد لاحظت وجود أنواع من سمك الراص الرمادى الخاص بهذه المياه وسمك الحفار الذى تتألق عيوننه كالنار والينشور وسمك البركيت « الملون كالبغاوات » والذي يُرسل في مياه المحيط ألواناً من قوس قزح تفوق في بهائها ألوان الطيور الاستوائية . والمزجناحيات بروثوسها الفضية وذيولها الصفراء وأنواع مختلفة من السلمون ، والبورى البياج المرن الناعم اللامع الذى كان الملك الاسيبيد يكرسه لطعام زوجته الحميلة . وأخيراً السمك المعروف باسم « الفارس الأمريكى » المزين بعدد لا يحصى من الشرائط والأوسمة . وهو يكثر على شواطئ البلاد الأمريكية التى لا يكاد شعبها يهتم بالأوسمة والنياشين .

ويسوغ لى القول أن مياه تيار الخليج تشع في الليل ضوءاً فسفورياً يفوق الضوء الكهربائى المنبعث من كشاف الغواصة . ولا سيما في الأجواء العاصفة التى كانت تهددنا بين حين وآخر .

وفي الثامن من شهر مايو كنا تجاه رأس هاتيراس في نهاية ولاية كارولينا الشمالية . وهنا كان اتساع تيار الخليج خمسة وسبعين ميلاً وعمقه مائة واثنين

وعشرة ياردات . وظلت الغواصة تسير حيثما اتفق . وبدأ لى أنه لم يعد ثمة أى إشراف عليها . وأعترف أنه يمكن الهرب بنجاح فى مثل هذه الظروف . ذلك أن الشواطئ المأهولة تتيح فى الواقع أكثر من ملجأ ميسور فى جميع الجهات . وكانت البواخر العديدة تشق عباب البحر دواماً فى تنقلها بين نيويورك وبوسطن وخليج المكسيك وكانت السفن الصغيرة لا تنقطع ليلاً ونهاراً عن الإبحار على الشواطئ الأمريكية لأغراض التجارة . وكان يمكن أن تلتقطنا إحدى هذه السفن . ولهذا كله كانت الفرصة سانحة للهروب . رغم الأميال الثلاثين التى تفصل بين الغواصة والساحل الأمريكى .

ولكن شيئاً واحداً معاكساً خيب آمال نيد لاند وذلك هو الجوامك المنهزم . فقد كنا نقرب من منطقة تكثر فيها الزوابع ، هى منطقة العواصف والأعاصير المتولدة عن تيار الخليج . وكان الخروج إلى بحر كهذا فى زورق صغير معناه الرغبة فى الموت وقد اعترف نيد لاند بهذا . وما برح يشقى نفسه بحنين إلى موطنه لا شفاء له منه إلا بالهرب .

وفى ذلك اليوم قال لى :

– سيدى . . ينبغى أن تكون لهذه الحالة نهاية . فأنا أريد أن أعرف ما هو موقفنا الآن . إن صاحبك نيمو يبتعد عن اليابسة نحو الشمال ولكنى أعلن لك أنى نلت كفايتى من القطب الجنوبي ولن أتبعه إلى القطب الشمالى .

– ولكن ماذا نستطيع أن نفعل يانيد والهرب غير ممكن الآن .

– إننى أعود إلى اقتراحى الأول وهو وجوب التحدث مع الربان . إنك لم تحدثه عند ما كان فى بحار وطنك . ولكنى سأحدث إليه الآن وهو فى بحار وطنى . فلانى كلما فكرت فى أن الغواصة ستكون بعد أيام قليلة تجاه نونوا سكوتيا ، وأن هناك بالقرب من نيوفوندىلاند خليجاً واسعاً تصب فيه شلالات نهر لورنس ، وأن نهر لورنس هو نهر بلادى . . نهز مدينة كوبيك عاصمة كندا بلادى . . وطنى – عند ما أفكر فى هذا كله يشتد غضبى ويقف

شعر رأسي وأقول لك يا سيدي إني أفضل إلقاء نفسي في هذا البحر على البقاء هنا . . . فإني سأختنق .

وبدا لي بوضوح أن نيد لاند قد نفذ صبره وأن طبيعته العنيفة لم تألف هذا الأمر الطويل وكان وجهه يتم عن الغضب المتزايد يوماً بعد يوم ومزاجه يزداد سوءاً . وشعرت بما يعانيه يقيناً لأن روح الحنين إلى الوطن سرت إلى نفسي أيضاً . فقد مضى نحو سبعة أشهر لم تصلنا فيها أنباء ما عن اليابسة وفوق هذا كانت عزلة الربان وتقلب أهوائه لاسيما بعد معركة الأخطبوط وانطواؤه ، مما جعلني أرى الأمور بنظرة مختلفة . إن على الإنسان أن يكون هولندياً – مثل كونساييل – لكي يتقبل هذه الحياة القائمة على الحيتان وغيرها من الأحياء البحرية . والواقع لو كان لكونساييل خياشيم بدل الرثة . لكان سمكة عظيمة .

وقال نيد لاند حين وجدني لا أجيب :

- حسناً يا سيدي .
- حسناً يا نيد . تريد مني أن أعرف نوايا الربان نيمو بشأننا .
- نعم يا سيدي .
- وذلك رغم أنه صارحنا بهذه النوايا من قبل .
- نعم فإني أريد أن أتأكد من نواياه للمرة الأخيرة . ويمكنك أن تتكلم عني فقط إذا شئت .
- ولكني لا أراه إلا نادراً . إنه يتحاشاني .
- وهذا سبب يزيد من ضرورة السعي لمقابلته .
- سأكلمه يا نيد .
- فقال الكندي ملحاً :
- متى ؟ !
- عند ما ألتقي به .

– يا مسيو أرونالكس . أتريدنى أن أذهب إليه بنفسى ؟

– لا . دع هذا الأمر لى . غداً .

– بل اليوم .

– حسناً جداً . . سأقابلة اليوم .

قلت هذا لنيد لاند لثلا يتصرف من تلقاء نفسه فىسبىء إلينا جميعاً .

وبقيت وحدى . لقد استقرز عزمى على إتمام هذه المهمة فوراً ما دمت

قد اتخذت قراراً بشأنها فأنا أحب العمل الحاسم بدلا من الإرجاء والتسويق .

ودخلت غرفتى ، وهناك شعرت بشخص فى غرفة الربان نيمو يسير

جيئة وذهاباً ، فلم أشأ أن تفلت هذه الفرصة من يدي وطرقت الباب ولكنى

لم أسمع جواباً ، فكررت الطرق ثم أدت المقبض وفتحت الباب .

ودخلت ورأيت الربان فى الغرفة عاكفاً على العمل فوق منضدته .

ولذلك لم يسمع شيئاً فقررت ألا أخرج قبل أن أعرف رأيه فاقتربت منه فرفع

رأسه فجأة وقطب جبينه وقال بخشونة :

– أنت هنا ماذا تريد ؟

– أريد التحدث معك يا كابتن .

– ولكنى مشغول يا سيدى . إننى أقوم بعملى . إن الحرية التى تتمتع

بها هنا للانفراد بنفسك ألا يحق لى أن أتمتع بمثلها أيضاً ؟

ورغم أن هذا الاستقبال لم يكن مشجعاً فقد قررت أن أسمع كل شىء

لأعرف كل شىء . فقلت بهدوء :

– يجب أن أتحدث إليك يا كابتن فى مسألة لا يمكن تأجيلها .

– فقال متهكماً :

– وما هى هذه المسألة يا سيدى ، هل اكتشفت شيئاً فانتى اكتشافه ،

هل باح لك البحر بسر جديد ؟

ولكن هذا الحديث كان بعيداً عن موضوعنا ، وقبل أن أرد عليه أشار

إلى مخطوط أمامه وراح يقول برصانة :

– هذا مخطوط مكتوب بعدة لغات يا مسيو أروناكس . إنه يتضمن
دراستي عن عجائب البحار إن شاء الله . إن هذا المخطوط الموقع باسمي
والمذيل بتاريخ حياتي سيوضع في خزانة محكمة لا تفرق . وآخر من يبقى
على قيد الحياة في هذه الغواصة سيكون عليه أن يلقي بالخزانة العائمة إلى البحر
حيث تحملها الأمواج إلى أي مكان .

اسم هذا الرجل . تاريخ حياته مكتوب بقلمه ؟ إذن فإن الأسرار التي
تكتنفه ستذاع يوماً ، مهما يكن فقد وجدت الآن ثغرة أنفذ منها إلى موضوعي
فقلت له :

– إنني يا كابتن متفق معك في الفكرة التي حفزتك إلى هذا العمل . إن
ثمار دراساتك لا ينبغي أن تضيع . ولكن الوسائل التي تستخدمها تبدو لي
بدائية جداً . فمن يدري إلى أين تلتقي الرياح بالخزانة وفي أيدي من تقع ؟
ألا تستطيع أن تجد وسيلة أفضل ؟ ألا يمكن أن تقوم أنت أو أحد رجالك؟ ..

فقاطعني قائلاً

– هذا مستحيل .

– إذن فأنا وصاحباي يمكننا الاحتفاظ بمخطوطك إذا منحتنا الحرية .

فنهض الربان قائلاً :

– الحرية يا سيدي ؟

– نعم يا كابتن . وهذا ما جئت أحدثك عنه فقد مضى علينا الآن سبعة
أشهر في غواصتك . وإني أسألك الآن عن نفسي وصاحباي هل تنوى
أن تبقىنا هنا دائماً ؟ .

– يا مسيو أروناكس ! إن جوابي هو نفس الجواب الذي قلته لك منذ
سبعة أشهر . إن من يدخل غواصتي لا يخرج منها أبداً .

– ولكن هذا نوع من الاستعباد !

– سمه ما شئت .

– ولكن العبد له في كل مكان الحق في استرداد حرته . إنه يعتبر كل فرصة تهباً له للتحرر مشروعه في نظره .
 – وهل أنكر أحد عليكم مثل هذا الحق ؟ هل قيدتم بقسم غليظ ؟
 وتطلع الربان إلى وهو يعقد ذراعيه على صدره .
 فقلت له :

– سيدى . لم يكن ثمة موجب للعدو إلى الحديث في هذا الموضوع ولكن مادما قد بدأنا الحديث فلنستمر . إن الدراسة المثلى شيء مفيد وهواية متأصلة واندماج يجعلنى أنسى كل ما عداه بوسعى مثلك أن أعيش مجهولاً مغموراً مؤملاً بتقديم نتائج أعمالى إلى الناس في المستقبل بواسطة خزانة تبقى تحت رحمة الرياح والأمواج وبالإجمال أستطيع الإعجاب بك والمضى معك مسروراً في الاضطلاع بعمل أفهمه إلى حد معين . ولكن في حياتك جوانب يكتنفها الغموض والأسرار . وهى محجوبة عنى وعن صاحبي فقط . وحتى لو نبضت قلوبنا من أجلك وخفقت بالأمك ، وامتألت إعجاباً بأعمالك وبسالتك فإننا مضطرون إلى كتم كل إحساس بالمشاركة الوجدانية التى تثيرها المشاركة في كل ما هو طيب أو جميل سواء كانت صادرة عن عدو أو صديق . إن شعورنا بالغرابة عن كل شيء يتعلق بك هو الذى يجعل موقفنا لا يحتمل . حتى بالنسبة لى . وإن كان بالنسبة لنيد لاند جحيم لا يطاق . إن كل إنسان بوصفه إنساناً – أهل للرعاية والتقدير . فهلا سألت نفسك عن المعنى الذى تثيره حب الحرية وكرهية الاستعباد عند رجال مثل نيد لاند وعمما قد يفكر فيه أو يندفع إليه .

وأخلدت إلى الصمت ونهض الربان نيمو قائلاً :

– لا يهمنى قط ما يفكر فيه نيد لاند أو يحاوله . أنا لم أسره ، ولا أبقيه في غواصتى لإرضاء لنفسى . أما أنت يا مسيو أروناكس فإنك من القلائل الذين يمكنهم إدراك كل شيء ، حتى الصمت . وليس لدى ما أقوله لك أكثر

مما قلت . إن المرة الأولى التي حدثتني فيها عن هذا الموضوع يجب أن تكون الأخيرة . لأنني لا أستطيع أن أنصت إليك مرة أخرى . وهكذا انسحبت من الغرفة مدركاً أن موقفنا منذ هذا اليوم أصبح واضحاً ولما ذكرت لصاحبي هذا الحديث قال نيد لاند :

– نحن نعرف الآن أنه لا يمكن أن نتوقع شيئاً من هذا الرجل . وإن الغواصة تقرب من جزيرة « لونج إيلاند » ومهما تكن حالة الجو فسوف نحاول الهرب .

ولكن السحب ازدادت تكاثفاً في السماء وبدت لنا بوضوح بوادر عاصفة عاتية في الطريق . فقد استحال الجو إلى هذا اللون الأبيض المشع بالضباب ، وتعاقبت في الأفق شرائط السحاب الخفيف تتلوها كتائب من السحب الملبدة وكان ثمة سحب أخرى خفيفة تطير فوقنا بسرعة وارتفعت أمواج البحر ضخمة عالية واختفت الطيور إلا أطيّار النورس صديقة العاصفة وهبط جهاز الضغط الجوى بسرعة مسجلاً وجود ضغط بخارى شديد في الجو وتحلل المزيج في « زجاجة العاصفة » بسبب الشحنات الكهربائية في الجو وعلى الحملة كانت إحدى ثورات الطبيعة في الطريق إلينا .

وهبت العاصفة في اليوم الثامن عشر حين كانت الغواصة تطفو تجاه جزيرة « لونج إيلاند » على مسافة أميال قليلة من ميناء نيويورك وبوسعي أن صف ثورة هذه العناصر الطبيعية ، لأن الربان نيمو رأى بسبب ما أن يواجهها على سطح الماء .

كانت الرياح تهب من الجنوب الغربي بسرعة خمسة وأربعين قدماً في الثانية . وقبل الساعة الثالثة بعد الظهر بلغت خمسة وسبعين قدماً في الثانية وهذه هي سرعة العاصفة .

واتخذ الربان نيمو الذي لم يحفل كثيراً بالعاصفة مكانه على سطح الغواصة بعد أن شد نفسه بحبل لمقاومة الأمواج الرهيبة التي كانت تكتسح السطح

فاقتديت به وشدت نفسى بجبل وأنا أوزع إعجابى بين العاصفة وبين هذا الرجل الفريد الذى وقف يتحداها .

وكانت السحب المهلهلة تكتسح البحر . وتنغمس فى ذوآبات الموج حتى لم أعد أرى الأمواج المتوسطة بل كنت أرى منبسطة مائياً ضهخماً مائجاً لا يبدو على سطحه شئ من الزبد لفرط تكاثفه . واشتد ارتفاع الموج حتى كانت الغواصة ترقد على جانبها حيناً . وحيناً آخر تبدو رأسية كالصارى . وهى فى كل حين تمايل وتأرجح بصورة مروعة .

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر انهمرت الأمطار سيولا ، ولكنها لم تخفف من- ثورة الرياح أو هياج البحر . وظلت العاصفة مندفعة بسرعة أربعين ميلا فى الساعة وهى فى مثل هذه الظروف تحطم البيوت وتطير الأسقف والأبواب وتقتلع البوابات الحديدية وتدحرج مدفعا عيار قذيفته ٢٤ رطلا ومع هذا كانت الغواصة بين هذا الإعصار تؤكد قول مهندس خبير إنه لا توجد سفينة محكمة البناء تعجز عن تحدى البحر . لأنها لم تكن مجرد صخرة راسية تستطيع الأمواج اقتلاعها بل كانت بمثابة مغزل حديدى طبع متحرك . بلا أشرعة أو صوار تدمرها العاصفة .

وفى خلال ذلك كنت أتأمل هذه الأمواج الثائرة الفائرة ، كان ارتفاع الموجة لا يقل عن ٤٥ قدماً وطولها عن ٢٥٠ قدماً وسرعتها مثل سرعة الرياح أى ٤٠ قدماً فى الثانية وقد فهمت عندئذ الدور الذى تلعبه الأمواج فهى تأسّر الهواء وتلقى به إلى أعماق البحار محملة بالحياة المتمثلة فى الأوكسيجين . وقد ثبت أن شدة ضغط الأمواج تصل أحيانا إلى ستة آلاف رطل على كل قدم مربع من سطح الماء الذى تصطدم به . وبلغ من قوة الأمواج العالية أنها ابتلعت فى جزائر هبريد صخرة زنتها ٨٤ ألف رطل وفى عاصفة ٢٣ ديسمبر عام ١٨٦٤ قلبت الأمواج جزءاً من مدينة ميدو اليابانية : وكانت تنطلق بسرعة

سبعائة كيلو متراً في الساعة وتكرر في اليوم نفسه على الشواطئ الأمريكية .
 وازداد عنف العاصفة أثناء الليل وهبط البارومتر كثيراً كما حدث في
 إعصار لاريونون عام ١٨٦٠ وشاهدت في مستهل الليل سفينة تمر في الأفق
 وهي تقاوم في استماتة . ولم أشك في أنها إحدى بواخر الخط الملاحي بين نيويورك
 وليفربول أو الهافر . وسرعان ما اختفت في الظلام .

وفي العاشرة مساء كان البحر شعله نار . إذ كان البرق المتواصل يغمر
 الجو بأضوائه الساطعة حتى لم أستطع احتمالها . هذا بينما بدا الريان نيمو الذي
 جعل يحده بنظراته كأنه روح العاصفة .

وملأ الجو دوى رهيب منبعث من الأمواج والرياح والرعد . كانت
 الرياح تندفع إلى كل مكان والإعصار يبدأ من الشرق ليدور ويعود إليه ،
 مجتازاً الشمال والغرب والجنوب مضاداً لاتجاهات عواصف الأجواء الجنوبية .
 يا لتيار الخليج هذا إنه يثبت جدارته باسم « ملك العواصف » فإن هذه
 الأعاصير الهائلة من صنعه : سببها اختلاف الحرارة في طبقات الهواء فوق
 تياراته .

وبعد سيول المطر ، انهمرت سيول النار فقد استحالت قطرات الماء
 إلى وهج خاطف وقد يخيل للناظر أن الريان يلتمس لنفسه موتة جديدة به
 وهو يحاول أن يصعقه البرق . ورأيت الغواصة ترفع مقدمتها في الهواء بحركة
 عنيفة مفاجئة كأنها موصل كهربائي وترسل شرراً . وعند ما برح بي التعب
 زحفت على يدي وقدمي إلى فتحة الغواصة فرفعت عنها الغطاء وهبطت إلى
 الصالون . وكانت العاصفة عندئذ قد بلغت ذروتها فاستحال على الإنسان
 أن يقف متوازناً داخل الغواصة .

وحوالى منتصف الليل أقبل الريان نيمو وسمعت صوت الخزانات تملأ
 بالماء . فأخذت الغواصة تهبط إلى الأعماق ببطء .

ومن خلال نوافذ الصالون رأيت الأسماك الكبيرة المذعورة تنساب
كالأشباح بين المياه النارية وشهدت بعضها يصعقها البرق ...
وتابعت الغواصة هبوطها إلى الأعماق وقد خطر لي أننا سنجد منطقة
حادثة على عمق ستة عشر ياردة ، ولكن لا لقد كان سطح الماء شديد
الاهتياج والعنف ، وهكذا اضطررنا أن نهبط إلى عمق خمسين ياردة لالتماس
منطقة هادئة .

حقاً ما أروع الهدوء والسكون في تلك الأعماق وما أجملها مثابة يسودها
السلام . . . فن ذا يصدق أن هناك على سطح هذا المحيط ذاته عاصفة
رهيبة تهب .

الفصل الرابع والأربعون

فيما بين خط العرض ٢٤ - ٢٧ وخط الطول ١٨ - ١٧

طوّحت بنا العاصفة شرقاً مرة أخرى ، وهكذا تلاشى كل أمل للهرب على شواطئ نيويورك أو خليج سانت لورنس . ومن ثم اعتكف نيد لاند المسكين في مقصورته كالربان نيمو وبقيت مع كونساييل لا يفترق أحدنا عن الآخر .

والتزاماً للدقة أقول إن الغواصة كانت تتجه صوب الشمال الشرقى . وقد ظلت بضعة أيام تبخر كيفما تفق . أحياناً فوق السطح وأحياناً في الأعماق ، ودائماً في خضم طبقات الضباب الكثيف الذي يفزع منه البحارة . فما أكثر الحوادث التي يسببها الضباب . وما أكثر اصطدام السفن بالحواجز المرجانية أو الصخرية عند ما يحجب زئير العاصفة صوت تكسر الأمواج على الصخور وما أكثر اصطدام السفن بعضها ببعض رغم إشارات الضباب وأجراس الإنذار .

كانت قيعان هذه البحار تلبو كمدان معركة تهادى فيه ضحايا المحيط . بعضها قد أصبح قديماً مغلفاً بالصدأ وبعضها ما زال مصفراً يعكس أضواء مصباح الغواصة على الألواح والجوانب الحديدية والنحاسية . وكان بينها سفن غرقت بكل من عليها من بحارة وركاب ومهاجرون عند هذه الرؤوس الصخرية الخطيرة المسجلة على الخرائط . رأس سيرس . وجزيرة سانت بول . ومضيق بيل آيل . ومصب نهر سانت لورنس . وقد أضيف إلى قيمة الحسائر المولمة عدد كبير من ضحايا السفن الغارقة منذ إنشاء خطوط الشركات الملاحة رويال ميل ، وأنان ومونتريال ، وكانت هذه السفن الغارقة مثل سالوى

وايزيس وبارموتا التابعة لدول مختلفة مثل المحر وكندا وإنجلترا وألمانيا وأمريكا ومنها السفينة ليونيز المعدة للمناطق القطبية التي غرقت نتيجة اصطدامها بسفينة أخرى ومنها السفن بنزدنت «وباسفيك» وسيتي أوف جلاسجو» التي غرقت لأسباب غير معروفة . وكانت الغواصة تسير بين هذه البقايا المحزنة كأنها تمر بمعرض للموتى .

وفي اليوم الخامس عشر من شهر مايو كنا في أقصى الطرف الجنوبي لشاطئ نيو فوندلاند . ويتكون هذا الشاطئ من الرواسب المولفة من أكوام كبيرة من مواد عضوية حملها تيار الخليج من المناطق الاستوائية أو التيار المضاد الآتي من المياه بالقطب الشمالي ماراً بالشواطئ الأمريكية وكذلك من الكتل الصخرية التي تدفع بها مياه الثلوج الذائبة . وهذا الشاطئ أيضاً مستودع ضخم للافقرات والحسيات النباتية التي تهلك في أرجائه بالملايين .

ولم يكن البحر شديد العمق عند شاطئ نيو فوندلاند ، إذ لم يكن عمقه يجاوز بضع مئات من اليارات ولكن ثمة منخفض عند الجنوب يبلغ عمقه نحو ثمانية آلاف ياردة وفيه يتسع تيار الخليج فيفقد كثيراً من سرعته وحرارته . ويصبح بجزراً ...

وعلى هذا الشاطئ النيو فوندلاندى العامر بخيرات البحر دائماً ، فوجئت بروية مقادير ضخمة من سمك القد «البكلاه» في المياه المفضلة عند هذا النوع .

ويمكن القول أن القد من أسماك المناطق الجبلية . لأن جزيرة نيو فولاند ما هي إلا جبل غاطس . وبينما كانت الغواصة تخوض بين جماعات هذا السمك الكثيفة قال لي كونسابل :

— أهذه أسماك البكلاه ، ؟ كنت أحسبها مفلطحة كالنعال :

— إنها كذلك عند البقال فقط . أى بعد أن تشق أجسامها وتجنف .

ولكنها في هذه المياه تبدو ملفوفة الأجسام كالبورى وهذا التكوين يتيح لها سرعة الحركة .

- ولكنها هنا بمقادير ضخمة . .
- كان يمكن أن تكون أوفر من هذا لولا أعداء هذا النوع من السمك .
- الإنسان ونمور البحر .
- هل تعرف كم يبلغ عدد البيض في الأنثى الواحدة منه ؟ .
- نعم أعرف . . نصف مليون بيضة .
- لا . . إن عدد البيض في السمكة الواحدة أحد عشر مليوناً .
- أحد عشر مليوناً . . لن أصدق حتى أفحص هذا العدد بنفسى .
- افعل إذا شئت . ولكن أسرع لك أن تصدقنى . وفضلاً عن هذا فإن الصيادين الانجليز والفرنسيين والأمريكيين والدانمركيين والنرويجيين يصيدون هذا النوع بالآلاف ، وهكذا تتعرض كميات كبيرة منه للاستهلاك ولولا خصوبة أنثاه العجيبة نزلت البحار منه تماماً . وفي أمريكا وإنجلترا فقط خمسة آلاف سفينة يعمل عليها ٧٥ ألف بحار تستخدم لصيد هذا السمك . وتصيد كل سفينة نحو أربعين ألف سمكة في العام أى أن مجموع ما يصيده الأسطولان يبلغ ٢٥ مليون سمكة ويصاد مثل هذا القدر من شواطئ النرويج أيضاً .

فقال كونسابل :

- إننى أثق فى إحصائيات سيدى . ولهذا فلن أعد ...
- تعد ماذا ؟
- أعد الأحد عشر مليوناً بيضة . ولكن لى ملاحظة واحدة .
- وماهى ؟
- إذا تم فقس هذا البيض كله فإن أربع سمكات فقط تكفى لإطعام إنجلترا وأمريكا والنرويج .

وقد رأيت بالقرب من شواطئ تيوفوندلاند جبال الصيد المزودة بمئات الخطاطيف التي تعلقها زوارق الصيد بالعشرات وهي تطفو فوق سطح الماء بالعائمات من الزلين . وكان على الغواصة أن تسير في حذر بين هذه الشبكة المائية .

ومهما يكن فإن الغواصة لم تبقى طويلا في تلك المناطق المأهولة وإنما اتجهت شرقاً إلى الدرجة ٤٢ من خط العرض المحاذي لرأس سانت مون. في نيوفوندلاند ورأس هارت كوتننت حيث تزجد إحدى نهاية خطوط الكابلات التلغرافية التي تعبر المحيط .

ولكن الغواصة لم تلبث أن انخرقت شرقاً بدلا من استمرارها في الإبحار شمالا كأنما تتبع الهضبة التلغرافية التي ترقد عليها الكابلات والتي حددت موقعها كثرة قياسات الأعماق التي أجريت عليها .

وفي اليوم السابع عشر من شهر مايو رأيت الكابل التلغرافي راقداً في القاع على عمق ٣٨٠٠ ياردة وعلى بعد خمسمائة ميل تقريباً من رأس هارت كوتننت وقد حسبه كونسابل الذي لم أخبره بشيء عنه ثعباناً بحريا هائلا واستعد لتصنيفه بين الأنواع البحرية بطريقته المعهودة ولكنني هونت عليه الأمر وشرعت أحدثه عن التفاصيل الخاصة بوضع هذه الكابلات في الأعماق .

لقد وضع أول كابل فيما بين عامي ١٨٥٧ - ١٨٥٨ ولكنه توقف عن العمل بعد إرسال نحو أربعمائة برقية . وفي عام ١٨٦٣ أتم المهندسون تصميم وصنع كابل جديد بلغ طوله ألفي ميل ووزنه ٤٥٠٠ طن ونقلته السفينة جريت إيسترن ولكن هذه العملية منيت كذلك بالفشل .

والآن ونحن في الخامس والعشرين من شهر مايو وعلى عمق ٣٨٠ ياردة كنا مع الغواصة نوتيليوس في الموضع الذي حدث فيه تمزق الكابل وفشل العملية . إن هذا الموضع يبعد ٦٣٨ ميلا عن الساحل الإيرلندي وقد شوهد موضع الخلل في تمام الساعة الثانية بعد الظهر وكانت الاتصالات التلغرافية

مع أوروبا قد توقفت ولكن الكهربيين على سطح السفينة جريت إيسترن لم يأسوا وصمموا على قطع طرفي الكابل لرفعه مرة أخرى إلى سطح السفينة واستطاعوا في الساعة الحادية عشر مساءً أن يرفعوا الجزء الممزق منه ، فصنعوا له توصيلة محكمة ثم أعادوه إلى القاع مرة أخرى ولكنه تمزق ثانية بعد أيام قليلة ولم يستطيعوا العثور عليه في أعماق المحيط .

على أن الأمريكيين لم يأسوا . فقد عمد الرجل المكافح بدروس فيلد – صاحب المشروع الذي غامر فيه بكل ثروته إلى القيام باكتتاب جديد وسرعان ما تم صنع كابل آخر وضع في الأعماق في حالة أفضل . فقد غُلِّفت الأسلاك الموصلة بالطبرخي « جوتا بركا » وحفظت في جراب من نسيج القنب المتين المغلف بالمعادن . وقد أبحرت السفينة جريت إيسترن بهذا الكابل الحديد في الثالث عشر من شهر يولية عام ١٨٦٦ .

وسارت العملية كما ينبغي دون أن يعترضها سوى عائق واحد . فقد لاحظ المهندسون مراراً في أثناء إنزال الكابل إلى الماء أن ثمة مسامير دقت فيه حديثاً بغية إفساد الأسلاك بتسرب المياه إليها فعقد الربان اندرسون وضباط السفينة والمهندسون اجتماعاً تبادلوا فيه الرأي ثم أعلنوا أنهم إذا قبضوا على الخاني الأثيم فسيلقون به إلى البحر دون محاكمة . وعندئذ لم تتكرر المحاولة الإجرامية لإفساد الكابل .

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر يولية لم تكن السفينة جريت إيسترن تبعد أكثر من خمسمائة ميل عن جزيرة نيوفوند لاند عند ما وردت عن طريق الكابل الحديد أنباء الهدنة بين بروسيا والنمسا بعد موقعة سادوا . وفي اليوم السابع والعشرين لحت السفينة من خلال الضباب رأس هارت كوتنت . وهكذا كلل هذا المشروع بالنجاح فكانت البرقية التي أرسلتها القارة الأمريكية الشابة إلى أوروبا العجوز تتألف من هذه الكلمات الحكيمة التي قلما يدرك معانيها أحد (المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام والمحبة لجميع البشر).

ولم أكن أتوقع أن أرى الكابل بنفس الحالة الطبيعية التي خرج بها من المصنع فقد كان الثعبان الطويل (مكسوراً بمخلفات البحر والمحار وغيره كما لم يخل من عبث اللافقریات وقرضها له. وكان ملقى في القاع ساكناً بعيداً عن حركة الأمواج وواقعاً تحت ضغط مناسب يسمح بمرور الشرارة الكهربائية التي تنطلق من أمريكا إلى أوروبا في ٣٢ من مائة من الثانية واحتمال هذا الكابل غير محدود . فقد لوحظ أن مادة المطاط (الحوتا باركا) التي تغلف الأسلاك تزداد تحسناً بماء البحر .

ومن حسن الحظ أن الكابل بوضعه على هذه الخضبة البحرية لا يحتاج إلى إنزاله في أعماق بعيدة تؤدي إلى تمزقه وقد تتبعته الغواصة إلى أعماق مكان ، فكان ممدداً بسكون فوق قاع يبلغ عمقه ٤٤٠٠ ياردة وبعد ذلك اقتربنا من المكان الذي وقع فيه حادث التمزق عام ١٨٦٣ .

كان قاع المحيط في هذه المنطقة مكوناً من واد فسيح يمكن أن يستقر فيه جبل مونت بلانك الأوربي دون أن ترتفع قمته فوق سطح الماء وهذا الوادي تسده من ناحية الشرق مرتفعات صخرية يبلغ ارتفاعها ستة آلاف قدم وكان وصولنا إلى هذا المكان في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو بحيث لم يصبح بيننا وبين الشاطئ الإيرلندي سوى مسافة مائة وعشرين ميلاً .

ترى هل كان الربان نيمو ينوي المسير شمالاً ماراً بالشواطئ الإنجليزية ؟ كلا لقد دهشت حين رأيته يعود إلى الجنوب مرة أخرى . شطر البحار الأوربية وعدد ما كانت الغواصة تدور حول جزيرة اميرالد لحت من بعيد منارة رأس كليير ومنارة فاستنت اللتين تسترشد بضوئها آلاف السفن بين جلاسجو وليفربول وعندئذ دار بذهني سؤال هام ؛ وهو : هل تجرؤ الغواصة على دخول مياه بحر المانش ؟ لقد ظل نيد لاند - الذي عاد إلى الظهور منذ اقترابنا من الياسة - يلقي على هذا السؤال مراراً . فكيف كان بوسعي أن أجيبه ؟ لقد ظل الربان نيمو مخفياً عن أنظارنا بعد أن أرانا لحة

من الشواطئ الأمريكية ، فهل يرينا جزءاً من الشواطئ الفرنسية ؟
وتابعت الغواصة اتجاهها إلى الجنوب . وفي اليوم الثلاثين من شهر مايو
رأينا رأس لاندزايند الواقعة بين الطرف الأقصى لإنجلترا وجزر شيللى
التي كانت لدى الجانب الأيمن من الغواصة . وكان على الغواصة أن تتجه
إلى الشرق إذا أرادت دخول بحر المانش ، ولكنها لم تفعل .

وفي خلال اليوم الواحد والثلاثين من شهر مايو قامت بسلسلة من الحركات
الدائرية على سطح الماء أثارت أشد اهتمامي . فقد بدا أنها تبحث عن موضع
ليس من اليسير العثور عليه . وأقبل الربان نيمو وقت الظهيرة ليحدد موضع
الغواصة بنفسه ولم يتحدث إلى بكلمة . وإنما بدا أشد ما يكون اكتئاباً .
تُرى ما السبب في حزنه الشديد هذا ؟ أهو اقترابه من الشواطئ الأوروبية ؟
أهي بعض الذكريات عن بلاده التي هجرها ؟ ترى ما هو الشعور الذي يستبد
به ؟ أهو الأسى أم الندم لقد ظل هذا الخاطر يطوف بذهني طويلاً . وأحسست
في أعماق نفسي بأن الأقدار ستكشف لي أسرار الربان قبل وقت طويل .

وفي اليوم التالي الأول من شهر يونية استمرت الغواصة في مناورتها
الدائرية ؛ وكان الواضح أنها تبحث عن موضع محدد في المحيط ، وقام الربان
نيمو بتحديد مكان الغواصة وقت الظهيرة كما فعل في اليوم السابق . وكان
البحر هادئاً والسماء صافية . وعلى بعد ثمانية أميال إلى الشرق بدت عند الأفق
سفينة تجارية كبيرة ولم يكن ثمة راية ترفرف على ساريتها . فلم أستطع معرفة
جنسيتها .

وقبل أن تجاوز الشمس سمت الظهيرة بلحظات ، تناول الربان آله
الراصدة وأخذ يقوم بملاحظاته في دقة بالغة . وكان هدوء البحر التام يساعده
على القيام بهذه العملية ؛ لأن الغواصة لم تكن تتأرجح أو تميل .

وكنت إذ ذاك فوق السطح ، فلما فرغ الربان من ملاحظاته فاه بهاتين

الكلمتين فقط :

– إنها هنا .

ثم هبط إلى الداخل . تُرى هل رأى السفينة التي استدارت وبدا كأنها تنوى اللحاق بنا . ذلك ما لم يكن لي به عِلْم .

وعدت إلى الصالون حيث كانت الألواح مسدولة على النوافذ البلورية . ولكنني سمعت صوت الماء وهو يتدفق إلى الخزانات وسرعان ما بدأت الغواصة في الهبوط رأسياً إلى الأعماق بينما توقف رفاصها ولم يعد يثير في جوانبها أية حركة .

وبعد لحظات توقفت على عمق ١٨٣٦ ياردة حيث استقرت فوق القاع وعندئذ أطفئت أنوار الصالون ورفعت الألواح عن النوافذ البلورية فاستطعت أن أرى من خلالها مياه البحر مضاءة في محيط نصف ميل بمصباح الغواصة الكهربائي .

ونظرت من نافذة الجانب الأيسر فلم أر شيئاً غير خضم المياه الساكنة . أما في الجانب الأيمن فقد رأيت نوءاً ضخماً استرعى اهتمامي . فقد بدا كأطلال مدفونة تحت طبقة من المحار المائل للبياض وكأنه كساء من الثلج . وبعد أن دقت النظر في الكتلة الضخمة ، أحسست أني أرى منها هيكل سفينة تجردت من ساريتها وهوت رأساً على عقب . ولا شك أن هذه السفينة منيت بالكارثة منذ أمد بعيد . فإن بقاياها كانت مكسوة بطبقة جيرية تكونت عليها وهي راقدة في القاع أعواماً مديدة .

ترى ما هي هذه السفينة . ولماذا هبطت الغواصة لتزور قبرها ، أهي مجرد حطام غارق أثار اهتمام الربان فهبطت بالغواصة إليه .

وبينما كنت في حيرة من هذا سمعت الربان نيمو عن كذب يقول بصوت متشد :

– كانت هذه السفينة تسمى المارسليز يوماً ما . وكانت تحمل أربعة وسبعين مدفعاً . وقد نزلت إلى البحر أول مرة عام ١٧٦٢ . وفي الثالث عشر من أغسطس عام ١٧٧٨ خاضت بقيادة ربانها لابوليت فيرتيرو غمار

معركة مريرة ضد السفينة الحربية بريستون . وفي عام ١٧٧٩ ساعدت الأميرال داستلنج في الاستيلاء على جزر جرانادا . وفي الخامس من شهر سبتمبر عام ١٧٨١ اشتركت في معركة خليج تشيرابيك البحرية وفي عام ١٧٩٤ غيرت فرنسا الجمهورية اسمها . وفي السادس عشر من شهر إبريل من العام نفسه انضمت في ميناء بريست إلى قوة بحرية يقودها فيلاريه – جويس لحماية قافلة من حاملات القمح كانت آتية من أمريكا بقيادة الأميرال فان ستايل . وفي اليوم الحادى أو الثانى عشر من شهر برايريال « الشهر التاسع بتقويم الثورة الفرنسية » من العام الثانى للثورة التحمت بالقوة البحرية للسفن الإنجليزية . واليوم ياسيدى ، هو الثالث عشر من شهر برايريال – الموافق اليوم الأول من شهر يونية عام ١٨٦٨ . لقد مضى على هذا اليوم ٧٤ عاماً وفي هذا الموضع الواقع بين خط العرض ٤ – ٤٧ وخط الطول ١٨ – ١٧ آثرت هذه السفينة بعدمعركة باسلة فقدت فيها صواريخها وجرح ثلث بحارتها أن تغرق ببهارتها الثلاثمائة والستة والخمسين دون أن تقبل الاستسلام . وكان كل من عليها يهتفون وهم يغرقون (تحيا الجمهورية) .

وعندئذ صحت قائلاً :

– إذن فهى السفينة فانجير (المنتقم) .

فغمغم الربان قائلاً وهو يعقد ذراعيه على صدره :

– نعم يا سيدى . . . فانجير . . . وإنه لإسم عظيم .

الفصل الخامس والأربعون

المجزرة

كان هذا المشهد المفاجئ وأسلوب الحديث عنه وسرد تاريخ هذه السفينة الوطنية بلهجة فاترة أولاً . ثم الانفعال الذي اعترى هذا الرجل العجيب وهو يفوه بكلماته الأخيرة فضلاً عن اسم هذه السفينة ودلالته التي لم تكن تخفى على . كل ذلك قد أثار خيالي إلى حد بعيد . لقد رحلت أشخص إليه طويلاً وهو باسط ذراعيه نحو البحر ويرنو بعينين كلهما الإعجاب إلى الحطام المحيد .

وقد يُحتمل ألا أعرف قط من يكون هذا الرجل ومن أين جاء ، وإلى أين يمضي . ولكنني ألفيته ينسلخ شيئاً فشيئاً من شخصية العالم الباحث وأحسست أن اجتماع الربان ورفاقه في هذه الغواصة لم يكن وليد مجافاة للمجتمع . . بل هي نزعة من نوازع الكراهية بشعة أو متسامية لم يستطع الزمن أن يخفف من حدتها .

تري أما تزال تلك الكراهية تزكي نزعة الانتقام في قلبه ، إن المستقبل كفيل بالحواب .

وفي خلال هذا كانت الغواصة ترتفع ببطء إلى سطح الماء وأخذ حطام السفينة فانجبر يختفي عن ناظري تدريجياً . ولم ألبث أن أدركت من تأرجح صغير أننا قد وصلنا إلى سطح البحر والهواء الطلق :

وفي تلك اللحظة سمعنا صوت انفجار مكتوم فنظرت إلى الربان فإذا هو لم يتحرك فقلت :

— كابتن نيمو .

ولما لم يجبني انصرفت عنه إلى سطح الغواصة حيث رأيت كونساييل
ونيد لاند قد سبقاني إليه فسألتهما قائلاً :

– ما هذا الصوت ؟

فقال نيد لاند :

– إنها طلقة مدفع .

فنظرت في اتجاه السفينة التي لحتها من قبل فإذا هي تقترب من الغواصة
بسرعة متزايدة بحيث لم يبق بيننا وبينها غير ستة أميال .

وقلت لنيد لاند :

– ما نوع هذه السفينة ؟

– يبدو من أذغالها وصواريخها القصيرة أنها فرقاطة حربية ... ليها تأتي
وتغرقنا إذا لزم الأمر مع هذه الغواصة اللعينة .

فقال كونساييل :

– بأى ضرر يمكن أن تصيب هذه الغواصة يا صديقي نيد لاند ؟...

هل يمكنها مهاجمتها تحت سطح الماء ؟ هل يمكنها أن تقتصفها بالمدافع وهي في
أعماق البحر ؟

وقلت له بلورى :

– أيمكن أن تخبرني بجنسية هذه السفينة يا صديقي نيد لاند ؟

فزوى نيد لاند ما بين حاجبيه وحدث بقوة إلى السفينة ثم قال :

– لا أستطيع يا سيدى أن أعرف إلى أية دولة تنتمى هذه السفينة .

فإن أعلامها غير مرفوعة ولكنى أذكر أنها سفينة حربية لأنى أرى علما مستطيلا
يرفرف وراء صارمها الكبير .

وقضينا ربع ساعة نتطلع إلى هذه السفينة التي جعلت وجهتها إلينا .

وكنت أعتقد أنها لم تكن قد رأت الغواصة بعد من تلك المسافة ، وبالأحرى لم تعرف بعد كتبها .

وسرعان ما أعلن نيد لاند أن السفينة بارجة حربية ذات سطحين ودروع من الصلب ، وكان الدخان الكثيف ينساب من مدخنتها . ولم تكن صواريخها القصيرة تبدو بوضوح بين دروعها وأبراجها . ولم يكن ثمة أعلام ترفرف عليها . وكانت المسافة بيننا لا تتيح لنا رؤية لون رايتها القصيرة التي كانت ترفرف وراء الصاري القصير كشريط ضيق .

وجعلت تقرب منا بسرعة بالغة . ولو تركها الريان نيمو تزيد اقتراباً فربما تهيأت لنا فرصة الهرب .
وقال نيد لاند :

— سيدى . إذا مرت هذه السفينة على بعد ميل واحد منا فسألنى بنفسى فى البحر لأسبح إليها وأنصحك أن تحذو حذوى .

فلم أجب بشيء على اقتراح نيد لاند بل عدت بنظرى إلى السفينة التي كانت تزداد اقتراباً ، ولم يكن لدى شك فى أنها ستنقذنا إذا نحن القينا بأنفسنا فى الماء سواء كانت إنجليزية أو فرنسية أو أمريكية أو روسية .
فقال كونسابل :

— أرجو أن يتذكر سيدى أن لى خبرة بالسباحة ، فإذا عمل بنصيحة نيد لاند فأرجو أن يسمح لى بمعاونته فى الوصول إلى هذه السفينة .
وقبل أن أجيب انبعث دخان أبيض من مقدمة السفينة ولم تمض لحظات حتى ارتفع الماء خلف الغواصة كأنما ألقى إليه بجرم ثقيل . وعلى الأثر سمعنا دوى القذيفة .

— عجباً : . إنهم يطلقون المدافع علينا .
وقال نيد لاند :

– إنهم أذكياء لم يصدقوا أننا بحارة نجوا من سفينة غارقة وتعلقوا بصوف خشبي .

وقال كونسایل وهو ينفض عن نفسه الماء الذي تناثر عليه بعد طلقة ثانية :
– إذا سمح لي سيدي أن أدلى برأى . فإني أوافق نيد لاند وأستميح سيدي القول إنهم يحسبون الغواصة نوعاً من الكركدن البحري ولهذا يطلقون عليه المدافع الآن . .
فهتفت قائلاً :

– ولكن عليهم أن يدركوا أنهم يهاجمون رجالاً من بني البشر .
فقال نيد لاند وهو ينظر إلى :

– لعل هذا هو فعلاً سبب هجومهم علينا .

وسطعت الحقيقة في ذهني . لاشك أنهم يعرفون الآن ما هو ذلك الوحش البحري المزعوم . ولا شك أن الربان فارجوت قد أدرك أن النوتليوس ليست إلا غواصة ، وأنها كانت أشد خطراً من أي وحش بحري عند ما اصطدمت بسفينته الحربية إبراهيم لنكولن .

نعم لا ريب أن الأمر كذلك ... ولا ريب أنهم يطاردون هذه الأداة الرهيبة للدمار في كل البحار

وهي رهيبة إذا صح أن الربان نيمو يستغلها في أعمال انتقامية . ألم يكن يهاجم إحدى السفن في تلك الليلة حين أغلق علينا باب الزنزانة الحديدية في المحيط الهندي . وذلك الرجل الذي دفناه في المقبرة المرجانية بقاع المحيط . ألم يكن ضحية اصطدام الغواصة بالسفينة المجهولة ؟ أجل أكرر القول إن هذه الغواصة لا بد أن تكون أداة للانتقام ؛ وهكذا انكشفت لي جوانب خفية من حياة الربان نيمو . وإذا ظلت شخصيته يحوطها الغموض والحفاء فبوسع اللول أن تتكلم ضده على الأقل وهي الآن لا تطارد شخصية خرافية وإنما تطارد رجلاً طوى حياته على الكراهية المريرة .

لقد بدا الماضى الرهيب كله أمام عيني : فبدلاً من أن نلتقى بأصدقاء في السفينة المقتربة سنواجه أعداء لا يرحمون . وفي خلال هذه كانت قذائف المدافع تتكاثر حولنا وكان بعضها حين تلتقى بسطح الماء يتواثب مسافات بعيدة ولكن لم تصل واحدة منها إلى الغواصة .

وصارت المدرعة على بعد لا يزيد عن ثلاثة أميال . ورغم قذائفها المتوالية علينا ، فإن الربان نيمو لم يصعد إلى السطح . ومع ذلك لو أن قذيفة منها أصابت هيكل الغواصة لإصابة مباشرة لكبات القاضية .
وعندئذ قال لي نيد لاند :

— ينبغي يا سيدى أن نحاول شيئاً للنجاة من هذا الخطر . هيا نشير لهم فلعلهم يدركون أننا رجال شرفاء .

وتناول منديله ليلوح به في افواء ، ولكنه ما كاد يبسطه حتى أمسكت به قبضة حديدية ، وسقط رغم قوته الشديدة على سطح الغواصة وإذا الربان نيمو يقول له صائحاً :

— أيها الشقي. أتريد أن أشدك إلى مقدمة الغواصة الحديدية قبل أن أضرب بها هذه السفينة ؟

كان الربان نيمو رهيباً لسامعه، وأشد رهبة لمن ينظره . لقد اشتد شحوب وجهه بسبب انتفاضات قلبه الذى لاشك أنه توقف برهة . وضاعت جدقاته إلى حد مروع . ولم يكن يتحدث بل كان يزأر وهو منحني فوق نيد لاند . هز كتفيه بقوة وعنف .

وتركه أخيراً واستدار نحو المدرعة التى كانت قذائفها تنهمر حول الغواصة .

ثم قال بصوت رهيب :

— آه . . . أتعرفين من تهاجين يا سفينة الدولة الملعونة ؟ لست بحاجة إلى رؤية أعلامك ومعرفة جنسيتك انظري . سأجعلك ترين أعلامي ...

ونشر الربان نيمو علماً أسود في مقدمة الغواصة كالعلم الذي رفعه فوق
القطب الجنوبي •

وفي تلك اللحظة أصابت إحدى القذائف سطح الغواصة أفقياً وتأرجحت
قرب الربان نيمو ثم سقطت في البحر .

وهز الربان كتفيه وقال لي بصوت جاف :

– اهبط إلى داخل الغواصة . . أنت وصاحبك .

فصحت قائلاً :

– سيدى ... هل تنوى مهاجمة هذه السفينة ؟

– إننى سأغرقها يا سيدى .

– لن تفعل هذا .

– بل سأفعله . لا تجعل من نفسك قاضياً على يا سيدى . لقد أراك القدر

ما لم يكن ينبغى أن تراه ، لقد بدأت الهجوم علينا وسيكون الرد عنيفاً رهيباً .
اهبطوا إلى الداخل .

– ما جنسية هذه السفينة ؟

– ألا تعرف . حسناً هذا أفضل كثيراً ، إن جنسيتها ستبقى خافية عليك

على الأقل .. اهبطوا إلى الداخل .

ولم يسعنا إلا أن نطيع أمره ، وكان خمسة عشر من بحارة الغواصة قد
وقفوا حول الربان نيمو وأخذوا ينظرون إلى السفينة المقترية منهم نظرات
مفعمة بالكراهية وأحسنا أن هذا الشعور مشترك بينهم جميعها . وهبطت
إلى الداخل عند ما أصابت قذيفة أخرى سطح الغواصة ، وسمعت الربان وهو
يهتف قائلاً :

– اضربى أيها السفينة المجنونة .. انثرى قذائفك التافهة . فلن تهربى من ضربة

الغواصة لك . . ولكن ليس هذا هو المكان الذى سيكون فيه غرقك . فإنى
لن أسمح لحطامك أن يختلط بحطام السفينة فانجبر .

وقصدت إلى غرفتي . بينما بقي الربان والضابط على سطح الغواصة .
وعاد الرفاص إلى العمل وابتعدت الغواصة بسرعة عن مرمى مدافع السفينة .
ولكن المطاردة استمرت . وقنع الربان بحفظ هذه المسافة بينه وبين السفينة
المطاردة .

وفي نحو الساعة الرابعة بعد الظهر لم أستطع مغالبة شعور القلق واللهفة
الذي استبدني ، فعدت إلى السلم المركزي . ولما رأيت غطاء منفذ السطح مرفوعاً
غامرت بالصعود ، فرأيت الربان ما زال يذرع السطح جيئة وذهاباً وهر
مهتاج وقد اتجه بنظره إلى السفينة التي كانت على مسافة خمسة أو ستة أميال
في الجانب الأيسر ؛ فخطر لي أنه ربما كان متردداً في مهاجمتها .
ومرة أخرى رغبت في التدخل ولكني ما كدت أهم بالكلام حتى
ألزمني الصمت قائلاً :

– إنني هنا أمثل الحق والعدل . أنا المظلوم . . . وهذه رمز الظلم . .
فبواسطتها فقدت كل شيء في الحياة كنت أحبه وأعتز به وأقدس . . فقدت
الوطن . . والزوجة . . والأبناء ، ، والأب . . . والأم . . فقدتهم جميعاً . .
وأمامي الآن رمز كراهيتي . . فاصمت .

فألقيت نظرة أخيرة على المدرعة التي زادت من سرعتها . ثم عدت إلى
نيد لاند وكونسابل وقلت لهما بحماس . . .

– يجب أن نهرب .

فقال نيد لاند :

– حسناً وما جنسية السفينة ؟

– لا أعرف . . ولكن أياً كانت جنسيتها فإنها ستغرق قبل حلول الليل .
ومهما يكن فخير لنا أن نموت من أن نشترك في قصاص لا ندرى مداه من
الحق . .

فقال نيد لاند ببرود . .

– وهذا هو رأيي أيضاً... يجب أن نتنظر حتى المساء .

وأقبل الليل ، وخيم الصمت على الغواصة . وعلمت من البوصلة أن الغواصة لم تغير اتجاهها . وكنت أسمع رفاصها وهو يضرب الأمواج بانتظام وظلت الغواصة فوق سطح الماء وهن تتأرجح قليلا من جانب إلى آخر .

وكنت وزميلاي قد قررنا الهرب عند ما تغدو السفينة قريبة منا بحيث يستطيع بحارتها أن يرونا أو يسمعوننا لأن القمر الذي سيكتمل بعد ثلاثة أيام كان يضيء الماء بسطوع . وإذا استطعنا الوصول إلى سطح السفينة فسنحاول بذلك ما تتيحه لنا الظروف لإنفاذها إن عجزنا عن تجنيبها الضربة التي تهددها . وقد ظننت أكثر من مرة أن الغواصة تستعد للهجوم ولكنها كانت تستدرج السفينة للاقتراب . ثم لا تلبث أن تبتعد سريعا .

وانصرم جانب من الليل دون أقل حادث . وكنا نتحين الفرصة للعمل ولم يطل حديثنا لفراط انفعالنا . وقد أراد نيد لاند أن يلقي بنفسه في البحر ولكن استطعت حمله على الانتظار ، فقد قدرت أن الغواصة ستهاجم المدرعة على سطح الماء وعندئذ لا يكون هربنا ممكناً فقط بل وسهلاً كذلك .

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل دفعني القلق إلى سطح الغواصة حيث رأيت الربان في مكانه ... كان واقفاً عن كذب من علمه الذي كان النسيم الرقيق يحركه فوق رأسه . ولم يكن يحول عينيه عن السفينة .

وبدا كأن نظراته المسلطة عليها تجذبها وتستهويها وتشدها إليه بأسرع ما يمكن وأقوى مما لو كانت مشلوبة بالحبال .

وكان القمر عندئذ ينحدر نحو المغرب . ونجم المشتري يبرز من الشرق وكان الهدوء يخيم على الماء والسماء ، والبحر يهيج (الملكة الليل) أصنى مرآة يمكن أن تعكس فيها صورتها .

وعند ما ذهبت أقارن بين سكون العناصر الطبيعية وبين الغضب المتأجج في جوانب الغواصة لم أتمالك أن أحسست برعدة تسرى في كياني .

وظلت المسافة بيننا وبين السفينة نحو ميلين دون تغيير ، وما برحت السفينة تقرب منا مسترشدة بالضوء الفسفوري المنبعث من الغواصة . وكان في مقدورى أن أرى الأضواء الخضراء والحمر والمصابيح البيضاء المعلقة في ساريتها الكبير . وقد كشف لنا انعكاس يسير في جوانبها عن مدى تأجج النيران داخل أفرانها . وكان الشرر وألسنة اللهب تثبثق من مداخنها وتملأ الجو حولها وميضاً .

وبقيت هكذا حتى السادسة صباحاً دون أن يبدو على الربان نيمو أنه يرانى ، وغدت السفينة على بعد ميل ونصف . وقد بدأت مع شروق الشمس في ضربنا بالمدافع مرة أخرى . وأيقنت أن اللحظة قد حانت – عند هجوم الغواصة على السفينة – لكى نفرق إلى الأبد عن هذا الرجل الذى لم أجسر قط أن أحكم عليه أو أدينه .

وعند ما هممت بالهبوط إلى داخل الغواصة لأخبر زميلى بالأمر صعد الضابط إلى السطح يصحبه عدد كبير من البحارة . ولم يرهم الربان أو لعله أبى أن يراهم . وقد اتخذوا بعض إجراءات يمكن القول أنها استعداداً للمعركة . ولم تكن سوى إجراءات جد يسيرة : فقد طوى السياج الحديدى المحيط بالسطح . وأدخلت مقصورة الكشاف الكهربائى ومقصورة عجلة القيادة إلى فجوتها حتى صارت فى مستوى واحد على السطح وحتى لم يبق شيء يعوق هيكل الغواصة الانسيابى المستطيل الشبيه بالسيجار الضخم . عن الحركة والمقاومة .

وعدت إلى الصالون . وظلت الغواصة طافية فوق الماء . وبزغت خيوط الصباح من مرقدها المائى وكانت الأمواج المتأرجحة تعكس على نوافذ الصالون البللورية وهجاً أحمر للشمس المشرقة فى ذلك اليوم الرهيب الثانى من شهر يونية .

وفى الساعة الخامسة صباحاً ، أبان جهاز السرعة أن الغواصة بدأت تخفف من انطلاقها فأدركت أنها تترك للسفينة المهاجمة فرصة الاقتراب . وفضلاً عن

هذا فقد بدا قصف المدافع يسمع بوضوح تام ؛ وكانت القذائف التي تخرث سطح الماء حول الغواصة تنطق "مقرنة بفحيح غريب .

وقلت لندلاند وكونسايل :

— حان الوقت يا صاحباي ... خطوة واحدة والله معنا . .

وبدا نيد لاند قوي التصميم . وكونسايل هادئاً ، أما أنا فقد كنت لفرط الانفعال لا أكاد أسيطر على نفسي .

وذهبنا معاً إلى غرفة المكتبة . وفيما نحن نفتح الباب المؤدى إلى ردهة السلم المركزي سمعت صوت غطاء المنفذ العلوى وهو يغلق بقوة .

ووثب نيد لاند إلى السلم ولكنى أمسكت به . فقد أدركت من صوت الخريز المعروف . أنهم يملأون الخزانات بالماء وما هي إلا لحظات حتى هبطت الغواصة بضع ياردات تحت سطح الماء .

وعرفت عندئذ هدف الغواصة . كما أدركت أن الوقت قد فات للقيام بأى عمل من جانبنا . فإن الغواصة لا تنوى ضرب المدرعة في جوانبها المحصنة بالصلب بل تحت علامة الماء حيث لا يوجد هذا الوقاء الحصين .

مرة أخرى أصبحنا سجناء . . نشهد برغمنا هذه المأساة الرهيبة التي توشك أن تتم . ولم يكن لدينا وقت للتفكير والتأمل . فذهبنا إلى غرفتي نحتمي بها ونحن نتبادل النظر دون أن يفوه أحدهنا بكلمة . وانتابني ذهول عميق استحوذ على عقلى . وخيل إلى أن تفكيرى بطل وانعدم وصرت في شر حال من الترقب المؤلم الذى يسبق الانفجار الرهيب . . وجعلت أنتظر وأرهف السمع حتى لكأننى استحللت إلى آذان ٥

وفي تلك الفترة زادت سرعة الغواصة زيادة واضحة وبدأ لى أنها تتحفز للانقضاض . إذ كان هيكلها يهتز بقوة اندفاعها ٥

وفجأة بلرت منى صيحة . . فقد أحسست بالاصطدام ولكنه كان اصطداماً خفيفاً نسبياً كما شعرت بلدغ الغواصة الحاد فى مقدمتها وهو ينفذ

في هيكل السفينة . . نعم . . وسمعت صوت الاحتكاك والاصطدام والنفاذ ..
فقد اندفعت الغواصة بكل قوتها ونفذت في قلب السفينة الضخمة كما تنفذ
الإبرة في قلع المركب .

ولم أستطع أن أحتمل أكثر من هذا ، فاندفعت إلى الصالون كالمجنون
حيث رأيت الربان نيمو واقفاً في هدوء وصمت وثبات ينظر من خلف
إحدى النوافذ البلورية .

وكان ثمة جرم ضخيم يغوص في الماء . . وإمعاناً في رؤية عذاب السفينة
الغارقة ، جعلت الغواصة تغوص معها وقد رأيت على بعد ثلاثين قدماً هيكل
السفينة المحطم والماء يندفع فيه هادراً كقصف الرعد ، ثم رأيت صف المدافع
المزدوج ثم الجانب المدرع ثم السطح المغطى بظلال سوداء متحركة .

وأخذت المياه ترتفع بسرعة ... ورأيت بحارة المدرعة التعساء وهم يهرعون
هنا وهناك كالفيران ويتعلقون بالصواري والحبال أو يسبحون في الماء مغالين
الغرق . . وكان مشهدهم كمشهد قرية من النمل اجتاحتها ماء البحر .

وأحسست بشعر رأسي يقف وأنا واقف مشلول الحركة جامد من فرط الألم
والضنى أنظر بعينين جاحظتين وأنفاس لاهثة وصوت مختنق وكأنما تشلني
إلى النافذة قوة غلابة .

وجعلت السفينة الضخمة تفرق ببطء والغواصة تتبعها وترقب كل
حركاتها .

وفجأة وقع انفجار رهيب أطار الهواء المضغوط على سطح السفينة
كأنما اشتعلت النيران في مخازن ذخيرتها . وبلغ اضطراب الماء حولها أن
الغواصة أخذت تأرجح بقوة :

ثم شرعت المدرعة المنكودة تغوص بسرعة فظهرت لنا سطوحها العالية
المثقلة بالضحايا ثم أدفأها التي تنوء بالرجال ثم قمة صاريها الكبير .. وأخيراً

اختفت السفينة بكل من عليها من البحارة الأحياء والقتلى الذين جذبتهم إلى الأعماق تلك اللوامة الرهيبة التي أثارها غرق السفينة .

واستدرت إلى الربان نيمو فإذا هذا المنتقم الرهيب : نموذج الحقد المحبم ما زال في مكانه يتفرج . ولما انتهى كل شيء يم شطر غرفته ففتحتها ودخل وأنا أتبعه بنظرائي . وهناك رأيت من مكاني تحت مجموعة اللوحات المصورة صورة سيدة شابة وطفلين ، وقد تطلعت الربان إلى الصورة برهة ثم نحوها ثم ركع وانفجر باكاً .

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامه

الفصل السادس والأربعون

كلمات الربان نيمو الأخيرة

وأغلقت النوافذ البللورية على هذا المشهد الرهيب ولكن الصالون بقي مظلماً . كما خيم الظلام والسكون في أرجاء الغواصة التي أخذت تبتعد عن هذا المكان الموحش بسرعة بالغة وهي على عمق مائة قدم تحت سطح الماء . نرى إلى أين هي ذاهبة إلى الشمال أو الجنوب؟ ما هي وجهة هذا الرجل بعد ذلك الانتقام المروع .

وعدت إلى غرفتي حيث وقف نيد لاند وكونسايل صامتين . لقد ساورني فزع شديد من ذلك الربان ... إذ مهما تكن الآلام التي كابدها . فهو غير محق في الانتقام على هذه الصورة . وهو إذا لم يجعلني شريكاً فيما حدث فقد جعلني على الأقل شاهداً على انتقامه . وهذا أكثر مما يجب .

وفي الساعة الحادية عشرة سطع الضوء الكهربائي مرة أخرى فقصدت إلى الصالون ونظرت إلى مختلف الأجهزة حيث علمت أن الغواصة تندفع نحو الشمال بسرعة خمسة وعشرين ميلاً في الساعة : أحياناً فوق سطح الماء وأحياناً على عمق ثلاثين قدماً .

ولما نظرت إلى مكاننا على الخريطة رأيت أننا نجتاز مدخل بحر المانش في طريقنا إلى البحار الشمالية بسرعة بالغة .

وبسبب هذه السرعة كان يتعذر على أن أرى سمك الكلب بخيشومه الطويل وسمك المطرقة والروجيت الذي يكثر في تلك المياه . وسمك نسو والبحر وفرسان البحر والشعابين المائية التي كانت تتلوى كأنها حيات : وحشود سرطانات البحر والتي كانت تندفع في خطوط متعرجة وقد عقدت مخالبها

على صدقاتها . وأخيراً جموع سمك الرنجة الذى كان يسابق الغواصة بسرعة . وهكذا لم يكن ثمة فرصة للملاحظة والدراسة والتصنيف .

وفى المساء قطعنا المائتى فرسخ الباقية من المحيط الأطلسى وهبط الليل وانتشر الظلام فوق الماء ريثما يبرغ القمر .

وقصدت إلى غرفتى ولكنى لم أستطع النوم إذ وقعت فى قبضة كابوس ثقيل . فإن مشهد الدمار الفظيع أخذ يتعاقب فى ذهنى .

من يدرى بعد اليوم إلى أين ستمضى بنا الغواصة فى حوض الاطلنطى الشمالى هذا . إنها تسير بسرعة متغيرة . بين غلاثل من الضباب المتصل . ترى هل وصلت فى انطلاقها إلى قرب ميناء سبتزبرجن أو بلغت شواطئ نوفازمبلا . هل كنا فى الطريق إلى ارتياد البحر الأبيض « القطبى » أو بحر كارا . أو خليج أوبى أو أرخبيل لياردف أو شاطئ آسيا المجهول . لا أدرى . بل لم أكن أدرى كيف كان الوقت يمر . فقد ثوقت الساعات داخل الغواصة . وبدا كأن الليل والنهار لا يتعاقبان بنظامهما المعتاد ، كما هو الحال فى الأصقاع القطبية . لقد شعرت كأنى مسوق إلى منطقة العجائب التى طالما صال فيها خيال الكاتب إدجارىو . وكذلك كنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن أبصر كما حدث لجوردن بايم بطل قصة بو « ذلك الوجه الإنسانى المقنع الذى يبدو أكبر حجماً من وجوه سكان الأرض وقد اندفع عبر الشلال الذى يحمى مداخل القطب الشمالى . . . » .

وقد قدرت – وربما كنت مخطئاً – أن الغواصة استمرت فى طريقها المحفوف بالمخاطر نحو أسبوعين أو عشرين يوماً . وما كان لى أن أعلم إلى أى مدى هى ذاهبة لولا الكارثة التى وضعت حداً لرحلتها . ولم يظهر لنا الربان يمو لحظة واحدة خلال هذه الرحلة ولا الضابط ولا أحد من البحارة وتابعت الغواصة طريقها تحت سطح الماء باستمرار . وإذا صعدت إلى السطح

لتجديد الهواء كنت أرى المنافذ تفتح وتغلق آلباً . ولم يعد أحد يرصد مكاننا من العالم ، وهكذا لم أستطع أن أعرف أين نحن .
ويجب أن أقول أيضاً أن نيد لاند لم يكن يظهر كذلك لفرط شعوره بالضيق ونفاد الصبر وعبثاً . حاول كونسایل أن يستدرجه إلى الحديث وهو يخشى أن يقتل المسكين نفسه في نوبة جنون مفاجئ ولذلك راح يراقبه في إخلاص واهتمام .

ومفهوم أن الموقف في ظروف كهذه لا يمكن أن يحدث طويلاً . وهكذا حدث صباح يوم لا أعرف تاريخه أن استيقظت عند الفجر بعد نوم مضطرب فرأيت نيد لاند ينحني فوقى وهو يهمس قائلاً :
- إننا سنهرب .

فانتصبت جالساً وقلت :

- متى ؟

- الليلة . . يبدو أن الرقابة قد اختفت من الغواصة . وأن نوعاً من السبات العميق يخيم في جوانبها فهل تستعد يا سيدى ؟
- نعم . . وأين نحن الآن من العالم ؟

- على مرأى من اليابسة التي رأيتها منذ لحظات من خلال الضباب ؟ ؟ ؟
على بعد عشرين ميلاً نحو الشرق .

- وأية أرض هذه ؟

- لا أدرى . . ولكن مهما تكن فسنلجأ إلى حماها .

- نعم يا نيد . . نعم . . فسنهرب الليلة حتى لو ابتلعنا البحر ؟

- إن البحر هائج والرياح عاصفة . . ولكن قطع عشرين ميلاً في زورق الغواصة الخفيف ليس بالأمر الخيف ، لقد وضعت فيه بعض المؤن وزجاجات الماء دون علم البحارة .

– سأمضى معك . .

فأردف الكندي قائلاً :

– إذا وقعت في قبضتهم سأدافع عن نفسي حتى الموت .

– سنموت معاً يا صديقي نيد لاند .

وقررت أن أواجه كل احتمال في هذا السبيل. ولما تركني نيد لاند انتقلت إلى سطح الغواصة حيث لم أكد أحتمل ثورة الأمواج؛ وكانت السماء مكفهرة ولكن ما دامت الأرض تقع وراء أستار هذا الضباب . فلا بد معه من الهرب بل يجب ألا نضيع يوماً أو ساعة .

وهبطت إلى الصالون وأنا أشعر بالرغبة في مقابلة الربان نيمو والخوف معه في هذه المقابلة في وقت واحد . ترى ماذا يمكن أن أقول له ؟ هل أستطيع أن أخفي عنه شعور الفزع الغريزي الذي أثاره في نفسي ؟ . كلا . من الحر ألا أجد نفسي أمامه وجهاً لوجه ! من الخير أن أنساه . . . ومع هذا . . .

ما أطول ذلك اليوم الأخير الذي كان عليّ أن أقضيه في الغواصة . لقد بقيت وحدي كما حرص نيد لاند وكونسايل على اجتنابي لتلايكشفا السر بالحدِيث معي .

وفي الساعة السادسة مساء تناولت طعام العشاء بلا شهية ولكني أرغمت نفسي على الأكل رغم نفوري منه حتى أحفظ بقواي كاملة

وأقبل نيد لاند إلى غرفتي في منتصف السابعة مساء وقال لي :

– لن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى قبل الهرب . إن القمر لن يبرغ حتى العاشرة مساء وسوف نستغل فرصة الظلام . . . فتعال إلى الزورق حيث أكون أنا وكونسايل في انتظارك .

وانصرف على الأثر قبل أن يدع لي فرصة الرد .

وأردت أن أعرف اتجاه الغواصة فذهبت إلى الصالون ورأيت أنها تتجه نحو الشمال الشرقي بسرعة مخيفة وعلى عمق خمسين ياردة .

وراحت أجيل النظر للمرة الأخيرة في مجموعات العجائب الطبيعية والكنوز الفنية التي ضمها ذلك المتحف : تلك المجموعات النادرة التي قضى عليها أن تضيق في أعماق الماء مع الرجل الذي جمعها . وبدأ لي أن أطبع دقائقها في مخيلتي ، فلبثت ساعة على هذه الحال أستوعب تلك الكنوز المتألقة في خزائنها الزجاجية يغمرنى الضوء المنبعث من السقف وأخيراً قفلت عائداً إلى غرفتي .
وهناك ارتديت ملابس البحر المتينة وجمعت مذكراتي وشددتها حول وسطى بعناية وكان قلبي يخفق بقوة حتى لم أستطع تهدئة دقاته . ولو أن الربان نيمو رآني لفضح انفعالي الشديد أمرى .

ترى ماذا عساه يفعل في تلك اللحظة ؟ لقد أرهفت السمع وراء باب غرفته فسمعت وقع أقدام . إذن فالربان في الغرفة . إنه لم يأو إلى فراشه هدوم مع كل حركة منه كنت أتوقع أن أراه يبرز أمامي ويسألني لماذا أريد الهرب . ولذلك لزممت أشد الحذر . وكان خيالي يجسم في نظري كل شيء وقد بلغ من وطأة هذا الشعور أنني سألت نفسي أليس من الأفضل أن أدخل غرفته وأقف أمامه وجهاً لوجه وأتحداه بالنظر والإيماءة .

هذه نزوة مجنون لا شك . ولحسن الحظ استطعت أن أتمالك نفسي . ورددت في فراشي تسكيناً لاضطراب جسمي ثم هدأت أعصابي وريداً . ولكنني جعلت أستعيد في ذهني المضطرب كافة التفاصيل التي اقترنت بفترة وجودي في الغواصة كافة الأحداث السعيدة والمخزنة التي مرت بي منذ اختفائي عن سطح السفينة الحربية لإبراهام لنكولن : تذكرت جولات الغواصة تحت سطح الماء ومضايق تورييز وسكان جزائر بابو الهمج ، وجنوح الغواصة ، والمدافن المرجانية ، ونفق خليج السويس وجزيرة سانتورين والغواص الكريتي ، وخليج فيجو ، وقارة الاطلانتيس ، وشاطئ الحليد والقطب الجنوبي ، وحصار الثلوج لنا ومعركة الأخطبوطات ،

وعاصفة تيار الخليج ، والسفينة الباسلة فانجبر والمشهد الرهيب لغرق المدرعة
بيحارتها جميعاً . . . تواردت كل هذه الأحداث في ذهني كأنها مشاهد على
خشبة المسرح ومن بين هذه الذكريات العجيبة بدا لي الربان نيمو محفوفاً
بأشد الغرابة والغموض بحيث لم يعد في نظري إنساناً من بني البشر . بل
مارد البحر :

وبلغت الساعة التاسعة والنصف وأنا على هذه الحال حتى لم أتمالك أن
وضعت رأسي بين كفي لثلاث تنفجر ، وأغمضت عيني ووصمت أن أكف
عن كل تفكير . فقد كان علي أن أنتظر نصف ساعة أخرى . وإن فترة
أخرى تحت وطأة هذا الكابوس المروع قمينة بأن تفقدني الصواب .

وفي تلك اللحظة سرى إلى سمعي عن بُعد عزف الأرغن . . . كانت
نغمات حزينة لأغنية كلها الشجن . . . نغمات كأنها أنات روح تريد أن تحطم
قيودها الأرضية . وأرهفت السمع بكل حواسي وقد كتمت أنفاسي
وشعرت - كالربان نيمو - بهذا اللون من الاستغراق الموسيقي الذي يرتفع
بالإنسان فوق حدود هذا العالم .

ثم خطرت ببالي فكرة أفرعتني ؛ وهي أن الربان قد غادر غرفته وجلس
في الصالون الذي كان علي أن أجتازه في طريق الهرب . وهناك سألتني به
للمرة الأخيرة . . . سيراني وقد يتحدث إلى . وأن إجماعة منه قد يكون فيها
نهايتي وكلمة واحدة يفوه بها تقيديني إلى الغواصة .

وأوشكت الساعة أن تدق العاشرة ، أي حانت اللحظة التي أترك فيها
غرفتي للانضمام إلى زميلي^٥

ولم أتردد في مغادرة الغرفة حتى لو اعترض الربان نيمو سبيلي . ففتحت
الباب بحدري . رغم ذلك أحسست كأنني أصدرت صوتاً رهيباً . واكن لعل
هذا الصوت لم يصدر إلا في خيالي .

وتحسست طريقى إلى وسط الغواصة : وكنت أتوقف بعد كل خطوة لأهدئ من ضربات قلبي .

ووصلت إلى باب الصالون وفتحته في رفق : وكان الصالون مطبق الظلام وكانت نغمات الأرغن تنساب خافتة . : ومعنى هذا أن الربان نيمو مازال موجوداً به ؛ ولكنه لم يرني وأعتقد أنه ما كان يستطيع رؤيتي حتى لو كان الضوء ساطعاً في الصالون ، إذ كان مستغرقاً في نشوته الموسيقية .

وسرت فوق السجادة بخفة متحاشياً الاصطدام بشيء حتى لا يفضح وجودى أدنى صوت . واستغرقت خمس دقائق في الوصول إلى باب المكتبة وبينما كنت أهم بفتحه جمدت في مكاني حين سمعت الربان نيمو يتنهد . فقد أدركت أنه نهض من مكانه . . بل لقد رأيته فعلاً في الضوء اليسير المنبعث من غرفة المكتبة إلى الصالون . وراح يقترّب من مكاني عاقداً ذراعيه على صدره صامتاً ، يمشى كأنه شبح وكان صدره المحزون يرتفع ويهبط بنحيب مكتوم وسمعته يغمغم بهذه الكلمات . . وهي آخر كلمات سمعتها منه .
- كفى . . كفى يا إلهي العظيم .

أكانت كلمات ندم تفلت من ضمير ذلك الرجل ؟
واندفعت في يأس إلى غرفة المكتبة وانجهدت إلى السلم المركزي وانحرقت إلى مكان القارب حيث سبقني زميلاي وهتفت قائلاً :

- هيا بنا . . هيا بنا . .

وأجاب نيد لاند قائلاً :

- فوراً . . .

وأغلقتنا المنفذ المؤدى إلى القارب بفتح كان نيد لاند قد تزود به كما أغلقتنا المنفذ العلوى أيضاً ثم بدأ نيد لاند يفك الأربطة الحديدية التي تشد القارب إلى الغواصة .

وفجأة سمعنا صوتاً داخل الغواصة . . بل أصوات يجيب بعضها على

ماذا حدث؟ هل اكتشفوا أمر فرارنا؟ وشعرت بنيد لاند وهو يمسك
بمخنجر حاد .

فقلت له :

– نعم : سنعرف كيف نموت .

وتوقف نيد لاند عن عمله ثم انبعثت كلمة واحدة تكررت عشرين مرة ..
كلمة رهيبه كشفت عن سبب الاهتياج الذى حدث داخل الغواصة .. وكان
البحارة هم الذين راحوا يكررونها فى فزع هاتفين :

– الملسطروم . : : . الملسطروم . : : :

الملسطروم . : . لأنها أرهب كلمة يمكن أن تسمعها أذن فى أرهب موقف
كموقفنا . . إذن فقد كنا فى أخطر منطقة من الساحل الترويجى ... ترى هل
تجذب الغواصة إلى تلك الدوامة الرهيبه فى نفس اللحظة التى نستعد فيها
للهرب بالزورق ؟

كان المعروف جيداً أنه فى وقت المد تندفع المياه المحصورة بين جزيرتى
فارو ولوفدن بقوة هائلة مكونة دوامة مائيه لا يمكن أن تنجو منها سفينة مهما
تكن قوتها . فقد كانت الأمواج العنيفه فى تلك المنطقه تندفع من كل مكان
وتكوّن الخليج المعروف باسم « سره المحيط » والذى تمتد قوة جاذبيته مسافه
عشره أميال . وهو لا يجذب إلى أعماقه السفن وحدها بل يجذب كذلك
الحيتان والدببة الآتية من المناطق القطبية الشماليه .

إلى هذه المنطقه كانت الغواصة تندفع شاء ربانها أو أبى . وكانت فى
انطلاقها تنساق بطريقه حلزونية كانت مجالاتها تضيق تدريجياً وكذلك كان
الزورق المشلود إليها يندفع بسرعة تصيب الرأس باللوار . لقد انتابنى ذلك
الشعور السقيم الذى يشعر به المرء حين يركب عجله سريعه الدوران . واشتد
بنا الفزع واضطراب الأعصاب حتى غمرنا عرق بارد كالذى يكسو الإنسان

في لحظة الموت . وما أفظع ذلك الصوت الذي كان يحيط بزورقنا الخفيف :
وما أشد ذلك الهدير الذي كان صدها يتردد من مسافة بضعة أميال . وما
أرهب ذلك الدوى الذي كان يصدر عن تكسر الأمواج على الصخور الحادة
في القاع حيث تتحطم أصلب الأجسام ، وحيث تتآكل جنوع الشجر ،
وتتحول إلى فراء كما يقول أهل النزويج .

وباله من موقف ، لقد كان يقذف بنا بعنف داخل الغواصة . وكانت
الغواصة تدافع عن كيانها كأنها كائن آدمي : فكانت (عضلاتها) الحديدية
تصلصل وكانت تنصب أحياناً واقفة ونحن معها .

وقال نيد لاند :

– يجب أن نتماسك ونعمل على شد أربطة الزورق مرة أخرى إلى
الغواصة إننا قد ننجو إذا بقينا فيها ..

لكن ما كاد يتم عبارته حتى حدثت قرقرة شديدة . فقد انفلتت الأربطة
الحديدية وإذا الزورق الذي انفصل عن فجوته في جانب الغواصة يطير
كحجر من (مقلاع) إلى وسط الدوامة .

واصطدمت رأسى بهيكله الحديدى فغبت عن صوابى بقوة الصدمة :

الفصل السابع والأربعون

الخاتمة

وهكذا انتهت هذه الرحلة تحت سطح البحر . . أما ماذا حدث في تلك الليلة وكيف نجا الزورق من الدوامات العاتية في هاوية (الملسطروم) وكيف خرجت مع كونساييل ونيد لاند من الخليج فهذا ما لا أعرف عنه شيئاً . ولكنني عندما أفقت من غشيتي ألفتني راقداً في كوخ صياد بجزائر لوفدن . وجلس زميلاي يقربني سالمين آمنين يضغطان على يدي فجعلنا نتصافح بحرارة .

ولم نستطع إذ ذاك أن نفكر في العودة إلى فرنسا ووسائل المواصلات بين شمال النرويج وجنوبه لم تكن ميسورة . ولهذا اضطرت إلى انتظار السفينة التجارية التي تصل رأس نورت مرتين في الشهر .

وكذلك أقمت في ضيافة هؤلاء القوم الأوفياء عاكفاً على مراجعة مادونته عن هذه المغامرات وقد وجدته مطابقاً للأصل .. لم أغفل حقيقة واحدة ، ولم أبالغ في شيء من التفاصيل . . إنها قصة واقعية عن رحلة عجيبة في ذلك العالم الذي لا يزال مغلقاً في وجه الإنسان . ولكن المدينة ستفتح الطريق إليه يوماً . .

ترى هل يصدقني أحد؟ لا أدري ، مهما يكن من شيء فإن ذلك لن يعنيني كثيراً . إن ما أستطيع أن أوكله هو حقي في الحديث عن البحار التي عشت في أعماقها أقل من عشرة شهور - حيث قطعت عشوين ألف فرسخ في رحلة مائة حول العالم أماطب الكثير من عجائب المحيط الهادى والمحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر الأبيض والمحيط الأطلسي والمناطق القطبية الجنوبية والشمالية .

ولكن ما ذا كان مصير الغواصة نوتيلوس . هل قاومت دوامات
الملسطوم ؟ أما زال الربان نيمو على قيد الحياة ؟ أما زال ماضياً في قصاصه
المروع تحت سطح المحيط أم كانت نهايته لدى ذلك القبر المائى الرهيب ؟
ومخطوطاته التى تتضمن تاريخ حياته كلها ، هل تقذف الأمواج بها ذات
يوم ؟ هل يقدر لى أخيراً أن أعرف اسم الرجل كاملاً ؟ والمدرعة التى غرقت
هل تكشف لنا جنسيتها عن جنسية الربان نيمو ؟

ذلك ما أرجو أن يتحقق كله كما أرجو أن تكون غواصته القوية قد
تغلبت على دوامات ذلك الخليج الرهيب . ونجت من كارثة أودت بكثير
من السفن قبلها . فإذا صح هذا أى إذا كان الربان نيمو ما برح يتخذ من
المحيط وطنه المختار ، فعسى أن تكون الكراهية قد زالت من قلبه الوحشى ...
وعسى أن يكون التأمل فى مثل هذه العجائب الكثيرة قد أطفأ شهوة الانتقام
فى نفسه ... وعسى أن تختفى منه شخصية القاضى لتبرز شخصيته كعالم يواصل
بحوثه العلمية فى أعماق البحر . وإذا كانت حياته عجيبة فهى أيضاً رفيعة
الشأن . ألم ألابس هذا بنفسى ؟ ألم أعش عشرة أشهر من هذه الحياة الخارجة
عن مألوف الطبيعة ؟ هناك رجلان فقط يحق لهما الجواب على السؤال الذى
ورد فى سفر الأخبار منذ ستة آلاف سنة « من ذا عنده العلم بذلك الذى هو
بعيد قصى وعميق سحيق »

هذان الرجلان هما : الربان نيمو وصاحب هذه السطور . . .

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

صدر من كتب العلوم الإنسانية

في مجموعة الألف كتاب

(اجتماع ، اقتصاد ، تربية ، علم نفس ، تاريخ وتراجم ، جغرافية ، رحلات ، دين ، سياسة ، فلسفة ، قانون ، معارف عامة)

- ١ - تفسير القرآن
- ٢ - حضارة الإسلام تأليف جوستاف جروندياوم
- ٣ - الفكر الخوالد » مولاي محمد علي
- ٤ - اتجاهات الفلسفة المعاصرة » أميل برهيه
- ٥ - البوليس والكشف عن الجريمة اليوم » ريجنالد موريش
- ٦ - سكتلنديارد » سير هارولد سكوت
- ٧ - الحياة العامة اليونانية » ا . ا زميرن
- ٨ - فلسفة الخير » لويس دكنسن
- ٩ - رجال ذلوا الصحراء » رتشي كولدر
- ١٠ - حركات الشباب » للصاغ الدكتور محمد فتحي
- ١١ - بلاد ما بين النهرين » ل . ديلا بورت
- ١٢ - بسمرك » لدفيج
- ١٣ - آثار حضارة الفراعنة » محرم كمال
- ١٤ - الحياة الناجحة » أوستاس تشسر
- ١٥ - كيف تقرأ الجريدة » ادجار ديل
- ١٦ - الحياة اليومية في مصر القديمة » ألن شورتر
- ١٧ - الديانات في أفريقيا السوداء » ه . ديشان
- ١٨ - الطفل من الخامسة إلى العاشرة : تأليف أرنولد جزل

- ١٩- علم نفسك الاقتصاد تأليف س . ايڤلين توماس
- ٢٠- تاريخ الملاحة ا . تومازى
- ٢١- تاريخ العالم من ١٩١٤ - ١٩٥٠ » دافيد تومسون
- ٢٢- التاريخ الجغرافى للقرآن » السيد مظفر الدين
- ٢٣- نحو مجتمع أفضل » برتراند رسل
- ٢٤- الأحلام والجنس » فرويد
- ٢٥- تاريخ طابع البريد » يوجان فاييه
- ٢٦- تاريخ الحيوش جورج كاستلان
- ٢٧- مصر القديمة » چان فركوتيه
- ٢٨- صحوة أفريقيا » بازيل دافيدسن
- ٢٩- الحريرة » جورج فيل
- ٣٠- الحرب بين الماضى والحاضر ... » الأمير الاى محمد عبدالفتاح
- ٣١- الانقلاب الصناعى ت . س . اشن
- ٣٢- الحضارة العربية ي . هيل
- ٣٣- مدخل علم الآثار ... » السير ليونارد وولى
- ٣٤- الجغرافيا والسيادة العالمية جيمس فيرجريف
- ٣٥- الرحالة العرب » الدكتور نقولا زيادة
- ٣٦- طبقات المجتمع » اندريه جوسان
- ٣٧- بذور الشر » ايفان هنتر
- ٣٨- الأراضي البكر فى العالم كميل
- ٣٩- قصة التجارة الدولية فيلبس
- ٤٠- تاريخ الصحافة أميل بوفان
- ٤١- الاستعمار فى الخليج الفارسى الدكتور صلاح العقاد

بيان
الكتب التي قامت
لجنة التأليف والترجمة والنشر
بطبعتها ضمن الألف كتاب

كتب صدرت

١ - الطفل من الخامسة إلى العاشرة :-

ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد
ومراجعة الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني

٢ - علم نفسك الاقتصاد :

ترجمة الأستاذ محمد عبد الباري
ومراجعة الدكتور عبد العزيز مرعي

٣ - الدولة العربية - تاريخها إلى نهاية للدول الأموية :

ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده

٤ - تاريخ الفلسفة في الإسلام :

ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده

٥ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري :

ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

قاهرة
طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٨



Exclusive
For

www.ibtesama.com